أسس الاشتراكية العلمية

المادية الديالكتيكية

تأليف

جماعة من الأساتذة السوفييت

نقله عن الروسية

فؤاد مرعي
مجاز في الآداب الروسية

بدر الدين السباعي
دكتور في الحقوق والاقتصاد

عدنان جاموس
مجاز في الآداب الروسية

اصدار

دار الجماهير

أسس الاشتراكية العلمية

المادية الدياليكتيكية

تأليف

جماعة من الأساتذة السوفييت

نقله عن الروسية

فؤاد مرعي
مجاز في الآداب الروسية

بدر الدين السباعي
دكتور في الحقوق والاقتصاد

عدنان جاموس
مجاز في الآداب الروسية

اصدار

دار الجماهير

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي بل من نسخ آخرين، وقد وجده الصوت الشيوعي خلال بحثه في الإنترنت. وقد قامت مكتبة الشيوعيين العرب بتطهيره من كل الفقرات والمقاطع المتضمنة لأفكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة. وقد انجزنا ذلك من خلال:

1) مسح وإزالة لهذه الفقرات والمقاطع، حيث تظهر على شكل مساحات فارغة في مواقع متفرقة من الكتاب؛
2) حذف الصفحة الورقية رقم (255) بالكامل؛

هذا وقد قمنا بتصحيح خطأ مطبعي في الصفحة الورقية رقم (286)، يؤدي الى تغير المعنى. ففي بداية السطر رقم (13) – قبل مسح النصوص التحريفية من اعلى هذه الصفحة – يرد "وللتناقضات غير التناحرية"، في حين ان الصحيح هو "وللتناقضات التناحرية".

اذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

تحذير من مكتبة الشيوعيين العرب!

ونود أن نلفت انتباه القراء الأعزاء الى ان هذا الكتاب بالذات يشتمل، وبصورة صارخة اكثر من غيره، على افكار ومفاهيم متخلفة علمياً تمثل ظاهرة الجمود العقائدي السرطانية المتفشية في الحركة الشيوعية الثورية والتي كانت من أهم الأسباب التي أدت الى صعود التحريفية ... . لا بل ان الكتاب يصل الى مستوى من الإنحطاط عندكما يتهجم، في الصفحة الورقية رقم (335)، على الجهود الجبارة التي يبذلها علماء الفلك للكشف عن أصل الكون، حيث يصل الى مستوى التلفيق على العلم عندما يدعي بأن العلم يدعم فكرة لانهائية الكون – أي عدم وجود بداية او نهاية للزمان والمكان!! ونذكر، حول هذه النقطة بالذات، ان العلم في وقت تأليف هذا الكتاب كان يقول بوجود بداية ونهاية لكل من الزمان والمكان، حيث كان يلوذ بنظرية الكون المتذبذب لأن معطيات العلم كانت تدعم ذلك. أما في أيامنا هذه، فقد أثبت العلم وجود بداية للزمان والمكان، ويرجح عدم وجود نهاية للكون حيث يرجح ان كوننا سيبقى في حالة تمدد لا نهائي ... .

لا بل ان الكتاب، في الصفحة الورقية (335) بالذات، يصف معطيات فيزياء الكم وحقائقها بانها "في مصلحة رجال اللاهوت"!!! وهنا نود ان نبين للقراء الأعزاء بأن معطيات علم فيزياء الكم هي التي نحرت – وبسكين أعمى، ومن دبرٍ – نظرية اللاهوت، حيث ان الظواهر الكمومية وقوانين الكم هي الأساس لنظرية العلم الحالية عن "التخلق الذاتي التلقائي للكون – او الأكوان بالأصح – من لا شيء بالمعنى المطلق لكلمة "لا شيء" – راجع كتاب "كون من لا سيء" للعلامة العظيم "لورانس كراوس"، الذي ألفه بالإستناد الى الأدلة التجريبية حصراً دون اللجوء الى التنظير التخيلي.

وهنا من الملائم ان نبين ان هذه الأفكار المعادية للعلم ما كانت لتظهر لدى المنظرين الشيوعيين لولا جمودهم العقائدي عند الفكرة الخاطئة في نظرية المعرفة الماركسية القائلة بأن الممارسة العملية هي المقياس الوحيد للحقيقة. فالممارسة العملية لا تعتبر دليل على صحة النظرية إلا اذا كانت مطابقة للنظرية بصورة تامة. اما ادعاء نظرية المعرفة الماركسية الكلاسيكية بأن مجرد تحقيق النظرية لتقدم في الممارسة العملية – حتى ان لم يكن مطابق للنظرية المختبرة بصورة تامة – فهي خاطئة وغير صحيحية بالمرة! فكيف نفسر نجاح النازية في الوصول الى الحكم والانتصارات التي حققتها في المراحل الاولى من الحرب العالمية الثانية؟! أفليس هذا بعض تقدم حققته النازية؟ وما هو حكم نظرية المعرفة الماركسية

الكلاسيكية على "الماركسية – اللينينية" والنظرية الشيوعية نفسها بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط المعسكر الاشتراكي السابق؟؟!!! ألم تنهار ثورة أكتوبر العمالية الاشتراكية الأعظم في نهاية الأمر؟! ألم يفشل البناء الاشتراكي العالمي في جميع الأقطار الاشتراكية (ما عدا كوريا الشمالية)؟! بموجب نظرية المعرفة الماركسية الكلاسيكية، التي تعتبر الممارسة العملية المقياس الوحيد للحقيقة، علينا ان نعتبر الأفكار الاشتراكية والشيوعية خاطئة جملة وتفصيلاً!!!

ان التقييم الصحيح للحقيقة ولكون النظرية صحيحة أم خاطئة يتأتى من أمرين:

1) الممارسة العملية (في حال تطابقها مع النظرية بصورة تامة، يتحقق الدليل التجريبي على صحة النظرية)؛
2) التحليل النظري العقلي المبني على المنطق والديالكتيك أيضاً.

لكننا ابقينا على الفقرات والنصوص المتضمنة لهذه الأفكار الخاطئة (وغيرها من الأخطاء، كقانون "نفي النفي" المزعزم الذي اطاح به ستالين في مؤلفه الخالد "المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية"، ...)، ابقينا عليها ولم نزلها لغرضين:

1) للتعرف على تاريخ تطور النظرية والأفكار الشيوعية؛
2) لكي نبين مستوى والإنحطاط والغباء الذي يمكن أن ينحدر اليه الانسان إن هو قدم المبادئ والأفكار الحزبية على العلم بدلاً من أن يشتق هذه المبادئ والأفكار من العلم ويبنيها عليه ... .

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

المؤلفون

- ف. كونستانتينوف : عضو مراسل في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- ف. بيرستنيف : دكتور في العلوم الفلسفية
- غ. غليزيرمان : دكتور في العلوم الفلسفية
- م. دينيك : عضو مراسل في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- م. كاماري : عضو مراسل في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- ي. كوزنيتسوف : دكتور في العلوم الفلسفية
- ب. كوبنين : دكتور في العلوم الفلسفية
- م. روزنيتال : دكتور في العلوم الفلسفية
- ا. شيشكين : دكتور في العلوم الفلسفية
- ل. فيدوسييف : اكاديمي في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- يو. فرانتسيف : عضو مراسل في اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي

ترجم

فؤاد مرعي : الفصل الاول والثاني

بدر الدين السباعي : من الفصل الثالث وحتى الفصل التاسع

عدنان جاموس : الفصل التاسع

تدقيق

عدنان جاموس

" الفصل الأول "

" موضوع الفلسفة "

الماركسية نظرية كاملة منسجمة تتألف من ثلاثة أجزاء مكوّنة : الفلسفة والاقتصاد السياسي ونظرية الشيوعية العلمية. وهذه الاجزاء المكونة للماركسية مرتبطة ، داخلياً ، بعضها ببعض ، ارتباطاً وثيقاً . والمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية هما الأساس النظري الفلسفي العام للماركسية ولاقتصادها السياسي وشيوعيتها العلمية واستراتيجية وتاكتيك الاحزاب الماركسية . ولا يمكن أن تُفهم الماركسية اللينينية فهماً عميقاً بدون تفهم الفلسفة الماركسية. ان ما يعترف به حتى أعداء ماركس من انسجام الماركسية داخلياً وتكاملها ومنطقها الحديدي وعلميتها ، هو نتيجة تطبيق طريقة واحدة ووجهة نظر واحدة في الأجزاء المكونة كلها . ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ـ هما النظرية الفلسفية للطبقة العاملة الثورية وأحزابها الماركسية .

ما الذي تدرسه الفلسفة الماركسية وما هو موضوعها ؟ وما هي علاقة الفلسفة الماركسية بالعلوم الأخرى وبمختلف أشكال الوعي الاجتماعي ؟ من السهل الاجابة على هذه الاسئلة لدى معالجتها تاريخياً . ان الفلسفة الماركسية نتيجة مقنونة لكل التطور الذي سبقها في الفكر الفلسفي والعلمي التقدمي للانسانية ؛ وهي تعتمد على مكتسبات ذلك الفكر . وهي، في الوقت ذاته، مرحلة جديدة نوعياً وأكثر رقياً في تطور الفلسفة . لذا فمن الضروري أولا أن نحدد أية مسائل عالجت الفلسفة التي سبقت الماركسية وكيف حلتها ؟ وبعد ذلك يتضح لنا ما يميز الفلسفة الماركسية عن التيارات الفلسفية الاخرى كلها ولماذا كان ظهور المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية انقلاباً ثورياً في مجال الفلسفة.

١ ـ سؤال الفلسفة الأساسي • المادية والمثالية هما الاتجاهان الاساسيان في الفلسفة

ان تعبير « فلسفة » يتكون من كلمتين يونانيتين : « فيليو » ـ أحبُّ و « سوفيا » ـ الحكمة ، أي حب الحكمة• ولكن المعنى الحرفي لكلمة«فلسفة» لا يكفي لتحديد موضوع ومحتوى ومهام الفلسفة• ولا يمكن أن يعطى التعريف الصحيح للفلسفة إلا بمعرفة خصائصها بالمقارنة مع العلوم الاخرى وأشكال الوعي الاجتماعي الاخرى التي تطورت الفلسفة بالتفاعل معها •

وصفة الفلسفة الأساسية هي في كونها ، منذ نشأتها ، نظرة كاملة ، إلى هذا الحد أو ذاك ، أي انها مجموعة من النظرات الشاملة إلى العالم والطبيعة والمجتمع والانسان •

تتكون لدى كل انسان هذه النظرة أو تلك • غير انها يمكن أن تكون غير متعمدة وإنما تتكون تحت تأثير ظروف حياته ، وفي أحيان غير قليلة تتكون من مقتطفات مختلفة من آراء ونظرات متناقضة إلى العالم • والفلسفة ليست مجرد مجموعة من الآراء والتصورات عن العالم ، وإنما هي منظومة لها ، وهي نتيجة لتطبيق وجهة نظر محددة تطبيقاً واعياً على الواقع المحيط، ومجموعة من المبادىء • وهذه المبادىء تعبر عن ايديولوجية هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك وظروف حياتها ومصالحها •

كانت الفلسفة ، في مختلف مراحل تطورها ، تدرس مسائل متنوعة • وكانت تحتوي في المراحل الأولى كثيراً من المسائل التي أصبحت فيما بعد مواضيع للعلوم المتخصصة • ولكن مهما تبدل مفهوم موضوع الفلسفة فان مسائلها الرئيسية كانت دائماً المسائل الجذرية للنظرة إلى العالم ، وكانت تجيب على مسائل طبيعة العالم المحيط ، وهل هو موجود وجوداً أزلياً أم نشأ بهذه الطريقة أو تلك ، وأي مكان يشغل الانسان في العالم، وما هو وعينا، وما علاقته بالعالم المحيط بنا ، وهكذا دواليك •

والسؤال الأساسي في النظرة إلى العالم هو حول علاقة الفكر ، الوعي، بالوجود ، الروح بالطبيعة • وما هو الأسبق ، الأول : الطبيعة (الوجود ،المادة) أم الروح (العقل ، الوعي ، الفكرة) ؟ وبكلمات أخرى ، ما الذي كان أولاً : المادة قبل الوعي ، أم بالعكس : الوعي قبل المادة ؟ هل الوجود ، المادة ، تحدد الفكر ، الوعي ، أم بالعكس ؟

ان كل الظواهر التي نعالجها إما أن تكون مادية أي خارجة عن وعينا (الاشياء وعمليات العالم الخارجي) ، واما روحية فكرية أي لا توجد إلا في وعينا (المشاعر والأفكار والتفكير وغيرها) • مادي وروحي ـ هذان هما المفهومان الواسعان للغاية ، اللذان يشملان كل ما هو موجود في العالم • ولذا فمهما كانت النظرة إلى العالم فهي ستنطلق حتماً من هذا الجواب أو ذاك على مسألة العلاقة بين ما هو مادي وما هو روحي • لقد كانت هذه المسألة وما زالت المسألة الرئيسية في صياغة النظرة الفلسفية إلى العالم • وهذا الجواب أو ذاك على هذه المسألة يحدد ، قبل أي شيء آخر ، النظرة الفلسفية إلى العالم •

وتبعاً لحل المسألة الاساسية تنقسم النظريات الفلسفية إلى اتجاهين أساسين : المادية والمثالية • والفلاسفة الذين يعترفون بأولوية المادة يدعون بالماديين ، وهم يعتبرون أن العالم الذي يحيط بنا لم يخلقه أحد وأن الطبيعة موجودة أزلياً • ويفسر الماديون العالم منطلقين منه ذاته دون اللجوء إلى الاعتماد على قوى خارقة للطبيعة يُزعم وجودها خارج العالم• هكذا كان ينظر الى العالم الفيلسوفان الاغريقيان ديموقريط وابيقور ، والماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر لاميتري ، وغولباخ ، وديدرو ، والمادي الالماني الذي سبق ماركس وانجلز ، لودفيغ فيورباخ وغيرهم • ويقابل الماديين المثاليون الذين اعتبروا أن الفكر أو « الروح » هو الاسبق • وهم يؤكدون ان الروح والوعي كانا موجودين قبل الطبيعة وغير مرتبطين بها • وقد تبنى هذه النظرة الفيلسوف الاغريقي أفلاطون والفيلسوف الانكليزي بيركلي الذي عاش في القرن الثامن عشر والفيلسوف الالماني هيجل الذي عاش في الربع الأول من القرن التاسع عشر •

ان أية نظرة إلى العالم ، منسجمة إلى هذا الحد أو ذاك ، يجب أن تنطلق من الاعتراف بأولوية احدى البدايتين ـ المادة أو الروح • وتدعى هذه النظرة نظرة احادية • حقا ، ظهر في التاريخ فلاسفة اعترفوا بالبدايتين وباستقلال كل منهما عن الأخرى • ويسمى هؤلاء الفلاسفة بالثنائيين • ان الثنائية التي تعترف بالمادة والروح كبدايتين مستقلتين لا تستطيع اقامة علاقة بينهما • ولـذا فان الثنائي ، لدى تفسير ظواهر العالم ، يتخبط حتماً في تناقضات لا يمكن لمنظومته حلها ، ويقف اما إلى جانب المادية واما إلى جانب المثالية• والثنائية ليست بالنسبة الى المادية والمثالية حلاً جديداً ، مبدئياً ، لقضية الفلسفة الأساسية ، وانما هي تعبير عن عدم الانسجام الفلسفي •

ان مسألة العلاقة بين التفكير والوجود هي المسألة الاساسية لكل وجهة نظر فلسفية • لأن حلها يحدد الاجابات على المسائل الأخرى التي تدرسـها الفلسفة • وهكذا فانطلاقاً من حل مسألة أولويـة الروح أو الطبيعة أجاب الفلاسفة اجابات مختلفة حول المسائل التالية : هل العالم موجود أزلياً أم ان له بداية في الزمن ؟ وهل هو غير محدود أم انه محدود في المكان وغير ذلك ؟

ويرتبط بالاعتراف بأولوية المادة أو الوعي حل مسألة وجود وطبيعة قنونة[1] ظواهر العالم • فيعتبر الماديون ان العالم موجود بغض النظر عن وعي الانسان • فاذا كان الأمر كذلك ، فان العـلاقات بين مختلف ظواهر العـالم ليست من وضع وعي الانسان وانما هي موجودة موضوعياً أي مستقلة عن الوعي• ولذا فان الماديين يعترفون بالقوانين الموضوعية التي تخضع لها كل الظواهـر والعمليات في العالم المحيط بنا •

ويحل المثاليون هذه المسألة حلاً مختلفاً • فبعضهم (ما يسمون بالمثاليين الذاتيين) يعترفون بأولية الوعي الانساني • وهم يزعمون أن الانسان يعالج مباشرة ظواهر وعيه واحساساته وتصوراته ومفاهيمه وما شابه ذلك ، ولا يحق له أن يسمح بوجود أي شيء خارج الوعي• ان المثالية الذاتية، اذ تنفي وجود العالم الموضوعي وتعتبر الاشياء نتاجاً للاحساسات والافكار، تنفي أيضاً القنونات

(١) قنونة ظواهر العالم : تعبير يقصد به القوانين والصلات القانونية التي تخضع لها ظواهر العالم (المعرب) •

الموضوعية للعالم • ومن وجهة نظر المثاليين الذاتيين لا تعبر قوانين الطبيعة والمجتمع وأسباب الظواهر والعمليات ، التي اكتشفها العلم إلا عن الانسجام الذي اعتدنا أن نراه في الظواهر • ولكن ليس لهذا الانسجام، على حد زعمهم، أية قوة ضرورية • والاتجاه الآخر في المثالية ــ المثالية الموضوعية ــ يعترف بأولوية الروح ، والفكرة الموجودين ، على حد زعمه ، خارج الانسان ومستقلين عنه • ويعترف المثاليون الموضوعيون بنظام محدد في الطبيعة وبقنونة الظواهر • ولكنهم يبحثون عن مصدر هذه القنونة ، لا في الطبيعة ذاتها ولا في العلاقات الطبيعية بين الأسباب والنتائج ، وانما في « العقل الشامل » وفي « الفكرة المطلقة » و « الارادة المطلقة » • وليس من الصعب أن نرى أن الفكرة المطلقة والعقل الشامل أو الارادة الشاملة ليست سوى أسماء أخرى للاله الذي خلق العالم ووضع له غايات محددة •

وأية مسألة فلسفية نأخذها ــ سواء أزلية العالم أو وحدته أو قانونية الظواهر وغيرها ، فان معالجة هذه المسائل مرتبطة ، على هذا النحو أو ذاك ، بحل المسألة الأساسية في الفلسفة • فهنا يمر الحد الفاصل بين اتجاهين أساسيين في الفلسفة ــ المادية والمثالية • ويمكن أن يبدو من النظرة الاولى ان مسألة الفلسفة الاساسية تقف ، نظراً لشمولها ، بعيداً عن الحياة وعن نشاط الناس العملي • ولكن هذا التصور خاطىء • فمن حل هذه المسألة تنتج نتائج اجتماعية معينة : هذا الموقف أو ذاك يقفه الانسان من الواقع ومن الحياة الاجتماعية والمهام التاريخية ومن المبادىء الأخلاقية وغير ذلك •

فاذا اعترفنا ، مثلاً ، مع المثاليين بأولوية الوعي ، الروح ، فان مصدر الكوارث الاجتماعية التي يعاني منها الشغيلة بشدة في المجتمعات الطبقية ، وخاصة في ظل الرأسمالية (استغلال وفقر جماهير الشغيلة والحروب المدمرة وغير ذلك •) ، يجب أن نبحث عنه لا في ظروف حياة الناس المادية ولا في نظام المجتمع الاقتصادي ولا في البنية الطبقية وانما في ظروف الحياة الروحية وفي ضلال الناس وفي عيوبهم الاخلاقية • ومثل هذه النظرة لا تمكن من تحديد الطرق الحقيقية لتغيير الحياة الاجتماعية • ولا تستطيع أن تدل الشغيلة على

سبل حل مسائل العصر الاساسية : تأمين السلام ودرء واجتثاث الحروب العالمية من حياة المجتمع ، والقضاء النهائي على الاستعمار والاضطهاد القومي والطبقي .

ان النظرة المثالية إلى العالم تدعم ، على هذا النحو أو ذاك ، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، اللاهوت المرتبط بالأوهام . واللاهوت في المجتمع الطبقي يلعب دوراً محدداً تماماً . إنه يخدم كسلاح فكري في استغلال الجماهير . ان اللاهوت الذي يدعو إلى الايمان بما وراء الطبيعة يوحي للشغيلة بفكرة تفاهة الحياة الدنيا وعدم جدوى نضالهم من أجل التحرر من الظلم الطبقي ، ويجعل السلبية والخضوع وروح الاستسلام للظلم الاجتماعي على الارض تدب فيهم واعداً بالثواب في السماء .

ان المثالية واللاهوت يلتقيان في ما هو رئيسي ، في حل المسألة الاساسية في النظرة إلى العالم . ان كل لاهوت هو قائم على الايمان بقوى خارقة للطبيعة توجه العالم . وهذا أيضاً ما تقوله المثالية من أنه توجد قوة غير مادية في أساس كل شيء وهي تخلق العالم . حقاً ، ان الفلاسفة المثاليين، خلافاً للاهوت ، لا يسمون دائماً ، البداية الروحية التي تخلق العالم ، على حد زعمهم ، خالقاً . غير ان هذا لا يبدل شيئاً . فحتى في تلك الاحوال التي ينكرون فيها الايمان البدائي الساذج بما وراء الطبيعة كوجود ذاتي قادر على كل شيء ، تؤدي تعاليمهم حتماً ، وفي نهاية المطاف ، إلى البابوية وتدعيم اللاهوت .

وهذا ، لايعني طبعاً ، ان من السهل مطابقة الفلسفة المثالية واللاهوت . فاللاهوت ليس شكلا من أشكال معرفة الواقع ... انه يستبدل الايمان الاعمى بالمعرفة، ويبعد المرء عن المعرفة إلى مجال الاختلاقات الاسطورية، ويعطي تفسيراً مشوهاً مقلوباً للواقع . والفلسفة المثالية نظرية كاذبة أيضاً ولكن بعض النظم المثالية كانت تحتوي على بذرة عقلانية لمعرفة العالم . لقد دفع الفلاسفة المثاليون العظام إلى أمام معرفة بعض جوانب الواقع رغم انهم جميعاً فهموا العالم فهماً مثالياً مقلوباً وحيد الجانب . فهيجل ، مثلا ، صاغ في فلسفته فكرة التطور الديالكتيكي . ولكن تكوّنه المثالي جعله يتصور هذا التطور مقلوباً ويعده مظهراً للتطور الذاتي « للفكرة المطلقة » المختلقة .

ان للفلسفة جذوراً اجتماعية ومعرفية • واذا كانت الطبقات التقدمية ، عادة ، قد دافعت عن الفلسفة المادية ، فان الطبقات الرجعية ، عادة ، دافعت عن مختلف أشكال المثالية •

والجذور المعرفية والنظرية للمثالية هي في المعالجة الوحيدة الجانب للمعرفة، وفي تضخيم أحد جوانب عملية المعرفة ذات الجوانب المعقدة المتعددة وجعله أمراً مطلقاً • ففي عملية معرفة الواقع ، مثلا ، ينشىء الناس تعميمات ، مفاهيم عامة ولنقل مثلاً مفهوم ـ « البيت » • ان مفهوم « بيت » قد صيغ عن طريق تجريد علائم عامة معينة من البيوت الموجودة وجوداً واقعياً ، وفي عملية التجريد هناك امكانية لانقطاع الافكار عن الواقع • وما أن ننسى منشأ المفهوم الشامل فنعتبره شيئاً موجوداً وجوداً مستقلاً لا يرتبط بالاشياء الموجودة وجوداً واقعياً ، حتى ننزلق إلى مواقع المثالية • والفلسفة المثالية ، على حد تعبير لينين ، زهرة عقيمة ولكنها زهرة تنمو على شجرة حية خصبة قوية جبارة هي شجرة المعرفة الانسانية • وقد شبه لينين عملية المعرفة بالحركة لا على خط مستقيم وانما على خط متعرج معقد لولبي • ولدى المعالجة الذاتية الوحيدة الجانب لأي قسم من اللولب يمكن أن يتحول هذا القسم إلى خط مستقيم• وعندئذ يبتعد الانسان عن الخط الرئيسي للمعرفة إلى خط تشويه الحقائق • والابتعاد عن الحقيقة يلائم في كثير من الاحيان مصالح الطبقات الاجتماعية الرجعية ويدعمها وتتحول الاخطاء المثالية المتفرقة إلى نظم فلسفية مثالية • لقد لاحظ لينين أن المعالجة الوحيدة الجانب الضيقة ، وجمود الأفكار والذاتية ، والعمى الذاتي ، هي الجذور المعرفية للمثالية •

ان ظهور انفصال العمل الفكري في المجتمع الطبقي عن العمل الجسدي، ومن ثم التناقض فيما بينهما ، يخلقان وهماً وكأن الافكار منفصلة عن التطبيق بل وتحدد التطبيق • وهذه النظرة المثالية إلى العالم تشوه الواقع وتفسره تفسيراً مقلوباً وتستخدمها الطبقات المستغلة من أجل تبرير وتدعيم سيادتها • هكذا تتكون النظرة المثالية إلى العالم وتنتشر تحت تأثير علاقات ومصالح طبقية معينة •

وليس من قبيل الصدفة أن تقف الفلسفة البرجوازية المعاصرة في صف المثالية في حين ان الفلاسفة الذين كانوا يعبرون عن ايديولوجية البرجوازية قبل قرنين في فرنسا ، مثلاً ، كانوا يدافعون عن المادية • ان هـذا التبدل في الآراء الفلسفية يفسر بالتبدل في وضع تلك الطبقة التي تعبر هذه الآراء عن ايديولوجيتها : فقد تحولت البرجوازية من طبقة تقدمية ثورية صاعدة إلى طبقة رجعية في طريقها إلى الزوال •

وعلى عكس المثالية ، عبرت النظرة المادية إلى العالم ، عادة ، عن مصالح قوى المجتمع التقدمية الطليعية المهتمة بتطوير الانتـــاج الاجتماعي وبالتـــالي بتطور العلم •

وبعد أن ظهرت علوم الطبيعة تطورت المادية كنظرة فلسفية إلى العالم ، متلاحمة تلاحماً شديداً مع علم الطبيعة • ان كل تفسير علمي هو في جوهره تفسير مادي ، لأن العلم يعطي تفسيرات طبيعية للظواهر قادرة على تسليح الانسان من أجل اعادة تنظيم العالم • ان العلم ينطلق من أن المواضيع التي يدرسها ، وكل العالم المحيط ، وكل علاقاته القانونية موجودة وجوداً موضوعياً مستقلاً عن وعينا • والعلم في جذوره ينفي وجود قوى خارقة للطبيعة • وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ، ويدل على أزلية المادة وحركتها • ان المادة وحركتها تتحول باستمرار من أشكال إلى أخرى ولكنها لا تنشأ أبداً من العدم أو تنعدم •

وخلال النضال الطويل بين العلم واللاهوت وقفت المثالية ، كقاعدة ، إلى جانب اللاهوت ووقفت المادية إلى جانب العلم • ان المادية في جوهرها تناقض اللاهوت • لذا فان المدافعين عن المادية تاريخياً ، كانوا عادة من تلك القوى الاجتماعية التي ناضلت ضد اللاهوتيات والخرافات ومن أجل نشر العلم • وقد لاحظ لينين انه عبر التاريخ الحديث كله « كانت المادية الفلسفة المنسجمة الوحيدة ، الأمينة لكل نظريات العلوم الطبيعية المعادية للخرافات والشعوذات وما شابه ذلك »[1] •

---

(١) لينين : الطبعة ٤ الجزء ١٩ الصفحة ٤ • في المستقبل تعتمد دائماً الطبعة ٤ •

ان مسألة الفلسفة الأساسية ، إلى جانب السؤال عن أولوية الفكر أو الوجود ، تشمل جانباً آخر : ما هي علاقة أفكارنا ومعارفنا بالعالم؟وكيف تقف منه ؟ هل يستطيع تفكيرنا أن يعرف العالم الحقيقي ؟

منذ نشوء الفلسفة ، تقريباً ، كانت احدى مهامها الأساسية البحث في عملية وطرق ووسائل معرفة الواقع . وقد حاولت أن تفسر كنه مصدرمعرفتنا، وما إذا كان بامكاننا اعتبار احساساتنا وتصوراتنا ومفاهيمنا انعكاساً للواقع واعتبارها قادرة على عكسه عكساً صحيحاً . ويظهر في حل هذه المسائل أيضاً التناقض بين المادية والمثالية .

وتؤكد المادية انالعالم موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الوعي،وأن الناس جزء من الطبيعة يعكسونها في وعيهم . من هنا ينجم ، طبعاً ، الاعتراف بامكانية معرفة العالم وقوناته .

ان كثيراً من المثاليين لم ينفوا أيضاً امكانية معرفة العالم . ولكنهم جميعاً يرفضون ان ينظروا إلى المعرفة كانعكاس للواقع الموضوعي . فبعض المثاليين (الفيلسوف الاغريقي أفلاطون ، مثلاً) زعم أن مصدر المعرفة هو « في العالم الآخر المثالي » . ولذا فان على الانسان الذي يريد أن يعرف الحقيقة أن يشيح عن العالم المحيط بنا وأن يغمض عينيه ويغلق أذنيه،ويتذكر ما كانت«روحه الخالدة » قد لاحظته في عالم المثل . وعالج مثاليون آخرون (هيجل ، مثلاً) المعرفة على انها معرفة الفكرة المطلقة لذاتها ، تلك الفكرة التي تخلق العالم وتتعرف على ذاتها في شخص الانسان . ورغم تنوع المذاهب المثالية واختلاف نظرتها إلى المعرفة فانها جميعاً ترفض أن ترى في أحاسيس ومفاهيم وأفكار الانسان انعكاساً للاشياء ، وترفض أن تعتبر العالم الموضوعي مصدر المعرفة .

وإلى جانب الفلاسفة الذين يعترفون بامكانية معرفة العالم ، كان ولايزال هناك فلاسفة يشكون بمثل هذه الامكانية (الريبيون) أو انهم يحاولون البرهان على عدم امكانية معرفة العالم . والاتجاه الفلسفي الذي ينفي امكانية الوصول إلى معلومات موثوقة سمي بالاتجاه اللامعرفي .

وكثيراً ما تظهر اللامعرفية كمحاولة للتهرب من الاجابة على سؤال الفلسفة الاساسي ، وتعلن أنه سؤال لاتمكن الاجابةعليه،بل وتعلن أنه لايمكن التأكد من وجود العالم الموضوعي . ولكن اللامعرفية ، في تطلعها إلى خط « وسط » مزعوم بين المادية والمثالية تلتقي في أغلب الاحيان مع المثالية[١] .

ومن النموذجي جداً أن الفلسفة البرجوازية المعاصرة تقف كلها تقريباً موقف اللامعرفية. فتنفي قدرةالعقل الانسانيعلىمعرفة العالموجوهر الظواهر، وتؤكد عجز التفكير المنطقي.وهذا أحد مظاهر انهيار الرأسمالية والبرجوازية التي فقدت منذ أمد بعيد الايمان العزيز في قدرة العقل الانساني المبدعة وفي التقدم الاجتماعي .

ان نفي معرفة العالم يحط من قدر العلم . واللامعرفية ، اذ تؤكد عدم امكانية معرفة العالم ، تفتح الطريق للايمان الديني ولتهادن العلم والدين . واذا اعتبرنا من غير الممكن التوصل إلى معرفة صحيحة للعالم ، فلا يبقى لنا إلا أن نعترف بأن على الانسان أن يبني نشاطه العملي لا على معطيات العلم وانما على معتقدات ما وراء الطبيعة الجامدة . وفي البلدان البرجوازية المعاصرة تسعى اللامعرفية إلى نسف ثقة الطبقة العاملة بامكانيــة معرفــة شروط تحررها من العبودية الرأسمالية وبالتالي بامكانية تحطيم قيود هذه العبودية عملياً .

لقد كشف غوركي بوضوح المعنى الاجتماعي لهذه الدعوة في هذا المقطع من مذكراته :

« تعيش في العالم فكرتان : واحدة تنظر بجرأة في ظلام الحياة الغامضة وتسعى إلى حل هذا الغموض . والثانية تعترف بأن هذه الاسرار لا تُفسر وتعبدها خوفاً منها .

---

(١) كانت اللامعرفية في الماضي تظهر احياناً كشكل خجول من أشكال المادية . فبعض دارسي الطبيعة في انكلترا في القرن التاسع عشر (هيكسلي وغيره) الذين خافوا أن يعلنوا ماديتهم تحت تأثير الانذارات البرجوزاية ، ارتدوا لبوس اللامعرفية .

الأولى لا تؤمن بوجود ما لا تمكن معرفته وانما تؤمن بوجود غير المعروف ، والثانية تؤمن بأن العالم مجهول إلى الابد •

الأولى تسير عبر ظواهر الوجود ، وتتعرض دون وجل إلى كل مايصادفها في طريقها الصعب ، وتشدد من عزيمتها باستمرار ، وترغم حتى الحجارة الصماء على أن تروي قصة بدء الحياة باسلوب بليغ • والثانية تندفع هالعة من جانب إلى جانب محاولة في فشل أن تجد تبريراً لوجودها •

ـ هل أنا موجودة ؟ ـ تسأل نفسها ، في حين أن الأولى تقول :

ـ **أنا ـ أفعل !**

الأولى تهب نفسها في أحيان كثيرة إلى آلام الشك في قوتها ، ولكن صقيع الشك لا يفعل سوى أن يقويها فتهب من جديد لترى غاية الوجود في العمل ؛ والثانية تعيش باستمرار في الخوف أمام ذاتها ويبدو لها أن هناك شيئاً ما عداها أرقى منها ـ بداية من جنسها ولكنها معادية لها ، وتحفظ سر الوجود بصورة مرعبة •

هدف الأولى ـ الحركة الدائمة من حقيقة إلى أخرى وعبر كل الحقائق إلى الاخيرة مهما كانت ؛ وهدف الثانية أن تجد في عالم الحركة الازلية والاتجاهات الدائمة نقطة ميتة لتثبت عليها فكرة جامدة وتقيد روح البحث والنقد بسلاسل الايحاء الحديدية •

احداهما ـ تتفلسف حباً بالحكمة وهي المؤمنة بقوتها ببطولة ، والأخرى تفكر بخوف آملة أن تنتصر على الخوف •

الفكرتان حرتان ـ احداهما ككل طاقة ، والثانية كالكلب المتشرد ، يعوي أمام كل باب يُحس الدفء والهدوء والراحة الرخيصة خلفه •

وكثيراً ما تلتصق هذه الفكرة الثانية بجدران المعابد متوسلة لتجلب الانتباه اليها ـ متوسلة إلى الخوف الذي ابتدعته هي نفسها •

انها هي التي تتفسخ فتنفث في الأرض سمومها وتنفث القنوط ، أما الفكرة الأولى فتزين العالم بمعطيات العلم والفن »[1].

ان تاريخ الفلسفة ، منذ القدم حتى يومنا ، هو تاريخ النضال بين المادية والمثالية . وقد جرى النضال بينهما ويجري حامي الوطيس ، الأمر الذي يبرهن على مدى علاقة الفلسفة بالمصالح الحياتية للناس . وفي كتاب « المادية ومذهب النقد التجريبي » المكرس للدفاع عن النظرة المادية إلى العالم وللنضال الدائب ضد الفلسفة المثالية الرجعية ، عرف لينين المادية والمثالية على انهما اتجاهان في الفلسفة ؛ وأكد لينين على أن الفلسفة الحديثة متحزبة أيضاً كما كانت الفلسفة لألفي سنة مضت . والاتجاهان المتصارعان، هما في جوهر الامر، المادية والمثالية ، ونضالهما في نهاية المطاف يعبر عن ميول واتجاهات الطبقات الاجتماعية المتصارعة فيما بينها .

ولم يكن النضال بين المادية والمثالية علنياً دائماً حيث يعلن الفلاسفة ، بصراحة ، انتماءهم إلى هذا المعسكر أو ذاك . فقد كانت في تاريخ الفلسفة وتوجد في عصرنا الحاضر محاولات كثيرة تسعى بجبن إلى تجنب المادية والمثالية وايجاد خط ثالث مزعوم في الفلسفة لا هو مادي ولا مثالي . ولكن هذه المحاولات غير مجدية . وهي تؤدي إلى الاكليكتية[2] أو (الانتقائية) أو الى مثالية مموهة يعبر عنها باصطلاحات جديدة . وهذا نموذجي بصورة خاصة للفلسفة البرجوازية المعاصرة . وهناك في الفلسفة البرجوازية المعاصرة اتجاهات تدافع ، إلى هذا الحد أو ذاك من العلنية، عن المثالية واللاهوت (الذريون الجدد ـ مثلا ـ أحد المدافعين عن نظرية فوما اكويفسكي، ايديولوجي الكاثوليكية). ولكن هناك عدداً أكبر من الفلاسفة الذين يعلنون أنهم ليسوا ماديين ولا مثاليين.

فالوضعيون ، مثلا ، ينفون الفلسفة قولا ، ويعلنون أنهم لا يعترفون إلا بالمعرفة الوضعية الايجابية . ويزعم الكثير من الفلاسفة البرجوازيين أن الروح

---

(١) م. غوركي : المؤلفات الجزء ١٤ ، ١٩٥١ الصفحة ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٢) هكذا يسمى الجمع الآلي اللامبدئي بين آراء وتيارات واتجاهات فكرية مختلفة .

والمادة ان هما إلا كلمتان بلا معنى ، ولذا فان الفلسفة عموماً لا يجب أن تدرس مسألة العلاقة بينهما • وفي رأيهم ليست مسألة العلاقة بين الوجـود والوعي مسألة الفلسفة الاساسية • وهي إلى جانب ذلك مسألة لا تستحق حتى اهتمام الفلاسفة وهي بلا موضوع •

إلى أين يمضي هؤلاء الفلاسفة ، في هذه الحالة ، بموضوع الفلسفة ؟ ان أحد مؤسسي ما يسمى بالوضعية المنطقية أو الوضعية الجديدة الفيلسوف الانكليزي المعروف « ب• راسل » يعلن بأن الفلسفة لا تستطيع أن تعطي أية معرفة جديدة عن العالم وتنحصر مهمتها في أن تعطي التحليل المنطقي للمعرفة العلمية ؛ لذا فان المنطق الذي ينظر اليه كعلم شكلي ، هو جوهر الفلسفة • وهـذا الموقف يعني محاولـة الابتعاد عن المسألة الرئيسية ، مسـألة النظرة إلى العالم •

ويعتبر ممثل آخر من ممثلي الوضعية الحديثة هو «كارناب»،أن التحليل المنطقي هو في أساسه تحليل للغة ، وان المنطق هو علم اللغة • ومهمة الفلسفة هي في النهاية التحليل المنطقي للكلمات والجمل وما شابه ذلك • ويجب على الفيلسوف أن يفهم مرة واحدة وإلى الأبـد انه لا يمتلك الوسائل للاجابـة على الأسئلة المتعلقة بالعالم « ••• يقول « كارناب » ان مسائل الفلسفة لا تمت بصلة إلى الطبيعة النهائية للوجود ، وانما إلى بناء المعاني في لغة العلم بما في ذلك الجزء النظري للغة المتداولة »[1] • وهكذا فان الوضعيين الجدد يعتبرون ان الهدف الوحيد للفلسفة هو التحليل المنطقي للمفاهيم والاصطلاحات العامـة وان الفلسفة ، خلافاً للعلم ، لا تؤكد الحقائق وانمـا تعلم فقط كيف يتـم التعبير عنها •

إن وجهة النظر هذه تعني محاولة حرمان الفلسفة من موضوع دراستها الحقيقي • فالفلسفة كانت تعالج دائماً ، على هذا النحو أو ذاك ، مسائل جوهر العالم والعلاقة بين الفكر والواقع الموضوعي باعتبارها مسائلها الاساسية • ولكن

(1) R. Carnap. Introduction to Semantics. U.S.A. 1946 p. 250.

شتى أنواع الوضعيين ، اذ يحاولون الهرب من حل هذه المسائل الاساسية في النظرة إلى العالم ، ويتهربون بجبن من الصراع بين المادية والمثالية، لا يستطيعون، في الواقع ، ان يبقوا بعيداً عن هذا الصراع . انهم ينفون امكانية معرفة العالم الموضوعي ويطرحون جانباً مفهوم الوجود الموضوعي ذاته ، وبذلك يقفون إلى جانب المثالية الذاتية .

ويلتقي مع الوضعيين في هذا الموقف اتجاه آخر من الفلسفة البرجوازية المعاصرة هو الوجودية. والوجوديون لا يعترفون بالوجود الموضوعي لا كأساس ولا كموضوع ، لها . ومسألة العلاقة بين التفكير والوجود هي ، على حد تعبير الفيلسوف الوجودي الفرنسي « كامو » مسألة « بلا معنى » إلى حد عميق ، و « فارغة » كأية مسألة علمية ، مثل مسألة دوران الارض حول الشمس أو بالعكس . ان الشيء الوحيد الذي له معنى هو « الوجود » الذي يفهم منه الوجود الشخصي الفردي لـ « أنا » ، « أنا كما أبدو لنفسي » . ولدى هذه الذاتية تنقلب الفلسفة كلها إلى أخلاقية فردية ، إلى نفسية ذاتية ، وتفسر هذه الأخيرة بروح الانانية . وسمي الوجودي الالماني الغربي « ياسبيرز » فلسفته بـ « النظرة النفسية إلى العالم » . وهو اذ ينسف الثقة بقوى العقل الانساني والتفكير المنطقي ، يدعو اتباعه إلى أن يلاحظوا بنفسية روحانية، ويسألوا بنفسية روحانية ، ويحللوا بنفسية روحانية ، ويتعلموا التفكير بنفسية روحانية[1] .

ولكن ماذا يعني رفض الاعتراف بالوجود الموضوعي ورفض الاعتراف بامكانية معرفة الوجود ومعرفة الحقيقة الموضوعية ؟ ان هذا يعني الدفاع عن خط المثالية .

ومهما سعى الفلاسفة البرجوازيون المعاصرون إلى التهرب من حل المسألة الاساسية في الفلسفة وإلى الوقوف بعيداً عن المادية والمثالية والتعالي عنهما ، فان هذا غير ممكن . وهم مضطرون ، على هذا النحو أو ذاك ، رغم أن ذلك لا يكون صريحاً دائماً ، إلى الاجابة على مسألة وجود أو عدم وجود عالم

(1) K. Jaspers : Psychologie der Weltanschauungen. Berlin 1954 S6.

موضوعي مستقل عن وعينا وكيف يقف تفكيرنا من العالم المحيط بنا • ان كل الاتجاهات الفلسفية المتنوعة تلتحم في التالي اما بمعسكر المادية واما بمعسكر المثاليـــة •

ان العصر الحاضر هو عصر النضال الحاد بين قوى الاشتراكية النامية والرأسمالية المحتضرة • وهذا النضال ليس اقتصادياً وسياسياً فحسب ، وانما هو ايديولوجي أيضاً وهو يلاقي تعبيره في مسائل النظرة إلى العالم• واذا كانت القوى الرجعية تتسلح بالفلسفة المثالية واللاهوت، فان سلاح الطبقة العاملة الفكري وسلاح طليعتها الشيوعية هو المادية الديالكتيكية • ولا توجـد ولا يمكن أن توجد فلسفة فوق الطبقات في المجتمع الطبقي • ويجدر بنا تذكر ذلك ،خاصة عندما يحتدم النضال الفكري بين قوى التقدم والرجعية • ويقود الكثير من الرجعيين في البلدان الرأسمالية ، بمـا في ذلك رجالات الدولة ، هجوماً شرساً ضد الماركسية والعلمانية والشيوعية • ولا يتحاشون أثناء ذلك الافتراء المفضوح على الشيوعية المادية • وكم يظهر هنا الجهل المتعالي ! انهم ، اذ يرغبون بالقضاء على المادية بأي ثمن ، يعلنون أن الشيوعيين أناس اجلاف يفضلون الخيرات المادية على الروحية •

وهذه التصورات الجاهلة الحمقاء عن الشيوعية والمادية ليست جديدة • لقد سخر منها انجلز في كتابه « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » • ان البرجوازي الالماني المترهل « يفهم من المادية النهم إلى الطعام والسكر والتبجح واللذائذ الجنسية والجشع إلى النقـود والبخل والفسـق والركض وراء البورصة والقمار ، وباختصار ــ كل تلك الرذائل التي يستسلم لها في السر • أما المثالية فتعني بالنسبة لـه الايمان بالفضيلة وحب الانسانية جمعاء• وبشكل أشمل الايمان «بعالم أفضل» ، وهو ما يصرح به أمام الآخرين ولا يؤمن به إلا عندما يحس بالصداع بعد سكرة شديدة أو عندما يفلس•••»[1]•

والاسلوب المحبب لايديولوجيي البرجوازيـة في مجال دحض الماديـة

---

(١) ف• انجلز : « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ١٩٥٥ الصفحة ٢٥ •

الماركسية هو مطابقتها مع المادية العامية التي كانت في منتصف القرن التاسع عشر ، أو مع المادية الميكانيكية في القرنين ١٧ ـ ١٨ • في حين أن الفلسفة الماركسية هي مادية حديثة تختلف كثيراً عن سائر أشكال المادية التي كانت قبل ماركس •

ان ضعف المدارس المادية السابقة هي في كون طرق تفكيرها ميتافيزيكية في الغالب ؛ وهي لم تكن مسلحة بطريقة المعرفة الصحيحة ، الطريقة الديالكتيكية •

والطريقة الميتافيزيكية[١] هي ذلك الموقف من معالجة الموضوع حيث الاشياء وظواهر الطبيعة تعالج بعيداً عن علاقاتها المتبادلة العضوية • وهذه الطريقة تعكس من جانب واحد بعض صفات الواقع : تلاحظ ثبات الاشياء النسبي متجاهلة تطورها ، وتأخذ العناصر منفصلة ناسية الوحدة التي تشكلها هذه العناصر •

والطريقة الثانية المقابلة للطريقة الميتافيزيكية هي الديالكتيكية[٢] • وهي تعالج الاشياء والظواهر وانعكاسها في العقل والمفاهيم في علاقاتها المتبادلة وحركتها ـ في نشوئها وتطورها المتناقض واختفائها • وعدم معرفة الديالكتيكية كانت الضعف الخطير في بعض مدارس الماضي المادية[٣] • وقد أعاقت هذه المدارس

---

(١) لكلمة « ميتافيزيكا » في تاريخ الفلسفة معان مختلفة ، فقد كانت الكلمة (من اليونانية ميتاتافيزيكا حرفياً ما بعد الفيزياء) تعني في البدء مؤلفات أرسطوطاليس التي وضعها بعد مؤلفاته في الفيزياء • بما أن أرسطو طاليس بحث في مؤلفاته هذه « بدايات الوجود التي نتوصل اليها عن طريق العقل » فقد أصبح اصطلاح « ميتافيزيكا » يطلق على كل تعاليم فلسفية عن هذه « البدايات » عادة كأشياء ثابتة لا تتغير • ثم فيما بعد (منذ عهد هيجل) أصبحت كلمة ميتافيزيكا تطلق على منهج المعرفة المضاد للديالكتيك والذي ينظر الى العالم والاشياء والظواهر على أنها ثابتة لا تتطور •

(٢) كلمة : ديالكتيك من اليونانية دياليغوماي بمعنى : أتبادل أطراف الحديث • وكان يفهم من كلمة ديالكتيك في القديم فن التوصل الى الحقيقة عن طريق اصطدام الافكار المتضادة •

(٣) من بين ماديي الماضي كانت هناك فئة تتمتع بنظرة مادية للعالم تمتزج بطريقة ديالكتيكية ساذجة لمعرفة العالم ، أو تمتزج بعناصر الديالكتيك (نذكر هنا من الفلاسفة القدماء الفيلسوفين هيرقليط وايفيس (القرن الخامس قبل الميلاد) والفيلسوف ديدرو وغيره من فلاسفة العصور الحديثة• بيد أن عناصر الديالكتيك الساطعة التي نصادفها لديهم لا تؤلف بعد منهجاً ديالكتيكياً علمياً• ولم يوضح هذا النهج الا على أيدي ماركس وانجلز •

عن تطبيق نظرتها المادية تطبيقاً منسجماً • وقد ظهر هذا بشكل خاص في فهم ظواهر الحياة الاجتماعية التي كانت تفسرها تفسيراً مثالياً •

لقد تغلب ماركس على ضيق أفق المادية القديمة وأغنى المادية بالديالكتيكية ـ أشمل وأعمق نظرية عن التطور •

ان الطريقة الديالكتيكية العلمية للمعرفة هي طريقة ثورية لأن الاعتراف بأن كل شيء يتبدل ويتطور يؤدي الى نتائج تحتم دمار كل ما هو قديم يعيق التقدم التاريخي • وهذا بالذات ما جعل الديالكتيك الماركسي موضع حقد ايديولوجيي البرجوازية • وفي الكلمة الملحقة بالطبعة الثانية من « رأس المال » لاحظ ماركس في معرض وصفه لطريقته : « ان الديالكتيك في شكله العقلاني لا يبعث في نفوس البرجوازية وايديولوجييها إلا الغضب والرعب لأنه يشتمل إلى جانب الفهم الوضعي لما هو قائم فهم نقضه وحتمية زواله • وهو ينظر إلى كل شكل متحقق في حركته ، وبالتالي ، ينظر إلى الجانب الزائل منه ، وهو لا ينحني أمام شيء ، وهو في جوهره نقدي وثوري[1] » •

وبفضل صياغة الطريقة الديالكتيكية العلمية ارتفعت المادية إلى درجة أرقى • وواصل مؤسسا الماركسية ، كارل ماركس وفريدريك انجلز ، التطوير الذي دام قروناً للخط المادي في الفلسفة ، وخلقا إلى جانب ذلك نظرة جديدة تماماً إلى العالم ، هي المادية الديالكتيكية حيث الطريقة الديالكتيكية للمعرفة متحدة عضوياً بالتفسير المادي للظواهر ليس فقط في الطبيعة وانما في المجتمع أيضاً •

٢ـ علاقة الفلسفة بالعلوم الاخرى

موضوع الفلسفة الماركسية

ان المادية الديالكتيكية هي الفلسفة الوحيدة التي تعتمد على أساس وطيد بين سائر العلوم الحديثة •

---

(١) ماركس : راس المال الجزء ١ ، ١٩٥٥ الصفحة ٢٠ •

ان الكثير من الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين لا يضعون الفلسفة في مصاف العلوم الاخرى • بل ويتظر اليها بعضهم على انها حلقة الوصل بين الدين والعلم • ويؤكدون أن رسالتها هي « توحيد نتائج العلوم الحسية ومبادىء الاخلاق والدين » • أو يعدونها شيئاً وسطاً بين العلم والثيولوجيا (علم الروحانيات) • يقول راسل في « تاريخ الفلسفة الغربية » : « ان الفلسفة في مفهومي هي شيء ما وسط بين الثيولوجيا والعلوم • فهي من ناحية تشبه الثيولوجيا فتبحث في المسائل والعلاقات التي لما تُعرف معرفة دقيقة حتى الآن ؛ ولكنها من ناحية أخرى تشبه العلم ، فهي تعتمد على العقل الانساني أكثر مما تعتمد على المسلمات التي لها جذورها في التقاليد وغيرها • ان كل معرفة دقيقة ، وهذا ما أومن به تماماً ، هي من صنع العلم ؛ أما ما يتعلق بالمسلمات في الأمور التي تخرج عن نطاق المعرفة الدقيقة فهو يخص الثيولوجيا • ولكن بين الثيولوجيا والعلم أرض محايدة هي الفلسفة»[1] • ان هذا التعريف ينطبق في الواقع على الفلسفة المثالية البرجوازية المعاصرة التي لا تتميز كثيراً في محتواها عن الدين وتأخذ من العلم شكل تفكيره فقط • ان راسل محق هنا • ولكنه يخطىء خطأً عميقاً عندما يعمم هذا التعريف على كل فلسفة • فهناك فلسفة علمية أصيلة ، استنتاجاتها وطرقها في المعرفة علمية،ولا تتفق مع اللاهوت، تماماً ، كمعطيات الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والى آخر ما هنالك • وهذه الفلسفة هي المادية الديالكتيكية ، نظرة الطبقة العاملة إلى العالم •

لقد نشأت المادية الديالكتيكية نتيجة التطور التاريخي للفلسفة والعلوم الحسية • وفي عملية تطور الفلسفة تبدل مفهوم موضوع ومهام الفلسفة ومكانها بين العلوم •

نشأت الفلسفة في العالم القديم كمجموعة من المعارف الشاملة • وكان الناس قد حصلوا على بعض المعارف الرياضية والفلكية والفيزيائية وغيرها ، ولكن هذه المعارف لم تكن قد توضعت في علوم خاصة مستقلة وانما كانت داخلة

---

(1) B. Russell, A History of western Philosophy. N. Y. 1945, p. XIII .

انظر الترجمة الروسية : ب راسل • تاريخ الفلسفة الغربية ، منشورات دار الأدب الأجنبي، ١٩٥٩ الصفحة ٧ •

في الفلسفة . وكثيراً ما كانت تسمى مؤلفات الفلاسفة القدماء : «حول الطبيعة »، « حول الكون » ما شابه ذلك . ولم تكن الدراسة في هذه المؤلفات تقتصر على المسائل الفلسفية وانما كانت تدرس الكثير من المسائل المتخصصة كمنشأ النبات والحيوان والانسان وظهور اللغة وأشكال الحياة الحكومية وذلك ذلك . وفي هذه المؤلفات نجد الكثير من التنبؤات العبقرية التي بشرت بتطور العلم اللاحق. هكذا كانت ، مثلاً فكرة تكون الجسم من ذرات، وهي الفكرة التي طرحتها الفلسفة القديمة قبل الفي عام من اثبات علم الطبيعة بالتجربة نظرية البناء الذري للأجسام . ان الفلسفات المادية القديمة قد طرحت منذ ذلك الحين نظرية خلود المادة وانها لا تفنى ولا تخلق ؛ وقد لاقت هذه النظرية مؤخراً الدعم العلمي .

وفي بداية تطور الفلسفة تكونت إلى جانب النظرة المادية البدائية الساذجة العفوية إلى العالم ، وبصورة عفوية أيضاً ، الطريقة الديالكتيكية في معرفة العالم. ان فكرة كل شيء يتحرك « كل شيء يجري ، كل شيء يتبدل » وهو موجود في علاقة متبادلة مع غيره ، قد نشأت نتيجة لملاحظة ظواهر الطبيعة والمجتمع. ولكن هذا الامر كان معرفة ، أو ، على الأصح ، تخميناً لما هو شامل، ولم يكن قائماً على دراسة تفصيلية للظواهر الجزئية ، أي الاشياء والظواهر المنفردة. وفي هذا تنحصر المحدودية التاريخية التي اتصفت بها مادية العالم القديم.

ولا بد من الانتقال من النظرة البدائية الشاملة إلى العالم التي اشتملتها النظريات الفلسفية التقدمية في العصر القديم إلى البحث العلمي للاشياء المنفصلة وعمليات الطبيعة . وأصبح هذا ضرورياً بصورة خاصة عندما تطلب تطور الانتاج تطبيق العلوم في التكنولوجيا . وقد ارتبط بهذا نشوء العلوم التي كانت تخدم حاجات النشاط العملي الاجتماعي . فأخذت العلوم الطبيعية تنفصل ، علماً اثر علم ، عن الفلسفة : لقد انفصلت منذ القدم علوم الفلك والرياضيات والميكانيك . وتسارعت هذه العملية منذ عصر النهضة وخاصة في القرن السابع عشر. فلم يعد باستطاعة تطور الانتاج أن يحدث بدون علم الطبيعة . واعطت حاجة الانتاج دفعة إلى أمام في نشوء علوم قائمة على البحث التجريبي في الطبيعة كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها بعد ذلك .

كانت علوم تلك الفترة تقوم ، في الغالب ، بجمع الوقائع وتصنيفها وتبويبها أي بدراسة ما هو جزئي • أما العلاقة بين مختلف مجالات المعرفة فقد حاولت الفلسفة إقامتها • كتب انجلز في معرض وصفه لحالة المعارف في ذلك العصر : « كانت فكرة الموسوعة فكرة نموذجية في القرن الثامن عشر [وكانت تسيطر على الوعي فكرة كون هذه العلوم جميعاً مترابطة فيما بينها ولكنها لم تكن قادرة على الانتقال من علم إلى آخر ، بل انها كانت تكتفي بوضع هذه العلوم جنباً إلى جنب »[١] •

وقد حاولت الفلسفة توحيد هذه العلوم وربطها في نظام واحد • وكثيراً ما كانت العلوم المنفصلة تعالج كأجزاء من الفلسفة • وظهرت الفلسفة كموسوعة من نوع خاص للمعارف الانسانية وطمحت إلى القيام بدور « علم العلوم » • كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت في القرن السابع عشر في مقدمة كتابه « بداية الفلسفة » : « الفلسفة كلها تشبه الشجرة التي جذورها ـ ما وراء الطبيعة (الميتافيزيك ـ المترجم)[٢] وجذعها ـ الفيزياء ، وغصونها المتفرعة عن هذا الجذع ـ كل العلوم الاخرى التي تنقسم إلى ثلاثة فروع رئيسية وهي : الطب والميكانيك والاخلاق »[٣] •

كان لطموح الفلسفة إلى القيام بدور «علم العلوم» مبرراته حين كانت معرفة الطبيعة على أساس التجربة ماتزال ضعيفة • فقد بقيت في وعي الانسان ثغرات كثيرة وكان على الفلسفة أن تسدها • فالمسائل العامة لعدة علوم ، تلك المسائل التي لم يكن بالامكان حلها عن طريق التجربة ، كانت تحل فكرياً ، أي عن طريق المحاكمات المنطقية • إلا ان هذا خلق ، إلى جانب التنبؤات العبقرية ، كثيراً من الاوهام التي أعاقت تطور علوم الطبيعة •

وبقدر ما كانت العلوم المنفصلة تتدعم على قاعدة المعرفة التجريبية الصلبة، كانت تنفصل عن الفلسفة وتنال استقلالها • وكان هذا تقدماً ليس فقط للعلوم

---

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ ، ١٩٥٥ الصفحة ٥٩٩ •

(٢) يطلق ديكارت اسم « ميتافيزيك » على علم بداية الوجود والمعرفة •

(٣) ر• ديكارت ، مؤلفات مختارة • دار النشر الحكومية ، ١٩٥٠ الصفحة ٤٢١ •

الحسية وانما للفلسفة ذاتها أيضاً ، لأنه حثها على رفض المهمة التي لا يمكن تحقيقها وهي أن تحل محل العلوم الأخرى جميعها •

وفي القرن التاسع عشر ، وبفضل اكتشافات العلوم الطبيعية ، تقدمت تقدماً كبيراً معرفة العلاقات المتبادلة بين العمليات الجارية في الطبيعة ، وليس فقط العلاقات بين العمليات الطبيعية في مجالات منفصلة ، وانما أيضا العلاقات بين المجالات المختلفة التي تدرسها علوم مختلفة • وبمساعدة معطيات علوم الطبيعة ظهرت امكانية اعطاء صورة شاملة للطبيعة ككل مترابط : وبما ان كل علم أصبح قادراً الآن على اظهار مكانه في منظومة المعرفة الشاملة فان فلسفة الطبيعة لم تعد ذات موضوع ، تلك الفلسفة التي حاولت أن تنشيء صورة الطبيعة الشاملة عن طريق التفكير المجرد • ان التطور المماثل في العلوم الاجتماعية وخاصة وضع ماركس وانجلز لنظرية تطور المجتمع ــ المادية التاريخية ، قد جعل فلسفة التاريخ غير لازمة ، تلك الفلسفة التي كانت سابقاً ، وحاولت عن طريق التفكير المجرد ، أن تعطي صورة مترابطة لتاريخ الانسانية واستبدلت العلاقة الواقعية بين ظواهر التاريخ بعلاقة مختلقة •

ان نشوء الفلسفة الماركسية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر عني نهاية الفلسفة القديمة التي طمحت إلى القيام بدور « علم العلوم»• وقد اعترفت الماركسية علناً بأن الفلسفة التي تحاول الوقوف فوق العلوم غير لازمة • وكما أكد إنجلز فان المهمة ليست اختلاق العلاقات بين الظواهر وانما كشف العلاقات والقوانين في الواقع نفسه • ان الفلسفة الماركسية ــ كما يقول انجلز هي ــ « نظرة إلى العالم مدعوة لاثبات نفسها واظهار نفسها لا كعلم خاص للعلوم وانما في العلوم الواقعية »[١] •

ان العلوم المعاصرة هي نظام للمعرفة متعدد الفروع كثيراً • فلو أخذنا أي مجال لظواهر العالم المحيط بنا لوجدناه يدرس من قبل علم خاص من العلوم • ترى ما الذي يبقى في هذه الحالة من نصيب الفلسفة ؟ ألا يذكر وضعها بين العلوم

---

(١) ف• انجلز : « ضد دوهرينغ » • ١٩٥٧ الصفحة ١٣٠ •

بالوضع المحزن للملك « لير » (شكسبير) الذي قسم مملكته بين بناته وبقي بدون أملاك ؟

كلا ، ان هذا الاستنتاج غير صحيح • فبزوال الفلسفة القديمة « كعلم العلوم » لم تفقد الفلسفة موضوعها الخاص • ان الفلسفة تدرس ذلك العالم الذي تدرسه العلوم المتخصصة • ولكنها تتعرف على علاقات وروابط أشمل من العلوم المتخصصة التي تدرس هذا المجال المنفصل أو ذاك من الظواهر • ان تطور العلوم الخاصة لم يقض على ضرورة حل المسائل الجذرية للنظرة إلى العالم ، تلك المسائل التي كانت الفلسفة تدرسها دائماً • لقد أكد لينين أكثر من مرة في كتاب «المادية ومذهب القد التجريبي» ان المسألة الفلسفية الجذرية هي مسألة أولوية المادة أو الوعي ، وأيهما يعتبر مصدراً لمعرفتنا • وهذه المسألة التي تدخل في كل نظرة إلى العالم لايمكن أن تخلط بتلك المسائل المحددة التي تحلها الفيزياء والكيمياء والعلوم الاخرى • وعارض لينين بحزم محاولات الماخيين خلط « ••• دراسة هذا البناء أو ذاك للمادة بالمفهوم المعرفي ـ خلط مسألة الصفات الجديدة والاشكال الجديدة للمادة (الالكترون مثلاً) بمسألة نظرية المعرفة القديمة ، المسألة التي تبحث مصادر وعينا ووجود الحقيقة الموضوعية وما شابه ذلك »[1] •

يقول لينين : إن مسألة الاعتراف بوجود المادة كمصدر موضوعي لاحساساتنا هي بالذات مسألة معرفية ليست فيزيائية و كيميائية[2] • وتعد من المسائل المعرفية مسألة علاقة الوعي بالمادة ولأيهما الأولوية ؟ وهل احساساتنا وتصوراتنا ومفاهيمنا انعكاس للعالم الموضوعي ؟ وفي أي الظروف يكون هذا الانعكاس حقيقة موضوعية ؟ وما هو مقياس الحقيقة ؟ وما هي المادة ؟ وما هي أشكال وجودها ؟ وهكذا دواليك •••

ان تطور علوم الطبيعة والمجتمع حرر الفلسفة من مهام دراسة القوانين الخاصة • فكل علم متخصص يبحث قوانين هذه الاشكال أو تلك من الحركة:

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ١٤ الصفحة ١٦ •

(٢) المصدر نفسه الصفحة ٢٥٨ •

الميكانيك ـ قوانين الحركة الميكانيكية وانتقال الأجسام ، والكيمياء ـ حركة واتحاد الذرات وهكذا ... ، والبيولوجيا ـ قوانين تطور الاجسام الحية ، والعلوم الاجتماعية ـ قوانين تطور هذه العمليات والظواهر أو تلك في الحياة الاجتماعية .

واذا كانت العلوم المتخصِّصة تدرس هذه المجالات والجوانب أو تلك من ظواهر العالم،فان المادية الديالكتيكية تكشف عن الاساس الشامل لكل الظواهر والعمليات . انها تُعَرِّف بتلك القوانين الشاملة التي تخضع لها كل حركة وتطور في أي مجال من الظواهر كانت : في الطبيعة والمجتمع أو في التفكير الانساني .

ان العالم واحد لأن كل الظواهر فيه عبارة عن أشكال مختلفة من المادة المتحركة . فتؤثر فيه ، لا القوانين الجزئية فقط وانما قوانين التطور الشاملة أيضا . إن القوانين الشاملة حقيقية بقدر ما هي عليه القوانين الجزئية .

ان المادية الديالكتيكية تدرس أشمل القوانين التي تعمل في العالم كله وكذلك تدرس انعكاسها في معرفة الانسان . ان القنونات الشاملة لتطور المعرفة لا تدرس من قبل أي علم متخصص وانما تدخل في موضوع دراسة الفلسفة .

ما هي العلاقة بين القوانين الشاملة لتطور العالم الموضوعي وقوانين تطور المعرفة ؟

كما سبق وقلنا فان معرفة الانسان تعكس العالم الموضوعي . ولذا فانها لا تستطيع أن تتطور حسب قوانين تتميز كلية عن قوانين تطور العالم ذاته . وعندما يفكر الانسان حسب قوانين المنطق ، منطلقاً من مقدمات صحيحة ، فانه يصل إلى نتائج تتطابق مع الواقع . وهذا يبين أن التفكير والواقع خاضعان ، في الجوهر ، لذات القوانين الشاملة .

ان المادية التاريخية تدرس العالم كما هو موجود ، أي بتبدله وتطوره الدائمين . واذا كانت كل الاشياء تتطور فان هذا يشمل أيضاً المفاهيم التي تعكسها .

ان كل علم يستخدم مفاهيم شاملة تترابط فيما بينها منطقياً • والرابطة المنطقية وانسجام المفاهيم في العلم يظهران كانعكاس معمم للتطور التاريخي للواقع ذاته ، ولتطور المعرفة •

وعلى سبيل المثال ، يبدأ ماركس في « رأس المال » تحليل الرأسمالية بدراسة مفهوم السلعة ، فيكشف عن تناقضات السلعة وتطور هذه التناقضات ، ويبين ان التطور الديالكتيكي لهذه التناقضات يؤدي إلى تشكل النقد ، ويظهر كيف ان النقد يتحول إلى رأسمال • هذه العلاقة المنطقية للمفاهيم (سلعة ــ نقد ــ رأس مال) ــ ليست بناء فكرياً وانما هي انعكاس معمم للعملية التاريخية لتطور الرأسمال • ومن المعروف أن السلعة لا تسبق رأس المال في الظهور منطقياً بل وتاريخياً أيضا ، والانتاج الرأسمالي يتولد من الانتاج السلعي •

ان المقولات الفلسفية ، على خلاف مقولات العلوم المتخصصة ، الاقتصاد السياسي مثلاً (السلعة ، النقود ، رأس المال وغير ذلك) ــ هي أكثر المفاهيم عمومية تستخدم في كل علم • فلا يوجد عالم ، سواء كان عالم طبيعة أو تاريخ أو أدب ، يستطيع أن يستغني عن مفاهيم شاملة مثل مفاهيم ! قانون ، قنونة ، تناقض ، جوهر وظاهر ، سبب ونتيجة ، ضرورة وصدفة ، محتوى وشكل ، امكانية وواقع وهكذا دواليك ••• ان المفاهيم الفلسفية أو المنطقية تعبر عن أشمل الروابط بين ظواهر الواقع ، وهي تمثل ، في الوقت نفسه ، درجة معرفة العالم وتخدم كسلاح للتفكير ، وتعمم التجربة التاريخية لدراسة الانسان للعالم •

ومن المفهوم انه لايمكن احلال دراسة المقولات المنطقية محل دراسة العمليات الحسية • ان الفلسفة الماركسية اللينينية هي مرشد لمعرفة شتى مجالات الواقع ، ولكنها لا تحل محل العلوم المتخصصة ، وهي لا تعطي حلولاً جاهزة لتلك المسائل التي تدرسها العلوم المتخصصة ، وانما تسلح كل العلوم بالنظرية الصحيحة للتفكير ، وبطريقة ايجاد حلول لها •

ان للطريقة الصحيحة أهمية كبيرة من أجل معرفة الواقع • وقد شبه الفيلسوف الانكليزي المادي الشهير «ف• بيكون» في القرن السابع عشر الطريقة بالمصباح الذي ينير الطريق للسائر • فالعالم الذي لايمتلك الطريقة الصحيحة هو كالسائر الذي يهيم في الظلام متلمساً الطريق •

ولكن ما هي الطريقة التي يجب أن تعتبرها صحيحة ؟ أليس هناك اختيار بين هذه الطريقة أو تلك حسب ذوق العالم ، كما يستطيع السائر الموشك على الانطلاق أن ينتقي برغبته هذا المصباح أو ذاك ؟

كلا ، ان الطريقة الصحيحة للمعرفة لا يمكن أن تكون نتيجة للانتقاء الذاتي • ان طريقة المعرفة ليست جمعاً بسيطاً لعدد من الاساليب التكنيكية والعادات في البحث ؛ انها يجب أن تكون مماثلة للواقع ، أي انعكاساً لقوانين العالم الموضوعي •

ولكي تكون الطريقة علميــة أصيلـة ، أي لكي تخدم الطريقة كوسيلة للحصول على معارف صحيحة ، يجب أن تقود فكر الانسان بشكل مواز لتلك الطريق التي يسير فيها تطور الواقع المدروس ذاته • ويجب أن تعكس الطريقة تلك العلاقات بين الظواهر الموجودة فعلاً ، وأن تعبر عن تبدلات الموضوع ، تلك التبدلات التي تطرأ عليه في الواقع •

ان الطريقة العلمية للمعرفة تستند ، بالتالي ، إلى تطبيق أشمل قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير في مجال المعرفة • وتعطي المادية الديالكتيكية معرفةهذه القوانين• كتب انجلز يقول :«••• ان الديالكتيك بالذاتهو أهمشكل من أشكال التفكير بالنسبة لعلم الطبيعة المعاصر ، لأنه هو وحده المماثل لعمليات التطور الجارية في الطبيعة وللروابط الشاملة فيها ، وبذا يكون طريقة تفسيرها والانتقال من مجال بحث إلى مجال بحث آخر » (١) •

ان المادية الديالكتيكية هي نظرة إلى العالموطريقة للمعرفة والعمل ، وهي

(١) انجلز ـ ديالكتيك الطبيعة ١٩٥٥ الصفحة ٢٢ •

تسلح علمــاء سائر مجالات المعرفة بنظرية كاملة ومنسجمة وعلميــة للتفكير وبأشمل طريقة للبحث • ان الفصل بين الفلسفة والعلم يعني الحكم على العلماء بأن يقومــوا بعملهم العظيم في معرفــة الواقع على نحو عشوائي ، وعن طريق التلمس وبدون أفكار عن العالم موجِّهة طرائقيَّة • وهذا يعني اجبارهم على أن يحلوا من جديد تلك المسائل التي حلت منذ أمد بعيد ، وان يحلوها بمعطيات محدودة وغير كاملة ، وبدون حسبان الحساب لتجربة تاريخ الفكر الانساني كلها • ان مثل هذا التصرف يعني تجميد العلم ودفعه إلى مأزق •

وتدفع العلم إلى هذا المأزق شتى أنواع الوضعية ـ التيار المنتشر في الفلسفة البرجوازية منذ أواسط القرن التاسع عشر • ان الوضعيين يؤكدون ان العلم لا يحتاج إلى أية فلسفة وشعارهم « العلم ـ فلسفة نفسه » •

ولكن الوضعيين ينفون الفلسفة بالقول فقط ، عندما يدعون العلماء إلى التزام جانب المعرفة التجريبية الايجابية • انهم ، في الواقع ، يدعون أيضا إلى فلسفة ، ولكن إلى فلسفة غير علمية تجعل من التجربة مجموعة من الاحساسات والمشاعر ، وترفض حل مسألة منشأ هذه المدركات الحسية • ونتيجة لذلك ، يصل الوضعيون إلى نفي امكانية معرفــة العالم الموضوعي ، إلى الــلامعرفيــة والمثــاليــة •

ويجدر القول هنا بأنه ما من علم يستطيع أن يتطور تطوراً خصباً بدون الاعتقاد العميق بامكانية الانسان أن يعرف قنونات الواقع ويستخدم المعــارف في النشاط العملي • ان نفي هذا يؤدي بالعلم إلى العقم ، لأنه ، كمــا لاحظ تيمير يازيف عن حق ، « عندما نحاول تفسير أية ظاهرة لا يجوز أن ننطلق من أنها لا تفسر » (١) •

ان الكثير من علماء الطبيعة ، تحت تأثير الوضعية ، أعلنوا رفضهم لكل فلسفة • ولكن هذا الرفض غير ممكن في الواقع • فلا يجوز في العلم البقــاء « مع الوقائع على انفراد » ، وابقاء النظرية على عتبة المخبر وارغامها على الصمت

---

(١) تيميريازيف : المؤلفات الجزء ٥ ـ ١٩٣٨ الصفحة ١٨٨ •

بانتظار ما تقول الوقائع « بشكلها المجرد » ، « بذاتها » • فبدون التفكير النظري لا يستطيع العلم أن يوجد لأنه ليس مدعواً لوصف الظواهر فقط وانما عليه أيضاً أن يفسرها •

وهناك،حيث ينتقل العلم من جمع ووصف الوقائع والعمليات إلى وَضع القوانين والاستنتاجات النظرية يصل أي مفكر ذو تفكير واسع ، سواء كان فيزيائيا أو كيميائياً أو بيولوجياً أو عالم مجتمع ، إلى وضع لا يستطيع فيه تجنب الفلسفة والنظرة إلى العالم ونظرية المعرفة • ان المسألة كلها تنحصر في الفلسفة التي يتبعها ــ أهي الفلسفة العلمية المادية أم المثالية غير العلمية ، أم الاكليكتيكية ، التي هي خليط من المثالية والمادية، وهو الأمر الذي يحدث كثيراً • انها تنحصر في هل يأخذ المفكر بالافكار الدارجة السائدة في العالم البرجوازي التي يقدمها الفكر السطحي الانتقائي ، أم بالفلسفة المادية الديالكتيكية التي تعتبر أرقى نتاج لتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية خلال قرون طويلة •

وفي مقالة « علم الطبيعة في عالم الأرواح » كتب انجلز أن الفلسفة تثأر لنفسها من علماء الطبيعة الذين هجروها • وعلى مثال البيولوجي « ويلليس » والفيزيائي « كروس » وغيرهما ممن آمنوا بوجود الارواح وأصبحوا ضحية للخرافات الفظيعة والروحانية ، بيَّن انجلز ان التجريبية المجردة التي تحتقر النظرية تقود من علم الطبيعة إلى الصوفية •

ان الفلسفة العلمية ، اذ تعطي نظرة موحدة إلى العالم ، وتكون نظرية كاملة للباحث ، تمكنه من النظر إلى كل مسألة يدرسها من وجهة نظر أشمل• وهذا يتيح امكانية التغلب على وحدة الجانب في معالجة موضوع البحث ، تلك الوحدة التي تنشأ حتماً في ظل تخصص العلوم •

ومهما كان تطور بعض العلوم كبيراً ومهما تنوعت وتفرعت شجرة العلم، فان الفلسفة لن تفقد أبداً حقها في الوجود•فمن ناحية ،حدَّ تطور العلم،وكأنه ضيَّق ، دائرة المسائل التي تتطلب تعميماً فلسفياً ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، وسع هذه الدائرة • ان تقدم العلم يضع أمام العلوم المتخصصة ذاتها مسائل لايمكن أن يحلها العلماء المتخصصون اذا لم تكن لديهم نظرية علمية •

وفي ظروف الصراع الايديولوجي الحاد يغدو العالم المتخصص في هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة ، غير المسلح بالفلسفة المادية الصحيحة ، في كثير من الاحيان ، عاجزا عن الصمود أمام هجوم الايديولوجية الرجعية . ويقع في أسر الفلسفة المثالية غير العلمية التي تعرقل تطور العلم . وقد أكد لينين انه « من أجل الصمود في هذا الصراع وإيصاله إلى نهايته بنجاح تام ، يجب على عالم الطبيعة ، أن يكون مادياً عصرياً ومؤيداً واعيا لتلك المادية التي قدمها ماركس ، أي يجب أن يكون مادياً ديالكتيكياً » [1] .

ان نجاحات العلم المعاصر التي لا تتيح امكانيات المعرفة النظرية فحسب ، بل وتتيح التمكن من الفضاء الكوني عملياً،والسيطرةعلى الطاقةالذرية،لاتقلل، وانما تزيد ،من أهمية التعميم الفلسفي لقضايا علم الطبيعة . وقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : « انه في عصر تطور العلم العاصف ، تزداد أهمية صيغة القضايا الفلسفية لعلم الطبيعة المعاصر على أساس المادية الديالكتيكية باعتبارها الطريقة العلمية الوحيدة للمعرفة [2] .

ان الفلسفة الماركسية طريقة قائدة في العلوم الاجتماعية أيضاً . وهي تسلحها بفهم التطور التاريخي للانسانية . فالقوانين الشاملة لكل حركةوتطور، التي تشكل دراستها موضوع المادية الديالكتيكية ، تجد تطبيقها أيضاً في معرفة الحياة الاجتماعية . لقد عمم ماركس وانجلز المادية والديالكتيك على معرفة ظواهر الحياة الاجتماعية ، وصاغا الفهم العلمي للحياة الاجتماعية ـ المادية التاريخية .

ان المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من النظرية الفلسفية التي انشأها ماركس وانجلز . وبدون الفهم الصحيح لأشمل قوانين تطور المجتمع لايمكن أن تكون هناك نظرية علمية كاملة . ان المادية ، كنظرية فلسفية ، لم تكن مكتملة ، ولم تتمكن أن تشمل بتفسير واحد العالم كله قبل تعميم مسألة الفلسفة الاساسية

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ الجزء ٣٣ الصفحة ٢٠٧ .

(٢) « منهاج الحزب الشيوعي في لاتحاد السوفييتي » دار النشر السياسية الحكومية ـ ١٩٦١ الصفحة ١٢٧ .

على معرفة المجتمع الانساني • وقد كان من الضروري أن تحل مسألة العلاقة بين التفكير والوجود حلاً مادياً في الحيوة الاجتماعية أيضاً • «واذا كانت المادية، عموماً تفسر الوعي بالوجود وليس العكس ، ففي الحياة الاجتماعية للانسانية طالبت المادية بتفسير الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي » (١) •

وبعد أن حل ماركس وانجلز هذه المسألة أتمّا بناء المادية إلى القمة • وهكذا ، وباكتشاف المادية التاريخية انشئت ، لأول مرة ، نظرية مادية كاملة منسجمة متطورة من جميع الجوانب تشمل الطبيعة والحياة الاجتماعية •

وعلى قاعدة الفهم المادي للتاريخ فقط ، ذلك الفهم الـذي أظهر معنى لنشاط الناس التاريخي الاجتماعي ، تم التغلب على عيب من أهم عيوب المادية السابقة وهو المعالجة التأملية للواقع ومعرفته • وقد أشار ماركس ، في معرض توضيحه لاختلاف فلسفته المبدئي عن كل ما سبقها ، إلى أن الفلاسفـة ، حتى عصره ، كانوا يكتفون بتفسير العالم ، غير أن المهمة المطروحة هي تغييره • وهذا الدور الفعال تؤديه الفلسفة الماركسية التي تخدم كسلاح ثوري لاعادة تكوين العالم •

٣ ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية هما السلاح الفكري في النضال من أجـل الشيوعية

ان كل عصور الانعطاف في التاريخ تتصف باحتدام الصراع لا في مجال السياسة والاقتصاد فحسب وانما في مجال الايديولوجية أيضاً•وفي هذه العصور تصبح الحاجة أكثر الحاحاً ، إلى التفسير الفلسفي للتبدلات العميقة الجاريـة في الحياة الاجتماعية • ويظهر بوضوح أكبر التصادم بين النظريات المختلفة • ويكفي أن نذكر ، على سبيل المثال ، عصر النهضة عندما بدأ انهيار الاقطاعيـة ودعامته الفكرية ـ الكنيسة • ففي هذا العصر جرى،علناً ، أو خلف ستار ديني شكلي ، الصراع بين القوى التقدمية والرجعية ، ولاقى هذا تعبيره في صراع

(١) لينين المؤلفات الجزء ٢١ الصفحة ٣٨ ـ ٣٩ •

النظريات الفلسفية • ففي ابداعات « كوبرنيك » و « برونو » و « غاليليه » و « توماس مور » وغيرهم من مفكري ذلك العصر نجد مناهضة الافكار الفلسفية التقدمية والافكار الانسانية لديكتاتورية الكنيسة • ونجد مثل ذلك في فرنسا في القرن الثامن عشر ، حيث سبق الاستيلاء على الباستيل هجوم على الدعامات الروحية الرجعية للعالم القديم • فقد أحدثت مؤلفات المنورين الفرنسيين التي انتقدت ايديولوجية المؤسسات الاقطاعية، ثورة في العقول كانت مدخلاً للثورة الاجتماعية •

ان العصر الجديد هو عصر أعمق انقلاب اجتماعي في التاريخ ، وهدفه أن يضع نهاية ، في كل مكان ، للمجتمع الطبقي القائم على استغلال الانسان للانسان ، وأن ينشىء مجتمعاً شيوعياً جديداً متحرراً من كل أشكال الاضطهاد الطبقي والقومي • وهو إلى جانب ذلك ، عصر الصراع الحاد بين النظرة إلى العالم التي تعتنقها البرجوازية الهادفة بكل قواها إلى الذود عن البناء الرأسمالي المهترىء ، وبين نظرة البروليتاريا إلى العالم •

نشأت الفلسفة الماركسية كايديولوجية للبروليتاريا ـ أكثر الطبقات ثورية في التاريخ ؛ هذه الطبقة التي تترأس الجماهير الشعبية في الصراع من أجل قلب الرأسمالية وبناء الشيوعية • ان للنظرية العلمية الصحيحة أهمية كبيرة في نضال الشغيلة التحرري • وكما لاحظ لينين ، فان مادية ماركس الفلسفية بيّنت للبروليتاريا المخرج من العبودية الروحية التي رسخت في قيودها كل الطبقات المضطهدة حتى الآن • لقد أعطت الفلسفة الماركسية للعمال التقدميين امكانية تحرير أنفسهم من اضطهاد اللاهوت الروحي ومن الايمان الساذج في النوايا الطيبة للحكام وأصحاب العالم الرأسمالي، كما جعلتهم يدركون أن الطبقة العاملة لاتستطيع أن تتحرر من الاستثمار إلا بنضالها الفعال الخاص •

وبفضل صياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية وبفضل نظريتهما الاقتصادية، استطاع ماركس وانجلز تحويل الاشتراكية من حلم طوباوي، من حلم بمستقبل أفضل ، إلى علم بدل حزب البروليتاريا على الطريق الصحيحة للنضال من أجل بناء المجتمع الجديد •

لقد أعطت الماركسية ، لأول مرة في التاريخ ، قاعدة علمية منسجمة من أجل الممارسة العملية لاعادة بناء العالم ثورياً •

وكانت في تاريخ النظريات الاجتماعية أمثلة كثيرة يعلن فيها الناس عن نظريات ثورية للغاية ، ولكنهم ، إذ يقفون إلى جانب المثالية ، يحصرون مهام تحرير الشغيلة بتحرير هؤلاء من الافكار الخادعة والاوهام فقط • لقد انتقد ماركس وانجلز ، منذ بداية نشاطهما، الهيجيليين اليساريين[1] انتقاداً مدمراً• وكان هؤلاء يرون أن سبب اضطهاد العمال هو تفكيرهم • وكانـوا يزعمون للعمال ان باستطاعتهم ابطال مفعول الرأسمال بازالة مفهومه من رؤوسهم • وأكد ماركس وانجلز ان العمال يعرفون ان الملكية الخاصة ورأس المال والعمل المأجور واستغلال العمال من قبل الرأسماليين ، كل هذا ليس أبداً مجرد أوهام في الخيال وانما هي علاقات واقعية ، ولذا فيجب أن تزال بصورة عملية •

وليس من الصعب أن نرى أن التنـاقض بين المادية والمثاليـة هو الذي يبرز هنا أيضـاً ، ذلك التناقض الذي رأيناه لدى دراسـة مسـألة الفلسفة الاساسية • ان ماركس وانجلز يقفان هنا أيضاً كماديين أصليين يريان أن سبب اضطهاد الطبقة العاملة هو الظروف الرأسمالية في البيئة الاجتماعية • ولذا فهما يعتبران من الضروري تبديل هذه البيئة عملياً ، وتدمير النظام الرأسمالي بطريقة ثورية • وعلى عكسهما وقف الذين ينتقدانهم (الهيجيليون اليساريون) كلية موقف الفهم المثالي للتاريخ الذي يرجع الدور المحدِّد في الحياة الاجتماعية إلى أفكار الناس وآرائهم •

ومن وجهة نظر هذا الرأي المثالي « يكف العمال عن أن يكونوا عمـالاً مأجورين فعلاً فقط عندما ينسخون من عقولهم فكرة العمل المأجور ، فقط عندما يمتنعون فكرياً عن اعتبار أنفسهم عمالاً مأجورين ، وتمشياً مـع هـذا

(١) الهيجيليون اليساريون (أو الشبان) هم ايديولوجيو الليبرالية البرجوازية في سنوات٣٠ـ٤٠ من القرن التاسع عشر (برونو بارو وشتراوس وغيرهما) •

الوهم المريض لا يسمحون بأن تدفع لهم أجورهم بصفتهم أفراداً معينين ، وهم بالطبع ، سيستطيعون بعد ذلك ، كمثاليين مطلقين ومخلوقات روحانية أن يعيشوا بروح التفكير المجرد »[1] .

ومثل هذا الموقف المثالي يقفه الاشتراكيون اليمينيون المعاصرون الذين يحاولون ، مثل قائد الاشتراكيين اليمينيين الفرنسيين « بلوم » أن يضعوا محل مهمة اعادة بناء المجتمع الرأسمالي بناء ثورياً ، الموعظة حول كمال الناس الاخلاقي . انهم يدّعون مخادعين « ان علينا أن نجعل الحياة أفضل عن طريق السعي بأنفسنا نحو الكمال » . وهم يزعمون أن مصدر الظلم الاجتماعي هو في عيوب الناس الاخلاقية ، وطريقة ازالته هي تحسين الذات .

أما في الواقع ، فالامر على العكس . فمصدر العيوب الأخلاقية هي ظروف الحياة اللا إنسانية في العالم الرأسمالي القائم على الملكيةالخاصة واستغلالالانسان للانسان . لذا فعلى عكس المثاليين يعتبر أنصار الماديةالتاريخية ان التبدلالجذري للبيئة الاجتماعية الذي تحدثه ثورةالبروليتاريا الاشتراكية هو الشرطالضروري للقضاء على الظلم الاجتماعي . وهكذا فان المعالجة المادية لظواهر الحياة الاجتماعية ، تؤدي إلى الاعتراف بحتمية الثورة الاجتماعية .

إن لفكرة الثورة الاجتماعية التي خلقها الواقع الرأسمالي أساسها النظري في النظرة المادية الديالكتيكية إلى تطور الطبيعة والمجتمع . فاذا كان كل شيء يتبدل ، كما يعلم الديكالكتيك ، فلماذا لا يمكن أن يحدث التبديل في البناء الاجتماعي ؟ ان كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية قد أنشأته في حينه حاجة التطور التاريخية ، ثم يعيش عصره ، ويجب أن يحل محله شكل جديد أكثر رقياً . وهذا التحول يحدث في المجتمع الطبقي المتطور من خلال صراع الطبقات ، عن طريق الثورة الاجتماعية .

ومن الخطأ ، طبعاً ، أن نفهم أن فكرة الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا وكل الشيوعية العلمية ، ليست إلا استنتاجاً منطقياً من المادية

---

(١) ماركس وانجلز : المؤلفات . الجزء ٢ ـ ١٩٥٥ الصفحة ٥٨ .

الماركسية والديالكتيك • ان الشيوعية العلمية هي نتيجة لتحليل الرأسمالية وقوانين تطورها تحليلاً عميقاً • ويبين الاقتصاد السياسي الماركسي تناقضات الرأسمالية التي تؤدي حتماً إلى زيادة حدة الصراع الطبقي وإلى الثورة الاشتراكية • ولكن ، إذ نؤكد أهمية النظرية الاقتصادية الماركسية من أجل تأسيس الشيوعية العلمية ، لا يجوز إلا أن نرى العلاقة الداخلية بين ديالكتيك ماركس المادي ونظريته عن الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا •

ان لنظرية ماركس الاقتصادية أيضاً أساسها الميتودولوجي (الطرائقي) الفلسفي وهو المادية الديالكتيكية والتاريخية • لقد كتب لينين انه في « رأس مال » ماركس « قد طُبِّق في علم واحد ، منطق وديالكتيك ونظرية معرفة المادية » ، وان « ديالكتيك المجتمع البرجوازي عند ماركس هو مجرد حالة خاصة من الديالكتيك»[1] • ولذا فمن المستحيل فهم « رأس مال » ماركس وخاصة الفصل الأول منه بدون دراسة الديالكتيك •

ان المادية الفلسفية وطريقة ماركس الديالكتيكية تشتملان على كل الاجزاء المكونة لنظريته وتوحدانها في نظرية واحدة منسجمة •

ان انتهازيي الأممية الثانية والمحرفين المعاصرين أكدوا بكل الوسائل ويؤكدون الزعم بأن الماركسية لا فلسفة لها ، وحاولوا أن ينسبوا تعاليم ماركس إلى النظريات الاقتصادية والتاريخية التي يمكن أن تضم إلى أي نظام فلسفي[2] •

---

(١) لينين • الدفاتر الفلسفية • ١٩٤٧ الصفحة ٢١٥ ، ٢٢٨ •

(٢) في عام ١٨٩٨ كتب كاوتسكي الى بليخانوف ، عندما حاول المحرفون ضم الماركسية الى الكانتية الجديدة ، وكان كاوتسكي آنذاك نظرياً بارزاً في الاممية الثانية : « وعلى كل حال ، يجب أن أعلن صراحة أن الكانتية الجديدة لا تربكني مطلقاً • لقد كنت ضعيفاً في الفلسفة دائماً ، وعلى الرغم من أنني أقف كلية الى جانب وجهة نظر المادية الديالكتيكية فانني أعتقد أن وجهة نظر ماركس وانجلز الاقتصادية والتاريخية ممكن أن تتفق ، في نهاية الامر ، مع الكانتية الجديدة »• وبعد عشر سنوات ، عندما شرع المحرفون يضمون الماركسية الى فلسفة ماخ المثالية أعلن كاوتسكي انه ينظر الى الماركسية لا كنظرية فلسفية وانما كعلم تجريبي، كفهم خاص للمجتمع• وقال : ان هذه النظرة لا تتفق ، حقاً ، مع الفلسفة المثالية ولكنها لا تناقض نظرية ماخ في المعرفة •

ان الاكليكتيكيين الذين حاولوا توحيد تعاليم ماركس عن المجتمع مع الأنظمة الفلسفية اللا ماركسية قد أفلسوا حتماً • وتشهد محاولاتهم على انهم لم يفهموا ولم يرغبوا حقاً في أن يفهموا الفلسفة الماركسية أو الاقتصاد السياسي أو الاشتراكية العلميــة • ان التنكر لفلسفة الماركسية ـ الماديـة الديالكتيكية والتاريخية ـ يعني قتل الروح الثورية في النظرية الماركسية وحرمان نظريـة ماركس ، عن المجتمـع ، ونظريتــه عن الاشتراكية ، من الاســاس العلمي الفلسفي •

ولا تقل عداء للماركسية محاولات المحرفين المعاصرين لاعلان « اهتراء » تقسيم الفلسفة إلى اتجاهين مادي ومثالي • وهذا الزعم يعني ، في الــواقــع ، زحف المحرفين إلى مواقع الفلسفة البرجوازية وتنكرهم للمادية الديالكتيكية واعادة نفس البداية التي ابتــدأها كل من بيرنشتين وبوغدانوف وكاوتسكي وماكس آدلر وغيرهم من محرفي الماركسية ، في خيانتهم للماركسية •

ان استراتيجية وتاكتيك الحزب الماركسي متصلان اتصالاً وثيقاً بالمسلمات الاساسية لنظريته ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية • ولقد أشار لينين أكثر من مرة ، إلى أن سياسة الحزب الشيوعي لا تقوم على موضوعات ذاتية ، وانما عــلى مراعاة صارمة مادية للظروف الموضوعية وخاصــة نسبة القوى الطبقية • إن الحزب ، إذ يرسم استراتيجيته وتاكتيكه يدرس الطبقات والتناسب بينها لا في حالة الركود وانما في الحركة ، وليس فقط من وجهــة نظر الماضي وانما من وجهة المستقبل أيضاً ، كما يقتضي الديالكتيك الثوري •

وفي فترة التبدل السريع للأحداث والتغير الحاد في الظروف وفي القوى المتصارعة ، يجب بشكل خاص أن يجري بتحديد تاريخي دقيق تقييم الأحداث ومسائل الصراع الطبقي • أما المعالجة الجامدة المجردة فيمكن أن تكون خطرة جداً في مثل هذه الظروف •

ان مسائل النظرية لم تكن بالنسبة للحزب وليست ولا يمكن أن تكون « قضية خاصــة » ببعض أعضائــه • ويؤكد الانتهازيــون أن الآراء الفلسفية

والعقائد الدينية هي قضية خاصة بالنسبة لكل اشتراكي ديمقراطي ،وان الحزب لا يربط نفسه بأية فلسفة • ان هـذه الدعوة تفتح الباب واسعاً لنفاذ الآراء البرجوازية إلى حزب العمال ولتحريف الماركسية واحلال الفلسفة البرجوازية وعلم الاجتماع البرجوازي محلها • وعلى عكس مساعي الانتهازيين نما الحزب الشيوعي وتقوى كمنظمة منسجمة توحدها مبادىء شاملة فكريـة وسياسـية وتاكتيكية وتنظيمية • ان الحزب الشيوعي يعتبر الدفاع عن الأسس النظريـة والفلسفية للماركسية قضيته الحزبية الخاصة ، لأنه يرى أن الماركسية هي سلاح الطبقة العاملة الفكري •

لنتساءل ، أوَلا تناقض الحزبية الشيوعية البروليتارية للنظريةعلميتها؟ان ايديولوجيي البرجوازيةوالمحرفين من بعدهم يعتبرون أنّ لاحزبية النظريةترادف موضوعيتها وحيادها وعلميتها• ولكن كل نظريةفلسفية أو اجتماعية أو اقتصادية تحاول تفسير مسائل حيوية في الحياة الاجتماعية ، تعبر في الواقع عن مصالح هذه الطبقة أو تلك ، وهي بهذا المعنى حزبية • والأمر كله ينحصر في ماهية هـذه الطبقة ، وما هو موقف مصالحها من التقدم الاجتماعي • ان مصالح البرجوازية الرجعية تتطلب تخليد الاستغلال واضطهاد الانسان للانسان • وهـذه المصالح تدفع ايديولوجيي البرجوازية إلى تحريف الحقيقة باسـم المصالح الانانيـة الضيقة للطبقة ، وإلى التصوير الكاذب للواقع • ومن أجل الحفاظ على النظـام الرأسمالي وسيطرة الطبقة البرجوازية يحاول ايديولوجيو البرجوازية المعاصرة تصوير الرأسمالية في أحلى الصور ويطمسون تناقضاتها ويذمون الاشتراكيـة بشتى المذمات •

ان الطبقات الرجعية لا تستطيع تبني الديالكتيك المادي الثـوري • وعلى العكس فالبروليتاريا ، كطبقة ثـورية للنهاية ، مهتمة بتغيير المجتمـع جذرياً وبالقضاء على كل اضطهاد • انها تأخذ السلطة ، لا من أجل احلال شكل من الاستغلال محل شكل آخر ، وانما من أجل القضاء على كل استغلال وعلى كل طبقة • وتحقيق هذه المهمة واعادة بناء العالم غير ممكنة إلا بمعرفة قنوناته • ولذا فان البروليتاريا وحزبها الماركسي مهتمان بمعرفة العالم كما هو ، بـدون

أي تحريف • انهما مهتمان بالكشف عن تلك الاتجاهات في التطور التي تنشأ في الواقع ذاته • والنظرية العلمية وحدها يمكن أن تكون دليلاً صحيحاً في العمل الثوري • وهذا هو السبب في كون الحزبية الشيوعية البروليتارية في العلم ، وخاصة في الفلسفة ، لا تناقض الموضوعية وانما تتطلب المعرفة الموضوعية في العالم وتتطابق مع العلمية الصارمة والموضوعية •

ان المحرفين المعاصرين ، اذ يعترفون بحزبية النظرية ، يعلنون أن الماركسيين ينحدرون إلى تقسيم الفلسفة، تقسيماً ساذجاً ،إلى معسكرين ـ معسكر الماديين ومعسكر المثاليين • فيبعدون عنهم قسماً كبيراً من الفلاسفة وممثلي العلوم الاجتماعية الآخرى ، ويرفضون كل ما هو قيم وموجود في الفلسفة غير الماركسية وعلم الاجتماع ونظرية الاقتصاد وعلم التاريخ وغير ذلك •

لايحتاج الماركسيون لان يقسموا الفلاسفة إلى معسكرين ، فهذا التقسيم موجود في الحياة وجوداً مستقلاً عن تقييم أي كان • ان نفي هذه الحقيقة عديم الجدوى تماماً كنفي وجود الطبقات وصراعها في المجتمع الرأسمالي المعاصر • ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة لا يطابق أبداً الموقف اللامبالي من النتائج الايجابية لابحاث العلماء البرجوازيين • ان الماركسيين يعرفون كيف يفرقون بين الابحاث الواقعية القيمة للغاية التي يقدمها العلماء البرجوازيون في كثير من الأحيان ، أولئك العلماء الذين يدرسون الواقع بشرف، وبين استنتاجاتهم وتعميماتهم الفلسفية النظرية الخاطئة • والماركسيون يرمون جانباً ما يحمل طابع ضيق الأفق البرجوازي والأوهام ، ثم يستخدمون كل مكتسبات الباحثين البرجوازيين في مجال العلوم الحسية • ان تجاهل المكتسبات يعني الانحدار إلى مواقع الانعزالية ، اما تبني الاستنتاجات الفلسفية لاصحاب هذه المكتسبات فيعني تسليم مواقعنا والسقوط في أسر الايديولوجية المعادية •

ثم ان رجعية المثالية المعاصرة ، كنظرية فلسفية ، لا تعني ان كل واحد من أنصارها رجعي سياسياً وعدو للسلم والديمقراطية • ان توهانات العلماء البرجوازيين المثالية ليست بالضرورة ناجمة عن المصلحة الشخصية في الدفاع

عن الرأسمالية كما يزعم الماركسيون العاميون • وهذه التوهانات كثيراً ما تكون نتيجة لنفوذ الأوهام البرجوازية وضيق الافق الاجتماعي وغير ذلك • ان الاحزاب الماركسية ، في الوقت الذي لا تسمح فيه بأي تنازل أمام الايديولوجية البرجوازية والمثالية الفلسفية ، لا تنفّر فئات المثقفين البرجوازيين المشبعين بهذه الايديولوجية وانما ، على العكس ، تسعى إلى اجتذابهم إلى النضال الشامل من أجل السلام والديمقراطية والاشتراكية •

وكلما تعمقت أزمة الرأسمالية يزداد وضوحاً عجزها عن تأمين التطور اللاحق الاقتصادي والسياسي والفكري في المجتمع الانساني •

وحتى أعداء الماركسية يضطرون،في الوقت الحاضر،مغتاظين،إلى الاعتراف بالنفوذ المتزايد للفلسفة الماركسية في جماهير الشغيلة في العالم كله • ويسمي بعضهم تعاليم الماركسية أهم ، وفي الوقت نفسه ، أخطر قوة فكرية في العالم المعاصر• وفي عام ١٩٦١ نشرت في الجريدةالاميركية «واشنطن بوست أند تايمس هيرالد » رسالة نموذجية في هذا المجال لاستاذ الفلسفة جيمس• ب• هودجسن يقول فيها : « ان الفيلسوف الألماني الرائع صاغ وهو جالس في المتحف البريطاني أقوى فلسفة اجتماعية • اننا نعني طبعاً كارل ماركس •

لم تكن عنده دبابة واحدة أو طائرة نفاثة أو صاروخ ورغم ذلك فان أعماله العلمية هي القوة الاساسية التي تهدد في الوقت الحاضر الغرب •

وحسبما أفهم ليس بين الفلاسفة الغربيين في الوقت الحاضر حركة مماثلة تهدف إلى وضع رد على ماركس يمكن أن يستخدم بفعالية فيهذه الازمة المتنامية • وليس ، على حد علمي ، حول الرئيس كندي فيلسوف واحد •

ان ماركس ينتظر الرد من الغرب » •

ان قلق المدافعين عن الرأسمالية ليس عبثاً • ومن الطبيعي ان الأمر ليس في عدد الفلاسفة المحيطين بالرئيس وانما بكون الايديولوجيين البرجوازيين

ينظرون إلى الماضي ويدافعون عن العالم الزائل • لذا فهم غير قادرين على صياغة أفكار يستطيعون بها إلهاب قلوب الملايين • أما الشيوعية فتحمل للعالم أفكاراً نبيلة ملهمة توطد على الأرض السلم والعمل والحرية والمساواة والأخوة والسعادة لجميع الشعوب •

ان التبدلات التاريخية العظيمة التي جرت في العالم خلال عشرات السنين الأخيرة ـ الانتصار النهائي التام للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وانتقاله الناجح نحو الشيوعية وتكون ونمو النظام الاشتراكي العالمي وتحوله إلى عامل حاسم في تطور المجتمع ، وانهيار النظام الاستعماري ـ للامبريالية ـ تؤكد صدق الماركسية اللينينية • ان شغيلة العالم كله يرون ان ما تنبأ به ماركس يتحقق فتنهار الرأسمالية ويتحقق ما تنبأ به لينين ، فتحل فترة في التاريخ العالمي تحدد بها شعوب الشرق بنفسها مصيرها ، وتصبح عاملاً جباراً في العلاقات الدولية •

ان أفكار الماركسية اللينينية هي وحدها التي استطاعت أن تدل الشعوب إلى طريق تحررها الحقيقي وتعطيها الجواب على المسائل التي تطرحها أمامها المرحلة المعاصرة من التاريخ العالمي •

وفي هذه الظروف التي تعيشها البشرية الآن تنمو بشكل خاص أهمية النظرية العلمية الصحيحة التي تفتح آفاق واضحة وتزرع في جماهير الشغيلة الثقة في انتصار قضيتهم العادلة • ولذا جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي: أنه «لابد من الدفاع بصمود، في المستقبل أيضاً، عن المادية الدياليكتيكية والتاريخية وتطويرهما كعلم عن أشمل قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير الانساني »[1] •

ان عملية نشوء وتطور النظرية العلمية ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية، والكشف عن موضوعها الاساسي هو موضوع الفصول التالية من هذا الكتاب •

---

(١) « برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي » الصفحة ١٢٨ •

الفصل الثاني

نشوء وتطور الفلسفة الماركسية

١ ـ الظروف التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية

ماركس وانجلز ـ المبدعان العظيمان للمادية الديالكتيكية والتاريخية

في الأربعينيات من القرن التاسع عشر جرى في تطور الفكر الفلسفي انعطاف ثوري عظيم : فقد نشأت الفلسفة الماركسية ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية • والفلسفة الماركسية ، التي يحق لنا تماماً أن نعدها النظرية العلمية الاصيلة الوحيدة في العصر ، هي ، ككل نظرية فلسفية ، نتاج عصر تاريخي محدد • واذا كان الفلاسفة من قبل لم يعطوا ولم يستطيعوا أن يعطوا مثل هذه النظرية فان سبب هذا ليس الضعف وانما هو قبل كل شيء الظروف التاريخية التي عاشوها •

أصبح منتصف القرن الماضي عصر ولادة المادية الديالكتيكية والتاريخية لأن كل مجرى التطور الاجتماعي وكذلك تكدس المعارف عن الطبيعة وكل التطور السابق للفلسفة ، أدى بشكل مقنون وحتمي إلى نقطة الانعطاف هذه • ان الماركسية ككل ، والفلسفة الماركسية كجزء مكون لها، نشأتا بقوةالاحتياجات التاريخية الملحة ، وكرد على المتطلبات التي قدمها التطور الموضوعي للمجتمع وتطور المعارف الانسانية •

كتب لينين : « ان تاريخ الفلسفة وتاريخ علم المجتمع يبينان بوضوح تام أنهليس في الماركسية ما يشبه «الانعزالية» ، بمعنى انها ليست نظرية مغلقةجامدة نشأت بعيداً عن الطريق الرئيسية لتطور المدنية العالمية • بل على العكس فكل

عبقرية ماركس هي في كونه بالذات أعطى الردود على المسائل التي طرحها فكر البشرية التقدمي • لقد نشأت نظريته كاستمرار مباشر وصريح لتعاليم أعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية »[١] •

هذه الكلمات اللينينية الرائعة تصف العلاقة الداخلية والاتصال القائمين بين الماركسية والفلسفة الماركسية وبين التطور السابق لفكر الانسانية ، وتصف أيضاً ذلك الجديد الذي يجعل نشوء الماركسية حدا ، وانقلاباً ثورياً في تاريخ الانسانية الفكري • فبدون الاستيعاب الناقد لما أعطاه الفكر الفلسفي التقدمي في الأعوام الماضية ، وبدون صياغة هذه المعطيات ، لم يكن بالامكان نشوء المادية الديالكتيكية والتاريخية • ان الفلسفة الماركسية هي نتيجة وقمة التطور الطويل للفكر الفلسفي ، وهي الوريثة الشرعية لأفضل ما أنشيء خلال طريق صياغة انظرية العلمية المعقد المليء بالمتناقضات •

وكما قيل في الفصل الأول ، فان الصراع بدأ ثم ازداد حدة بين اتجاهين في الفلسفة ــ المادية والمثالية، منذ أن ولد الفكر الفلسفي•لقدكانت لتطور الفكر الفلسفي ، تاريخيا ، قنونته ، وهي انه في هذا الصراع تكونت وتطورت النظرية الصحيحة الوحيدة ــالنظرية المادية ، مقابل المثالية واللاهوت ، رغم التعرجات المعروفة في التطور الروحي للشعوب • وقد نشأت المادية في الماضي البعيد • وكانت تستجيب للنظرة الانسانية الصحيحة السليمة إلى الطبيعة كواقع موضوعي موجود وجوداً مستقلاً عن الوعي •

لقد اعترف الفلاسفة الاغريقيون في القرن السادس قبل الميلاد : فاليس ، واناكسيماندر واناكسيمين بالطبيعة المادية للظواهر الطبيعية ورأوا أساسها في « البداية » الواحدة • واعتبر فاليس أن « البداية » المادية هي الماء ، و « أناكسيماندر » : المادة اللامحدودة اللاموصوفة (البيرون) ، واناكسيمين ــ الهواء • وكل التبدلات الفضائية في نظريات هؤلاء الفلاسفة هي حركة أزلية « للبدايات » المادية ، وهي تحولاتها اللانهائية •

---

(١) لينين ــ المؤلفات ، الجزء ١٩ الصفحة ٣ •

وتطورت الفلسفة المادية لاحقاً في نظرية هيريقليط الذي عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد • فحسب نظرية وديالكتيك المادي الاغريقي هيريقليط،لم يخلق الله العالم وانما كان هذا موجوداً منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد • ويفسر وحدة جميع ظواهر العالم بكون أساسها هو « بداية » واحدة ، عملية مادية ، هي النار • وكل ما في العالم والفضاء يتطور بشكل مقنون بفضل اشتعال وانطفاء النار • « هذا الفضاء ، واحد بالنسبة لكل ما هو موجود ، لم يخلقه أي اله أو أي انسان ، ولكنه كان دائماً وهو موجود وسيكون إلى الأبد ناراً حية ، تارة تشتعل وتارة تخبو »[1]• ويصف لينين أقوال هيريقليط هذه كعرض جيد أولي للفهم الديالكتيكي للطبيعة »[2]•

وتظهر في نظرية هيريقليط علاقة عضوية بين مادية القدماء والنظرة الديالكتيكية للواقع • ان أول ما يبرز للعين لدى تأمل الطبيعة والحياة الاجتماعية هو لوحة التبدل الشامل ، وحلول ظواهر محل ظواهر أخرى ونشوؤها واختفاؤها • والفلاسفة الماديون القدماء الذين أخذوا العالم كما هو ، وكما بدا للملاحظة الأولية ، عكسوا في نظرياتهم عملية التبدل الشاملة والحركة والتطور •

وأورد الفيلسوفان الاغريقيان ليفكيب وديموقريط (القرن الخامس قبل الميلاد) فكرة رائعة عن البناء الذري للمادة والعلاقة السببية بين جميع ظواهر الطبيعة • ووضع ليفكيب أسس الفلسفة الذرية الاغريقية القديمة وطور ديموقريط نظاماً كاملاً للمادية الذرية •

والكون ، حسب آراء ديموقريط ، أزلي ولا نهائي ؛ وهو يتألف من عوالم لا حصر لها ، نشأت أزلياً وتتطور وتموت • وليس في العالم سوى الذرات والفراغ • ان فكرة ديموقريط القائلة بأن حركة الذرات،التي تتكون منها كل الاشياء ، وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الابد ، لعبت دوراً كبيراً في تطور مفاهيم المادة والحركة •

---

(١) « ماديو اليونان القديمة • مجموعة نصوص هيرقليط وديموقريط وابيقور » •

(٢) لينين ــ الدفاتر الفلسفية الصفحة ٢٩٤ •

وتطورت النظرية المادية تطوراً واسعاً في بلاد الشرق القديم (الصين والهند وغيرهما) وكانت القرون الوسطى عصر سيادة الدين ، والفلسفة الدينية • وطوردت في هذا العصر الفلسفة المادية وهي بالطبع لم تستطع أن تتطور • وبدأ النهوض الجديد للفلسفة المادية في القرنين ١٦ ـ ١٧ تقريباً • وكان هذا مرتبطاً بتفسخ المجتمع الاقطاعي وبداية تطور الاسلوب الرأسمالي في الانتاج وظهور قوى اجتماعية تقدمية جديدة على مسرح التاريخ •

ان متطلبات تطور الانتاج الرأسمالي الوليد والتكنيك الجديد والتجارة والملاحة ، كل هذا استدعى تطور علم الطبيعة ، وبالدرجة الأولى ، الميكانيك والرياضيات وعلم الفلك • ومع تطور علم الطبيعة تطورت الفلسفة المادية • وهي لم تقم فقط بتعميم معطيات علم الطبيعة وانما أعطته أيضاً دفعة قوية بصياغة النظرة المادية إلى العالم ونظرية المعرفة المادية والطريقة لدراسة الواقع •

وقدمت الفلسفة المادية في هذه الفترة مجموعة ضخمة من الاسماء المجيدة من أمثال بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) وهوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) ولوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) في انكلترا ، وسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) في هولاندة ، ثم قدمت ، في القرن الثامن عشر عشية الثورة الفرنسية العظمى،مفكرين عظاماً من أمثال لاميتري (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) وغولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) وهيلفيتسي (١٧١٥ ـ ١٧٧١) وديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) وغيرهم •

كانت المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر، نظرية نضالية بصورةخاصة، فقد أعدت البرجوازية الفرنسية للثورة ايديولوجياً •

حارب الماديون الفرنسيون بحزم النظرية الدينية والكنيسة الكاثوليكية التي كانت سائدة ووقفوا ضد النظام الاقطاعي والحكم المطلق •

يقول انجلز : «ان الناس العظماء الذين نوّروا الرؤوس في فرنسا من أجل الثورة المقتربة ، وقفوا هم أنفسهم موقفاً ثورياً للغاية • فهم لم يكونوا يعترفون بأي ضغط معنوي مهما كان نوعه • فاللاهوت وفهم الطبيعة والمجتمع ونظام الدولة ـ كل هذا

انتقد من قبلهم انتقاداً لا هوادة فيه ، وكل شيء كان عندهم يخضع لمحاكمة العقل فاما أن يبرر وجوده أو يرفض »[1] •

لقد خطا الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر خطوة كبيرة إلى أمام بالنسبة لماديي القرن السابع عشر ، وقبل كل شيء ، في فهم العالم المادي ذاته وفي فهم الطبيعة • فالمادة بالنسبة لهم هي المجموع اللانهائي للاشياء الموجودة في حالة الحركة ، وهي العالم المادي كله بكل تنوعاته •

ولكن المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، كالمادية الانكليزية في القرن السابع عشر ، كان يغلب عليها الطابع الميكانيكي والميتافيزيكي • ان ضيق أفق مادية القرن الثامن عشر كان أيضاً في عدم قدرتها على الارتفاع إلى مستوى الفهم المادي للحياة الاجتماعية • ففلاسفة القرن الثامن عشر في نظريتهم عن المجتمع كانوا يتبنون نظرة مثالية : « الآراء تدير العالم » •

وقبل نشوء الماركسية بقليل انتشر نضال حاد جداً بين المادية والمثالية في المانيا • وكان يمثل الفلسفة المثالية هنا فلاسفة مثل كانت (١٧٤٢ – ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) وغيرهما ، والفلسفة المادية ـ فيرباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢) • كان هيجل مثالياً موضوعياً • ونقطة الانطلاق في فلسفته كانت الاعتراف بما سماه « الفكرة المطلقة » التي وجدت قبل الطبيعة ومستقلة عنها •

ان « الفكرة المطلقة » الهيجيلية ليست سوى تأليه للوعي الانساني الذي فصله عن المادة والطبيعة وجعله مقابلاً لهما كقوة مبدعة عليا لكل ما هو موجود• ولكن هيجل لم يكن مثالياً فحسب وإنما كان ديالكتيكياً أيضاً • وحسب نظريته توجد « الفكرة المطلقة » في تطور وتبدل دائم • وفي عملية تطورها الديالكتيكي تخلق الطبيعة والانسان والمجتمع الانساني الذي يؤدي عنده دور « الوجود الخارجي » لهذه « الفكرة المطلقة » المؤلهة • ومأثرة هيجل العظمى هي أنه صاغ الطريقة الديالكتيكية ، رغم انه فعل ذلك على أساس مثالي خاطىء • وكما لاحظ لينين فان هيجل ضمّن (ضمن فقط) بعبقرية، عن طريق ديالكتيكه

---

(١) ماركس وانجلز ـ مؤلفات مختارة الجزء الثاني ١٩٥٥ الصفحة (١٠٧) •

الفكرة والمفهوم ، ديالكتيك الاشياء ذاتها ، الواقع الموضوعي ذاته • لقد أعطى هيجيل ، على أساس مثالي ، أول صياغة لقوانين الديالكتيك الاساسية : كقانون تحول الكمية إلى كيفية، والتناقض وصراع الاضداد كمصدر للتطور، وقانون نفي النفي • ورغم ان مبادىء التطور هذه صيغت من قبل هيجيل بشكل مثالي وبدون انسجام ، فان هذه الصياغة كانت خطوة كبرى في تطور الفكر الفلسفي وفي اعداد نظرية التطور الديالكتيكية•وقد وجه هيجيل ، ببحثه التطور الديالكتيكي، ضربة شديدة إلى الطريقة الميتافيزيكية التي كانت سائدة آنذاك •

ولكن هيجيل لم يستطع أن يلحق الهزيمة الكاملة بالنظرية الميتافيزيكية لان نظمه المثالي كان يتناقض مع الديالكتيك ويقيده ، ولم يتح له أن يظهر بكل قوة • أضف إلى ذلك انه دفع فلسفته إلى استنتاجات ميتافيزيكية في مرحلة أخيرة مزعومة لتطور المجتمع ••• الخ وظهر هذا بصورة خاصة في آرائه الاجتماعية ـ السياسية (الخوف من الانهيار الثوري للنظام الاقطاعي في ألمانيا ، والتهادن مع الواقع القائم وما شابه ذلك) •

لقد سلط فيرباخ نقداً لا رحمة فيه إلى فلسفة هيجل المثالية •وكان فيرباخ نفسه ، في البداية ، تلميذاً لهيجيل ، ولكنه سرعان ما فهم خطأ المثالية وبدأ نضالاً شجاعاً من أجل المادية • وبيّن فورباخ كل اسطورية « فكرة هيجيل المطلقة » ودافع بصلابة عن مبدأ أولوية المادة وثانوية الوعي • وكانت فلسفته انسانية (انتروبولوجية) ، لأنه وضع الانسان في مركز فلسفته • الانسان كوجود مادي فيزيولوجي له مشاعر وتفكير يتعرف على الطبيعة الموجودة وجوداً موضوعياً • ولا وجود لأي شيء آخر أعلى من الطبيعة ولا يمكن أن يوجد • ولكن كان لانتروبوجية فيرباخ جانبها السلبي : انه يفهم الانسان ككائن بيولوجي وحسب • في حين ان الانسان الواقعي لا يمكن أن يدرس في اللا مجتمع ، وبدون علاقات اجتماعية • ولذلك ما ان يشرع فيرباخ في معالجة مسائل الحياة الاجتماعية حتى تظهر مثاليته في فهم المجتمع وتجريده لانسانه •

كان فيرباخ في آرائه عن الطبيعة مادياً منسجماً • ونظريته الفلسفية لم تكن فقط موجهة ضد المثالية واللاهوت ولم تكن فقط دفاعاً عن التقاليد المادية

في القرنين ١٧ ـ ١٨ ، وانما تغلبت على بعض صفات ضيق أفق الشكل الميكانيكي للمادية • لقد رفض فيرباخ الفهم الميكانيكي المجرد للمادة كشيء وحيد النوع • ان للطبيعة ، عند فيرباخ ، تنوعاً كيفياً ، تحسه كل حواس الانسان •

لقد قال فيرباخ الكثير من الأفكار الجديدة الخصبة في مسائل نظرية المعرفة أيضاً • وطور المادي الالماني نظرية المعرفة كانعكاس للخصائص الموضوعية للاشياء • واذا كان هيجيل قد قلل من دور المعرفة الحسية فان فيرباخ أكد الاهمية الكبرى للمشاعر والاحساسات بالنسبة للعكس الصحيح للطبيعة في التفكير الانساني •

غير أن فيرباخ لم يفهم على الاطلاق ديالكتيكية هيجيل وبقي بصورة أساسية في المواقع الميتافيزيكية من حيث تفسير الطبيعة • وهذا أكبر عيب في فلسفته • وكان في آرائه الاجتماعية أكثر تقدمية إلى حد كبير بالنسبة لهيجيل ، اذ غدا ايديولوجيي البرجوازية الديمقراطية في فترة الاعداد لثورة عام ١٨٤٨ في ألمانيا •

وقام الماديون الروس العظام والثوريون الديمقراطيون: غيرتسين (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) وتشيرنيشيفسكي (١٨٢٨ ـ ١٨٨٩) وغيرهما بنقد المثالية الفلسفية وخاصة الهيجلية نقداً شديداً متحمساً • وكانت آراؤهم المادية خطوة إلى أمام بالنسبة لفيرباخ لانهم أدركوا أهمية الديالكتيك وأعادوا صياغته بروح مادية •

وهكذا فان التطور الذي دام قروناً عديدة في الفكر الفلسفي ونضال المادية ضد المثالية قد أعدا التربة لانتصار النظرية الصحيحة الوحيدة ، المادية ، انتصاراً نهائياً •

ولكن عمل ماركس وانجلز ـ ايديولوجيي البروليتاريا ـ لم يقتصر على كونهما استطاعا أن ينشئآ فلسفة مادية منسجمة علمية هي المادية الديالكتيكية • ان الماركسية التي كانت الاستمرار المباشر لأفضل تقاليد التطور الفلسفي السابق تتميز تميزاً عميقاً على كل النظريات التي سبقتها لكونها استطاعت أن تجيب

على كل الأسئلة التي كانت مطروحة ولكن الفلسفات السابقة عجزت عن الاجابة عليها بسبب ضيق الافق التاريخي والطبقي • لقد استطاعت الماركسية فعل ذلك لأنها كانت التعبير النظري عن الظروف التاريخية الجديدة والقوى الاجتماعية الجديدة التي ظهرت على المسرح الاجتماعي في عشرات السنين الاولى من القرن التاسع عشر •

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر جرى انهيار النظام الاقطاعي القديم وانتصار النظام الرأسمالي الجديد في عدد من البلدان أولها انكلترا وفرنسا • وتطورت الرأسمالية في بلدان أخرى • ونضجت الثورة البرجوازية في المانيا • وحملت الرأسمالية معها تطوراً لم يكن له مثيل من قبل في قوى المجتمع المنتجة ، بدأ على أساسه تطور سريع في علم الطبيعة • ولكن المجتمع البرجوازي الجديد حمل معه أيضاً تناقضات اجتماعية جديدة لا مثيل لقوتها وحدتها • ولاقت هذه التناقضات أعمق تعبير عنها في الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا •

لقد كانت التناقضات الطبقية موجودة أيضاً في المجتمع الاقطاعي • ولكن هذه التناقضات وحلّها لم يكونا يحملان في ذاتهما امكانات انشاء مجتمع خال من استغلال الانسان للانسان • ان اسلوب الانتاج الرسمالي ينشيء لأول مرة في التاريخ بفعل قوانينه الاقتصادية الخاصة مقدمات موضوعية لتدمير كل استغلال وكل شكل للعبودية الاجتماعية • وهو قد خلق البروليتاريا ـ تلك القوة الاجتماعية القادرة على تحقيق أعمق انقلاب ثوري في حياة الانسانية وبناء مجتمع جديد قائم على التعاون بين أناس متحررين من الاستغلال • ان نضال البروليتاريا ، خلافاً للنضال الطبقي في النظم الاجتماعية السالفة ، لا يهدف إلى استبدال شكل من الاستغلال بشكل آخر وإنما إلى تدمير الاستغلال عموماً وتحرير الانسان اجتماعياً وتحرير الانسانية •

ومنذ الخطوات الاولى لوجود المجتمع البرجوازي يبدأ نضال البروليتاريا ضد البرجوازية • وفي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر ينتشر النضال ويتزايد حدة • وتنفجر ثورات البروليتاريا ، واحدة اثر أخرى ، في

البلدان المختلفة ، ثورة العمال الفرنسيين في ليون ، وحركة التشارتيستيين الجبارة التي قامت بها البروليتاريا الانكليزية ، وثورة عمال نسيج سيليزيا في ألمانيا ـ هذه الاحداث وغيرها كانت أولى البشائر الجدية للنضال التحرري المتنامي الذي كانت الطبقة العاملة تخوضه ضد البرجوازية .

ولكن العمال لم يكونوا في هذا النضال يمتلكون بعد برنامجاً واضحاً . لقد ناضلوا من أجل وجودهم ، من أجل حقهم في الحياة ومن أجل تخفيف وطأة الاستغلال القاسي اللاانساني . ولكنهم لم يكونوا يرون أو يدركون المعنى التاريخي العالمي للحركة العمالية . ولم تكن لديهم منظمتهم التي تترأس نضالهم وتوجهه في الطريق الصحيح . ولم تكن أعمالهم موجهة بالنظرية العلمية الثورية التي لايمكن أن تنجح حركة ثورية بدونها .

وكانعكاس للتناقضات الصارخة في المجتمع البرجوازي ، التناقض بين فقر جماهير الشغيلة المدقع وغنى الطبقات السائدة ، نشأت نظم الاشتراكية الطوباوية . وكان ألمع ممثلي الاشتراكية الطوباوية في بداية القرن التاسع عشر هنري سان سيمون ، وشارل فوريه ،وروبرت أوين . وقد أصبحت آراؤهم الاشتراكية أحد المصادر النظرية للماركسية . وكانت الجوانب القوية في الاشتراكية الطوباوية هي نقدها للنظام البرجوازي وتصويرها العميق لتناقضات وعيوب الرأسمالية . وآمن الاشتراكيون الطوباويون ايماناً شديداً في المستقبل الافضل للانسانية ، وخمنوا ، بعبقرية ، بعض صفات المجتمع المقبل، ودعوا ببسالة لفكرة الاشتراكية . ولكن هذه الاشتراكية كانت اشتراكية غير علمية . انهم لم يدركوا الطبيعة الاجتماعية للبروليتاريا ولم يستطيعوا أن يروا فيها تلك القوة الاجتماعية التي تحقق التحول الاشتراكي في المجتمع . ان الاشتراكيين الطوباويين لم يعرفوا أبداً طرق ووسائل تدمير النظام الرأسمالي وانشاء المجتمع الاشتراكي . ولم يتوجهوا بمواعظهم إلى الشعب ولا إلى جماهير الشغيلة وإنما إلى كل الطبقات وإلى رجال السياسة والبرجوازية وإلى « الملوك المتنورين » ، آملين أن يحققوا بمساعدتهم خططهم . ومن المفهوم ، انه بالرغم من كل الصفات الايجابية للاشتراكية الطوباوية فهي لم تستطع أن تساعد البروليتاريا

في نضالها ضد البرجوازية • بل وأكثر من ذلك، فان نظريات الطوباويين أصبحت مع الزمن ، تعيق حل المسائل الملحة لحركة الطبقة العاملة الثورية • وذلك لعدم فهم واضعها أن الاشتراكية تصبح حلماً لايمكن بلوغه بدون نضال البروليتاريا الطبقي •

ان انشاء الاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية العلمية ، وهي الأمر ذاته ، أصبح المهمة التاريخية الملحة للعصر الجديد الذي بدأ بانتصار الرأسمالية واتساع النضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية • لقد طرح كل مجرى التاريخ هذه المهمة ونفذها ايديولوجيا البروليتاريا ـ ماركس وانجلز •

وكان انشاء الاشتراكية العلمية عملاً في غاية التعقيد والصعوبة • لقد كتب انجلز فيما بعد : « من أجل تحويل الاشتراكية إلى علم كان من الضروري قبل كل شيء ، أن توضع على أساس واقعي »[1] • ووضعها على أساس واقعي كان يعني البرهنة علمياً على أن الاشتراكية ليست اكتشافاً مصادفاً من ابداع هذا العقل العبقري أو ذاك كما ظن الاشتراكيون الطوباويون، وانما هي نتيجة حتمية وقانونية لتطور الرأسمالية الاقتصادي وصراع الطبقات • ومن أجل هذا كان من الضروري الكشف عن جوهر أسلوب الانتاج الرأسمالي ، ومعرفة قوانين تطوره واكتشاف آلية الاستغلال الرأسمالي التي تحتم صراع الطبقتين الاساسيتين في المجتمع البرجوازي ـ البروليتاريا والبرجوازية •

ان أهم مقدمة لانشاء نظرية الاشتراكية العلمية كانت صياغة النظرية الفلسفية العلمية • فبدون ذلك كان من المستحيل التقدم خطوة واحدة من الاشتراكية الطوباوية نحو الاشتراكية العلمية • لم تكن للاشتراكية الطوباوية تربة واقعية للاسباب التي أوردناها ولأنها كانت تعالج الحياة الاجتماعية معالجة ميتافيزيكية على الرغم من بعض اللمحات الديالكتيكية العبقرية •

---

(١) ف• انجلز• ضد دوهرينغ الصفحة ٢٠ •

ومن مواقع الميتافيزيكية والمثالية كان من غير الممكن انشاء حتى نظرية اقتصادية علمية تفسر جوهر الاسلوب الرأسمالي للانتاج •

ولا يجوز أن نقول انه قبل ماركس وانجلز لم تكن هناك محاولات لمعرفة جوهر وقوانين الرأسمالية • ويعود فضل كبير في هذا المجال إلى أبرز ممثلي علم الاقتصاد السياسي الانكليزي ـ سميث وريكاردو اللذين وضعا بداية نظرية القيمة والعمل • ان نظريتهما الاقتصادية ، كالاشتراكية الطوباوية ، كانت احدى المصادر النظرية للماركسية • وعندما وضع ماركس اقتصاده السياسي استخدم استخداماً نقدياً نظرية سميث وريكاردو • ولكن هذين الاقتصاديين ، كمعبرين عن مصالح البرجوازية ، لم يستطيعا أن يريا الطابع المرحلي للرأسمالية ، ودرساها ميتافيزيكياً ، كشكل أبدي لا يتبدل للمجتمع الانساني • وقد عاقهما هذا عن كشف جوهر الاسلوب الرأسمالي في الانتاج •

ولكي تتحول الاشتراكية من طوباوية إلى علم ، كان لا بد من التغلب نهائياً على المثالية ككل ، وخاصة الفهم المثالي للتاريخ الذي كان يتبناه الفلاسفة من قبل وحتى أولئك الذين كانوا يتبنون النظرة المادية في تفسير الطبيعة • كان لابد من التغلب على الطريقة الميتافيزيكية في التفكير التي أعاقت النظر إلى المجتمع في تطوره وتبدله ، في انتقاله من الاشكال القديمة المهترئة إلى الاشكال الجديدة • وكان لابد من صياغة طريقة علمية فلسفية لمعرفة الواقع • وباختصار ، ان نشوء الماركسية والاشتراكية الماركسية لم يكن ممكناً بدون انقلاب في الآراء الفلسفية التي كانت سائدة آنذاك • وقد قام ماركس وانجلز بهذه الثورة في الفلسفة بانشائهما المادية الديالكتيكية والتاريخية •

وبفضل المادية الديالكتيكية والتاريخية فقط ، استطاع مؤسسا الماركسية أن يعطيا التحليل العلمي للرأسمالية ، ويظهرا أن الاشتراكية هي نتيجة مقنونة لتطور المجتمع ، ويوضحا الاهمية التاريخية العالمية لدور البروليتاريا كحفار قبر الرأسمالية ، ويدلا الطبقة العاملة إلى طريق الاستيلاء على السلطة السياسية وإنشاء مجتمع جديد أي مجتمع اشتراكي • لقد نشأت الفلسفة الماركسية ، بالتالي ، في ارتباط وثيق بعملية تكون الماركسية كايديولوجية للبروليتاريا •

وإلى جانب الاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية تقف المادية الديالكتيكية والتاريخية كجزء مكون للماركسية يشكل أساسها الفلسفي .

واذا كان ماركس وانجلز قد أحدثا ثورة في الفلسفة وأنشأ نظرية فلسفية تعطي النظام الصحيح العميق ، عملياً،من الآراء عن العالم،فان هذا يفسر ، ليس فقط ، بأنهما كانا مفكرين عبقريين ، وانما ، وقبل كل شيء ، بأنه قبيل ظهورهما تكونت كل المقدمات اللازمة لذلك . ان تطور العلوم ، وخاصة علم الطبيعة ، كان قد بلغ حداً أصبح باستطاعة المرء معه أن ينشيء نظرية فلسفية مادية ديالكتيكية علمية أصيلة . وقد لاحظ انجلز في معرض تقويمه لنتائج تطور علم الطبيعة ان النظرة الجديدة إلى الطبيعة معادية للمثالية وللميتافيزيك وان علم الطبيعة قد هيأ لها منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً .

ولا نستطيع أن نفهم عملية نشوء وتكوين المادية الديالكتيكية ، بغض النظر عن العلاقة العضوية بين هذه العملية وتطور علوم الطبيعة . وقد تابع مؤسسا الماركسية ، منذ أولى خطواتهما في العمل وحتى نهاية حياتيهما ، باهتمام نجاحات العلم والتكنيك . ان المبادىء الجذرية للمادية الديالكتيكية وهي علم عن جوهر العالم المادي وعن المادة وأشكال وجودها وعن أشمل قوانين تطور البيئة وعن علاقة المادة والفكر — لم تكن لتتطور بانسجام إلا على أساس صلب من المعارف التي تم التوصل اليها عن الطبيعة . ان الثورة التي صنعها ماركس وانجلز في مجال الفلسفة كانت تعني نشوء المادية الديالكتيكية وكانت نتاج التعميم العبقري لتطور علم الطبيعة والممارسة الاجتماعية التاريخية. ان البحث العلمي عن الرأسمالية وتناقضاتها والنضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، كل هذا أتاح امكانية طرد المثالية من آخر معاقلها — من مجال علم المجتمع ومن التاريخ — وانشاء المادية التاريخية .

غير ان الظروف الموضوعية وحدها لم تكن كافية لانشاء المادية الديالكتيكية. وكان لابد من وجود ايديولوجيين يستطيعون أن يقدموا تحليلاً شاملا عميقاً ويعمموا المعطيات الجديدة للعلم والتناقضات الجذرية للرأسمالية ؛ كان لابد من تحليل صادق لا يخشى الوقائع ولا يرتبط بالمصالح البرجوازية النفعية .

وكان من الممكن فعل ذلك فقط من مواقع الطبقة العاملة ، الطبقة الأكثر ثورية في المجتمع الرأسمالي . مأثرة ماركس وانجلز التاريخية هي في انهما انتقلا بشجاعة إلى مواقع البروليتاريا وقاما بالعمل العلمي العظيم .

كانت المانيا ، حيث عاش ماركس وانجلز ،على أبواب الثورة البرجوازية . ورغم انها كانت متأخرة اقتصادياً بصورة نسبية ، اذ انها سلكت طريق التطور الرأسمالية متأخرة عن انكلترا وفرنسا، فقد كانت فيها بروليتاريا متطورة نسبياً، وانتقل مركز الحركة الثورية في ذلك العصر إلى المانيا . وهذا يفسر لنا كونها هي بالذات موطن الماركسية .

كانت الماركسية ، التي نشأت على تربة المانيا الاجتماعية ، إلى جانب ذلك ، نتيجة لتطور تناقضات الرأسمالية العالمية ، نتيجة لتعميم التجربة التاريخية العالمية لتطور الانسانية كلها . وثمة أهمية خاصة في صياغة الماركسية كانت لدراسة الحياة الاجتماعية في انكلترا ، أرقى بلد رأسمالي آنذاك .

لم يقف ماركس وانجلز مباشرة ومن أولى خطواتهما إلى جانب الطبقة العاملة . ولم يصيغا رأساً مبادىء النظرية الجديدة . فعندما ظهر مؤسسا الماركسية المقبلان على المسرح الاجتماعي في المانيا كانت فلسفة هيجل المثالية هي السائدة . ولعبت هذه الفلسفة دوراً كبيراً في تطور وتكون آراء ماركس وانجلز . وقد قدرا دائماً تقديراً عظيماً أهمية هيجيل في تطور الفكر الفلسفي عموماً وفي تطورهما هما بصورة خاصة . ان الفلسفة الهيجيلية متناقضة كما سبق وذكرنا . واذا كانت طريقتها الديالكتيكية ثورية في جوهرها فان نظامها المثالي محافظ . ولدى قيام ماركس وانجلز بصياغة نظريتهما العلمية صاغا الديالكتيك الهيجيلي بروح نقدية. فأخذا جوهره الثوري، أي فكرة التطور من خلال التناقضات وعلى شكل قفزات . وعملية تكون آرائهما الفلسفية تنحصر في التحرر الحاسم من المثالية الهيجيلية والانتقال إلى مواقع المادية . وفي نهاية الثلاثينيات انضم ماركس وانجلز إلى الهيجيليّين الشبان .

وكان الهيجيليون الشبان يمثلون الجناح اليساري في الفلسفة الهيجيلية ،

والمعبرين عن أفكار البرجوازية الراديكالية الناهضة الساعية إلى اجتثاث الاقطاعية في البلاد • وتنطبع مؤلفات ماركس وانجلز الأولى (١٨٤١-١٨٤٢) بطابع الهيجيلية • ولكن تميُّزَ آرائهما آنذاك ينحصر في انهما كانا مشبعين بروح النضال الثوري الديمقراطي دفاعاً عن حقوق الشعب • وميز هذا منذ البداية مواقع ماركس وانجلز عن مواقع بقية الهيجيليين الشبان الذين أهملوا الشعب وخافوه والذين سرعان ما تعرضوا لنقد لا هوادة فيه من قبل ماركس وانجلز •

وكان لعمل ماركس في « الجريدة الرينانية » أهمية كبيرة في تطور ارائه الفلسفية والسياسية • وكانت هذه الجريدة تنطق باسم المعارضة البرجوازية المعادية للاقطاعية • أعطى ماركس للجريدة اتجاهاً نضالياً ثوريا ديمقراطيا • واصطدم خلال عمله في « الجريدة الرينانية » بالتناقضات الاجتماعية وبعدد من المسائل الاقتصادية • ورأى أن فلسفة هيجيل المثالية تلاقي الهزيمة اثر الأخرى لدى اصطدامها بالحياة • وهكذا ، فعندما عالج ماركس احدى مسائل العصر الملحة معالجة مثالية ، وهي مسألة حرية الصحافة معتبراً الصحافة تعبيراً عن « الروح الحرة » ، اقتنع بأن الصحافة، في الواقع، كانت تدافع عن مصالح طبقات ضد مصالح طبقات أخرى ، عن مصالح المستغلين ضد الشعب • كما أن الفهم المثالي للدولة ، كتجسيد للروح الشاملة ولمصالح جميع الطبقات ، لم يصمد للامتحان • ويقتنع ماركس بأن الدولة البروسية ، في الواقع ، وقوانينها وتشاريعها لا تدافع إلا عن مصالح الاغنياء ، أما « الفقير فيذهب ضحية الكذب القانوني » • ويبدأ ماركس بالتكلم باسم الشعب الشغيل • فهو يكتب في احدى مقالاته المبكرة : « اننا نطالب بالحق الطبيعي للفقراء ••• بل انا نمضي إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الحق الطبيعي بطبيعته لا يمكن إلا أن يكون حق ذلك الجمهور الفقير المشرد غير المنظم »[١] • وخطوة اثر خطوة يقتنع ماركس بأولوية العلاقات المادية في المجتمع على العلاقات الفكرية • ويبين في عدد من المقالات أن المصالح المادية هي التي تحدد ، قبل كل شيء ، سلوك

---

(١) ا•ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ ـ ١٩٥٥ الصفحة ١٢٥ •

الطبقات والمجموعات الاجتماعية • وفي مقالاته حول قانون سرقة الحطب يكشف ، بسطوع ،دور الدولة البروسية كسلاح للدفاع عن المصالح الاقتصادية لمالكي الغابات • كتب ماركس : « ان مصلحة مالك الغابة يجب أن تصبح الروح الموجه لكل الآلة »[1] • وبشجاعة متناهية يكشف عن التناقض بين الطبقات السائدة وجماهير الشغيلة : « ••• اذا كانت النحلات العاملات في عالم الطبيعة والحيوان تقتل اليعاسيب ففي عالم الاحياء المفكرين يجري العكس فتقتل اليعاسيب النحلات العاملات ـ تقتلها من شدة تشغيلها » • وسرعان ما أغلقت « الجريدة الرينانية » بسبب اتجاهها الثوري • وواصل ماركس عمله في اعادة النظر في الفلسفة الهيجيلية وفي تكوين آرائه المادية الخاصة به •

وسار انجلز في هذه الطريق بصورة مستقلة • وكانت لاقامة انجلز في انجلترا أهمية كبرى في تطور آرائه • وقد كتب انجلز فيما بعد متذكراً طريق تطوره : « عندما كنت أعيش في مانشستر اصطدم أنفي ، كما يقولون ، بحقيقة أن الوقائع الاقتصادية التي كانت حتى آنذاك لا تلعب دوراً ، أو تلعب دوراً هزيلاً في المؤلفات التاريخية ، هي ، على أقل تقدير ، القوة التاريخية الحاسمة في العالم المعاصر ••• »[2] •

وأثرت فلسفة فيرباخ تأثيراً عظيماً على تكون آراء ماركس وانجلز الفلسفية • ان النقد الحار الساطع الذي يوجهه فيرباخ إلى المثالية الهيجيلية قد ساعدهما بالانفصال عن المثالية الفلسفية والوقوف نهائياً في صف المادية • وقد كتب انجلز في مؤلفه « لودفيغ فيرباخ ••• » عن كتاب فيرباخ «جوهر المسيحية» الذي ضمنه فلسفته المادية : « كان من الضروري على المرء أن يعيش التأثير التحرري لهذا الكتاب حتى يتصور ذلك » • أي يتصور دور فيرباخ في التحرر من المثالية الهيجيلية • ويسمي انجلز مادية فيرباخ « الحلقة الاخيرة » بين فلسفة هيجيل والفلسفة الماركسية • ولكن ماركس وانجلز ، خلافاً لفيرباخ ، لم

---

(١) المصدر ذاته الصفحة ١٤٢ •

(٢) ماركس وانجلز ـ مؤلفات مختارة ـ الجزء ٢ الصفحة ٣٢٦ •

يطرحا جانباً الناحية القيمة في فلسفة هيجيل ـ الديالكتيك ، نظرية التطور ، بل صاغا الديالكتيك بروح مادية • وهكذا فإن الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وخاصة ديالكتيك هيجيل ومادية فيرباخ ، كانت أحد المصادر النظرية الهامة جداً لصياغة الماركسية والفلسفة الماركسية •

أصبح عام ١٨٤٤،بالنسبة لماركس وانجلز ، حدثاً تم فيه الانتقال من الآراء القديمة إلى الآراء الجديدة • فقد صاغا ، كل مستقلاً عن الآخر ، آراءهما الفلسفية وأصبحا ثوريين بروليتاريين • وفي عام ١٨٤٤ نشر ماركس وانجلز في « المجلة السنوية الالمانية الفرنسية » وفي وقت واحد مقالتين صاغا فيهما الآراء الجديدة •

كان هذا حدثاً مؤثراً في تاريخ الفكر الانساني • فخلال قرون كانت الفلسفة بعيدة عن الشعب ، عن منتجي الخيرات المادية الذين كان عملهم ، في جميع العصور ، أعمق أساس للتقدم الاجتماعي • أضف إلى ذلك ان أغلب نظم الماضي الفلسفية ، كانت ترى في عمل الجماهير الشعبية أقل أشكال النشاط الانساني خصوبة في مجال تطور المجتمع •

وها قد حلت اللحظة التي هبطت فيها الفلسفة من السماء إلى الأرض • لقد أكدت الفلسفة الماركسية أن الدور الحاسم في حياة المجتمع هو دور عمل الجماهير الشعبية • وقد أعلنت ، على عكس التقاليد المثالية ، ان أناس العمل بالذات هم « ملح الارض » • ويبين ماركس في مقالته « نحو نقد فلسفة الحق الهيجيلية » عدم ثبات المثالية الفلسفية والفهم المثالي للتاريخ • وينادي بالدور التاريخي العالمي للبروليتاريا باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على منح الحرية للانسانية الشغيلة كلها • وهو يعلن أن « الفلسفة تجد في البروليتاريا سلاحها المادي ••• وتجد البروليتاريا في الفلسفة سلاحها الروحي ••• »[1] •

وقد عبر الماركسي الالماني ميرينغ تعبيراً ناجحاً عن ذلك فقال انه كان يعني أن الفلسفة فهمت البروليتاريا والبروليتاريا فهمت الفلسفة •

---

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ ـ ١٩٥٥ الصفحة ٤٢٨ •

وفي عام ١٨٤٢ كان اللقاء الأول وفي عام ١٨٤٤ ــ اللقاء الثاني بين ماركس وانجلز • ومنذ ذلك التاريخ قاما متشابكي الايــدي بصياغة النظرية الماديــة الديالكتيكية • وفي المؤلفين اللذين كتباهما خلال أعوام ١٨٤٤ ــ ١٨٤٦ « العائلة المقدسة » و « الايديولوجية الالمانية » حللا تحليلاً وافياً فلسفة هيجيل وفيرباخ وكشفا عن جوانبهما القوية والضعيفة وانتقدا الهيجيليين الشبان وحطما نظريتهم المثالية حول ان « الفرد المفكر الناقد » هو كل شيء في التاريخ، أما الشعب ــ فلا شيء ، وقدما أول صورة للمادية التاريخية[1] •

وكان كتاب ماركس « بؤس الفلسفة » خطوة هامة في صياغة النظريــة الماركسية ككل وصياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية بصورة خاصة • ويحطم ماركس في هذا المؤلف طوباوية برودون البرجوازية الصغيرة ويصوغ مبادىء الاشتراكية العلمية وأسس المادية الديالكتيكية والفهم المادي للتاريخ •

لم ينحصر عمل ماركس وانجلز في صياغة نظريتهما الجديدة • فقد كان هدفهما الرئيسي هو ربط الاشتراكية العلمية بالحركة العمالية وتوجيه نضال العمال العفوي في سيل ثوري واع•وفي عام ١٨٤٧ نشأت أول منظمة بروليتارية بمساهمتهما النشيطة وهي اتحاد الشيوعيين •

وظهر في عام ١٨٤٨ « بيــان الحزب الشيوعي » ، الذي كتبــه ماركس وانجلز بطلب من اتحاد الشيوعيين • ويتضمن هذا المؤلف الشهير ، ليس فقط أول منهاج علمي للحزب الشيوعي ، وانما يعرض أيضاً النظرة الجديدة إلى العالم التي صاغها ماركس وانجلز • فقد كتب لينين يقول : فيه رسمت «بوضوح عبقري وسطوع النظرية الجديدة،المادية المنسجمة التي شملت المجال الاجتماعي أيضاً ، والديالكتيك كنظرية شاملة وعميقة عن التطور ، ونظريــة الصــراع

---

(١) يمجد بعض المحرفين المعاصرين أعمال ماركس وانجلز المبكرة ويقللون من أهمية أعمالهمــا الأساسية الناضجة • وهم يحاولون تفسير هذه الاعمال المبكرة بروح « الانسانية » المثالية المجردة، صامتين عن محتواها الثوري ومشوهين له • لكن هذه المحاولة غير مجدية ، لآن مؤسسي الماركسية ، حتى في هذه الاعمال المبكرة ، يقفان بصلابة في مواقع البروليتاريا الثورية •

الطبقي والدور الثوري التاريخي العالمي للبروليتاريا مبدعة المجتمع الشيوعي الجديد »[1] ٠

وضع ماركس وانجلز ، قبل عام ١٨٤٨ أسس نظريتهما بما في ذلك الفلسفة ٠ وبعد عام ١٨٤٨ تبدأ الصياغة الشاملة العميقة لهذه النظرية ويبدأ تطورها ٠ وكان العمل التاريخي الرئيسي في هذه الطريق هو مؤلف ماركس الاساسي ـ « رأس المال » الذي عمل فيه طوال حياته والذي يعد المؤلف الأساسي في الماركسية ٠ ان ل « رأس المال » ، وهو المؤلف الاقتصادي ، أهمية فلسفية لا تقدر ٠ فقد طبق فيه ماركس تحليل الاسلوب الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي بطريقة مادية ديالكتيكية وكشف المبادىء الاساسية لهذه الطريقة وصاغ ، على أساس بحث الرأسمالية ، النظرية المادية في المعرفة والمنطق٠وكتب لينين يقول : ـ انه إذا كان ماركس ، خلافاً لهيجل ، لم يؤلف كتاب «المنطق»، أي لم يضع مؤلفاً خاصاً بالديالكتيك ، فانه قد قدم لنا منطق « رأس المال » ٠ وأشار لينين إلى ان المادية التاريخية ، قبل « رأس المال » كانت فرضية ٠ وبفضل « رأس المال » الذي أعطى تفسيراً لاسلوب معقد بكل جوانبه ، كالرأسمالية ، أصبحت المادية التاريخية النظرية الاجتماعية العلمية الوحيدة المبرهن عليها والتي لا يمكن دحضها ٠

وكتب انجلز عدة أعمال مكرسة بصورة خاصة لتأسيس وصياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية ٠ ومن هذه الاعمال كتاب « ضد دوهرنغ » و « لودفيغ فيرباخ ٠٠٠ » و « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » وغيرها من المؤلفات التي سلطت فيها أضواء ساطعة على كل جوانب الفلسفة الماركسية ـ المادية والديالكتيك ونظرية المعرفة والفهم المادي للتاريخ ـ وذلك على أساس تعميم علم الطبيعة والممارسة التاريخية وعلى أساس نقد التيارات الفلسفية المعادية للماركسية ٠ ومن بين هذه المؤلفات يتصف عمل انجلز غير المنتهي « ديالكتيكية

(١) لينين ـ المؤلفات ـ الجزء ٢١ الصفحة ٣٢ ٠

الطبيعة » بأهمية كبيرة • فقد باشر انجلز في هذا العمل محاولة ضخمة على أساس معطيات العلوم المعاصرة له ـ الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، محاولة لتأسيس الدياليكتيك المادي باعتباره الطريقة الفلسفية الوحيدة الصحيحة لعلم الطبيعة المعاصر ، ولبيان الطابع الدياالكتيكي لتطور الطبيعة •

ويحقق مؤسسا الماركسية صياغتهما لنظريتهما في ترابط وثيق مع النشاط التنظيمي الثوري على أساس تعميم ممارسة الحركة العمالية •

وقد أسس ماركس وانجلز في عام ١٨٦٤ «زمالة العمال العالمية » ـ الاممية الاولى • وخلال كل نشاطهما كانا يقودان النضال من أجل تطهير الحركة العمالية من الافكار البرجوازية الصغيرة والانتهازية بما في ذلك الانتهازية الانعزالية « اليسارية » والفوضوية ، ومن أجل انتصار الشيوعية العلمية •

فما هو جوهر الانقلاب الثوري الذي أحدثه ماركس وانجلز في الفلسفة ؟ وما هي الصفات الاساسية الجديدة التي ترقى بالفلسفة الماركسية فوق كل الفلسفات السابقة وتحدد ميزاتها النوعية الجذرية عن الآراء والنظم الفلسفية السابقة ؟

٢ ـ جوهر الانقلاب الثوري الذي أحدثته الماركسية في الفلسفة

عبر ماركس عن الخاصة الحاسمة في المادية الدياالكتيكية والتاريخية في احدى المشروعات المبكرة لنظريته الجديدة ـ في « موضوعات عن فيرباخ » : « ان الفلاسفة اكتفوا بتفسير العالم بصور مختلفة ، ولكن القضية هي في تبديله » •

تظهر في هذه الموضوعة ميزة جذرية من ميزات الفلسفة الماركسية عن كل الفلسفات السابقة • ولا يجوز طبعاً أن نفسر كلمات ماركس هذه بمعنى أن كل الفلسفات القديمة تأملت العالم تأملاً سلبياً وانه لم يكن بين الفلاسفة مناضلون ثوريون سعوا إلى تبديل النظم الاجتماعية• لقد سبق وتحدثنا عن الدور

الرائع الذي لعبه الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، الذين قادوا حرباً لا هوادة فيها ضد الاستعباد الاقطاعي للانسان • ولكن موضوعة ماركس تحدد بدقـة ، رغم ذلك ، جوهـر الفلسفة القديمـة • وحتى أولئك الفلاسـفة القدماء ، بما فيهم الماديون الفرنسيون ، الذين سعوا إلى التحولات الاجتماعية ، افترضوا أن مصدر الشرور الاجتماعية ، وحرمان الانسان من الحقوق في ظل الاقطاعية والحروب والفقر والحذر الديني وما شابه ذلك ـ إنما يكمن في الفهم الخاطىء للعالم وطبيعة الانسان وغير ذلك • ويكفي ، حسب آرائهم ، أن نطرح الآراء الخاطئة جانباً ونفسر العالم تفسيراً صحيحاً ونفهم فهماً صحيحا طبيعة الانسان التي هي ـ حسب رأيهم ـ طبيعية وأزلية ، لكي يصبح بالامكان تبديل الوضع في المجتمع • انهم لم يعرفوا أن أسباب النظم الاجتماعية ، وتلك الافكار الخاطئة التي انتقدوها ، أيضا ، انما تكمن في الظروف التاريخية الموضوعيـة للحياة المادية للمجتمع ولذا فان تبديل هـذه الظروف هـو الطريق الواقعيـة الوحيدة للتقدم الاجتماعي •

فالماديون الفرنسيون ، مثلاً ، انتقدوا اللاهوت بحدة وناضلوا من اجل تحرير الانسان من الآراء اللاهوتية ، ورأوا بذلك ، عن حق ، احدى وسـائل تحرير الانسان • ولكنهم ظنوا ان تدمير اللاهوت وتحرير الانسان من أسره ممكن فقط عن طريق تفسير العالم تفسيراً صحيحاً وبدون اعادة بناء تلك الظروف الاجتماعية التي تعتبر التربة المغذية للاهوت •

لذا ففي مركز النظم الفلسفية القديمة لم يحتل التطبيق ولا النشـاط الثوري العملي للانسانية مكانه ، هذا النشاط الوحيد القادر على اعادة بناء العالم ، وانما كان في مركزها ، وبصورة رئيسية ، النشاط الفكري والتأمل وتفسـير العالم • في هذا ترى الماركسية النقص الاساسي للمادية السـابقـة كلهـا • وجاء في « موضوعات عن فيرباخ » : ان الواقع والاشياء تؤخذ فقط بشكل تأملي ودون ربطها بالنشاط العملي •

وعلى عكس هذه الفلسفة ، تعطي الفلسفة الماركسية أهميـة حاسمـة لنشاط الناس العملي المحوّل • وهذا لايعني أن الماركسية تقلل من دور النشاط

الفكري للانسانية • فلماركس بالذات ، الذي وضع ايديولوجية البروليتاريا ، تعود الموضوعة الرائعة التي تكشف الأهمية العظيمة للأفكار في تطوير الحياة الاجتماعية • وفي العمل الذي ذكرناه سابقاً « نحو نقد فلسفة الحق الهيجيلية » حيث صاغ ماركس آراءه الجديدة ، أشار إلى أن « النظرية أيضاً تصبح قوة مادية حالما تتملك الجماهير »[١] •

ولكن النظرية تصبح قوة مادية عدما ترتبط بالتطبيق وتخضع له وتستند اليه كأساس لها • ان ماركس وانجلز في نقدهما للفلسفة الهيجيلية في أعمالها المبكرة ، تلك الفلسفة التـي لا تعترف إلا بالنشاط الفكري والروحي كنشاط انساني ، كشف عن الجذور الطبقية لضيق الافق هذا • ان الفلسفة المثالية ، اذ تعطي الاهمية الاولى في تطور المجتمع المنشاط الروحي ، تحول انظار جماهير الشغيلة عن الأسس المادية لعبوديتها • والمثالية تستطيع أن تتيح لنفسها متعـة نقد العبودية الاجتماعية والاضطهاد • ولكن هذا ، كما بين ماركس وانجلز ، ليس إلا « نقداً أخرس » : فالشيء الواقعي يتحول عند المثالية إلى شيء فكري ويُنتقد كظاهرة روحية • لذلك فان التغلب على الاضطهاد لا يتجاوز حـدود الافكار المجردة •

لقد أكد هيجيل ، مثلاً ، انه « في أساس العبوديـة ، عمومـاً ، يوجـد كون الانسان لايعي حريته ••• » مما لا شك فيه ان وعي الانسان لاستعباده هو خطوة نحو الحرية • ولكن القيود الحقيقيـة لايمكن أن تتحطم في أطر الوعي وحده • تحدث أتبـاع هيجيل الشبان كثيراً عن « الحريـة » وعن « استعباد » الانسان ، ولكن الوسيلة الوحيدة لتحرير الانسان ، في نظرهم ، هي النقد الفلسفي للاهوتية وسعي الناس نحو الكمال الأخلاقي • وقد أشار ماركس ، منتقداً اياهم ، إلى انهم تعلموا من هيجيل « فناً واحداً ـ هو فن تحويل السلاسل الواقعية الموضوعية الموجودة خارج ذاتي إلى سلاسل مثالية

---

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ ـ ١٩٥٥ الصفحة ٤٢٢ •

تماماً وذاتية تماماً وموجودة في ذاتي تماماً ، ولذا فان كل المعارك الخارجية المحسوسة تتحول إلى معارك بين الافكار المجردة » [١] •

ان السلاسل العبودية الحقيقية في الواقع يمكن أن تدمر بطريقة واقعية ، أي بالنشاط العملي ، بالنضال • والقوة المادية للاضطهاد يمكن أن تقهر بالقوة المادية أيضاً • والبروليتاريا بحكم ظروفها ذاتها مضطرة إلى التفريق بين الحياة الواقعية والحياة المتخيلة ، بين الواقع والوعي • كتب ماركس يقول : « ••• ان جماهير العمال الشيوعيين الذين يعملون ، مثلاً ، في ورشات مانشستر وليون لا يفكرون انه من الممكن « عن طريق التفكير المجرد » بمساعدة المحاكمات المنطقية وحدها أن يتخلصوا من أرباب عملهم ومن ذلهم العملي • انهم يحسون بحدة الفرق بين الوجود والتفكير ، بين الوعي والحياة • انهم يعرفون أن الملكية ورأس المال والنقود والعمل المأجور وما شابه ذلك ليست أبداً أوهام خيال وانما هي نتاجات عملية جداً وملموسة جداً لتجريد العمال ذاته من وسائل العمل • ولذا فان ازالتها يجب أن تكون أيضاً بصورة عملية وملموسة من أجل أن يصبح الانسان انساناً ليس فقط في التفكير والوعي ، وانما في الوجود الجماهيري في الحياة » [٢] •

ان الماركسية فلسفة وضعت في مركزها كل مسائل التطبيق وبينت الطريق الحقيقية الواقعية لتبديل العالم ، وتبديله لصالح تحرر الانسانية من الاضطهاد الاجتماعي • لذا فان الفلسفة الماركسية تتميز بتأثيرها واتجاهها نحو التغيير الثوري العملي للمجتمع • انها تفسر عملياً العالم ولكنها لا تكتفي بذلك: فكل معنى تفسيرها هو من أجل أن يفهم الناس ان العالم القائم على الاستغلال والاضطهاد لا يجب أن يفسر وحسب ، وانما أن يعاد بناؤه أيضاً • وتعتبر الماركسية ان اقامة ديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة الرئيسية لتحويل المجتمع اشتراكياً •

ان الماركسية والفلسفة الماركسية تسلحان ملايين الناس من الطبقة العاملة

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ٢ ــ ١٩٥٥ الصفحة ٩٠ •

(٢) المصدر نفسه ــ الصفحة ٥٨ •

وسائر الشغيلة وطليعتها ــ الحزب الشيوعي بمعرفة قوانين تحويل العالم ثورياً.

لقد كانت الفلسفة من قبـل ، في متناول دائرة محدودة من الناس . ولكن الفلسفة الماركسية أصبحت وتصبح في كل يوم في متناول جماهير متزايـدة من الناس المناضلين في سبيل الاشتراكيـة . ان التاريخ العالمي يتحرك في عصرنا نحو الشيوعية ، والمادية الديالكتيكية والتاريخية هي الأساس الفلسفي النظري لهذه الحركة .

ان الأهمية التاريخية العالمية لنشوء الفلسفة الماركسية هي ، بالتالي ، في كونها حملت النصر النهائي للاتجاه المادي العلمي الوحيد في الفلسفة وخلقت شكلاً أرقى من المادية هو المادية الديالكتيكية .

ان مادية ما قبل عصر ماركس لعبت دوراً عظيماً في النضال ضد المثالية الفلسفية واللاهوت وفي الدفاع عن مواقع العلم . ولكن ضيق الافق التاريخي لمادية ما قبـل عصر ماركس اعاقها عن ربح المعركة الحاسمة ضـد الفلسفة المثالية وعن تأكيد مبادىء المادية تأكيداً نهائيا . وكان من غير الممكن من مواقـع الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الطبيعة كمجموعة من الاشياء الجامدة غـير المتبدلة ، تفسير وحدة العالم والعلاقة القانونية والانتقال من الطبيعة غير العضوية إلى الطبيعة العضوية ونشوء الوعي والكثير غير ذلك من المسائل الأخرى ذات الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة للنظرية العلمية . وقد استفاد المثاليون من هذا لتأكيد الايمان باللاهوت وبالقوة الخارقة للطبيعة ، التي يزعمون أنها تدير الطبيعة والانسان .

ويجدر القول بأن علم الطبيعة ازداد بتطوره تناقضاً مع طريقة التفكير الميتافيزيكية . وكان من النموذجي للمرحلة الجديدة في علم الطبيعة منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، تسرب فكرة التطور والترابط والتأثير المتبادل بين ظواهر الطبيعة وفكرة وحدة العالم إلى هذا العلم . وقد أشار انجلز إلى انه « إذا كان علم الطبيعة من قبل علماً عن الاشـياء الكاملة ، فانه أصبح في القرن التاسع عشر علماً عن العمليات ، عن منشأ وتطور هذه الاشياء وعن العلاقات التي تربط عمليات الطبيعة في كل واحد عظيم »[1] .

(١) انجلز . لودفيغ فيرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية الصفحة ٣٨ .

وثمة أهمية خاصة في انتصار أفكار التطور في علم الطبيعة، تعود لاكتشافات ثلاثة عظيمة في علم الطبيعة : اكتشاف الخلية النباتية والحيوانية ، وقانون حفظ وتحول الطاقة ، ونظرية داروين عن منشأ وتطور أجناس النبات والحيوان • لقد أظهرت هذه الاكتشافات الطابع الديالكتيكي لتطور الطبيعة • وبالاستناد إلى تطور علم الطبيعة تغلب ماركس وانجلز على ضيق الافق الميتافيزيكي الذي عانت منه المادية القديمة ، وأعطيا المادية طابعاً ديالكتيكياً •

وكان هذا انتصاراً عظيماً في تاريخ الفكر الانساني : فقد نشأت نظرية فلسفية تعالج الطبيعة كلها من مظاهرها البسيطة إلى مظاهرها المعقدة ككل موحد وتفسر علمياً كل العمليات والظواهر بالتطور القانوني للمادة وانتقالاتها الذاتية من حالة إلى أخرى ، من أشكال أدنى إلى أشكال أرقى • وعنى هذا انهزام المثالية الفلسفية التي كانت تعيش عيشة طفيلية على حساب بعض مسائل العلم التي لما تحل وعلى حساب المادية الميتافيزيكية •

ولعب استخدام الجوانب الديالكتيكية القيمة في طريقة هيجيل دوراً عظيماً في انشاء الشكل الديالكتيكي الارقى للمادية • لقد أعاد ماركس وانجلز صياغة ديالكتيك هيجيل على أساس مادي وأنشآ طريقة ديالكتيكية علمية منسجمة جديدة ، هي الدليل في المعرفة العلمية وفي اعادة بناء الواقع ثورياً • وكما أتاح تطبيق الديالكتيك في المادية ، امكانية اعادة بناء المادية واعطائها شكلاً علمياً عصرياً فان الصياغة المادية للديالكتيكية انشأت أرقى أشكال الديالكتيك — الديالكتيك المادي الماركسي •

قال ماركس : « ان طريقتي الديالكتيكية ، لا تتميز فقط جذرياً عن طريقة هيجيل ، ولكنها نقيضتها تماماً • فعملية التفكير بالنسبة لهيجل هذه العملية التي يحولها تحت اسم الفكرة إلى ذات مستقلة ، هي مبدعة الواقع ، الذي يمثل المظهر الخارجي لها • أما عندي ، فعلى العكس ، ليس الشيء المثالي إلا الشيء المادي المنقول إلى الرأس الانساني والمعاد تشكيله هناك »[1] •

(١) ماركس — رأس المال — الجزء ١ الصفحة ١٩ •

نفى هيجيل المثالي التطور في الطبيعة مفترضاً أن القادر على التطور ليس المادة ، التي عدها شيئاً ، وانما الروح فقط ، الفكرة المطلقة • ولقد برهنت الفلسفة الماركسية بصورة قاطعة على الطابع الديالكتيكي للطبيعة • والديالكتيك الماركسي ، كما كتب انجلز : « يصبح ضرورة مطلقة لعلم الطبيعة الذي ترك ذلك المجال الذي لاقى فيه مفاهيم جامدة بما فيه الكفاية ••• »[1] •

وفي عصرنا ينتقل عدد متزايد من علماء الطبيعة إلى صف الديالكتيك الماركسي • وهذا يؤكد فكرة انجلز على نحو رائع •

ان الديالكتيك الماركسي ، خلافاً لديالكتيك هيغل،لا يضع أية حدود أمام تطور المجتمع وكذلك تطور الطبيعة •انه ليس موجهاً إلى الماضي وحده ،وانما إلى الحاضر والمستقبل أيضاً ، وهو يكشف امكانيات لا محدودة لتطور الانسانية • وميزة الديالكتيك المادي هذه ، المتحرر من ضيق أفق ديالكتيك هيجيل المثالي ، هي تعبير عن وجهة نظر أكثر الطبقات ثورية ـ البروليتاريا •

وصاغت الماركسية ، بتطبيقها الديالكتيك المادي في مجال التفكير الانساني، نظرية علمية عميقة منسجمة حول المعرفة ، هي نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية •

وكان للمادية التي سبقت الماركسية الفضل في الاعتراف بالتفكير والمعرفة كانعكاس للعالم الخارجي الموجود موضوعياً • ولكن المادية القديمة لم تفهم الجوهر الديالكتيكي للمعرفة ولم تعالج المعرفة كعملية تطور ولم تر الصياغة المعقدة في الفكر لمعطيات الواقع ، وكانت تفكر بمفاهيم جامدة ولم تضع في مركز علم المعرفة نظرية معرفة الممارسة الاجتماعية •

ان الفلسفة الماركسية والمنطق المادي الديالكتيكي ، كشفا ، لاول مرة في تاريخ العلوم الفلسفية ، على أساس مادي ، كل غنى عمليةوأشكال المعرفة،وقدما التطبيق باعتباره الاساس والمقياس الوحيد الموثوق لصدق المعرفة • ان نظرية معرفة المادية الديالكتيكية هي احدى المكتسبات الرائعة للفكر الانساني •

---

(١) انجلز ديالكتيك الطبيعة الصفحة ١٦٠ •

لقد حملت الماركسية النصر الحاسم للفلسفة المادية ليس فقط لأنها صاغتها في أرقى شكل ـ المادية الديالكتيكية ، ولكن لكونها أيضاً عممتها على الحياة الاجتماعية • فقبل ماركس وانجلز كان مجال الظواهر الاجتماعية حصنا حصينا للمثالية • وكان كل الفلاسفة مقتنعين بأن الأهمية الاولى الحاسمة في حياة المجتمع هي للأفكار والآراء الانسانية وصراعها • ومن الطبيعي أننا قد نجد بعض عناصر المعالجة المادية للمجتمع في آراء عدد ممن سبقوا ماركس : عند الماديين الفرنسيين والمؤرخين الفرنسيين في بداية القرن التاسع عشر ـ تيريه ، غيزو ، ومينيه ، وعند الاقتصاديين المتقدمين الانكليز ، وعند فيرباخ ، وهيجيل والاشتراكيين الطوباويين • ولكن هذه اللمحات انما كانت تخمينات لا تبدل الوضع العام ـ السيادة المثالية الكاملة في مجال التاريخ •

لقد انتصر ماركس وانجلز على المثالية في هذا المجال بتطبيقهما المادية الديالكتيكية في الحياة الاجتماعية وانشائهما نظرية المادية التاريخية • والأهمية الاساسية لهذه النظرية هي في كونها حولت التعاليم حول المجتمع وقوانينه إلى علم قادر ، ككل العلوم ، على اعطاء معلومات وتنبؤات دقيقة عن مجرى الاحداث واتجاه التطور الاجتماعي •

ولعبت دراسة المجتمع الرأسمالي دوراً في انشاء نظرية المادية التاريخية • لقد كشفت الرأسمالية والصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، كما لم يفعل أي نظام آخر ، كشفا المصالح المتضاربة الكامنة في أسس كل مجتمع فيه طبقات متناقضة • كتب ماركس وانجلز في « البيان الشيوعي » ، ان العصر البرجوازي « قد بسَّط التناقضات الطبقية » ؛ « فالاستثمار الذي كان يغطى بالاوهام اللاهوتية والسياسية ، حوله هذا العصر إلى استثمار مفضوح وقح مباشر خشن » • ان التحليل الموضوعي العميق للنظام الرأسمالي دحض الفهم المثالي للتاريخ وتوصل إلى نتيجة لا تقبل الجدل وهي أن الحاجات المادية وانتاج الخيرات المادية هما القوة المحركة في المجتمع وليس العقل أو الافكار •

ان بحث القوى المحركة للمجتمع الرأسمالي سلط الضوء على التاريخ

الماضي كله • فأصبح تشريح المجتمع البرجوازي ، إلى حد كبير ، مفتاحاً لتشريح التطور الاجتماعي السابق •

لقد برهن ماركس وانجلز على أن هناك قوانين موضوعية مستقلة عن وعي الناس وارادتهم تؤثر في تطور المجتمع ، كما في الطبيعة • واكتشفا القوانين الشاملة لكل عملية اجتماعية ، هذه القوانين التي تشكل محتوى المادية التاريخية •

لقد بدلت الماركسية طابع وموضوع الفلسفة بصياغة المادية الديالكتيكية • وقضت ، إلى الابد ، على طموح الفلسفة لان تكون « علم العلوم »، أي لان تضم كل العلوم وكل فروع المعرفة فتجعل منها جوانب وأجزاء مستقلة من الفلسفة• ان المادية الديالكتيكية تكشف جوهر العالم المادي ، وتقدم نظرية عن أشمل قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير ، وتقدم نظرية المعرفة والطريقة اللتين تمكنان المرء ، على نحو صحيح ، من دراسة وتفسير العالم وتغيير بناء المجتمع الرأسمالي تغييراً ثورياً عمليا ، وجعله مجتمعا اشتراكيا •

هذه هي ، باختصار ، الصفات الاساسية للثورة التي أحدثها ماركس وانجلز في الفلسفة ، والتي أدت إلى نشوء المادية الديالكتيكية والتاريخية ، النظرية العلمية الوحيدة عن العالم في عصرنا •

٣ ـ الطابع الابداعي للفلسفة الماركسية وتطوير لينين لها

ان احدى الصفات الاساسية للفلسفة التي انشأها ماركس وانجلز ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية ـ هي طابعها الابداعي • فهي اذ تعكس،بمنتهى الدقة، العالم الموضوعي وتطوره وتبدله ، تتطور ذاتها وتغتني وتتجسد مع تبدل الظروف التاريخية وظهور معطيات جديدة في العلم • وما من شيء أغرب على الماركسية والفلسفة الماركسية من تصور النظرية كمجموعة من الافكار الجامدة والحقائق الساكنة • ان الجمود العقائدي والركود الفكري يناقضان الديالكتيك الماركسي ومبدأه في الحركة المتواصلة الخالدة •

ان المادية الديالكتيكية والتاريخية قائمة على دراسة وتعميم معطيات كل المجالات المحددة للمعرفة الانسانية وكل التجربة التاريخية لتطور المجتمع الانساني • ومن المفهوم أن الفلسفة الماركسية لا تستطيع أن تمر، مرور الكرام، على أحدث تطور للعلم والممارسة الاجتماعية التاريخية • ولكي تؤدي دورها، بنجاح، كنظرية وطريقة لدراسة الواقع ووسيلة للمعرفة والنشاط العملي، يجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار مكتسبات العلم والتطبيق الجديدة وان تعممها باستمرار وتغني مبادئها وموضوعاتها على أساسها وتصبح أكثر حسية وتجسداً •

ان قول غوته المشهور « النظرية يا صديقي جامدة أما الذي يورق فهو شجرة الحياة » صادق ، لأنه يعبر عن أولوية الحياة بالنسبة الى النظرية ، أولوية الواقع بالنسبة الى انعكاسه الفكري • ولكن النظرية أيضاً قادرة على ألا تضيع قوتها ونضارتها، ولا لحظة واحدة، اذا أخذت، بعين الاعتبار، التطور المستمر للحياة وتطورت معها • هكذا بالضبط هي النظرية الماركسية والفلسفة الماركسية •

بعد موت ماركس وانجلز لاقت الماركسية كلها والمادية الديالكتيكية والتاريخية كجزء مكوّن لها وأساس فلسفي ، تطورها المبدع في أعمال لينين • ويرتبط باسم لينين عصر جديد في تطور الماركسية بدأ عند الحد الفاصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين • فقد دخلت الرأسمالية مرحلة تطورها الاخيرة ــ الامبريالية • وفي هذا العصر الجديد تجري عملية انهيار الرأسمالية وظهور المجتمع الاشتراكي الجديد • ويحل محل التطور المتصل الهادىء نسبياً للمجتمع الذي كان يجري في عصر ماركس ــ انجلز ، تطور صدامي ثوري • وتطرح بشكل جديد مهام البروليتاريا وحزبها ومسائل الاستراتيجية والتاكتيك في الحركة الثورية • ولم يراع قادة الأممية الثانية الانتهازيون كل هذه التبدلات الجذرية في المرحلة التاريخية الجديدة • وبدلاً عن النضال الثوري سلكوا سياسة المهادنة مع البرجوازية وسياسة طمس واخفاء تناقضات الرأسمالية التي تزايدت حدتها •

ان اشتداد روح الرجعية السياسية الذي تتصف به االأمبريالية ، لاقى تعبيره في مجال الفلسفة البرجوازية • ويسعى ايديولوجيو الامبريالية إلى القضاء

على المادية فيبعثون من الماضي أشد أشكال المثالية رجعية • انهم ، اذ يروجون ، حسب تعبير لينين ، مثالية أحط وأضحل بألف مرة من مثالية هيجيل ، يقومون بنضال ضد الديالكتيك الذي يحقدون عليه لانه « جبر الثورة » ، ويحاولون بكل الوسائل تدعيم الميتافيزيكية• وتنجر التحريفية كذيل للفلسفة البرجوازية حيث يناضل ممثلوها ضد المادية الديالكتيكية ويعتبرون ، متخلين عن كل مبدأ، ان من الممكن ربط الماركسية بهذا اللون أو ذاك من المثالية •

لقد طرحت المسائل الفلسفية في المرحلة الجديدة على المستوى الأول ليس فقط ، بسبب ازدياد حدة التناقضات الاجتماعية ، وانما أيضاً بسبب التطور السريع للعلم وخاصة الفيزياء • ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعيش الفيزياء ثورة حقيقية • لقد أحدث اكتشاف الالكترون والاشعاع الذري وتحول العناصر الكيماوية وغير ذلك من الاكتشافات العظيمة انقلاباً في التصورات التي كانت سائدة عن المادة وخصائصها • وخلق انهيار الآراء السابقة عن المادة التي كانت قائمة على المادية الميكانيكية ، اضطراباً في مفاهيم بعض الفيزيائيين المادية في صالح المثالية • ولم ينس المثاليون استغلال هذا الاضطراب • ان المثالية لا تعيش طفيلية على « النقاط البيضاء » على ثغرات المعرفة الانسانية فحسب ، بل انها تحاول أيضاً أن تفسر مكتسبات العلم التي تؤكد المادية الديالكتيكية ، بروح تناسبها • والماخيه ــ أحد تيارات الفلسفة المثالية الذاتية الشائعة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ــ حاولت أن تفسر مثالياً أحدث مكتشفات الفيزياء • وقدم الماخيون فلسفتهم المثالية الذاتية على انها فلسفة « محايدة » مزعومة تقف فوق المعسكرين المتصارعين في الفلسفة ــ المادية والمثالية • وكان لابد من محاربة المثالية من مواقع الفلسفة العلمية وتعميم أحدث مكتشفات الفيزياء وعلم الطبيعة تعميماً ديالكتيكياً ماديا •

وهكذا فان الظروف الاقتصادية والسياسية في المرحلة التاريخية الجديدة وكذلك مكتسبات علم الطبيعة الحديثة ، تطلبت التطوير المبدع اللاحق للماركسية والفلسفة الماركسية • وكان هذا العمل من نصيب لينين وتلامذته • لقد طور لينين الاجزاء الثلاثة المكونة للماركسية كلها ــ الفلسفة والاقتصاد

السياسي والشيوعية العلمية ، ورفعها إلى درجة أعلى مستجيباً للمسائل الملحة الحيوية التي نشأت في العصر الجديد • ان اللينينية استمرار مباشر وتطوير مبدع للماركسية في الظروف الجديدة ، في عصر انهيار الرأسمالية وبناء الاشتراكية والشيوعية • ان الماركسية اللينينية هي وحدة كاملة لا تتجزأ ، ونظرية عصرية عظيمة للطبقة العاملة وحزبها الشيوعي •

وليس من قبيل الصدفة أن تكون روسيا موطن اللينينية ، بل كان ذلك أمراً مقنوناً • فمنذ بداية القرن العشرين أصبحت روسيا مركز الحركة الثورية العالمية • ومنذ الثمانينيات في القرن التاسع عشر لاقت الماركسية في روسيا نقطة ارتكاز قوية • ويعود فضل كبير في ذلك إلى بليخانوف وجماعة «العمل الحر» ، التي كان يرأسها • لقد قدم بليخانوف قسطاً قيماً في الدفاع عن النظرية الماركسية وخاصة الفلسفة الماركسية والدعوة لها وتطويرها • لقد فضح ببراعة المثالية الفلسفية من جميع الألوان بما فيها النظرية المثالية الذاتية للشعبيين الروس ، وشق طريقاً للنظرية الماركسية في حركة التحرر في روسيا •

ان أعماله في تاريخ الفلسفة والمادية الديالكتيكية والتاريخية ، رغم انها لا تخلو من عدة عيوب وأخطاء، تكوّن احدى الصفحات الرائعة في تاريخ تطور الفلسفة الماركسية • لقد قدر لينين كثيراً أعمال بليخانوف الفلسفية • ولكن بليخانوف لم يفهم طبيعة العصر الجديد الذي حل ، ولم يستطع أن يطور الماركسية بما يلائم ظروف عصر الامبريالية ، والمتطلبات الجديدة لحركة الطبقة العاملة الثورية في روسيا والعالم • ونضجت ، في هذا الوقت ، في روسيا، الثورة البرجوازية الديمقراطية التي أخذت بالتحول إلى ثورة بروليتارية •لقد كانت الطبقة العاملة الروسية أول من مزق قيود الامبريالية ، وحققت في عام ١٩١٧ الثورة الاشتراكية التي وضعت بداية لعصر تاريخي جديد • وعلى أساس تعميم التجربة الغنية جداً للحركة الثورية الروسية والحركة العالمية للبروليتاريا في المرحلة التاريخية الجديدة ، نشأت اللينينية •

طور لينين ، مثل ماركس وانجلز ، الفلسفة الماركسية بترابط وثيق مع متطلبات حركة الطبقة العاملة والنضال ضد أعداء النظرية الماركسية • لقد

أسس لينين في روسيا حزباً ماركسياً من طراز جديد ـ الحزب الشيوعي • وبقيادة هـذا الحزب قامت الطبقة العاملة الروسـية بأعظم ثـورة اشتراكيـة وانشأت أول دولة اشتراكية في التاريخ • لقد طور لينين الماركسية تطويـراً شاملاً على أساس التعميم النظري للخبرة العملاقة لنضال الجمـاهير الشعبية من أجل الاشتراكية •

ان ذلك الجديد الذي صنعه لينين من أجل تطوير المادية الديالكتيكية والتاريخية يمكن أن نحدده باختصار في الامور التالية • ان لينين ، بتعميمه ، انطلاقاً من مواقع الفلسفة الماركسية، المكتسبات العظيمة للعلم، وخاصةفي الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لم يفضح التشويه المثالي الماخي لهذه الاكتشافات فحسب ، انما طور أيضا نظرية الماديـة الديالكتيكيـة في ضوء المكتسبات الجديدة لعلم الطبيعة • لقد نفذ لينين المهمة التي تحدث عنها انجلز ، وهي بالذات انه يجب عـلى الماديـة أن تأخذ شـكلاً جديداً نظراً للاكتشافات الجديدة العظيمة التي توصل اليها علم الطبيعة • وحدد لينين في مؤلفه « المادية ومذهب النقد التجريبي » وطور ، على أساس مكتسبات العلم الجديدة ، كل المسائل الاساسية في المادية الديالكتيكية• ومن هذه المسائل مسائل المادة والحركة والمكان والزمان والسببية والحريةوالضرورةوالطابع الديكالتيكي للتطور ونظرية الانعكاس وغيرها من المسائل • طرح لينين أفكاراً فلسفيـة جديدة تلقي الضوء على طريق علم الطبيعة الحديث•ويكفي أن نشير هنا ولو إلى تعريف لينين للمادة وإلى موضوعته حول أن الالكترون لا نهائي أيضاً كالذرة• قال لينين هذه الموضوعة قبل البرهان العملي على تبدل وتحول الالكترونات وقبل اكتشاف « جزئيات أولية » أخرى ، وقد تأكدت هذه الموضوعة فيما بعد عـلى نحو رائع بتطور الفيزياء •

وطرحت في العصر الجديد بكل حدة مسائل علم المعرفة ونظريةالمعرفة • وفي كتاب « المادية ومذهب النقد التجريبي » أشار لينين إلى أن ماركس وانجلز « اهتما اهتماماً كبيراً في بناء الفلسفة المادية حتى القمة ، أي انهما لم يوجهـا

اهتمامهما إلى علم المعرفة المادي وانما إلى الفهم المادي للتاريخ »[١] • إن تطور علم الطبيعة الحديث وانهيار الآراء الفيزيائية القديمة حول المادة تطلبا صياغة نظرية المعرفة وحل عدة مسائل معرفية • وكان هـذا مهماً أيضاً لأن الفلسفة البرجوازية ، كما أشار لينين ، أصبحت « تتخصص » في علم المعرفة وتوجـه « اهتماماً كبيراً إلى الدفاع عن المثالية أو اعادة تشييدها من أسفل، لا من أعلى»[٢]•

وصاغ لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » نظرية معرفـة المادية الديالكتيكية صياغة شاملة كنظرية انعكاس للعالم الموجود موضوعياً • وبين الطابع الديالكتيكي المعقد لعملية تطور المعرفة تاريخياً وأسَّس ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبـة • وأعطى لينين ، اذ بين ان الديالكتيك هو نظريـة المعرفة ، نموذجاً لتحليل وتعميم المعطيات الجديدة في العلم انطلاقا من مواقـع الطريقة الماركسية، وكشف حدودها والوانها الجديدة ،وغنى أساليبها في معالجة ظواهر الطبيعة •

لقد اهتم لينين اهتماماً فائقاً بمسألة التطور اللاحق للطريقة الديالكتيكية الماركسية ، وهذا طبيعي • فعلى أساس الديالكتيك المـادي فقط وعن طريـق تطبيقه تطبيقا مبدعا كان بالامكان ادراك خصائص العصر الجديدة وعكسها في سياسة واستراتيجية وتاكتيك الحزب البروليتاري ـ خصائص عصر الانهيار العاصف للقديم وولادة الجديد • وقاد لينين نضالاً دؤوباً ضـد النظريـات العاميـة الانسيابية التي أتى بهـا الاصلاحيون والانتهازيون الـذين حرفوا الديالكتيك الماركسي •

ان أعمـــال لينين الفلسفية المتخصصـة ، وأعمالـه المكرسـة للمســائل الاقتصاديـة والسياسـية والتاكتيكية ، كلهــا تشكل كنزاً قيمـاً من الأفكار والآراء حول مسائل الديالكتيك (موضوعته حول العلاقة بين العام والخاص في التطـور التاريخي وحـول الحلقة الأساسية في سلسلة التطور وهكذا •••) •

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١١٧ •

وقبيل وخلال الحرب العالمية الأولى درس لينين بصورة خاصة الديالكتيك المادي والمنطق الديالكتيكي • وبحث لينين في دراسته للديالكتيك ووجد الاساليب الميتودولوجية لحل أعقد مسائل ذلك العصر • ونتيجة لهذا العمل ظهرت « الدفاتر الفلسفية » اللينينية المكرس أغلبها لمسائل الديالكتيك • ورغم ان « الدفاتر الفلسفية » ليست عملا كاملا فمن الصعب تقدير قيمتها الكبرى من أجل التطور الخلاق للديالكتيك المادي • هذه الدفاتر لاتشتمل على موضوعات عميقة في الطريقة الماركسية فحسب ، وانما تشتمل أيضا على منهاج كامل للتطور اللاحق للديالكتيك كعلم • وثمة أهمية خاصة لتوجيهات لينين حول ضرورة صياغة الديالكتيك كمنطق ونظرية معرفة •

وتعد المسودة الصغيرة « حول مسألة الديالكتيك » كنزاً فلسفياً ثميناً ، حيث عمم لينين بشكل موجز نتائج عمله في مسائل الديالكتيك •

وساهم لينين مساهمة كبيرة في تطوير علم المجتمع الماركسي ونظرية المادية التاريخية • واعتبر مادية ماركس التاريخية أعظم مكتسب للفكر العلمي • ان لينين نفسه ، لم يدافع عن هذا المكتسب ضد شتى أعداء الماركسية وحسب ، وانما زاد أيضاً غناه مستخدماً الفهم المادي للتاريخ من أجل دراسة المسائل الجديدة في تطور المجتمع • وفي مؤلفاته تعميم لكل جوانب العملية الاجتماعية المعقدة في عصر الصدامات الاجتماعية والانقلابات الضخمة والاكتشافات العلمية العظيمة ، التي أضاءت طريق ملايين الناس المناضلين في سبيل حياة جديدة • واهتم لينين اهتماماً شديداً بمسألة دور الجماهير الشعبية والحزب الشيوعي كطليعة لها في عصر الثورة البروليتارية والتحولات الاشتراكية •

وبعد لينين طور تلامذته الفلسفة الماركسية • وتتطور الفلسفة الماركسية تطوراً خلاقاً على أيدي رجالات الحزب الشيوعي السوفييتي • ففي خطابات قادة الحزب ومواد الاجتماعات الموسعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي حول مسائل بناء الشيوعية ومسائل الاقتصاد والسياسة والثقافة ، وفي مؤلفات كادرات الحزب النظرية يجري تعميم التجربة التاريخية العالمية للحركة الثورية ولتحويل المجتمع تحويلاً اشتراكياً •

وساهم المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي مساهمة كبرى في تطوير كل الأجزاء المكونة للماركسية بما فيها الفلسفة • وفي البرنامج الجديد الذي أقره المؤتمر صيغت مسائل التطور العالمي المعاصر والانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية في الاتحاد السوفييتي صياغة علمية خلاقة • ومن « البيان الشيوعي » لماركس وانجلز الذي أعلن لأول مرة أفكار وأهداف الطبقة العاملة إلى البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الذي تضمن خطة محددة علمية للبناء العملي المباشر للشيوعية ـ يرتسم الطريق الذي قطعته الماركسية في فترة لا تزيد عن مئة سنة • لقد كان طريق اغتناء وتطور النظرية الماركسية تطوراً مبدعاً مستمراً •

ويتحقق التطور الخلاق للماركسية والفلسفة الماركسية من قبل الاحزاب الشيوعية والعمالية الأخرى أيضاً ، ومن قبل قادتها ورجالاتها عن طريق تعميم التجربة التاريخية للثورات الاشتراكية وبناء الاشتراكية في بلدان الديمقراطية الشعبية ، والتجربة المعاصرة للنضال من أجل الثورة الاشتراكية في البلدان التي ما تزال البرجوازية فيها طبقة سائدة •

وفي ضوء كل هذا يظهر التزييف للوضع الحقيقي والافتراء على الماركسية في مزاعم المحرفين المعاصرين القائلين بأن الماركسية كفت عن التطور بل وتجمدت في عشرات السنين الأخيرة • ان التحريفية تسعى إلى تكييف الماركسية بما يلائم أذواق البرجوازية وانتزاع المحتوى الثوري منها ـ نظرية الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا •

وبما أن الاساس الفلسفي للنظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا هو المادية الديالكتيكية فمن الطبيعي أن يحاول المحرفون المعاصرون مثل بيرنشتين وكاوتسكي وبوغدانوف وغيرهم اعادة النظر في النظرية الفلسفية الماركسية • ويزحف المحرفون إلى مواقع الاصلاحيين فيستبدلون نظرية التطور الانسيابي بالديالكتيك الثوري • والماركسية معادية ، من ناحية أخرى ، للجمود العقائدي الذي يكمن جوهره في المعالجة الحرفية اللا تاريخية الميتافيزيكية للواقع المتطور تطوراً عاصفاً ، وفي عدم القدرة وعدم

الرغبة في تطبيق موضوعات النظرية الماركسية تطبيقاً خلاقاً على ظروف التطور المعاصرة • وهذا هو سبب كون النضال من أجل الماركسية الثورية يتطلب في الظروف الراهنة نضالا متواصلا ضد التحريفية والجمود العقائدي •

ان قوة وحيوية أية نظرية فلسفية تختبران بقدر ما تتأكد هذه النظرية في التطبيق وتكون قادرة على التطور تطوراً خلاقاً وعلى التعميم واستيعاب وصياغة التجربةالجديدة• وبهذا تكون قادرة على خدمة حاجاتالتقدمالاجتماعي• لقد انقضت مئة سنة تقريباً على نشوء النظرية المادية الديالكتيكية • وهذهالمئةعام تعادل من حيث الأهمية مئات كثيرة من أعوام التطور في الماضي • فقد جرت خلال هذه المدة أحداث تاريخية ضخمة حولت وجه المجتمع • وأحرز العلم نجاحات عملاقة وقام باكتشافات كثيرة • ان كل « النظريات » البرجوازية والمدارس الفلسفية التي نشأت خلال هذه الفترة قد انهارت على كثرتها • أما النظرية الماركسية ، نظرية الطبقة العاملة ، فهي لم تتضرر بسبب تبدلات العصر الكبرى ، وانما ، على العكس ، تدعمت واغتنت باستمرار بمعارفجديدة وخبرة عملية دون أن تكف لحظة عن كونها محركاً فكرياً جباراً للتطور المعاصر •

ان الماركسيةاللينينية ، باعتبارها نظرية تتطور تطوراً خلاقاً ،لم تبلغمنقبل المجد الذي تعيشه في المرحلة التاريخية المعاصرة • وهذا ينطبق أيضاً علىالنظرية الفلسفية الماركسية •

ما هو سر قدرة الماركسية على الحياة ، هذه القدرة التي لا تنضب ؟

لقد أعطى لينين جواباً مختصراً على ذلك، ولكنه جواب كاف :

« ان نظرية ماركس أقوى من كل شيء لانها صحيحة » •

ان صدق المادية الديالكتيكة والتاريخية ، والماركسية ــ اللينينية ككل ، ثابت بالبرهان القاطع من خلال الممارسة التاريخية العالمية للنضال الظافر الذي تخوضه الطبقة العاملة في سبيل الاشتراكية •

الفصل الثالث

المادة وأشكال وجودها

في الفصول السابقة تحدثنا عن تعريف الفلسفة الماركسية وأبنا كيف نشأت هذه الفلسفة وتطورت • والآن ننتقل إلى عرض متسلسل لأسس هذه الفلسفة ، أسس المادية الديالكتيكية • ان نقطة انطلاق المادية الدياكتيكية هي الاعتراف بالوجود الموضوعي للمادة ، للطبيعة ، المتطورة ، المتحركة ، بشكل خالد • لهذا لابد ، في البداءة ، من دراسة المادة وأشكال وجودها •

١ ـ المــادة

يحيط بنا عدد لا حصر له من الكائنات المتباينة أعظم تباين في خصائصها • بعضها يحشر في عداد الكائنات الحية • وبعضها لا يتوفر فيه أي دليل على الحياة • بعضها قاس وبعضها طري أو سائل • بعضها متناه في الصغر وخفيف ، وبعضها ذو أجسام هائلة وثقيلة جداً • بعض الاجسام مشحونة بالكهـربـاء ، وبعضها غير مشحون بها ••• الخ • كـل هذا بمجموعـه يشـكل ما يدعى بالطبيعة • ومهما تباينت أجسام الطبيعة وتمايزت عن بعضها ، فالخاصة الجامعة بينها هي إنها موجودة خارج وعي الانسان ، وإحساسه ونفسه وبشكل مستقل عنه • وهو أمر مؤيد بتجارب حياة كل فرد ، وبتجارب الانسانية كلها وبالمعطيات العلميـــة •

لقد أثبت علم الطبيعة ، بشكل لا يقبل الجدل ، أن الطبيعة ليست الآن كما كانت عليه من قبل • كانت الأرض ، قبل زمن سحيق ، في وضع انتفى

فيه وجود الانسان والكائنات الحية باحساساتها ووعيها ، في حين كانت ، كما هي عليه الآن ، تدور حول الشمس ، تحت تأثير جاذبيتها ، وتدخل ، مع غيرها من الكواكب ، ضمن المجموعة الشمسية • وهو أمر يدل على أن الشمس والارض والمنظومة الشمسية ، على أن الطبيعة ، على العموم ، توجد خارج اي وعي ، وبشكل مستقل عنه • ولم ينشأ الانسان ووعيه الا في درجة معينة من تطور الطبيعة كنتاج رفيع لها ، في حين وجدت الطبيعة ذاتها بشكل خالد • ولم يوجد ولا يمكن أن يوجد أي « وعي ما فوق الانسان » ، أي « وعي مطلق » ، أية « روح مطلقة » • وعلى هذا فالفلسفة المادية تعلم أن الطبيعة ، أن المادة ، هي السابقة ؛ وأن الروح ، أن الوعي ، هو اللاحق • وعندما تؤثر أجسام العالم المحيط بنا على أعضاء حواسنا فهي تولد الاحساسات المناسبة : كاحساس الضوء أو الظلمة ، والدفء أو البرودة ، والحلاوة أو المرارة •

ان الفلسفة المادية ، إذ تعمم حصيلة التطور التاريخي الطويل ، تطور الفلسفة وعلم الطبيعة ، إذ تعمم حصيلة معطيات النشاط العملي ، تصوغ ، شيئاً فشيئاً ، مفهوم المادة العلمي • يقول لينين : « ان المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي تعرفنا عليه إحساساتنا ، الواقع الذي تنسخه هذه الاحساسات وتصوره وتعكسه ، ويوجد بشكل مستقل عنها »[1] •

في هذا التعريف ينعكس جوهر النظرة المادية عن العالم ، وانتصاب المادية ضد المثالية وضد نظرية استحالة المعرفة •

لنأخذ مثلاً المثالية الذاتية • فرغم أن المثاليين الذاتيين كثيراً ما يطيب لهم الحديث عن وجود فارق بين الموضوعي والذاتي ، بين النفسي والمادي ، فان جوهر هذه المثالية يبقى اعتبار احساساتنا وكل ما هو حقيقي وموضوعي ومادي ، شيئاً واحداً ، يبقى ارجاع كل شيء إلى الاحساس : ان الاحساس الذاتي هو الموجود الوحيد • وعلى هذا ، فكل أشياء العالم المحيط بنا ، كما يقول بيركلي وماخ وغيرهما من المثاليين الذاتيين ، انما هي « مجمعات » أو «مركبات»

---

(١) لينين المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ١١٧ •

من الاحساسات • والشيء الموضوعي هو الشيء الثابت في احساسات الانسان، أو ما هو مشترك في احساسات عدد من الناس ، أي « ما هو معترف بـه من قبل الجميع » •

وعلى العكس من هذا ، فان الفصل المبدئي من جهة ، بين العالم الخارجي، بين جميع الاشياء التي تحيط بنا ، وبين الاحساسات ، من جهة أخرى ، هـو الأساس الرئيسي في تعريف لينين للمادة • فالاشياء ليست هي الاحساسات ، ليست هي الوعي • وليس الشيء الموضوعي هو أكثر الاشياء ثباتاً في احساسات الانسان ، ليس هو الشيء الواحد في احساسات عدد من الناس ، كما يؤكـد المثاليون الذاتيون • إن الشيء الموضوعي هـو الشيء الموجود خارج كـل احساس ، وبشكل مستقل عنه •

ان المثالين الذاتيين يسمون التفريق البين الواضح بين الواقع الموضوعي والاحساسات يسمونه « ازدواجية العالم » و « ثنائيته » ويدعونه انحرافاً عن النظرة الأحادية للعالم • بيد أن هـذا الاتهـام بالثنائية ، بالابتعاد عن النظـرة الوحدانية للعالم ، لا أساس له • ورغم أن التعريف الذي ذكرناه يفصل ، بوضوح ودقة ، بين المادة والاحساسات ، فهو لا ينطوي على ما يؤكد أن المادة والاحساس هما « أساسان » مستقلان كل الاستقلال ، أو « جوهران » يشكلان أساساً لفئتين مستقلتين من الظواهر ، أساساً لعالمين • ليس الاحساس «جوهراً» منتصباً أمام المادة مستقلا عنها ، بل هو نسخة ، صورة ،هو انعكاس للمادة • وهذا الانعكاس موجود في المادة ، وبفضل المادة•

ان المثالين الذاتيين يأخذون بـ « وحدانية » الكون ، المثاليـة ، جاعلين من المادة والاحساسات شيئاً واحداً • هذه الوحدانية ليست أكثر من تخيل لا يقوم على أساس واقعي • لأن جعل المادة والاحساسات أمراً واحداً مستحيل في الواقع • ويضطر هـؤلاء المثاليون ، في حياتهم العمليـة ، الى الاعتراف ، صامتين ، لا بوجود احساساتهم الذاتية فحسب ، بل وبوجود الناس الآخرين المستقل عن هذه الاحساسات ، وبوجود العـالم المحيط بنا أيضـاً • وبما أن الطابع الحقيقي للعلاقات بين الاحساسات والعـالم المادي يظل غامضـاً ، فان

تناقضاً صارخاً يظهر في نظرات المثاليين الذاتيين ويقوض « وحدانيتهم » المزعومة كلها •

ان تعريف لينين هو تعبير دقيق عن الوحدانية المادية المنسجمة التي تعطي نظرة صحيحة كاملة عن العالم •

والمثاليون الذاتيون ينكرون وجود الارض والطبيعة والعالم المادي بدون الانسان • في حين أن المثاليين الموضوعيين ، رغم أنهم يؤمنون بأن الطبيعة ، بأن العالم المادي ، موجود من دون الانسان ، من دون احساساته الشخصية ، الا أنهم يبقون أيضا مثاليين ، لاعتقادهم أن العالم كله ، أن الطبيعة ، مرتبطة ، كلياً ، ب « فكرة مطلقة » ما ، مرتبطة بروح محضة مستقلة ••• الخ ، ككائن ما موجود ، كما يقولون ، منذ الازل ، يقول للطبيعة كوني فتكون • الا أن الروح « المحضة المستقلة » ، الا أن « الفكرة المطلقة » ••• الخ ليست ، كما يقول لينين ، الا احساسات الانسان ذاتها ، الا فكره ، الا وعيه ، بعد انفصالها عنه وتحولها إلى تجريد تخيلي • لهذا ، فالقول بأولوية الواقع الموضوعي واستقلاله عن الاحساس ، عن الوعي ، عن الروح ، هذا القول الذي يشكل نواة تعريف لينين للمادة ، وجه ضد المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية على السواء • ويحاول المثاليون دعم نكرانهم لواقع الطبيعة الموضوعي بالاعتماد على أن الانسان ، في زعمهم ، لم يعط ، مباشرة ، غير احساساته الخاصة فقط • فالتحدث عن شيء مستقر خارج الاحساسات ، انما يعني ، في زعمهم ، هجر تربة الوقائع الحقيقية ، والسماح بالخروج عن حدود التجربة • وعلى هذا ، فنحن ، كما يزعم ، لا نعرف غير احساساتنا الشخصية ، ولا شيء بعد هذا • ومن هنا تُستنتج النتيجة المضحكة ، تستنتج النتيجة التي تزعم أن الاحساسات هي الواقع الوحيد • ان التأكيد الزاعم أن الانسان لم يرزق غير الاحساسات فقط ، أي أن الانسان لا يحس الا احساساته الشخصية ، هذا التأكيد يشكل منطق المثالية الاساسي الكاذب ، الذي يطبق تطبيقاً جامداً ليس إلاّ • وتعريف مفهوم المادة اللينيني يدحض هذا المبدأ الجامد للمثالية • ويشار في هذا التعريف الى تلك الفكرة الهامة جداً ، فكرة أن الانسان يحس ويدرك لا الاحساس

والادراك ، بل أشياء العالم المادي وظواهره ، أي أن الانسان يتعرف الى المادة عن طريق الاحساسات .

هذه الفكرة الاخيرة تضع حداً أيضاً للشك السحيق الذي يثيره أنصار نظرية استحالة المعرفة عندما يتساءلون : هل يوجد عالم خارجي أم لا يوجد ؟ لأنه ، بهذا ، يتوضح خطل ذلك المنطلق الزاعم أننا لم نرزق غير الاحساسات ، وهو الذي يأخذ به القائل باستحالة المعرفة ، كما يأخذ به المثالي ، ولا يبتعد عنه الأول بخطوة حاسمة نحو المثالية أو المادية ، بل يراوح فيما بينهما . وعندما أشار لينين في تعريفه إلى أن الواقع الموضوعي تنسخه الاحساسات وتصوره وتعكسه ، دل على الامكانيات التي لا حد لها ، إمكانيات التعرف الموضوعي على المادة ، على الطبيعة .

ويتميز التعريف المذكور أيضاً بخاصة عميقة : انه تعريف شامل عام لا يقتصر على أنواع معروفة من المادة ، عرفها العلم في وقت ما ، وتمتعت فقط بخصائص كيماوية أو فيزيائية معينة . مثل هذا التعميم أصبح أمراً ممكناً نتيجة التطور المديد الذي حققته العلوم الطبيعية والفلسفة . فالفيلسوف اليوناني القديم « فارلس » جعل من المادة والماء شيئاً واحداً . في حين ذهب «أناكسيمسن» الى أن الهواء هو أساس كل شيء . أما « ديموقريط » فقد رأى في الذرة الأساس الأول . وقد نحا هذا النحو ، بالنسبة الى المادة ، كثير من بحاثة الطبيعة وفلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . انهم ذهبوا الى أن الذرات هي صغيريات لا تتبدل ولا تتجزأ ولا تدرك . ولكنه توضحت ، شيئاً فشيئاً ، ضرورة تحرير مفهوم المادة من التحديدات الناجمة عن المستوى العابر الذي بلغناه ، تاريخياً ، في معرفة بنية المادة وخواصها الفيزيائية .

إن الميل الى اكساء المادة بخصائص فيزيائية « مطلقة » اتسمت بها مرة واحدة والى الابد (كعدم تجزئتها ، وعدم تبدلها ، مثلا) كان لا بد له ، عاجلا أم آجلا ، من أن يتناقض تناقضاً حاداً مع ما هو قائم ، عملياً ، في الطبيعة . وهو أمر حدث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عندما كانت الفيزياء تعيش تطوراً ثورياً عاصفاً . فبفضل اكتشاف تفكك نواة الذرة المشع الذي أثبت امكان

تفكك الذرات انهارت الفكرة التي عاشت دهوراً ، فكرة أن الذرات لا تتبدل ولا تتجزأ • وقد أعطى اكتشاف الاليكترون (أصغر الصغيريات المشحونة بالكهرباء وهو الداخل في تركيب الذرة ومتميز عنها تميزاً جوهرياً) ، هذا الاليكترون الذي ربط الميتافيزيكيون الماديون مفهوم المادة به ، أعطى المثاليين حجة للادعاء كما لو أن الذرة « خرجت عن نطاق المادة » •

في هذا الوقت بالذات ، وفي جو من النضال الضاري ضد المثالية ، قدم لينين تعريفه السابق ، للمادة • في هذا التعريف الفلسفي بدا مفهوم المادة العام متحرراً من الارتباط الالزامي بهذه الخصائص الفيزيائية الحسية أو تلك ، الملازمة للاشياء المادية فقط في شروط معينة ، في أوضاع معينة • ونتيجة لذلك فقد أصبح واضحاً أن الاسئلة التي تدور حول ما اذا كانت الذرة مؤلفة فقط من الاليكترونات ، أو انها مؤلفة من صغيريات ما غير تلك الاليكترونات ، وحول ما اذا كانت كتلة الذرة تتبدل بتباين الشروط أو تبقى ثابتة ••• الخ ، أصبح واضحاً أن هذه الأسئلة لايمكن أن تنال مفهوم المادة الفلسفي ، لأن « الخاصة الوحيدة للمادة ، كما أشار لينين ، وهي التي تأخذ المادية الفلسفية بها ، هي خاصة كون المادة واقعاً موضوعياً ، خاصة كونها موجودة خارج وعينا »[1] •

ولقد لعب وضع هذه الفكرة الهامة دوراً كبيراً جداً لا في تطور الفلسفة الماركسية فحسب ، بل وفي تطور العلوم الطبيعية أيضا •

ان ظهور هذا الواقع ، واقع أن تكوين الذرات يشتمل على الاليكترونات التي تتميز خصائصها تميزاً واسعا عن خصائص الذرات ، ان ظهور هذا الواقع وضع البحاثة الطبيعيين في وضع صعب أمام ضغط المثاليين الذين يؤكدون « أن المادة تستبدل بالكهرباء » ، وأن « المادة تنعدم » • فقضى لينين على هذه الصعوبة قضاءً تاماً ، وأثبت ، في تعريفه للمادة كواقع موضوعي ، عدم امكان انهيار المادية • فسواء أشابه الاليكترون ، بخصائصه الفيزيائية ، الشيء العادي أم لا ،

---

(١) لينين : المؤلفات ج ١٤ ص ٢٤٧ •

وسواء أتبدلت خصائصه في شروط معينة أم لا ، فهذا كله لا أهمية له من أجل حل قضية الفلسفة الاساسية • ان السؤال الاساسي الذي يتوقف عليه تحديد الاتجاهات الفلسفية جمعاء ، وعلاقتها بهذه المدرسة أو تلك ، يتلخص في اعتبار أو عدم اعتبار أن الالكترونات أو غيرها من الصغيريات واقع موضوعي ، وهل هي موجودة خارج الوعي ومستقلة عنه أم لا • ان العلوم الطبيعية تجيب على ذلك بالايجاب القاطع • وعلى هذا ، فان القول بانعدام مادية الذرة ، و بـ « استبدال المادة بالكهرباء » •• يصبح قولا نافلا ، ذلك أن الاليكترون ليس غير مظهر خاص للمادة ، يتمتع بصفات خاصة •

وعندما اكتشف تحول الاليكترون والبوزيترون الى فوتونات (صغيريات الضوء) ، بدأ الفيزيائيون ، أصحاب التفكير المثالي ، يأخذون بمبدأ « تلاشي المادة » • الا أن هذا الاكتشاف ، شأنه شأن اكتشاف الاليكترون ، لم يدحض المادية ، بل أبان بوضوح صحة المفهوم المادي الديالكتيكي عن المادة • ترى هل الفوتونان اللذان تحول اليهما الاليكترون والبوزيترون هما لا شيء ؟ أليسا واقعاً موضوعياً موجوداً خارج وعينا ومستقلا عنه ؟ ان الفيزياء الحديثة تجيب على هذين السؤالين اجابة محددة واضحة • انها تجيب بأن الفوتونات (صغيريات الضوء) عبارة عن جزئيات المادة ، رغم تمايزها عن الاليكتروناتوالبوزيترونات بعدد من الخصائص الفيزيائية • هذه الفوتونات موجودة خارج وعينا ومستقلة عنه ، شأنها في ذلك ، شأن جميع أشكال المادة الاخرى • وهناك عملية عكسية ، أي تحول الفوتونات الى زوج من الصغيريات : الى اليكترون وبوزيترون • اذن فالمادة لاتفنى ، وانما هناك عملية تحول متبادل بين وجوه مختلفة من المادة• هكذا يؤكد العلم ، مرة أخرى ، صحة ما ذهبت اليه المادية الديالكتيكية عن خلود المادة وعدم فنائها •

الا أنه ينشأ هنا سؤال آخر : هل نعتبر الاليكترون والفوتون الموجودين خارج وعينا ، واللا مدركين بأعضاء حواسنا ، هل نعتبرهما رغم ذلك ، مدركين باحساساتنا ، ونطبق عليهما تعريف لينين للمادة ؟ لا شك انه يمكن ويجب اعتبارهما كذلك • ان التعريف لا ينصب على الطريقة بالذات التي يجب أن

يؤثر بها هـذا الشيء المادي أو ذاك على أعضاء حواسنا ، موقظا فينا الحس المناسب . فالتأثير المذكور يمكن أن يكون مباشراً أو غير مباشر عبر أشياء مادية ما ، تحول هذه الاشكال من المادة الى أشكال تدركها أعضاء حواسنا بشكل مباشر . فنحن نلجأ دائماً ، عملياً ، الى مثل هذه الوسائط المادية التي تجمع أعضاءنا الحسية مع أجسام أخرى نود ادراك أثرها ، ولكنها لا توجد أو لا يمكن أن توجد ، لهذا السبب أو ذاك ، في احتكاك مع أجسامنا . فعندما ننظر الى الشمس ندرك وجودها حسياً . انها تؤثر علينا من خلال وساطة شيء مادي هو الضوء . وعندما نسمع صوت انسان ما بعيد عنا ، فالصوت يصلنا عبر الهواء ، وبفضل حركة اهتزازية . كذلك تجري الامور بالنسبة الى الاليكترونات والفوتونات . ان ادراكها ممكن عند الاستعانة بأجهزة خاصة ، مهمتها تحويل تأثير الاشياء المعنية ، وهو التأثير الذي لا تدركه حواسنا مباشرة ، تحويله الى شكل يمكن ادراكه . فهذه الاجهزة ليست ، من حيث الدور الذي تقوم به ، غير امتداد وتحسين لاعضاء حسنا الطبيعية ، غير امتداد يربط بين الذات المدركة وبين ميادين جديدة وجديدة من العالم .

ان المادية الديالكتيكية ، خلافاً للمادية الميتافيزيكية ، تنفي وجود أي جوهر يتمتع بصفات نهائية ، لا متغيرة ، وتدحض فكرة الجوهر البسيط المطلق الذي يتمتع بصفات وأشكال بروز « نهائية » والذي هو أساس كل ما هو موجود . ليس في الطبيعة أيُّ جوهر بسيط مطلق ، أيُّ شيء ثابت غير متبدل . ومهما تبدى لنا هذا الشيء المادي أو ذاك ، بسيطاً ، فهو ، في الواقع ، معقد كل التعقيد ، ولا يمكن حصر خواصه . ان المادة غير محدودة الخواص ، ككيان .

ان فكرة لينين عن عدم محدودية المادة ككيان ، وعن لانهائيتها ، تعتبر من أهم أسس فكرة المادية الديالكتيكية عن المادة . وتاريخ العلم كله يثبت ذلك ببراهين لا تدحض . ليس من حاجة لاثبات أن الكيان الانساني وما يتمتع به من نشاط عصبي رفيع معقدان كل التعقيد . لنأخذ ، مثلا ، ما يسمى بالصغيريات الاولية للمادة ، أي الالكترون والبروتون والنيترون التي هي أساس الكائنات

المادية الاخرى كلها ، وتبدو أبسط جسم بين الاجسام المادية المعروفة حتى الآن •

لقد اعتقد ، عند اكتشاف الاليكترون ، أن له كتلة وشحنة كهربائية ، فقط ، وأن هاتين الخاصتين ، ثابتتان غير متحولتين ، انهما فطريتان تلازمانه أزلياً ولا ترتبطان بأي شيء سواه •

ولم يلبث أن تبدى أن كتلة الاليكترون تتغير عند تحركه ، وهي مرتبطة بالحقل الكهرطيسي ، أي بالشيء المادي المحيط به • بيد ان الامر لم يتوقف عند ذلك • اذ اكتشفت خصائص جديدة تموجية للايليكترون ، وبذلك بدا أمامنا شيئاً شديد التعقد ، يتمتع بخصائص للجسيمات والموجات • كما أن امكانية تحويل الاليكترون الى فوتون ، نتيجة تفاعله مع البوزيترون ، كانت خطوة أخرى في طريق اكتشاف تعقيد صغيريات المادة المتناهية بالصغر •

ان واقع كون الاليكترونات عند تفاعلها مع البوزيترونات يمكن أن تختفي، متحولة الى فوتونات ، كما يمكن أن تظهر عند تحليل هذه الاخيرة ، هذا الواقع يبين بشكل واضح بعد الاليكترون الشاسع عن ذلك المفهوم المثالي الذي يصوره جوهراً بسيطاً مطلقاً ثابتا لا يتبدل ، يصوره جوهراً نهائيا كما كان يحلم به العلماء الميتافيزيكيون • ثم ان الفيزياء الحديثة اكتشفت خصائص أخرى للاليكترون • ومن الواضح أننا لا نستطيع القول بأن جميع خصائصه قد عرفت ، وبأن طبيعته قد اكتشفت كلياً •

وما قيل عن الاليكترون يمكن أن يقال عن الصغيريات الاولية الاخرى التي يزداد عدد المكتشف منها (عرف منها حتى الآن أكثر من ٣٠ صغيرة) • بما فيها ما اكتشف حديثاً من أضداد الصغيريات : كأضداد البروتونات،وأضداد النيترونات وغيرها ، المتميزة عن الانتيودات بالاتجاه المعاكس في احدى خواصها: كالشحنة الكهربائية والعامل المغناطيسي وغير ذلك • ان الصغيريات الاولية هي أشكال للمادة متمايزة نوعياً ، الا أنها لا توجد كأشياء منعزلة عن بعضها ، ساكنة لا تتبدل • انها ، على العكس ، تتبدل بهذا الشكل أو ذاك وفقاً للشروط

الملائمة • وخاصتها الاساسية تستقر في امكان تحول أي من هذه الصغيريات الى الآخر • فالبروتون والأنتيبروتون يمكن تحويلهما لدى التفاعل الى فوتونين، مصحوبين بطاقة كبيرة جداً • في حين أن الفوتونين المصحوبين بطاقة كبيرة جداً يمكن أن يتحولا الى بروتون وأنتيبروتون • ثم ان تقصي الصغيريات الاولية يكشف يوماً بعد يوم، عن خصائص أخرى لها • وكل خاصة لا تبدو معقدة فحسب، بل وتضع أمام العلم مهمات بحث جسيمة • وعندما يحدد الفيزيائيون السمات الجديدة لهذه الصغيريات الاولية، السمات التي لم تكن معروفة من قبل، يوجدون مفاهيم جديدة كالمفاهيم التالية : السبين[١] النظائري، الزوجية، الغرابة، شحنة النواة (الشحنة الثقيلة)، الشحنة المحايدة (الشحنةالخفيفة)، الحلزونيـة • ان ظهـور مثل هـذه المفاهيم الجديدة يبين لنا تفاقم التعقيـد في هذه الصغيريات المعتبرة أبسط ما اكتشف من الاجسام المادية حتى الآن •

ان آفاقاً لا تحد تتكشف أمام العلم في استقصائه أعماق المادة • وقد تم الوصول، حتى الآن، الى معطيات أولية هامة تبين البنية الداخلية للصغيريات الاولية بما يتيح لنا أن نقول بكل تأكيد بأن هـذه الصغيريات الاولية[٢] هي كيانات مادية مغرقة في التعقيد من حيث البنية •

ان العقل البشري لا يتوقف عنـد الحدود التي عرفها بل يحاول أن يتعداها ليتعمق في معرفة جوهر المادة وجزئياتها • وكما يقول لينين : تستقر وراء الحقائق التي عرفناها، حقائق أخرى لم نعرفها بعد، وهذه تمهد لاكتشاف حقائق ثالثة وهكذا الى ما لانهاية •

فمنذ أكثر من خمسين عاماً، وبعد فترة وجيزة من اكتشاف الاليكترون،

---

(١) السبين : Spin هو العزم الميكانيكي الذاتي لكمية الحركةفي الصغيريات • والسبين النظائري هو هذا العزم في صغيريات النظائر •

(٢) لهذا فان تعبير « الصغيريات الاولية » هو مجرد تعبير اصطلاحي • انه يوحي لنا بأن هـذه الاجسام المادية غاية في البساطة • ولكن واقع هذه الصغيريات الاولية يثبت أن صفة البساطة هذه لا يطلق الا لان كل جزئي من هذه الصغيريات يتألف من صغيرات أخرى ليست معروفة حتى الآن •

كتب لينين يقول : ان الاليكترون ، شأنه شأن الذرة ، هو جسم غير محدود الخواص ، والطبيعة لا نهاية لها . يا لها من نبوءة مدهشة جريئة وهي نبوءة لا تقوم على التخمين العرضي ، بل هي حصيلة طبيعية لفهم المادة ديالكتيكياً ، هذا الفهم الذي أغناه لينين بأفكار جديدة كثيرة .

ثم انه لاينبغي الخلط بين سؤالين اثنين : أولهما هو هل للأجسام الطبيعية كيان خارج وعينا ومستقل عنه ؟ وثانيهما : ما هي بنية هذه الاجسام ، وما هي العناصر الفيزيائية التي تتكون منها ؟ وما هي الصفات الفيزيائية لهذه العناصر ؟ السؤال الأول فلسفي ويتعلق بنظرية المعرفة ، أما الاجابة على الثاني فمن مهمات العلوم الطبيعية ، ولا سيما الفيزياء . بيد أننا حين نؤكد على الفارق بين السؤالين ، لا نستطيع الفصل بينهما . ان العلوم الطبيعية تدرس العالم الواقعي والاجسام المختلفة في هذا العالم ، كما تدرس بنية هذه الاجسام وخواصها ، وارتباط بعضها ببعض ، والقانونيات الملازمة لها . بيد أن هذه العلوم لا يمكن وجودها من غير الاعتراف بالواقع الموضوعي للعالم المحيط بنا . ومفهوم المادة هو انعكاس لهذا الواقع الموضوعي . ولهذا فمفهوم المادة ، بالمعنى الفلسفي الماركسي ، يتمتع بأهمية كبرى بالنسبة الى العلوم الطبيعية .

ان المفاهيم الاساسية التي أوجدتها العلوم الطبيعية ، للدلالة على مواضيع هـذه العلوم : كالصغـيرة الاولية ، والذرة ، والجزيء والعنصر الكيماوي والتشكيلة الجيولوجية ، والمنظومة الفضائية ... الخ ، ان هذه المفاهيم ترتبط حتماً بمفهوم المادة الفلسفي ، ويعبر عنها من خلاله .

لقد لاقى مفهوم المدة هجوماً أعنف من أي هجوم تعرضت له الفلسفة المادية . ولا عجب في ذلك لان هذا المفهوم هو حجر الزاوية في المفهوم المادي عن العالم ، لذا يهاجمه أعداءالمادية باستمرار . لقد أكد المثاليون مراراً وتكراراً ان مفهوم المادة الذي يعني الواقع الموضوعي انما دحض أو شاخ ؛ غير أن تطور العلم ، ومعطيات ممارسة النشـاط العملي أثبتـا ، بشـكل لا يدحض ، عكس ما ذهبوا اليه .

ان تقدم العلوم الطبيعية يجبر المثالين على الاعتراف بوجـود الذرات

والاليكترونات والفوتونات وما شابه ذلك • و « الامر الوحيد » الذي ينكرونه هو أن هذه الصغيريات عبارة عن واقع موضوعي ، ومادية • ولكن هذا « الامر الوحيد » هو الذي يميز ، بشكل جذري ، الماديين عن المثاليين • ولهذا فالمثاليون يناضلون بكل ضراوة ضد مفهوم المادة • وغالبية هؤلاء انما تقتفي من حيث الجوهر ، الأسقف بركلي الذي انتقده لينين في كتابه : « المادية والنقد التجريبي » • يقول « بركلي » : « هذه الاشياء التي أراها بعيني ، وألمسها بيدي ، موجودة فعلياً ، ولا شك في ذلك اطلاقاً • أما الشيء الوحيد الذي ننكر وجوده فهو ما يسميه الفلاسفة مادة أو جوهراً ذا جسم » • وقد أراد بركلي من هذا أن يقول بأن الناس لا يفقدون شيئاً اذا نفوا وجود المادة • لكن هذا ليس أكثر من تلاعب صادر عن فيلسوف مثالي • اذ عندما يعترف بوجود الاشياء فعلياً انما يقصد وجودها في وعينا ، في احساساتنا • أما الماديون ، فعلى العكس من ذلك ، فيقصدون بوجود الاشياء الفعلي ماديتها ، أي وجودها بشكل مستقل عن وعي واحساسات الذات • وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع مجموع النشاط العملي للناس •

ان احدى الحجج التي يحاول بواسطتها المثاليون المعاصرون اثبات نفيهم للمادة كواقع موضوعي تقوم على ما يلي : لنفرض أن الفيزيائي يحاول تحديد مكان الجسم المتناهي الصغر وسرعته في برهة معينة وبدقة كبرى • لهذا فهو مطالب باعداد الشروط التجريبية اللازمة • بيد أن القياس الدقيق للمكان (الاحداثيات) يتطلب توفر شروط معينة ، في حين يتطلب قياس السرعة توفر شروط أخرى • ان وجود الجسم المتناهي في الصغر في الشروط الاولى يجعله في حالة لا يمكن معها قياس سرعته بالدقة اللازمة • أما وجوده في الشروط الثانية فيحول دون تحديد مكانه بالدقة اللازمة • وهو أمر يدعو المثاليين الى القول باستحالة الحديث عن الجسم المتناهي الصغر كجسم قائم بذاته • وكل ما يمكن الحديث عنه هو في الحديث عن الجسم المتناهي في الصغر في صلاته الوثيقة بالشروط المحدَّدة الملازمة لبحثه ، وفي صلاته بباحثه • وهذا يعني أن الشيء المادي لا يوجد بدون الذات الواعي • ولكن الاعتراف بوجود الشيء المادي « في صلة

وثيقة مع الذات الواعي » انما يعني نكران المادة كواقع موضوعي • وليست كل هذه التصورات ، عملياً ، غير محاولات لاحياء النظرية المثالية القديمة تحت شكل جديد • تلك النظرية التي تدعى بنظرية التناسق المبدئي بين الذات والموضوع والتي وضعها « أفيناريوس » •

هذه النظرية تدعى أن الموضوع (الطبيعة) لا يمكن أن يوجد بدون الذات • وقد برهن لينين على خطل هذه النظرية ودخضها كلياً • ولم تكن الالوان الحديثة لهذه النظرية بأفضل منها • فلو أن « الصلة الوثيقة بين الموضوع والذات كانت متوفرة عملياً ، لادى هذا الى نتيجة مضحكة • كما أن الموضوع لا يمكن أن يوجد بدون الوعي المدرك له ، بدون الاحساسات • وفي المثال الذي أوردناه نرى أن الشروط التجريبية المستخدمة لبحث الجسم المتناهي في الصغر تؤثر عليه تأثيراً معيناً • بيد أن الشروط التجريبية ، رغم أنها مستخدمة من قبل الباحث ، ليست هي الباحث ذاته ، وبالتالي ، ليست وعيه أو احساساته • انها جسم فيزيائي «أو مجموعة أجسام» موجودة فعلا ،وتفاعله المتبادل مع الجسم المتناهي في الصغر هو أمر مادي موجود موضوعياً • هذه الصلة الحقيقية بين الاجسام المادية ذاتها ، هي صلة موجودة ، خارج أي وعي كان ، وبشكل مستقل عنه شأنها شأن تلك الاجسام ، وهي ليست اطلاقاً تلك الصلة المتخيلة « الوثيقة » القائمة بين الاشياء والوعي •

ان بعض الوضعيين الذين لا يصرون على اعتبار الشروط التجريبية والذات شيئاً واحداً ، يذهبون الى أن الجسم المتناهي في الصغر يرتبط ارتباطاً مبدئيا بالشروط التجريبية باعتبارها جسما فيزيائيا بالذات • ذلك لان هذه الشروط ، حسب رأيهم ، تحدد الحال التي سيكون عليها الجسم • وعلى هذا فالحديث عن الجسم المتناهي في الصغر ، بشكل منفصل عن جهاز التجربة ، بمعزل عن المراقبة التي تجري بواسطة الجهاز المذكور ، أمر لا معنى له حتى من الوجهة الفيزيائية المحضة • وبما أن الاجهزة التجريبيةوالتجارب والمراقبة يوجدها ويجريها الباحث ذاته ، فينشأ عن هذا أن وجود الجسم المتناهي في الصغر مرهون بوجود الباحث • وبتعبير آخر لا موضوع من غير ذات واع •

هنا ، كما في السابق ، يحدث استبدال فكرة بأخرى مع خرق فاضح لقوانين المنطق • يحدث استبدال الفكرة القائلة « بأن حالة الجسم المتناهي في الصغر الموجـود في شروط تجريبية معينة تتحدد بهذه الشروط » • يحدث استبدالها بفكرة مختلفة تمام الاختلاف لا تتطابق مع الاولى ، ولا تنتج عنها ، بفكرة « أن الجسـم المتناهي في الصغر لا يوجـد الا في صلة مـع الشروط التجريبية ، ولا يوجد الا بفضل توفر المراقبة » •

صحيح أن الجسم المتناهي في الصغر عند وجوده في الشروط التجريبية لايمكن بحثه منفصلا عن هذه الشروط ، ومتحرراً من تأثيرها • بيد أن الواقع هو أن هذا الجسم لا يوجد فقط في الشـروط التجريبية ولا يوجد فقط في صلة معها • ان الشروط التجريبية والاجهزة التجريبية ليست أكثر من أحد الاجسام العديدة التي يمكن للجسم المتناهي في الصغر التفاعل معها ، وتحدِّد وضعه • وبالاضافة الى ذلك فان جزء ضئيلا جـداً من الاجسـام المتناهية في الصغر الموجودة في العالم فعلياً ، هو وحده الذي يبرز في تلك الصلات ، وهذا أولا • كما أن امتداد هذه الصلات الزمني جد قصير ، بصورة عامة ، وهـذا ثانياً • ان الذهاب الى أن الجسم المتناهي في الصغر يوجد مبدئياً فقط ، في الشروط التجريبية ، وأن اخضاعه للبحث يتطلب منا دائماً النظر اليه في صلة مع الاجهزة التجريبية ، وانه لا يوجد الا بفضل المراقبة التي تجري بالاعتماد على هذه الاجهزة ، هذا التقول ، يضفي على الاجهزة التجريبية قوة خياليـة ما تفصلها عن عالم الاشياء الحقيقة الاخرى كله • وهذا التقول يعني ، عمليا ، نكران الوجود الحقيقي لاجسام العالم المادي كلها ، باستثناء الاجهزة التجريبية وما تطبق عليه من أجسام • ان عذه عبارة عن « مثالية جهازية » من نـوع خاص • ورغم أن هذه المثالية تنحو الى الادعاء بأنها تعتمد على الميكانيك الكوانتي الحديث ، فهي ، في الواقع ، تعمد بشكل جامد ، الى ابراز ما ترغب به ، على انه أمر مبرهن عليه • ان وجود الاجسام المتناهية في الصغر لا يرتبط ، ولا يمكن أن يرتبط بوجود الشروط التجريبية ، بوجود الاجهزة التجريبية وعمليـة المراقبة • ذلك أن هذه الاجهزة وعمليات المراقبة تستخدم ، علمياً ، لا على انها

سبب وجود الاجسام المتناهية في الصغر • كما أن حقيقة وجود هذه الاجسام لا يتوقف على توفر هذه الشروط ولا على اللحظات التي تجري فيها المراقبة • ان الاجهزة تصنع لبحث الاشياء المستقلة عنها وعن عمليات المراقبة• وهذا رغم أن طريق البحث يجري ، بالضرورة ، عبر تقصي العمليات التي تجري في الاجهزة • ان ضرورة توفر الاجهزة التجريبية من أجل معرفة الاجسام المتناهية في الصغر لا تعني ضرورة توفر هذه الاجهزة من أجل وجود هذه الاجسام •

في المنشورات التي تعالج الميكانيك الكوانتي يمكن أن تتعرف الى آراء تذهب الى أن كل جسم على العموم ، متفاعل مع جسم ما متناه في الصغر عبارة عن « جهاز » والى أن تفاعلهما عبارة عن « قياس » • هذه النظرة الخاطئة تطمس كلياً جوهر الأمر • وهي تفسح المجال لظهور التخرصات المثالية والتصورات الخيالية المحضة • ان الاجهزة التجريبية ليست مجرد أجسام فيزيائية ، بل هي أجسام فيزيائية جعلها الانسان واسطة بين أعضاء حواسه وبين أشياء العالم الخارجي لاستقصائها • ولا يمكننا اعتبار الاجسام الفيزيائية أجهزة الا من خلال تلك الفكرة وهذا الدور في عملية المعرفة • وهذا أيضاً هو شأن التفاعل الفيزيائي بين الاجسام ، الذي لايمكن اعتباره قياساً ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، من دون ارتباطه بعملية المعرفة •

ويحاول بعض « الفيزيائين » المثاليين المعاصرين (أمثال جينس وغيره) بهدف دحض فكرة أولوية المادة كواقع موضوعي ، يحاولون استغلال وجود خصائص تموجية لدى الاليكترون وغيره من جزئيات المادة • انهم يذهبون الى أن الخصائص التموجية ليست مادية بل روحية ، ليست مادية بل مجرد تركيبات فكرية ، «انها تموجات معرفتنا» • وبما أن توزع الجسيمات المكاني، بعد أمرارها عبر شاشة ذات شقوق قريبة من بعضها ، يتحدد بالخصائص التموجية ، فان المثاليين يستنتجون من هذا أن الروحي يتحكم بالمادي •

بيد أن الخصائص التموجية للأجسام المتناهية في الصغر لا تحمل اطلاقاً صفة الروحية • وهي ، شأنها شأن الخصائص الاخرى للمادة ، ولا سيما

الخصائص الجسيمية توجد خارج الوعي ومستقلة عنه • والصلة بين خصائص الجسم المختلفة هي مادية • ولا عجب ان أثر بعض هذه الخصائص على بعضها الآخر ، وكان ذا أهميـــة أعظم من أجل تتابع العملية في ظروف حسية معينة •

كل شيء في تبدل وتغير وذو نهايـة • ولكن اذا ما اختفى شيء برز مكانه شيء آخر ، بحيث أن أية صغيرة مادية لا تختفي من غير أثر ، ولا تتحول الى لا شيء ، وبالمقابل فليس هناك من صغـيرة مهما كان شأنها ، تخلق من لا شيء • وحيث تنتهي حدود أحد الاشياء المادية تبدأ حدود أشياء مادية أخرى • ولا نهاية لهذا التعاقب الذي لا حد له ، ولا للتأثير المتبادل بين الاجسام المادية • فالمادة ، فالطبيعة خالدة ، لا نهاية لها ولا حدود •

ليست المادة شيئاً وحيد الصورة ومن نوعية واحدة • انها تبرز في أجسام متباينة لا حصر لتباينها ، متميزة نوعاً وكماً ، وهي تشكل جماعات من الاشياء الاقارب ، من حيث خصائصها ، وهي ما نسميها بالانواع المتباينة للمادة •

وهذه الانواع المتباينة للمادة تتميز بالتعقيد الى هذا الحد أو ذاك ، وهي مواضيع بحث مختلف العلوم من الفيزياء إلى الكيمياء ، والبيولوجيا ••• الخ • أما الانواع البسيطة نسبياً منها فهي الصغيريات الاولية كالفوتون ،والالكترون، والبوزيترون ، والبروتون ، والميزون ، والأنتي بروتون والنترون والانتـي نترون ••• الخ •

أما التعقيد الواسع فهو من نصيب الذرات والجزئيات ثم تليها في التعقيد الغازات والسوائل والاجسام الصلبة التي نحتك بها في حياتنا اليومية • وكذلك الأجرام السماوية المختلفة كالكواكب والنجوم والمجموعات النجمية • وتتميز أجسام الطبيعة العضوية ، وخاصة الانسان ، ثمرتها العليا ، بدرجة عاليــة من التعقيد • ويعتبر المجتمع الانساني موضوعاً مادياً خاصا تدرس علوم كثـيرة جوانبه ومظاهره المختلفة : من هذه العلوم المادية التاريخية،والتاريخ والاقتصاد السياسي ، والاحصاء الاقتصادي ••• الخ •

٢ ـ حركة المادة

كل شيء يتحرك ويتبدل في هذا العالم (من أصغر الصغيريات الاولية الى الكواكب والمجموعات النجمية الهائلة) ٠ وفي الكائنات الحية يحدث تبادل مستمر للمواد ٠ انها تتفاعل مع الوسط المحيط بها٠ والارض التي نعيش عليها تدور حول محورها وتتم دورانها حول الشمس٠ والشمس ذاتها ليست ثابتة٠ انها تسبح مع مجموعتها الكوكبية الدائرة حولها ، في الفضاء الكوني ٠ والكيان الذي يتألف منه الشمس يشبه الاعصار الناري الهائج الجامح باستمرار ٠ كل جسم يتكون من ذرات تتحرك باستمرار ، وكل ذرة تعج بالحركة الداخلية ٠ ففي الغشاء الخارجي للذرات تتحرك الاليكترونات ، أما في النواة فتتحرك البروتونات والنترونات بسرعة كبيرة ٠ وحركتها لا تقتصر على مجرد الانتقال من نقطة الى أخرى في النواة، بل تشمل كذلك تحول بعضها الى بعضها الآخر بذبذبات مذهلة٠ ان الحركة ليست حالة عرضية للمادة، وليست شيئاً ما منفصلا عن الخصائص الاساسية للأجسام المادية ، وليست شيئاً ما خارجياً بالنسبة اليها ٠ والاشياء لا تكون في الحال التي هي عليه الا بفضل الحركة الملازمة لها ٠ فالمجموعة الشمسية لا تبدو جسماً مادياً نوعيا الا لأن جميع الكواكب التي تشكلها تتسم بحركة معينة ، ملازمة لكل كوكب منها ٠ فاذا توقف تبادل المواد داخل الكائنات الحية ، وبينها وبين الوسط ، انعدمت هذه الكائنات ، وأصبحت مجرد أجسام ميتة بالرغم من استمرار العمليات الكيماوية والفيزيائية فيها ٠ واذا توقفت الاليكترونات الموجودة في غشاء الذرة عن الحركة الملازمة لها كفت الذرة عن الوجود كجسم محدد نوعياً ٠ وتظهر لنا الفيزياء أن نواة الذرة لم يكن ليكتب لها وجود فيما لو توقفت النترونات والبروتونات عن الحركة الدائمة في هذه النواة الذرية ، وهي الحركة التي تجد تعبيراً لها في تبادل التحول من احداها الى الاخرى ٠ ان الطاقة النووية التي تجمع هذه الجزيئيات في نواة ذرية متينة تدين بوجودها لهذه الحركة بالذات ٠

لا توجد مادة ولا يمكن أن توجد من دون حركة • والمادة لا تنفصل عن الحركة • وبتعبير آخر إن الحركة هي وسيلة وجود المادة •

ان المادية الديالكتيكية لا تفهم الحركة على أنها انتقال ميكانيكي للأجسام في المكان فحسب ، بل وتفهمها على أنها شاملة كل تبدل بصورة عامة • وقد أبان انجلز : « أن الحركة المفهومة بالمعنى العام للكلمة ، أي المفهومة كوسيلة لوجود المادة ، وكخاصة ملازمة للمادة داخلياً، تتضمن جميع التبدلات والعمليات التي تجري في الكون بدءاً من التنقل البسيط وانتهاء بالتفكير • وتبعاً لتنوع ظواهر الطبيعة توجد أشكال مختلفة لحركة المادة يمكننا أن نبرز من بينها بعض الاشكال الاساسية لهذه الحركة • وكل شكل منها يشتمل على حلقة ، واسعة الى هذا الحد أو ذاك ، من الظواهر الاقارب بمعنى معين •

ان شكل الحركة هو نموذج معين من تبدل الاوضاع ، يخضع لمجموعة معينة من القوانين المترابطة فيما بينها ، ويلازم فئة واسعة الى هذا الحد أو ذاك ، من الاجسام المادية ، أو فئات مختلفة منها اذا كانت هذه الفئات تتمتع بسمات جوهرية عامة بالرغم من الفوارق القائمة فيما بينها •

وقد عرفت حتى الآن الاشكال الاساسية التالية للحركة :

١ : ـ الشكل الميكانيكي وهو تنقل الاجسام مكانياً بالنسبة الى بعضها •

٢ : ـ مجموعة أشكال الحركة التي تدرسها الفيزياء كالعمليات الحرارية والكهرطيسية بما فيها الظواهر الضوئية والتجاذب المتبادل ، والعمليات التي تجري داخل الذرة وداخل النواة ، وحركة الصغيريات الاولية والتحول المتبادل فيما بينها •

٣ : ـ الشكل الكيميائي (العمليات الكيميائية) •

٤ : ـ الشكل البيولوجي للحركة (الحياة العضوية) •

٥ : ـ الشكل الاجتماعي (العمليات الاجتماعية وتاريخ المجتمع الانساني)•

هذا التقسيم لا يعني أن كل شكل من هذه الاشكال بسيط في ذاته •

ورغم أننا نتحدث ، مثلا ، عن الشكل الميكانيكي للحركة ، حديثنا عن شكل وحيد ، الا أنه تقوم خلف هذا الشكل الوحيد أنواع فرعية متباينة من الحركة الميكانيكية ، كالحركة المستقيمة ، مثلا ، والمنحنية ، والمستوية ، والمتناوبة ، والدورانية ، والتصاعدية ... الخ . بيد أن هذه الاشكال كلها تنتظم تحت قنونة أساسية واحدة يعبر عنها بقوانين ميكانيك نيوتن . وكذلك فان الشكل الكيماوي يشتمل على عدد كبير من التفاعلات الكيماوية وعمليات تعقيد تركيب الاجسام المادية بما فيها تلك العمليات المؤدية الى نشوء المركبات الزلالية . وهنا أيضاً تنظم سير العمليات المتباينة مجموعة موحدة مترابطة من القوانين الكيمائية .

ان عدم انفصال المادة عن الحركة لا يعبر عنه فقط بأنه لا مادة بلا حركة، بل ويعبر عنه أيضاً بأن بين الاشياء المادية وبين كل شكل من أشكال الحركة، التي هي شكل وجود الأولى ، يقوم توافق محدد تماماً، تقوم علاقة داخلية معينة. فالحياة ، كما تبدو في ظروف الارض ، هي شكل الحركة الملازم للاجسام الزلالية . أما في الاجسام اللا عضوية فلا توجد حياة ولا يمكن أن تكون . ثم ان الشكل الكيماوي للحركة يخص العناصر الكيماوية ومركباتها . وهو لايمكن أن يتوفر في أجسام أخرى كالفوتونات والالكترونات والبوزترونات والميزونات ، وغيرها من الصغيريات المماثلة التي تدرسها الفيزياء . والصلة بين أنواع الحركة وبين نماذج الاجسام المادية يمكن أن نراقبها لدى الاجسام البسيطة نسبياً ، والتي نسميها بالجزئيات « الاولية » . فالفوتونات ، مثلا ، لها شكل حركة خاص يعبر عن خصائصه الاساسية بمعادلات « ماكسويل » الكهربائية الديناميكية ؛ أما حركة الاليكترونات والبوزترونات فتخضع لقوانين يعبر عنها بمعادلة « ديراك » التي تتميز جوهرياً عن معادلات « مكسويل » . أما حركة الصغيريات الاكثر ثقلا ، أي حركة الميزونات ، فتخضع لقوانين أخرى . وبقدر ما تتوفر هذه الصلة الداخلية بين أشكال الحركة ونماذج الاجسام المادية ، تكون دراسة الحركة ، في الوقت ذاته، طريقاً لمعرفة الاجسام المادية ذاتها .

وكما أن المادة لايحاط بها كلياً كذلك فان الوجوه المتعددة لحركتها ، وخصائص هذه الوجوه ، لا يحاط بها . وكما أنه لا توجد مادة بسيطة كل البساطة ، أي ينتهي عندها جوهر الشيء ، كذلك لايوجد شكل بسيط كل البساطة للحركة . وبساطة الاشكال الحركية المعروفة ببساطتها هي أمر نسبي . وكلما تعمقنا في المادة اكتشفنا أشكالا جديدة للحركة ، وخصائص جديدة لهذه الاخيرة .

لايمكن للمادة أن توجد الا في الحركة ، ولكن هذا لا ينفي امكان حدوث فترات من السكون والتوازن أثناء السير العام المتواصل باستمرار للتبدلات المادية . الا أن هذا السكون والتوازن هما نسبيان ، يحصلان بالنسبة الى هذا الشيء المادي أو ذاك فقط لا بالنسبة الى المادة ككل ؛ يحصلان بالنسبة الى هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحركة ، لا بالنسبة الى جميع أشكال الحركة التي تخص أشياء معينة . ان الامثلة التي تدل على نسبية السكون والتوازن تبدى لنا في خطوة نخطوها في العالم المحيط بنا . فعندما يجلس المسافر ، مثلاً ، في أريكة القطار المنطلق سريعاً ، يكون هو والقطار السريع في حركة بالنسبة الى الارض ، ولكنه ، في الوقت ذاته « ساكن بالنسة الى العربة والاشياء الموجودة فيها . فالسكون هنا ليس بالنسبة فقط ، الى مجموع معين من الاجسام ، ولكنه بالنسبة أيضاً الى شكل معين من الحركة فقط. فجسم المسافر لا يتحرك بالنسبة الى العربة ، أي أنه لا يوجد في حركة ميكانيكية بالنسبة اليها . ولكن جسم المسافر ذاته هو محل لعمليات حركية متنوعة ، وبفضلها يوجد المسافر ككائن حي .

ان واقع تمكن الاجسام المادية من الوجود في سكون نسبي وتوازن نسبي يلعب دوراً عظيماً في تطور الطبيعة . فكما يقول انجلز : « ان امكانية السكون النسبي للأجسام ، ان قيام توازن مؤقت ، هو الشرط الاساسي لتمايز المادة ، وبالتالي ، فهو أهم شرط من شروط الحياة » . وبفضل ذلك تنشأ أشياء معينة نوعياً ، تطول مدة وجودها أو تقصر ، ويتمايز بعضها عن بعض .

وهكذا فالاجسام لا تأخذ شكلا معيناً إلا لأن أجزاءها المكونة لها موجودة في سكون بالنسبة الى بعضها بعضاً ٠

ولا يتبدى السكون النسبي بمجرد احتفاظ الجسم بوضعه بالنسبة الى جسم آخر ، ولا بمجرد انعدام الحركة ، تحت هذا الشكل الحسي أو ذاك ، عند أي جسم مادي كان ٠ ان أحد أهم أشكال السكون النسبي هو استقرار العمليات ، وحفظ الاجسام للحركة الخاصة بها ، والثبات النسبي لاشكال الحركة القائمة في ظروف معينة ٠ وهكذا فالعضويات الحية المتمايزة نوعياً توجد فقط لانه يحدث فيها ، باستمرار ، نموذج واحد من تبادل المواد، وطابع واحد للتأثير المتبادل مع الوسط الخارجي ٠ ففي الاستقرار النسبي ، وفي نبات نموذج النشاط الحيوي ، يجد عامل السكون النسبي والتوازن النسبي تعبيره٠ ولكن خلف هذا السكون والتوازن ، تقوم حركة متواصلة ، وتبدل مستمر ، وتجديد ذاتي متواصل للجهاز العضوي ، وهذا ما يقول عنه انجلز « الوحدة الحية للحركة والتوازن » ٠ ان هذا السكون والتوازن ليسا نسبيين فقط ، بل ومؤقتين أيضاً ، فلا بد عاجلا أم آجلا ، من اختلالها في كل جسم، ونبذهما، وازالتهما عن طريق الحركة الشاملة ٠ كما لابد للحركة ، عاجلا أم آجلا ، من أن تولد السكون والتوازن تحت هذا الشكل أو ذاك ، في ظروف أخرى ، مما يفتح مجالا أمام ظهور أشياء جديدة نوعياً ، أمام ظهور ، تمايز في المادة٠

لننظر ، بتفصيل أوفى ، الى العلاقة القائمة بين الاشكال البسيطة نسبياً والاشكال الاكثر تعقيداً ٠ ان قولنا بأن شكلا معيناً للحركة ملازم لشيء رفيع التطور لا ينفي وجود أشكال حركية أبسط في هذا الشيء ٠ وتأكيدنا بأن الحياة عبارة عن شكل حركة يخص الاجسام الزلالية لا ينفي أن الاجسام الزلالية تتوفر فيها عمليات كيميائية أو فيزيائية أو تنقلات ميكانيكية للمواد ٠ ان ما نقوله يعني فكرة واحدة فقط هي أن الشكل العضوي للحركة انما هو أعلى شكل من أشكال الحركة الموجودة في هذا الجسم ٠ في حين أن الحياة العضوية ، كشكل خاص من أشكال الحركة ، لابد لها وأن تشتمل على أشكال حركية أكثر بساطة ، تحت شكل خاضع وتابع للأشكال الاصلية ٠ ورغم

أن الحياة العضوية تنشأ عن أشكال حركية أكثر بساطة ، فهي لا تعني انها محصورة في نطاق أشكال هذه الحركة فقط • ان هذه الحياة تتميز،نوعياً ،عن كل من أشكال هذه الحركة ، ولكنها لا توجد بدون هذهالاشكال، ولا تنفصل عنها • اذن تقوم هنا وحدة من نوع خاص ، ترتبطفيهاأشكال متباينة للحركة، في كل لا يتجزأ • ان العضوية ، كما يقول انجلز ، « هي ، بدون شك ، وحدة رفيعة ، تربط في ذاتها ، في كل كامل ، الميكانيك والفيزياء والكيمياء ، ربطاً ليس الى تجزئته من سبيل • ومادامت هذه الوحدة قائمة ، فهي تضع قيوداً معينة لحدوث العمليات الكيميائية والفيزيائية في العضوية ، وتخضعها الى نظام معين ، ووتيرة معينة • وهكذا ففي كثير من أشكال العضويات تتوضع حرارة معينة للجسم ، وتنشأ ظروف تعاكس أثر العمليات المضرة بالعضوية •

ان وحدة العمليات البيولوجية ، والفيزيائية ، والكيميائية ، المكونة لجوهر الحياة ، تخلق الشروط اللازمة للابقاء على العضوية ، وخاصة الشروط الضرورية لتشكيل المركبات الزلالية المعقدة اللازمة للعضوية الحية • فاذا فصمنا وحدة أكثر أشكال الحركة بساطة ، وعزلنا بعضها عن بعض ، فاننا نجعل من هذه الحياة وتلك الاشكال أمراً واحداً ، ولكننا لا نصبح ، آنذاك ، أمام عضوية حية ، بل أمام جسم ميت محل لظواهر فيزيائية وكيمائية •

وكل شكل أعلى للحركة لا بد وأن يتضمن باستمرار ، أشكالا أبسط منها ، وخاصة التنقل الميكانيكي وكل أشكال الحركة الفيزيائية • وفي هذا تنحصر أهميتها ودورها الفريد ، بين جميع الاشكال الاخرى للحركة على العموم • الا أن أي شكل كان أعلى للحركة لا يصبح ، ولا يمكن أن يصبح أشكالا أبسط •

ونتيجة لانتفاء انتهاء أرفع أشكال الحركة الى أبسطها ، تقوم الكيمياء ، مثلا ، كعلم مستقل خاص ، رغم أن الشكل الكيمائي للحركة غير ممكن من دون العمليات الفيزيائية • ولما كانت الحياة لايمكن جعلها والاشكال الاخرى للحركة أمراً واحداً ، لهذا ، بالذات ، لا بد من علم مستقل خاص يبحث الحياة ، هو البيولوجيا ، رغم أن الحياة لا يمكن وجودها من دون عمليات

فيزيائية وكيمائية • كذلك لابد من العلوم الاجتماعية التي تدرس حياة المجتمع الانساني ، رغم أن الحياة الاجتماعية غير ممكنة من دون الشكل الميكانيكي والفيزيائي والكيمائي والبيولوجي للحركة •

ان الاعتراف بالاصالة النوعية لكل شكل من أشكال الحركة ، وعدم الوحدة الذاتية بين هذه الاشكال وبين الاشكال التي هي أكثر بساطة منها ، عبارة عن احدى السمات الاساسية للنظرية الماديةالديالكتيكية عنحركة المادة، تمييزاً لها عن المادية الميكانيكية •

لا يمكن للمادة أن تكون من دون حركة ، كما أنه لا يمكن للحركة أن تكون من غير مادة • كان بطل احدى الحكايات الانكليزية قط" يستطيع الاختفاء مبقياً على ابتسامته رغم اختفائه • ولاشك أن هذا الامر غير ممكن الحدوث الا في الحكايات • بيد أنه اذا كان من المضحك تصور وجود بسمة لقط مختف ، فان ما تذهب اليه الفلسفة المثالية ، عندما تؤكد وجود حركة بلا مادة ، لا يعدو الصورة المضحكة المذكورة •

اذا لم يكن للمادة وجود ، فلن يحدث آنذاك ، شيء ما ، بشكل عام ، لن يوجد ، أنذاك ، شيء ما بشكل عام • ان الفكرة الذاهبة الى امكان وجود الحركة من غير مادة ، هي فكرة خيالية ، هي فزلكة ، هي انتقال الى مواقع المثالية ، ونكران للعلم • لنفرض المستحيل ، ولنقل ان المادة اختفت وبقيت الحركة ، هذا الافتراض يدفعنا الى القول ١ : ـ بأن الحركة غير مادية ، و٢ : ـ بأن الفكرة ممكنة الحدوث من دون مادة • غير أن تصور وجود الفكر ، وجود الوعي ، من دون مادة ، هو نكران للعلم الطبيعي ، للعلم الذي أثبت ، بصورة لا تقبل الجدل ، أن الفكر ، أن الوعي ، غير ممكن من دون مادة • وليس من المهم ، في هذا المجال الشكل الذي ينظر فيه الىالفكر المنفصل عن المادة : كفكر ذات ما مستقل (المثالية الذاتية) ، أو ك « فكر » مجرد ما (المثالية الموضوعية) • وقد أظهر لينين « أن الرئيسي هو أن محاولة

تصور الحركة بلا مادة تؤدي ، بشكل ملتوٍ ، الى فصل الفكرة عن المادة ، وهو أمر لايعدو المثالية الفلسفية »[١] •

ان احدى محاولات تصور الحركة من دون مادة كانت ما يدعى بنظرية طاقة « ف • اوستفالد » ، الكيميائي الكبير ، والفيلسوف الصغير ، كما أسماه لينين • فحوالي نهاية القرن التاسع عشر أحرز الترموديناميك[٢] نجاحات هامة ، في الفيزياء ، وهو الذي أتاح ، على أساس التحليل النظري لشروط تحول الطاقة الى عمليات حرارية ، أتاح اكتشاف قانونية كثير من الظواهر الكيميائية والفيزيائية • وقد أصبح بامكان العلماء ، بفضل استنتاج هذه القنونات عدم أخذ البنية الذرية للمادة بعين الاعتبار • ولما كان العلماء الطبيعيون ذوو التفكير الميتافيزيكي قد جعلوا من الذرة والمادة، على العموم ، شيئاً واحداً ، لهذا انتهوا الى نتيجة متسرعة تقول بأن « المادة لا وجود لها » ، وليس هنالك غير الطاقة المتحولة • وهذه الطاقة هي الاساس ، هي « جوهر العالم » • ان أنصار هذه النظرية فصلوا بـ « قضائهم » على المادة ، الحركة ، عن الاخيرة • وفي هذا يستقر عيبها الرئيسي •

صحيح أننا في كثير من قضايا العلم ، التي يُعتبر فيها تحليل الناحية الطاقية للعمليات ، أمراً أساسياً ، نستطيع ، (وهو أمر ضروري أحياناً) ، التجرد من البنية الذرية للمادة • ولكن هذا لا يبرر اطلاقاً أن نهمل على العموم ، الحامل المادي للطاقة ، أن نهمل المادة كحقيقة موضوعية • ان الطاقة ليست أكثر من تعبير عن الحركة التي يحوزها الشيء المادي ، والتي لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، منعزلة عن المادة • وتنظر العلوم الطبيعية الى التحولات الطاقية كعملية موضوعية تحدث خارج الوعي ، وبشكل مستقل عنه • وهو أمر يعني أن الطاقة هي خاصة من خصائص المادة • لهذا فلا معنى للتأكيد ، حسبما يفعل فلاسفة الطاقة ، كما لو أن الطاقة « تنفي » المادة •

ان خطأ أنصار النظرية الطاقية ينحصر في نفيهم الواقع الموضوعي القائم

---

(١) لينين : المؤلفات • الجزء ١٤ ، ص ٢٥٥ •

(٢) قسم من الفيزياء يدرس قوانين التوازن الحراري وتحول الحرارة الى أشكال أخرى من الطاقة•

خارج وعينا ، في حين يعتبرون الطاقة ك « رمز محض » ، كشيء يتحدد بالوعي ، بالروح ، بالارادة ••• الخ • وهذا بالذات ما ذهب اليه « اوستفالد » عندما طور « نظريته الطاقية » • ولقد أكد هذا ، كما لو أن الظواهر الفيزيائية يمكن أن تتصور كعمليات بين الطاقات ، وأن هذا أمر مشروط بخاصة الوعي• « الا أن هذا ، كما يقول لينين ، هو المثالية المحضة ؛ فليس فكرنا هو الذي يعكس تحول الطاقة في العالم الخارجي ، بل ان العالم الخارجي هو الذي يعكس « خاصة » وعينا »[1] • ومع هذا ، فغالباً ما كان « استفالد » ، عند حله بعض قضايا الفيزياء والكيمياء ، العلمية ، يجانب وجهة النظر تلك ، وينظر ، مع علماء طبيعيين آخرين ، الى العمليات الطاقية ، كحقائق موضوعية ، مستقلة عن وعينا •

وفي هذه المجانبات برهان ساطع على عقم المثالية • وعندما تجابه العالم مسألة من مسائل العلوم الطبيعية التي تتطلب حلا دقيقاً وواضحاً ، آنذاك نراه ، بحكم مسيرة البحث ذاتها ، مرغماً على مجانبة مواقع المثالية ، وعلى الانتقال عملياً ، عن وعي أو عن غير وعي ، إلى المادية •

وقد حاول بعض الفيزيائيين المعاصرين بعث نظرية «استفالد» عن الطاقة • فحاولوا ، في هذا المجال ، استغلال الوقائع الجديدة ، التي اكتشفها العلم الفيزيائي المعاصر ، أمثال تحول الاليكترونات والبوزيترونات الى فوتونات ، وكالقانون الذي يربط كتلة الاشياء المادية بطاقتها • وهو قانون ينص على أن طاقة الجسم المادي « و » تساوي كتلته « ك » مضروبة بمربع سرعة الضوء « ض » • وهم يجعلون ، في الحالة الاولى ، من الفوتونات و « الطاقة المحضة » المجردة عن أية مادة ، شيئاً واحداً ؛ وعلى هذا الاساس يعلنون أن المادة (الاليكترون ، والبوزيترون) تنعدم وتتحول الى طاقة (فوتونات) • أما في الحالة الثانية ، فهم يجعلون من المادة والكتلة شيئاً واحداً ، وبالاستناد الى المعادلة

$$و = ك \times ض^{2}$$

يؤكدون أن المادة « تتحول » الى طاقة ، انها تكثيف للطاقة •

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٢٥٨ •

بيد أن الفوتونات ، كما رأينا من قبل ، ليست طاقة محضة ، بـل هي أجسام مادية حائزة للطاقة ، شأنها شأن الاليكترونات والبوزيترونات • هنـا يحدث تحول متبادل بين جزئيات مادية مختلفة • ولا صحة إطلاقا للقول بأن المادة « تتحول » الى طاقة ، أو أنها « مطابقة » أو « معادلة » للأخيرة • فليس بالامكان ، أولا ، جعل المـادة واحدى خصائصها ، الكتـلة ، شيئاً واحـداً • لهذا فقانون :

و = ك × ض٢

يربط لا المادة بالطاقة ، بل الكتلة بالطاقة •

كما لاينبغي ، ثانياً ، أن نستخلص من واقع أن أي قانون فيزيائي يربط بين مقدارين فيزيائيين ، لا ينبغي مطلقاً أن نستخلص أن هـذين المقدارين شيء واحد ، أو أن مقدار أحدهما يطابق الآخر • ليس هناك أي واقـع يشهد على « تحول » المادة الى طاقة • لا يمكن للمادة أن تتحول الى أية خاصة من خصائصها ، بحيث تبقى هذه الخاصة بدون حامل مادي • ان جوهر قانون العلاقة المتبادلة بين الكتلة والطاقة ينحصر في ان الشيء المادي الذي يتمتـع في ظروف معينة ، بكتلة معينة ، يحوز طاقة معينة تلائم تلك الكتلة •

وليس هنالك أي مبرر للقول بتحول الكتلة الى طاقة أو الطاقة الى كتلة• وهذا واضح من صيغة القانون ذاته • انها تشير الى ازدياد الطاقة عند تزايـد الكتلة ، والى تضاؤل الاولى عند تضاؤل الثانية • فلو أن أحد هذين المقدارين تحول الى الآخر لا نتفت تلك العلاقة بينهما : لان زيادة أحدهمـا لا بد لها وأن تؤدي الى تضاؤل الآخر • وهكـذا فلا يمكن أن تكون حركة بلا مـادة ، والحركة لا تنفصل عن المادة • وبما أن المادة خالدة ، لا تفنى ولا تخلق ، فحركتها أيضاً خالدة لا تفنى ولا تخلق • ان نظرية عدم فناء الحركة المادية وعـدم خلقها هي احـدى النظريات الاساسية للمادية الديالكتيكية والعلوم الطبيعية الحديثة •

ان قانون حفظ الطاقة وتحولها هو أحد تعابير العلوم الطبيعية عن عـدم

فناء حركة المادة ، وقد سماه انجلز ب « القانون الاساسي العظيم للحركة »[1]. الطاقة هي مقياس الحركة • فمهما حدثت من عمليات في العالم الخارجي ، ومهما تمت من تحولات في أشكال الحركة ، فان كمية الطاقة العامة ، تبقى ، دائماً ، كما هي ، تبقى دون تبدل • ان الطاقة لا تخلق ولا تنعدم بل يتبدل شكلها فقط ، متحولة من شكل الى اخر ، ومنتقلة من شيء مادي الى شيء آخر • لقد لاحظ كل منا ، أكثر من مرة ، كيف ينتقل الجسم من حالة السكون الى حالة الحركة ، مكتسباً مقداراً ما من الطاقة • فاذا درسنا بامعان جميع الظروف المحيطة بنشوء هذه الحركة ، تبدى لنا أن هناك دائماً جسماً ما آخر مادياً أو مجموعة من الاجسام المادية التي كانت حركتها أو حركته سبباً لنشوء حركة جسم معين • فمقدار الطاقة الذي حازه هذا الجسم يساوي مقدار الطاقة الذي فقدتها تلك الاجسام التي أدى تأثير الجسم المذكور المتبادل معها الى نشوء حركة هذا الجسم • فبسبب التأثير المادي المتبادل، وحده ، بين الاجسام ، تتم تبدلات حركاتها ، بحيث أن الكمية العامة لطاقة الاجسام المشتركة في هذه العمليات تبقى ثابتة •

ويمكن التعبير كمياً عن عدم خلق الحركة وفنائها بوجود نسب تعادلية ثابتة ، بين أشكال مختلفة للطاقة • فمهما كانت عليه الظروف المحيطة بتحول الحركة الميكانيكية ، مثلا ، الى حرارة ، فان ٤٢٦٫٩ كيلو غرام متر[2] من الطاقة الحركية الميكانيكية تولد ،دائماً، وفي كل مكان ،حريرة كبيرةواحدة[3]. مثل هذه النسب التعادلية الثابتة قائمة أيضاً في تحولات الطاقة الكهربائية والحرارية ••• الخ • وليس بمقدور أية أعجوبة كانت أن تنشى لقاء ٤٢٦٫٩ كيلو غرام متر من العمل ، كمية حرارة أكثر أو أقل من حريرة كبيرة واحدة، أكثر أو أقل من الكمية التي تتحدد بفعل قانون حفظ الطاقة وتحولها •

صحيح أن المقدار العددي لمعادل الحرارة الميكانيكي يمكن أن يصبح ،

(١) انجلز : « انتي دوهرنيغ » ص ١٢ •

(٢) الكيلو غرام متر هي القدرة اللازمة لتحريك كغ الى مسافة متر واحد •

(٣) الحريرة الكبيرة الواحدة تساوي الف حريرة عادية •

مع تطور العلم ، أكثر دقة ، الا أن واقع وجود حد صارم له يبقى واقعاً لا يتطرق اليه أدنى شك •

ولكن عدم فناء حركة المادة لا ينبغي فهمه كمياً فقط ، أي بمعنى ثبات كمية الطاقة• فبعد أن تعمق انجلز في تحليل جوهر قانون حفظ الطاقة وتحولها ، أشار الى الوجه الهام الآخر لهذا القانون ، الذي يعكس عدم فناء الحركة كيفياً • ان عدم فناء الحركة كيفياً ، كما يفهمه انجلز ، يستقر في قدرة الحركة المادية ، قدرة لا نهاية لها ، على التحول المتجدد ، باستمرار من شكل الى آخر • ان قانون حفظ الطاقة وتحولها يعبر عن هاتين الناحيتين لعدم فناء الحركة ، في علاقتهما التي لا انفصام لها • ولابد لتجاهل الناحية الكيفية في عدم فناء الحركة من أن يؤدي الى التناقض مع قانون حفظ الطاقة وتحولها • والشاهد البين على ذلك هو نشوء ما يدعي ب « نظرية الموت الحراري للكون »، التي أوجدها ، في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض العلماء الطبيعيين• هذه النظرية تذهب الى انه لا بد لجميع أشكال الحركة من أن تتحول الى حرارة • وهذه الحرارة تتبدد بانتظام في أنحاء الكون حتى تصل الى حالة التوازن ، وتفقد ، الى الابد ، قدرتها على احداث تحولات لاحقة، عندها تتوقف جميع عمليات الطبيعة • وحدوث هذا التوقف يعني ضياع الحركة التي كانت موجودة منذ البداءة • لان « الحركة ، كما يقول انجلز ، التي أضاعت القدرة على التحول الى مختلف الاشكال الخاصة بها تكون قد فقدت فعّاليتها رغم احتفاظها ب « الامكانية » وهذا يعني أنها فنيت جزئياً • ولكن هذا وذاك ليسا من الامور المعقولة »[1] •

وقد انتقد انجلز انتقاداً عميقاً، هذه النظرية ، وأبان أنها على طرفي نقيض مع قانون حفظ الطاقة وتحولها • كما أبان أن أنصارها سيضطرون ، باصرارهم على وجهة نظرهم ، في النهاية ، الى رفض حتى عدم فناء الحركة الكمي المحض، وهكذا يقطعون آخر خيط يصلهم بالعلم • ترى اذا كانت الحركة تضيع في العالم ، في نهاية الحساب ، فما هو مصدرها الأول ؟

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٧ •

ان انجلز ، اذ يشبه العالم « بساعة كونية » يكشف عن سلسلة المحاكمات التي لا بد وأن تصدر عن أنصار هذه النظرية : « لا بد للساعة الكونية ، في البدء ، من أن تُربط ، ثم تسير حتى تبلغ حالة التوازن • والاعجوبة وحدها هي التي يمكنها أن تنتزع الساعة من حالة توازنها هذه وتسيرها مرة ثانية • ان الطاقة التي انفقت على ربط الساعة قد انتهت ، على الاقل ، من الوجهة الكيفية ، ولا يمكن ايجادها من جديد الا عن طريق قوة خارجية • وهذا يعني أن القوة الخارجية كانت ضرورية في البداءة أيضاً ، وبالتالي ، فان كمية الحركة أو الطاقة الموجودة في الكون ليست واحدة ، دائماً • وهذا يعني أن الطاقة كان لا بد لها وأن تكون قد خلقت • مما يعني ، بدوره ، أنها مخلوقة ، أي أنها قابلة للفناء • فيا لها من سخافة »[1] •

وهكذا فقد دحض انجلز ، بنقده ، نظرية « الموت الحراري للكون » •

ان المحاولات الحديثة لبعث هذه النظرية من جديد ، لا تستند الى أية براهين جديدة في صالح النظرية المذكورة • أما علم الفيزياء فقد أمد نظرية عدم فناء الحركة كيفياً ببراهين جديدة ، وأعطى الدلائل على عمومية وشمول قانون حفظ الطاقة وتحولها • ان علم الفلك الحديث يرينا بصورة لا شك فيها استحالة الكلام عن أي نوع من أنواع « شيخوخة » الكون و « انحلاله » • وليست هناك أية معطيات حقيقية تشهد على أن العالم يقترب من حالة الموت الحراري أو على وجود هذه الحالة بشكل عام • الآن ، وكما كان يحدث منذ مليارات السنين تتم عمليات نشوء جديدة ، وعمليات ولادة نجوم ومنظومات نجمية جبارة جديدة وجديدة • وتحت تأثير القوانين الطبيعية تنشأ عن المادة غير المتمايزة ، عن المادة الغبارية الشكل ، عن المادة المبعثرة في الفضاء الكوني تنشأ منظومات معقدة من الاجسام السماوية التي تتصف ببنية داخلية أعلى من بنية الاجسام الكونية الغبارية الشكل • وبكلمة واحدة ان المادة لا تفقد أبداً ، ولا في أي مكان ، قدرتها على التحول باستمرارة •

ان النظرة المادية عن العالم التي تتصف بالعلمية الحقيقية ، هي وثيقة الارتباط

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٢٢٩ •

بالاعتراف بعدم فناء الحركة • وحيث يؤخذ بفناء الحركة كلياً أو نوعياً تظهر أقوال مناهضة للمعلم عن « الدفعة الاولى » التي ليست الا كلمة مرادفة ل « صانع الكون » • ولهذا بالذات ، يعتبر قانون حفظ الطاقة وتحولها كما ، قال لينين ، أساساً للأفكار الرئيسية في النظرية المادية [1] •

ونجد التعبير عن مطلقية الحركة في أن الحركة خالدة ، أي غير فانية وغير مخلوقة ، وفي أن المادة لا يمكن أن توجد أبداً ، ولا في أي مكان ، من دون حركة ، وهي لا تفقد قدرتها على التبدل باستمرار مهما تغيرت الظروف • بيد أن الحركة توجد تحت شكل عمليات مجددة ، ملموسة ، عرضية ، غير خالدة ، يحل بعضها مكان الآخر • ان كون الحركة نسبية يجد تعبيرة في حتمية حلول عمليات وأشكال الحركة محل بعضها الآخر ، وفي تحول بعضها الى بعض • وبكلمة أخرى : ان الحركة مطلقة ، من حيث الجوهر ، ولكنها نسبية ، من حيث شكل ظهورها الحسي •

ان القول بأن الحركة مطلقة ونسبية يعكس واقعاً هاماً ، يعكس واقع تناقضها الداخلي • وعندما نحاول وصف الطبيعة التناقضية للحركة ، لا بد من ملاحظة أن الحركة ، من حيث جوهرها ، عبارة عن تبدل ، ولكنه تبدل يحتوي في ذاته على لحظات عدم تبدل ، واستقرار وثبات • فبين الاشكال الفيزيائية المختلفة للحركة ، مثلا ، تقوم علاقات تعادل ثابتة لا تنتهك في أي زمان ومكان ، ويلازم كلا من هذه الاشكال نموذج معين من تبدل حالة الاشياء المادية ، أي قانون معين • لهذا فكل شكل معين للحركة يحوز خصائص نوعية تميزه عن غيره من الاشكال • والحركة تناقضية كذلك بمعنى أنها تحتوي في ذاتها على حالات الاستمرار والانقطاع • أما انقطاع الحركة فيعبر عنه بأن الحركة توجد لا كشيء ذي صورة وحيدة بل كمجموع أشكال متباينة نوعياً ، لا يؤول أحدها الى الآخر • بيد أنه رغم كل تباين في هذه الاشكال ، فهي أشكال يتحول أحدها الى الآخر ، وبعضها يولد الآخر •

---

(١) انظر لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٣١٨ •

وفي هذه العلاقة العضوية الداخلية لجميع الأشكال الاصلية المختلفة نوعياً ، للحركة تنعكس استمرارية الحركة •

ان العلاقة بين استمرارية الحركة وانقطاعها تشاهد ، مثلا ، في الحركة الداخلية للذرة • فقد أظهرت الفيزياء الحديثة ان الطاقة الداخلية للذرات لا تشتمل على عدد من المقادير المستمرة الحركة بل على عدد من المقادير المتقطعة • من هنا ينتج أن حركة العمليات التي تحدث داخل الذرة تحتوي على درجات متقطعة من الاثارة • ولكن هذه الحركة نفسها التي تنقلها الذرة الى الوسط الخارجي عن طريق الاشعاع الكهرطيسي ، مثلا ، يمكن أن تتوزع بين الاجسام المادية الاخرى بصورة لا توقف فيها اطلاقاً •

٣ : ـ المكان والزمان

مهما كان الشيء المادي الذي نتناوله فهو دائماً ذو امتداد ما : انه طويل أو قصير ، عريض أو ضيق ، عال أو منخفض • ولا وجود لشيء خال من امتداد على شكل طول أو عرض أو ارتفاع ، خال من أي حجم كان • ان كل شيء في هذا العالم المحيط بنا قائم في مكان ما بين أشياء أخرى • فهو قريب بالنسبة الى بعض الاشياء وبعيد بالنسبة الى غيرها ؛ هو عن يمين بعض الاشياء ، وهو عن يسار أخرى ؛ هو يعلو بعضها وينخفض عن بعضها الآخر • ان الاجسام تتمتع بامتداد ، بحجم ، وتوجد في مكان ما ، ان بعضها منثور بالنسبة الى بعضها الآخر على هذا الشكل أو ذاك ، وهي لها هذا الشكل الخارجي أو ذاك ، وفي هذا كله يجد الواقع التالي تعبيره ، واقع أن الاجسام موجودة في المكان •

ان جسماً واحداً معيناً يمكن أن يتبدى لنا أكبر أو أصغر جسما وفقا لبعده عنا • ولكن هذا لايعني اطلاقاً أن امتداد الاشياء المكاني هو أمر ذاتي • ان هذا الامتداد هو خاصة موضوعية للأشياء ، مستقلة عن احساساتنا وادراكنا ووعينا • إن ادراكنا لابعاد أشياء مادية واحدة يمكن أن يختلف من مرة لاخرى، لاننا قد ابتعدنا عنها وأصبحت بالنسبة الينا في مكان موضوعي آخر • الا أن امتداد الاجسام وحجمها ، وشكلها مستقلة عن احساساتنا • والمسافات التي

تفصل بين الاجسام ، وأوضاع بعضها بالنسبة الى بعضها الآخر هي أيضاً صفات موضوعية للعلاقات الحقيقية القائمة بين الاجسام • وتتبدى لنا المسافات بين الاجسام ، عن بعد ، أقصر مما هي في الواقع • ولكنه اذا ما قام بين هذه الاجسام جسم ثالث ما (أو جملة من الاجسام) ، فان الجسم الثالث يقوم بينها بشكل مستقل عن الكيفية التي ندرك بها الفواصل بينها سواء كنا قريبين منها أو بعيدين عنها •

ان كل شيء من أشكال حركة المادة مرتبط ، بالضرورة ، بالتنقل المكاني الذي تقوم به الاجسام الصغيرة أو الكبيرة • أي أن المكان هو الشرط الاساسي لحركة المادة •

وعلى هذا فالمكان هو الشكل الحقيقي موضوعياً لوجود المادة المتحركة • ان مفهوم المكان يعبر عن تعايش الاشياء وعن استقلال بعضها بالنسبة الى الآخر ؛ يعبر عن امتدادها وعن كيفية وجودها بالنسبة الى بعضها •

ثم ان العمليات المادية لا تتم فقط في أماكن مختلفة وفي أزمان متباينة • ان معنى التعبير التالي : معنى « كل الاجسام موجودة في الزمان » يستقر في حدوث هذه العمليات بتوال ما ، (احداها قبل الاخرى أو بعدها) وفي تمايزها بامتداد زمانها ، وفي أنها ذات مراحل تتميز احداها عن الاخرى •

ان فترة زمنية واحدة بين حادثين اثنين قد تبدو لافراد مختلفين ، قصيرة أم طويلة حسبما يكونون عليه من مزاج ووضع نفسي واهتمام بالحوادث الملاحظة ، وما شابه ذلك • بيد أن هذا لا يعني أن الفترة الزمنية ، أن الامتداد الزمني ، شيء ما ذاتي • فهي موضوعية ، أي مستقلة عن احساساتنا وعن وعينا • تدل على هذا الحقيقة التالية ، حقيقة أنه مهما كان الشكل الذي تتبدى فيه لنا الفترة الزمنية الفاصلة بين حادثين ، وسواء أكانت قصيرة أو طويلة ، بالنسبة لنا ، فان هذه الفترة تستوعب دائماً ، في ظروف معينة ، امتداداً زمنياً تحدث خلاله عملية موضوعية واحدة ، مستقلة عن ارادتنا ووعينا •

ان كون المراحل المتباينة للعمليات ذات أزمان متباينة ، أي أنها مفصولة

عن بعضها بفترات زمنية ما ، يعتبر الشرط الاساسي لوجود هذه العمليات • فلولا هذا الامتداد الزمني ، لولا هذا التباين الزمني بين المراحل المختلفة لعملية واحدة ،لما وجدت هذه المراحل ذاتها، وبالتالي، لما حدثت أية تبدلات مقنونة (١) تنقل الظواهر من مرحلة الى أخرى ، ولما أمكن تطور الظواهر والعمليات ، وانتقالها من الاشكال الدنيا الى الاشكال العليا • وهذا يعني أن حركة المادة غير ممكنة خارج الزمن وبشكل مستقل عنه •

وعلى هذا فالزمن هو الشكل الحقيقي موضوعياً لوجود المادة المتحركة • ويعبر في هذا الشكل لوجود المادة عن تتالي تطور العمليات المادية وترتيب استبدال بعضها ببعض ، وابتعاد مختلف مراحل العمليات بعضها عن بعض ، وامتدادها الزمني وتطورها •

يقول لينين : « ليس في الكون شيء غير المادة المتحركة ، ولا تستطيع هذه المادة المتحركة أن تتحرك من غير اطار من الزمان والمكان » (٢) •

ان أي شيء مادي لا يمكن أن يوجد في المكان فقط دون أن يكون في الزمان ، أو أن يوجد في الزمان دون أن يوجد في المكان • وأي جسم كان هو ، دائماً ، وفي كل مكان ، موجود في المكان كما في الزمان • وهذا يعني أن المكان والزمان مرتبطان ببعضهما ارتباطاً عضويا • وينبغي أن نستنتج من واقع أن المكان هو انتظام تعايش الاشياء المادية ، وأن الزمان هو انتظام توالي تبدل مراحل العمليات المادية ، ينبغي أن نستنتج من هذا أن كلا من الزمان والمكان غير منفصل عن المادة •

ان الفلاسفة المثاليين ينكرون الواقع الموضوعي لكل من الزمان والمكان • وهم يعتقدون أنهما شيء ما ، شيء موجود في الوعي أو بفضل الوعي ، يعتقدون أنهما نتاج الروح ، نتاج التفكير • هكذا يؤكد بيركلي أن الزمان والمكان عبارة عن شكلين للانفعالات الذاتية • في حين يعتبرهما « كانت »

(١) أي تخضع حركتها لقانونية معينة •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء الرابع عشر ، ص ١٦٢ •

شكلين سابقين (خارج نطاق التجربة) لتأملنا ، مشروطين بطبيعة وعينا • أما بالنسبة الى « ماخ» فليس الزمان والمكان غير جملة من الاحساسات التي نظمناها ، نحن البشر • وهما ، في فلسفة هيغل ، عبارة عن نتاج « الفكرة المطلقة » عبارة عن مخلوقين لم تخلقهما « الفكرة » الا في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، بحيث كان المكان في البداءة ، ثم تلاه الزمان فيما بعد • وعلى هذا فهما منفصلان عن بعضهما •

بيد أن هذه التصورات المثالية عن الزمان والمكان مدحوضة بتجارب الناس العملية اليومية كلها ، ومن قبل علم الطبيعة بأكمله • فكيف نستطيع قبول التأكيد القائل بأن الزمان والمكان وليدا الوعي ، الروح ، الفكرة ، أو أنهما موجودان في الوعي ؟ كيف نستطيع قبول هذا ، اذا كان علم الطبيعة يقرر أن الارض موجودة في الزمان والمكان حتى قبل ملايين السنين من نشوء الانسان ، ووعيه ، وروحه ، وأفكاره ؟ هذا الواقع يتمتع بأهمية جذرية في تعرية خطل النظرات المثالية عن الزمان والمكان • وقد أشار لينين الى أن « وجود الطبيعة في الزمان الذي يعد ملايين السنين قبل ظهور الانسان والتجربة الانسانية ، يظهر لنا سخافة هذه النظرية المثالية » [(1)] •

ورغم أن الزمان والمكان هما شكلان لوجود المادة على حد سواء الا أنهما شكلان لوجود المادة متباينان • ومع أنهما يتمتعان بخصائص مشتركة متعددة ، فهما يتباينان عن بعضهما كثيراً • ان ما يجمع بينهما هو أنهما :

أ : ـ موضوعيان ، موجودان بشكل مستقل عن وعينا •

ب : ـ خالدان بسبب خلود المادة • لقد كانا موجودين ، وهما موجودان ، وسيظلان موجودين ، لان المادة لايمكن أن توجد من دونهما •

ج : ـ غير محدودين وغير نهائيين •

ان اللا محدودية واللا نهائية هما ميزتان متباينتان للمكان والزمان •

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١٦٥ •

وتطبيق اللا محدودية على المكان انما يعني أنه مهما كانت النقطة التي ننطلق في حركتنا منهـا في المكان ، ومهما ابتعدنا في انطلاقنا عن نقطة البداءة ، فلن نعثر ،في أي زمان أو مكان،على حدود لانستطيع المثابرة على التحرك فيما بعدها. الا أن اللامحدودية لاتعني ، بالضرورة ، اللا نهائية • والمثل الواضح على ذلك نراه في سطح الكرة الارضية ، الذي يمكن اعتباره « مكاناً ذا بعدين » • هذا المكان غير محدود لاننا ، مهما تمادينا في حركتنا عليه ، فلن نجـد ، أبـداً ، حدوداً تضطرنا للوقوف عندها • ومع هذا فالمكان المذكور له نهايـة ، ويعبر عن هذه النهاية ببعض الاعداد النهائية من وحدات المساحة • وهـو أمر يمكن التحقق منه بتحركنا من نقطة انطلاق ما في أية جهة معينة : إننا ، عـاجـلا أم آجلا ، سنتم الدورة حول الارض ، وسنعود الى نقطة انطلاقنا • وهكذا نجـد أن « مكان » الكرة النهائي ، ذا البعدين ، هو مكان مغلق •

ان مكان الكون ليس غير محـدود فحسب ، بـل وهـو غير متناه أيضاً • وليست هناك أية معطيات تثبت ، بشكل لا يقبل الجدل ، أنه « مكان » مغلق • ويظهر لنا تحليل نماذج « الكون المغلق » مكانياً ، الرياضية المجردة المختلفة التي يحتويها علم الفضاء ، يظهر أن هذا « الانغلاق » لم يتحقق ، عمليـاً ، في أي نموذج من هذه النماذج • ولنقل على سبيل المجاز انه لو قدر لنا السير في الكون في اتجاه واحد لما رجعنا أبداً الى نقطة انطلاقنا ، وسنمر ، في سيرنا ، دائماً على أماكن كونية جديدة•ان العلم ينفذ أكثر فأكثر الى الكون اللامتناهي• وقد أتاح لنا التكنيك الفلكي ، منذ أمد غير بعيد ، أن نخترق بنظرنا مسافات يقطعها الضوء خلال مليار من السنين ، رغم أن سرعته تبلغ في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كم•كما سمح لنا الراديو تيليسكوب الحديث الآن برؤية مجموعات نجمية أكثر ابتعاداً ، بحيث لا يصلنا نورها الا بعد عشرة مليارات من السنين أو أكثر • هذه المسافات الشاسعة لا يمكن للمرء أن يتصـورهـا بـوضـوح • ولا شك أنهـا لاتشكـل حداً نهائياً أيضاً • ومهمـا تطـاولت هـذه المجموعات ببعـدهـا عنـا ، فان هنالك أجراماً سمـاويـة جبارة أخرى ، وامتدادات هائلة لأجسام مادية •

وما قلناه عن المكان يقال عن الزمان من حيث اللامحدودية واللانهائية. فمهما مضى من الزمن على حادث ما ، فالزمن سيتوالى دون أن يعرف حداً ينتهي عنده الامتداد الزمني ، ينتهي عنده العدد الذي لا حصر له من العمليات التي تعقب احداها الاخرى ، وتشكل بمجموعها امتداداً لا حد له . وعلى غرار هذا ، فمهما امتد زمن حادث ما سحيقاً ، فقد سبقته أحداث لا حصر لها ، يلف مجموعتها امتداد زمني لا يعرف حداً . كما أن الزمان اذا ما تكلمنا على سبيل المجاز ، يجري بشكل لا يكرر فيه ذاته ، بل يجري من خلال لحظات وامتدادات زمنية جديدة وجديدة .

وتعتبر نظرية « الكون المتوسع » المثالية احدى محاولات دحض فكرة لا نهائية العالم . فقد أظهرت الارصاد الفلكية أن الطيوف السدم الموجودة خارج مجموعتنا النجمية قد انزاحت بعض الشيء الى ناحية الموجات الاكثر طولا (وهو ما يسمى الانزياح الاحمر) . ان مثل هذا الانزياح يمكن أن يحدث بشكل خاص نتيجة أن مصدر الضوء والجهاز الذي يستقبل هذا الضوء يبتعد أحدهما عن الآخر بسرعة ما . ويجري هذا بحيث أنه كلما ازدادت سرعة ابتعاد مصدر الضوء عن الجهاز المستقبل ازداد انزياح الطيف . ويمكننا الحكم على سرعة حركة مصدر الضوء بالنسبة للجهاز على أساس مقدار الانزياح. وبما أنه لم يتوفر أي تفسير آخر لحدوث الانزياح الاحمر للطيوف السديمية فقد مال العلماء عموماً الى تفسير هذا الانزياح بابتعاد السدم عن مركز مجموعتنا النجمية ، وذلك بحيث أن سرعة ابتعاد كل سديم متناسبة تقريباً مع بعده عن الارض ، وعلى هذا فكلما ازداد بعد السديم ازدادت سرعة ابتعاده .

انطلاقاً من هذا استخلص الفلكيون والفلاسفة المثاليون أن الكون كله كان في وقت ما متمركزاً في حجم صغير جداً ذي نهايات محددة ، أي في «ذرة أولى » من نوع خاص . ولكن هذا الكون أخذ في لحظة ما يتوسع فجأة وبدأ بهذا « توسع المكان » ، الذي كان في البداءة صغيراً ، الى ما لانهاية . وقد أضيف الى هذه الاقوال التصريح بأن هذه « الذرة الاولى » هي من صنع الاله وقد بدأت توسعها بارادته .

ان هذه النظرية الرجعية التي ترفض العلم صراحة ، نظرية « الكون المتوسع » لا تصمد أمام النقد • فأولا ليس هناك أي أساس لمطابقة مجموعة السدم التي نلاحظها خارج مجموعتنا النجمية مع الكون بأجمعه على العموم • فهذه السدم ليست الا جزءاً صغيراً جداً منه • وثانياً ليس هناك أي أساس للقول بأن حركة جميع السدم الموجودةخارج مجموعتنا النجمية عموماً تجري في كل مكان بشكل مشابه لهذا ، أي فقط في الجهةالتي تبعدها عن المركز ،وأنه ليس هناك أية حركات أخرى مخالفة ، أو أكثر تعقيداً ، من هذه لدى سدم أخرى خارج مجموعتنا النجمية • ثالثاً : ليس هنـاك أسـاس لنفترض أن حركة السدم ، حتى في الجزء الذي يخضع لمراقبتنا من الكون ، قد بقيت عـلى حالها في كل الازمان • وهكذا فان الظاهرة المحلية المحصورة التي لا تحدث الا في جزء محدود جـداً من الكون والتي لا تلاحظ الا خـلال فترة زمنية محدودة نسبياً لا يمكن اعتبارها قانوناً عاما لحركة الكون اللانهائي بأجمعه • وبالاضافة الى هذا فان تفسير الانزياح الاحمر للسدم التي هي خارج مجموعتنا النجمية بتطايرها وتباعدها ، ليس هو التفسير الممكن والنهائي الوحيد ، اذا كنا نتوخى الدقة • اذ يمكن أن تكتشف في المستقبل عوامل اخرى باستطاعتها أن تحدث الاثر ذاته •

وعلى هذا فان نظرية « الكون المتوسع » لا يمكن اعتبارها نظرية علمية بأي حال من الاحوال • ولا يمكنها أن تشكك في فكرة لا نهائية الكون مكانياً وزمانياً •

لنعالج الآن الفوارق القائمة بين الزمان والمكان • ان الوجود في المكان ، كما أشار انجلز ، انما يعني الوجود تحت « شكل قيام شيء الى جانب آخر »• في حين أن الوجود في الزمان انما يعني الوجود تحت « شكل تتالي واحد اثر الآخر »[١] • والميزة الاساسية للمكان بالنسبة الى الزمان هي أن الاول يتمتع بثلاثة أبعاد ، في حين أن الثاني يتمتع ببعد واحد • وأبعاد المكان الثلاثة انما

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٨ •

تعني أننا لو أمررنا من نقطة مكانيـة ما مستقيمين في اتجـاه ما ، فبالامكان ، دائماً ، انزال خط ثالث عمودي عليهما • علماً بأن هذا الخط المستقيم الثالث هو ، كما تثبت التجربـة ، الخط الوحيد • وليس بالامكان انزال خطوط عمودية أخرى عليهما معاً • ويعبر أيضاً عن الابعاد الثلاثة للمكان ، بأن وضع أية نقطة في المكان انما يتحدد* كليا ، بقياس الابعاد الثلاثة التي تفصل هـذه النقطة عن أية ثلاثة سطوح متقاطعة ومأخوذة كمحاور احداثيات •

ان هذه الخاصة ملازمة للمكان الموضوعي •

ان أي جسم مادي لابد وأن يحوز ثلاثة أبعاد • انه ذو حجم يقل أو يكثر • بيد أن مفهوم السطح ، والخط ، والنقطة ، انما هـو تجريد علمي مبرر تماماً • فالسطح يتصف بأنه ذو بعدين فقط • والخط لا يتمتع الا ببعد واحد ، أما النقطة الهندسية فلا أبعاد لها • ان مفاهيم السطح والخط والنقطة المجردة هي انعكاس الوجود المكاني لا للجسم المادي بأجمعه ، بل لجوانب معينة منه فقط • انها تعبر عن العلاقة بين عناصر البنية الحجمية المتصلة ببعضها، للأجسام المادية الحقيقية •

أما الزمان فهو ، خلافاً للمكان ، ذو بعد واحد • وفي مفهوم البعد الواحد للزمان ينعكس واقع أن أية لحظة زمنية مطابقة لبدء عملية ما أو نهايتها أو لمرحلة متوسطة فيها ، انما تتحدد بعدد واحد يعبر عن مقدار الفترة الزمنية التي تفصل هذه اللحظة عن لحظة ما أخرى معتبرة من قبلنا كبدء للحساب • ان الاحداث كلها تجري في اتجاه واحد وحيد ، من الماضي الى الحاضر ، ومنه الى المسـتقبل • واتجاه العمليات هـذا هو السمة الموضوعية لها ولا يتعلق باحساسات ووعي الناس الذين يدركون هذه العمليات • في المكان يمكن نقل الاجسام من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، من الاعلى الى الاسفل، ومن الاسفل الى الاعلى ••• الخ • أمـا العمليات المرتبطـة فيما بينها ارتباطاً سببياً فلا يمكن ارجاعها الى الوراء زمنيا ، واجبارها على السير من المستقبل الى الماضي • ان الزمن لا يعود القهقري • وبهذا فهـو أيضاً يتميز ، جوهرياً ، عن المكان •

كثيراً ما نفترض في الفيزياء النظرية والرياضيات وجود ما يسمى بالامكنة الكثيرة الابعاد التي تتمتع بأربعة ، بخمسة ، بستة ... أبعاد ، وحتى بعدد لا نهائي منها . اننا نفعل هذا لحل الكثير من القضايا العلمية . أفلا يناقض هذا قولنا بأن المكان ذو أبعاد ثلاثة ؟ كلا لا يناقض ، فالمكان الواقعي الحقيقي الذي توجد فيه الاجسام جميعاً ، ونحن أنفسنا ، هو المكان العادي ذو الابعاد الثلاثة . أما « المكان » الكثير الابعاد فلا يعدو أن يكون تجريداً يحتوي ، ذهنياً ، على عدد من المقادير ، يقل أو يكثر ، وهو لا يعبر ، بالضرورة عن الامتداد فقط ، بل وعن أية صفات أخرى في الاشياء المبحوثة ، كاللون ، مثلا .

لقد استغل المثاليون هذه الفرضيات التي تبناها العلم ، والمتعلقة بالامكنة المتعددة الابعاد ، للنضال ضد المادية التي تنفي أية امكانية لوجود أي جسم خارج المكان . فذهبوا الى القول كما لو أن العلم أثبت وجود بعد رابع أو أكثر للمكان ، والى أنه ، في الوقت الذي يوجد فيه الناس والاجسام العادية في مكان ثلاثي الابعاد ، في هذا الوقت ، توجد « الكائنات الروحية » و « الارواح » ، التي لا أجساد لها ، في البعد الرابع أو الابعاد الاخرى للمكان ، وهي أبعاد لا تتوفر للكائنات العادية . ومن تلك الابعاد اللاموضوعية تستطيع « الارواح » ، في زعمهم ، أن تؤثر على العمليات المادية ، وأن تسيرها ، وهي بعيدة عن ادراكنا . الا أنه في الواقع لا يوجد أي « بعد رابع » للمكان . ان مناورات المثاليين الهادفة الى استغلال فكرة « الامكنة الكثيرة الابعاد » من أجل دحض مذهب المادية ، لا تقوم على أي أساس . والتصورات العلمية المتعلقة بـ « الامكنة الكثيرة الابعاد » تنطلق دائماً من الحقيقة التي أثبتها النشاط الانساني ، هذه الحقيقة التي تقول بانعدام أي مكان آخر ، في الواقع ، غير المكان الموضوعي الواقعي المتمتع بالابعاد الثلاثة .

غالباً ما تتحدث المنشورات العلمية ، والمنشورات الشعبية العلمية ، الحديثة ، عن « عالم ذي أربعة أبعاد » . وهذه الفكرة أيضاً لا تمد النظريات المثالية بأية دعائم كانت . وتفهم الفيزياء بـ « البعد الرابع » للعالم ذلك الواقع البديهي

البسيط الذاهب الى أن العالم موجود لا في المكان (ذي الابعاد الثلاثة) فحسب، بل وفي الزمان أيضاً (ذي البعد الواحد) ، والى أن العمليات الواقعية جميعا ينبغي النظر اليها بحيث تؤخذ بعين الاعتبار الصلة القائمة بين شكلي وجود المادة ، هذين الشكلين اللذين يساوي مجموع ابعادهما أربعة • وليس هنالك أي شيء سري ، غيبي ، في الفكرة التي تأخذ بها الفيزياء العصرية عن العالم « ذي الابعاد الاربعة » •

ان تصوراتنا عن الزمان والمكان الحقيقيين ، موضوعياً ، تتبدل وتتطور ، وتتعمق باستمرار • وهو أمر يجد تعبيره ، بوجه خاص ، في تبني فكرة العالم « ذي الابعاد الاربعة » ، التي تعكس الصلة الداخلية القائمة بين المكان والزمان، وفي اكتشاف قوانين هندسية جديدة ••• الخ • ولا ينبغي الخلط بين تبدل أفكارنا عن الزمان والمكان وبين « هذا الواقع اللا متبدل ، واقع أن الانسان والطبيعة لا يوجدان الا في الزمان والمكان ، أما الكائنات التي يزعم وجودها خارج المكان والزمان ، والتي هي من صنع اللاهوتيين ، وتدعمها مخيلات جماهير الانسانية الجاهلة المسحوقة ، فهي مجرد فذلكة سقيمة ، وتخرصات فلسفية مثالية ، وثمرة حنظل لنظام اجتماعي فاسد » [1] ، كما يقول لينين •

ويؤكد الميكانيك الكوانتي أن الاجسام المتناهية في الصغر لا يمكن أن توجد في حالات يكون لها فيها ، في وقت واحد ، احداثيات معينة بدقة ، كما للنقطة ، وكمية حركة محددة بدقة (أو سرعة) • ان هذه الاجسام اما أن تتمتع بحالة ذات احداثيات معينة ، أو بحالة ذات كمية معينة من الحركة ، (وهناك امكانية أخرى : هي حالة عدم تحديد كمية الحركة ، وعدم تحديد الاحداثيات ، ولكننا لن نبحث هنا هذه الحالة تجنباً للتعقيد) • ان الشروط المادية هي التي تحدد وجود الاجسام المتناهية في الصغر في احدى هاتين الحالتين •

ان المثاليين العصريين يحاولون الاستفادة من معطيات الميكانيك الكوانتي ليثبتوا أفكارهم عن الكائنات التي هي خارج المكان والزمان • انهم يحاكمون

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١٧٣ •

الامر على الشكل التالي : اذا وجـد الجسم المتناهي في الصغر في حالة ذات احداثيات معينة ، فهو موجود اذن في الزمان والمكان ، أما اذا انتقل الى الحالة التي لايتمتع فيها باحداثيات معينة ، آنذاك يكون خارج الزمان والمكان • ولما كانت حالة الجسيم متعلقة بنموذج الشروط التجريبية التي يتبعها الباحث ، وكان انتقاء هذه الشروط متعلقاً بارادة الباحث ، لذا يتبدى كما لو أن الباحث يستطيع ، حسب رغبته ، الغاء الزمان والمكان ، أو أن يجعلهما أمراً واقعياً •

بيـد أن هـــذه المحاكمات لا أســاس لها من الصحـة اطلاقاً وذلك للأسباب التالية :

١ً : ـ ان عدم توفر احداثيات معينة عند الجسم المتناهي في الصغر ، كما هو متوفر في نقطة الميكانيك الكلاسيكي المادية ، لايعني اطلاقاً أن هذا الجسيم المتناهي في الصغر لا يوجد في الزمان والمكان • والحقيقة القائلة بأن الأجسام المتناهية في الصغر يمكن أن توجد في حالة لا تتمتع فيها باحداثيات معينة ، شبيهة باحداثيات النقطة المادية ، هذه الحقيقة لا تعني سوى أن تلك الاجسام معقدة ، خلافاً لنقطة الميكانيك الكلاسيكي • ثم انه لا ينبغي الخلط بين سؤال : هـل يمكن أن تتميز حالة جسيم ما باحداثيات كاحداثيات النقطة ؟ وبين سؤال : هل يوجد هذا الجسيم في الزمان والمكان أم لا يوجد ؟

٢ً : ـ ان تبدل حالة الجسيم المتناهي في الصغر يتحدد بتأثير الاسـباب المادية الموضوعية، يتحدد بالحالة الفيزيائية الواقعية لا بارادة الباحث وتعسفه • فالانسان مثلا ، يستطيع الارتفاع الى الاعلى على متن طائرة ، والطيران بها ، كما انه يستطيع القفز بمظلته الى الارض • ان هـذا الانسان ، الذي يعمـل وفق هـواه ، لا يعطل الجاذبية الارضية عندما يرتفع بطائرتـه الى الاعلى ، ولا يعيد اليها الحياة ، كما يحلو له ، عندما يقفز الى الاسفل • وكذلك الامر فيما يتعلق بالاجســام المتناهية الصغر • ان أي اســتخدام لاي جهاز فيزيائي لا يستطيع أن يعطل وجود الاجسام الزمني والمكاني ، وأن يخرج هـذه الاجسام عن حدود الزمان والمكان • فالاجهزة ذاتها ، شأنها شــأن الاجسام المتناهية في الصغر المدروسة بمساعدتها ، موجودة في الزمان والمكان • وليس

بمقدور أحد ، ولا في أي زمان كان ، ولا بأية وسيلة كانت ، تغيير هذا الواقع الاساسي •

لقد قلنا آنفاً : ان الزمان والمكان هما شكلا وجود المادة • وهذا لا يعني أن الزمان والمكان هما واقعان موضوعيان ، فحسب ، بل ويعني أيضاً أنهما موجودان في صلة لا تنفصم مع المادة المتحركة • وكما أنه لا وجود للمادة خارج الزمان والمكان ، كذلك لايوجد زمان ومكان ، بدون مادة • ومن هذه الصلة التي لا انفصام لها بين الزمان والمكان والمادة المتحركة يستنتج أنه مهما تبدلت الظواهر ، والاجسام المادية ، فان وجود الزمان والمكان غير مرتبط بهذه التبدلات ، لان المادة تبقى خالدة مهما طرأ عليها من تبدلات •

ان واقع استقلال الوجود الموضوعي للمكان والزمان عن حلول الظواهر بعضها محل بعض ، وعن أي تبدل في الاشياء المادية ، هو التعبير عن مطلقية الزمان والمكان • بيد أن خواص المكان والزمان تتغير باعتبارها مشروطة بخواص المادة التغيرة •

وتبعاً لتبدل الشروط المادية تتبدل الاشكال المكانية ، وامتداد الاشياء ، كما يتبدل طابع القوانين الهندسية ويتغير الامتداد الزمني للظواهر ، ويجري الزمن بشكل آخر • وبهذا يعبر عن نسبية الزمان والمكان •

ان اعتراف المادية الديالكتكية بالصلة الوثقى بين الزمان والمكان والمادة يميزها كلياً عن المادية الميتافيزيكية • وهـذه ، اذ تعترف بالحقيقة الموضوعية للزمان والمكان ، تعتبر انهما جوهران قائمان بذاتهما ، ووعاءان فارغان مستقلان عن المادة تستقر فيهما الاجسام والعمليات المادية • وحسب التعبير المجازي للرياضي الالماني « بول » ، كان الرأي السابق عبارة عن نظرة عن المكان أشـبه بنظرة عن « مهجع مأجور » يمكن استئجاره من أي ساكن كان ، أو يبقى فارغاً تماماً اذا لم يتوفر المستأجر • وقد أخذ « نيوتن » ، العلامة الانكليزي الشـهير ومؤسس الميكانيـك الكلاسيكي ، مذهباً مماثلا ، معتبـراً أن المكان والزمان موضوعيان ، ولكنهما موجودان بشكل مستقل عن المادة المتحركـة ، وهمـا

لا يتبدلان اطلاقاً ، ولا يرتبط أحدهما بالآخر • ويسمي الزمان والمكان المفهومين على هذا النحو « مطلقين » • وقد بقيت المفاهيم النيوتونية عن «الزمان المطلق » و « المكان المطلق » متصفة بالعلمية حتى مطلع القرن العشرين ، عندما تبين أخيراً لعلماء الطبيعة ، اثر ظهور نظرية النسبية ، عدم صحة فصل الزمان والمكان عن المادة المتحركة ، وعن بعضهما بعضاً • ومن المؤسف أن أفكار المادية الديالكتيكية التي أبانت ، قبل ذلك التاريخ بمراحل ، الصلة القائمة بين الزمان والمكان وبينهما وبين المادة ، لم تكن معروفة منهم بعد •

ومن الممكن ، عند دراسة القضايا المتعلقة بالحركة البطيئة نسبياً للأجسام الارضية والسماوية العادية ، أن نتجاهل ، ضمن حدود معينة ، الصلة بين الزمان والمكان ، وبينهما وبين المادة • وشبيه بذلك ، أننا نهمل ، أحياناً الامتداد المكاني للأجسام المادية معتبرين هذه الأجسام نقاطاً مادية لا امتداد لها • وكما أن هذا لا يسمح لنا أن نستنتج أن الاجسام ، بشكل مطلق ، لا امتداد لها ، كذلك لا ينبغي أن نستنتج أيضاً مبدئية استقلال الزمان والمكان عن المادة المتحركة ، ولا انعدام الروابط بينهما ذاتياً ، ولا عدم تبدلهما• ولما كانت علاقة الزمان والمكان بالمادة ، رغم أنها قائمة دائماً في الواقع ، لا تؤثر ، في كثير من الظروف ، تأثيراً أساسياً على مجرى العمليات، فان الافكار النيوتونية عن الزمان والمكان « المطلقين » تحتوي شيئاً من المعقولية، وقد أمكن استخدامها عند صياغة قوانين الميكانيك الكلاسيكي • ولما كان الميكانيك الكلاسيكي مرتبطاً بالمحدودية التي ذكرت أعلاه ، لذلك كان غير قابل للتطبيق في الحركات الجارية بسرعة عظيمة تمكن مقارنتها بسرعة الضوء •

ففي هذه الظروف عندما لا تؤثر العلاقةالحقيقيةالقائمة بينالمكانوالزمان وبين المادة ، وعلاقة أحدهما بالآخر ، تأثيراً جوهرياً على الظواهر المدروسة ، آنذاك يمكن عدم أخذ هذه العلاقة بعين الاعتبار • وهو أمر لا يمت الى الميتافيزيكية بأية أسباب ، بل هو تجريد علمي مشروع • ان التأكيد ، بأن الزمان والمكان ، غير مرتبطين ، مبدئياً ، وجوهرياً ، ببعضهما وبالمادة ،وبالتالي، غير متبدلين أبداً ، وفي أي مكان ••• هو الميتافيزيكية بعينها•وتنتج عن الفصل

المبدئي بين الزمان والمكان وبينهما وبين المادة ، نتائج خطيرة ، فهو يؤدي بنا الى الابتعاد عن المادية بهذا الشكل أو ذاك .

ان الزمان والمكان لا يوجدان الا في الاشياء المادية ، الا عبر هذه الاشياء وبفضلها . يقول انجلز : « من الطبيعي أن يصبح هذان الشكلان لوجود المادة ، عند فصلهما عن الاخيرة ، تصورات فارغة ، وتجريدات لا وجود لها الا في رؤوسنا »[١] . ان من يفصل الزمان والمكان عن المادة ، ويصر على وجودهما المستقل عنهما ، انما يلبس الصورة القائمة في ذهنه فقط ، كياناً مستقلا قائماً بذاته . وهو أمر لا يعدو الانتقال الى مواقع المثالية القائلة بأن نتاج نشاطنا الفكري هو كائنات قائمة بذاتها . ولهذا فقد أشار لينين الى أن : « الزمان خارج الاشياء الزمانية لا يعني شيئاً »[٢] .

وقد أسهم العالم الروسي الرياضي العظيم « لوباتشيفسكي » مؤسس الهندسة اللا اقليدسية ، مساهمة كبرى في دراسة الافكار العلمية عن الصلة بين الزمان والمكان وبين المادة المتحركة . وفكرة «لوباتشيفسكي» الرئيسية المتعلقة ببحث قضايا الهندسة ، تذهب الى أن خصائص المكان ليست ثابتة وواحدة في الاماكن والازمنة . انها تتغير تبعاً لخصائص المادة والعمليات الفيزيائية الجارية في الاجسام المادية . يقول في كتابه « الاسس الجديدة للهندسة مع نظرية كاملة للمتوازيات » : « لا وجود لاي تناقض في عقلنا عندما نفترض أن بعض القوى في الطبيعة تخضع لهندسة خاصة بها ، في حين تخضع قوى ثانية لهندسة أخرى خاصة بها »[٣] . ومهما بدا هذا غريباً بالنسبة الى معاصريه ، فقد أوجد « لوباتشيفسكي » هندسة جديدة تتميز عن هندسة اقليدس . ان احدى خصائص هندسة « لوباتشيفسكي » اللا اقليدسية ، تقوم على أن مجموع زوايا المثلث لا يبقى دائماً ، ثابتاً ، ومساويا °١٨٠ ، بل يتبدل تبعا لتبدل أطوال

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٧ .

(٢) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٤٨ .

(٣) « لوباتشيفسكي » : « المؤلفات الكاملة » الجزء الثاني ــ موسكو لينينغراد عام ١٩٤٩ص١٥٩ .

أضلاعه ، وهو دائما أقل من ١٨٠° • ثم أتى « ريمان » وأوجد هندسة جديدة أخرى تعتبر أن مجموع زوايا المثلث أعظم من ١٨٠° •

هذه الهندسة الجديدة كشفت عن الصلة الوثيقة بين المكان والمادة ، واشتراط خواص المكان بخواص المادة • وبهذا وجهت ضربة للأفكار المثالية عن المكان • وانطلاقاً من أن هندسة اقليدس الناشئة في اليونان القديمة ، وظلت خلال قرون طويلة دون تبدل ، ذهب « كانت » الى أن المكان هو الشكل التأملي ، السابق للتجربة ، والمستقل عنها ، والملازم لوعينا • وفي هذا الشكل تنظم الذات المتعرفة توزع أوضاع الظواهر في المكان • وقد ذهب « كانت » الى أن الهندسة غير متبدلة لان المكان يخص وعي الذات لا الظواهر المتغيرة خارج هذا الوعي • وعندما أثبت « لوباتشفيسكي » أن هندسة اقليدس ليست الهندسة الوحيدة ، وأن قوانين هندسات متباينة تماماً تطبق في المكان تبعاً للشروط المادية ، دحضت تصورات « كانت » عن المكان كشكل سابق للتجربة ، بمعطيات علمية محسوسة •

وقد زادت الفيزياء الحديثة في عمق أفكار « لوباتشيفسكي » المادية ووطدتها • فكشفت نظرية « اينشتين » النسبية عن الاشكال الملموسة للصلة بين الزمان والمكان من جهة وبينهما وبين المادة المتحركة من جهة أخرى ، معبرة عن هذه الصلات بقوانين رياضية محددة • والواقع التالي الذي لاحظته النظرية النسبية قبل غيرها ، هو أحد التعابير عن هذه الصلات • هذا الواقع ينطلق من أن وقوع الاحداث في زمن واحد ليس مطلقاً بل هو نسبي • فالاحداث التي تجري في وقت واحد بالنسبة الى منظومة من المنظومات المادية أي في بعض شروط الحركة ، ليست مترافقة ، زمانياً ، بالنسبة الى منظومة مادية أخرى ، أي في شروط أخرى للحركة • وقد قامت على أساس هذا الواقع الرئيسي نظريات هامة أخرى • فالمسافة بين أي جسمين موجودين في المكان ، على بعد محدد لاحدهما عن الآخر ، ليستواحدة في المنظومات المادية المتحركة المتباينة • ان المسافة (الطول) تتقلص مع نمو السرعة• وشبيه بذلك الفاصل الزمني بين أي حادثتين ، فهو مختلف باختلاف المنظومات المادية

المتحركة • وكلما زادت السرعة تقلص هذا الفاصل • هـذه التبـدلات في الابعاد المكانيـة (الاطوال) ، والفواصل الزمنية ، التي حدثت تبعاً لسرعة الحركة ، هي في توافق دقيق فيما بينها • وفي هذا تتبدى الصلة الداخلية بين الزمان والمكان • ثم ان الصلة العضوية التي اكتشفتها النظرية النسبية ، بين المكان والزمان وبين المادة ، بينهما وبين حركة المـادة ، تقدم لنا برهاناً علمياً فيزيائياً جديداً على الوجود الموضوعي للزمان والمكان ، وعـلى استقلالهما عن الوعي ، وعن الذات المتعرّفة •

واذا لم نأخذ بعين الاعتبار الصلات بين المكان والزمان من جهة ، وبينهما وبين المادة المتحركة من جهة أخرى ، لا يمكننا أن نفهم جوهر الظواهـر الفيزيائية المتعددة المرتبطة بحركات يمكن مقارنة سرعتها بسرعة الضـوء ، كما لا يمكننا فهم جوهر العمليات المرتبطة بمقادير كبيرة من الطاقة ؛ كذلك لا يمكننا فهم حركة الاجسام عند وجودها في حقول من الجاذبية القوية • ان نظرية صلة الزمان والمكان بالمادة ، وفيما بينهما ، أصبحت احدى الافكار الرئيسية في العلم الحديث • وبمـا أن المادة تخلق ، أثناء تطورها ، أشكالا جديدة وجديدة ، لها قوانينها الخاصة المختلفة ، فانه تنشأ في الطبيعة أيضـا علاقات زمنية ومكانية جديدة مطابقة لتلك الاشكال • فمع نشوء العضويات ، مثلا ، ظهرت علاقات مكانية تتميز بنماذج خاصة من التناظر لم تكن موجودة في الطبيعة غير العضوية • وهكذا فان الزمان والمكان ، شأنهما شأن المادة ذاتها، يخضعان للقانون العظيم الشامل الخاص بالوجود ، قانون التطور •

ان الزمان والمكان يتصفان بتناقض داخلي • ويجد هذا التناقض تعبيره أولا ، في أن الزمان والمكان ، كمـا أشرنا آنفا ، مطلقان ونسبيان من حيث طبيعتهما • ثانيا ، في أن التناقض يكمن في كون لا نهائية المكان تتألف من أبعاد نهائية لاشياء مادية مختلفة ، أما لا نهائية الزمان فتتألف من امتدادات زمنيـة نهائيـة لعمليات ماديـة مختلفة • وثالثـاً في أن المكان والزمـان مستمران ومتقطعان في الوقت نفسه • ان المكان مستمر بمعنى أننا اذا أخذنا عنصرين ، لا على التعيين لامتداد مكاني (عنصرين كبيرين أو صغيرين قريبين من بعضهما

أو بعيدين) فسيوجد دوماً عنصر امتداد يربط هذين العنصرين المذكورين في امتـداد مكاني موحد ؛ فبين عناصر الامتداد المكاني لا يوجد أي فاصل مطلق ، وهي تتداخل بعضها في بعض • وكذلك فان الزمن مستمر بمعنى انه بين فترتين زمنيتين لا على التعيين، يوجد دائما امتداد زمني يربطهاتين الفترتين في تيار موحد من التتالي الزمني ، وفي الوقت نفسـه ، فان الزمـان والمكـان متقطعان غير متواصلين ، وهذا يعني أنهما يتشكلان من عناصر تتمايز بخواصها الداخلية ، وبنيتها وفقاً للتباين النوعي للعمليات والاشياء المادية •

٤ : ـ وحـدة العالم

هنالك كثير من الناس الذين لا ينكرون واقـع أن الطبيعة المحيطة بنا موجودة حقيقياً ، وخارج وعينا ، ومستقلة عنا • ولكنهم ، مع هذا ، يؤكدون ، أنه بالاضافة الى هذا العالم المادي المعروف من قبل الجميع ، يوجد عالم ما آخر غير مادي ، هـو عـالم « الارواح » ، عالم « العقل الاسمى » ، و « الارادة العليـا » ••• الخ • هـذه النظرة عن العالمين ، « عالم الارض » و « عالم السماء » ، وجدت منذ الماضي السحيق ، وسادت قرونا طويلة بفضل تأثـير اللاهوت •

وقد توصـل العلم ، خطوة خطوة ، الى اثبات خطل هـذه الفكرة عن وجود عالمين متباينين • العالم واحد • ان العالم المادي الحقيقي ، الذي هو عالمنا، وعالم وعينا ، وحواسنا ، واحساساتنا هو العالم الوحيد الموجود واقعيا •

ان بعض فلاسفة الماضي الذين رغبوا أن يكونوا فلاسفةماديين ،ودحضوا فكرة وجود عالم آخر ، حاولوا اثبات وحدة العالم منطلقين اما من التأكيد بأن العالم وحيد لاننا نتصوره وحيداً، واما من التأكيد بأن العالم وحيد لانهموجود• وهذا ما ذهب اليه « دوهرينغ » الذي وجه انجلز الى آرائه المناقضة للماديـة نقداً عميقاً في كتابه « انتي دوهرنيغ » • وقـد أبان انجلز أن كـلا الانطلاقين السابقين خاطىء • الواقع أن العالم اذا كان وحيداً لمجرد أن فكرتنا عنهواحدة، فهذا يعني أن الفكرة هي العامل المحدِّد بالنسبة الى العالم• بيد أن العالم لا يعكس خواص الافكار ، بل ان الافكار هي التي تعكس خواص العالم • ان بمقدور

فكرنا أن يجمع بين فرشاة الاحذية والحيوانات الثدية في « وحدة » ، ولكن هذا لا يمكن أن يخلق غدد الحليب عند فرشاة الاسنان ، كما يقول انجلز . كذلك فان تأكيدنا بوجود العالم لا يتيح لنا استنتاج أنه عالم وحيد ، لان مفهوم الوجود (الكينونة) يمكن أن يشتمل على تفسيرات جد متباينة ، تفسيرات مادية وأخرى مثالية . وبامكاننا أن نطلق صفة الوجود على شيء لا يقوم الا في وعينا (كتصورنا عن وجود العالم الآخر) ، دون أن نقتصر بهذا الاطلاق على ما هو ، فقط ، قائم خارج وعينا ، وبشكل مستقل عنا . وعلى هذا فان مجرد الاعتراف بوجود العالم لا يضمن لنا انتهاج خط فلسفي متماسك ، وفهم المحتوى الحقيقي لنظرية وحدة العالم ، فهما صحيحا . يقول انجلز : ان وحدة العالم لا تنحصر في كينونته ، رغم أن هذه الكنونة لا بد منها لوحدته ، لان وجود العالم ينبغي أن يتوفر ،أولا، حتى تتوفر وحدته،ثانيا،ان وحدةالعالمالحقيقية تستقر في ماديته ، وهذه لاتثبت بالألاعيب اللفظيه ، بل بتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية تطوراً طويلا وشاقاً »[1] .

كان اكتشاف « كوبيرنيك » للنظام الشمسي احدى أهم الخطوات في طريق معرفة وحدة العالم المادية . كانت الفكرة السائدة قبل « كوبرنيك » هي الفكرة الذاهبة الى أن الارض هي مركز العالم ، وأن « الاجواء السماوية » مع ما تحتويه ـ من أجرام سماوية « كاملة » كالشمس ، والكواكب ، والقمر ، والنجوم ، هذه الاجرام التي تعتبر استدارتها الدقيقة ونقاوة وسطها ، دليلا على خلقها في أحسن تقويم . كل من على الارض عابر ، فان . أما في السماء فكل شيء خالد لا يتبدل . وقد دحض كوبرنيك باكتشافه النظام الشمسي هذه الافكار ، وأثبت أن الارض ليست اطلاقاً مركز العالم ، وانما هي احد الكواكب التي كانت تعتبر فيما سلف جزء من الكيان السماوي الكامل . وهكذا فان مجابهة « عالم الارض » بـ « عالم السماء » تبدو مجانبة للصواب كل المجانبة .

وقد واصل « غاليليه » القضية التي بدأها « كوبرنيك » . فعندما صنع « غاليليه » أول منظار فلكي ووجهه نحو السماء ، اكتشف أشياء أذهلت جميع

---

(١) انجلز : « أنتي دوهرنيغ » ص ٤٢ .

معاصريه • ذلك أن القمر الذي ظن من قبل أحد « الاجرام السماوية الكاملة » لم يكن ليتمتع مطلقا بسطح كامل الكروية • فقد كان مغطى بالمنخفضات والوديان والجبال ، الشبيهة بتلك التي تغطي سطح الارض • كما اكتشف « غاليليه » أيضا بقعا مظلمة على سطح الشمس لا يعرف شكلها أي انتظام • وقد انتصب رجال اللاهوت ضد فكرة عدم نقاوة وكمال الاجرام السماوية ، التي سفهت ما كانوا به يعتقدون • فانتقموا انتقاما وحشيا من كبار العلماء الذين كانوا يعلمون الناس أن يروا العالم كما هو ، على حقيقته • فمات « د• برونو » محترقاً بنيران محاكم التفتيش في سبيل أفكاره الجريئة • لقد أثبت هذا العالم أن الفضاء الكوني اللانهائي ، حيث لا يشتمل ، في رأي رجال اللاهوت ، الا على « عالم سماوي كامل » ، انما يحتوي ، في الواقع ، على عدد لا حصر له من العوالم المادية الشبيهة بعالمنا الارضي • كما أن « غاليليه » وقع في غياهب سجون محاكم التفتيش لسبب اكتشافاته العظيمة • لقد بذل اللاهوت وكنائسه ما استطاعوا ، في سبيل الوقوف أمام تطور العلم،ولكنهم كانوا عاجزين عن خنق الحقيقة ، حقيقة أنه لا وجود لاي عالم آخر غير العالم المادي •

ثم ان اكتشاف قوانين الميكانيك ، وقانون الجاذبية الشاملة ، دعم تلك الحقيقة ببراهين جديدة • كان أنصار فكرة وجود عالمين متباينين يؤكدون كما لو أن حركة الاجرام السماوية والارضية تخضع لقوانين متباينة مبدئيا • وكانوا يعتبرون الفكرة القائلة بوحدة طبيعة هذه القوانين أو حتى بتشابهها ، الحاداً وكفراً •

كانت مأثرة « نيوتن » العظيمي هي اثبات أن قوانين ميكانيك الاجرام الارضية والسماوية واحدة ، وأن القوة التي تدفع جميع الاجسام المتحررة الى السقوط على الارض ، هي ، من حيث طبيعتها ، ذات القوة التي تسير القمر حول الأرض ، والكواكب الاخرى ، بما فيها الارض ، حول الشمس • ان أجسام الكون اللانهائي ، جميعها بلا استثناء ، مرتبطة فيما بينها بتأثير متبادل مادي ، جوهرياً ، وهو لا يعرف أي تمييز بين عالم الارض وعالم السماء •

وقد خطا العلم خطوة هامة في اثبات وحدة العالم المادية في أعقاب التحليل الطيفي ، أي طريقة دراسة تركيب الاجسام الكيميائي استناداً الى طبيعة الضوء الذي تشعه ، عندما تكون في وضع غازي مشتعل • ان ذرات كل عنصر كيمائي كائن في مثل الوضع المذكور ، ترسل اشعاعاً ضوئياً ذا موجات بطول معين بدقة ، يلتقطها المطياف تحت شكل عدد يقل أو يكثر من الخطوط الطيفية الملونة الضيقة • وكل عنصر كيمائي يشع مجموعة خاصة من الخطوط (أي طيفاً) • ان الشمس والنجوم والمذنبات التي لا حصر لها ، والتي هي في حالة اشتعال ، ومنتشرة في الفضاء الكوني اللانهائي بأجمعه ، ترسل أشعتها التي يمكن بواسطتها تحليل التركيب الكيمائي للشمس والنجوم والمذنبات • وقد دلت الابحاث الجارية على أن الاجسام السماوية مكونة من العناصر ذاتها التي تتكون منها الارض • صحيح أن المقادير النسبية لهذه العناصر متباينة في الاجسام المختلفة وفي أجزائها المتنوعة • وهكذا فقد تبدى أن الشمس تتضمن قرابة ٦٠ عنصراً كيمائياً معروفاً ، ويحتل الهدرجين المكانة الاولى بينها من حيث عدد الذرات ، أما الهليوم فذراته تقل عن ذرات الهيدروجين بأربع الى خمس مرات؛ في حين ان عدد ذرات العناصر الاخرى يبلغ مجموعة ١٠٠٠ر٠ بالنسبة الى عدد ذرات الهيدروجين •

والامر الذي له دلالته هو تاريخ اكتشاف العنصر الكيميائي ، الهليوم • فقد اكتشف ، في البداءة ، بواسطة التحليل الطيفي ، في الشمس فقط • لهذا دعي بالهليوم ، أي « الشمسي » • وظل مدة طويلة غير معروف في الارض ، مما دعا الى الاعتقاد بأنه خاص بالشمس فقط لا بالارض ، أيضا • ولكنه بعد مرور فترة من الزمن وجد الهليوم على الارض أيضا ، دون أن يكون ذلك العنصر النادر كما تبدى من قبل • وهو يستعمل الآن استعمالا واسعاً في العلم والتكنيك من أجل تحقيق العديد من الاهداف العملية[1] •

---

(١) في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر اكتشفت في أطياف السدم الغازية خطوط طيفية متباينة عن الخطوط الطيفية للعناصر الكيميائية الموجودة على الارض • وعلى هذا الاساس وضعت فرضية تقول بوجود عنصر نوعي في الضباب الكوني الغازي اطلق عليه اسم « نيبولي » •

←

وتتساقط من أعماق الفضاء الكوني ، على الارض ، شظايا كبيرة أو صغيرة ، مصدرها الاجسام السماوية ، تدعى بالشهب • ان الكثير من هذه الشهب يحترق قبل وصوله الارض نتيجة احتكاكه بالهواء ، في حين أن عدداً آخر منها يصل الارض دون أن يحترق • مما يتيح امكانية دراسة تركيبها وخواصها • وقد دلت الدراسات على أن العنصر الرئيسي في تركيبها هو الحديد ، وأنها لا تحتوي على أية عناصر غير متوفرة في الارض • .

هذه المعطيات عن التركيب الكيميائي للاجسام في الارض وفي الفضاء الكوني المحيط بنا ، والتي لم يحصل عليها الا نتيجة عمل العلماء الدائب الطويل ، دعمت كل الدعم الفكرة العظيمة القائلة بوحدة العالم المادية •

ان ذرات جميع العناصر الكيميائية عبارة عن مركبات مادية تتألف من صغيريات « أولية » ذات نموذج واحد (البروتونات، النيترونات،الاليكترونات)، وذات بنية واحدة من حيث نموذجها ، ويعبر عن سماتها الاساسية باحتوائها على أ) نواة مركزية ، تتألف من صغيريات « أولية » أثقل ، ولهذا فهي تحمل قسماً أعظم من كتلة الذرة • ب) وعلى غشاء منضد يحيط بالنواة ويتألف من صغيريات « أولية » أخف من الاولى • حـ) وعلى شحنات كهربائية متناقضة في النواة والغشاء • وعلى هذا فذرات العناصر الكيميائية هي ذات تركيب وبنية واحدة • ومن هنا ينتج أن تعدد وجود الاجسام ليس تجمعاً عرضياً لاجسام موجودة ، بل هو عبارة عن مجموعة واحدة لاجسام مادية ذات صلات داخلية متبادلة يربطها نظام دوري واحد ، يربطها قانون منديلييف الدوري وبهذا

→

وظلت هذه الفرضية قائمة حتى عام ١٩٢٧ ، عندما تقرر بدقة أن هذه الخطوط لا تخص عنصراً سماوياً معيناً ما بل تخص عدداً من العناصر الموجودة على الارض التي لا تشع هذه الخطوط الا في ظروف تكون فيها المادة في حالة تخلخل قوية ونسمي بالخطوط المستبعدة•وقد أثبت وجود هذه الخطوط الطيفية في العناصر الارضية لا نظرياً فقط ، بل وعملياً أيضاً • وعلى هذا انهارت الفرضية القائلة بأن « النيبولي » عنصر سماوي خاص •

المعنى يقول الاكاديمي « أ • فيرسمان » بأن العالم المحيط بنا هو عالم « منديلييف »[1] •

ولكن لنتصور أننا في وقت ما وجدنا في جرم سماوي ما عنصراً لا وجود له في الظروف الارضية • فهل يعني هذا اخلالا بوحدة العالم المادية ؟ كلا • وهو أمر لا يناقض هذه الوحدة ، شأنه في ذلك شأن عدم مناقضة انتفاء وجود « النبات الالبي » انتفاء كلياً (أي النبات الموجود في أعالي الجبال) في مناطق عديدة من الكرة الارضية ، لتصورنا عن الوحدة المادية الناظمة لعالم النبات على الارض• القضية ليست في وجود ذات العناصر الكيميائية أو ذات الصغيريات « الاولية » في جميع أجرام المجموعة الشمسية ، في جميع النجوم والمجرات • ان الامر الفاصل هو أنه مهما كانت الاشياء التي نجدها في أية بقعة من الكون ، مغرقة في « الغرابة » ، فانها لا تتعدى كونها لوناً من ألوان المادة • انها لا بد أن تتمتع بتلك الخاصة الاساسية التي يتمتع بها جميع أشكال المادة الاخرى ، أي خاصة الوجود خارج أي وعي وفكرة وروح ••• الخ ، وبشكل مستقل • كما لا بد لها وان تخضع لقوانين الطبيعة الموضوعية • والبرهان على هذا كله انما هو أحد أعاظم منجزات علم الطبيعة •

ان رجال اللاهوت ، اذ يجعلون من « عالم السماوات » عالماً مناقضاً ل « عالم الارض » ، يؤكدون أن كل ما عليها متبدل عارض ، ولا بد له ، عاجلا أم آجلا ، من أن يلقى مصيره النهائي ، في حين أن كل شيء في السماء « غير متبدل ، وغير عرضي ، وخالد » • ولكن أين هو الخلود وعدم تبدل أجرام العالم السماوي ؟ لقد أثبت علم الطبيعة أن منظومة الاجرام السماوية التي تسمى بالمجموعة الشمسية ، لم تكن دائماً كما هي عليه الآن • هذه

(١) يمكن أن توجد في الكون اللانهائي أجسام لا تتألف من ذرات عادية للعناصر الكيميائية • ان الفيزياء الحديثة ، باكتشافها وجود ما يدعى بأضداد الصغيريات ، تتنبأ عن امكانية تشكل تركيبات منها معقدة الى هذا الحد أو ذاك ، تشبه الذرات ، ومع هذا فهي تختلف جوهرياً عن الذرات العادية ، ويطلق عليها اسم أضداد الذرات • ثم ان وجود هذه الاخيرة لا ينسجم مع وحدة العالم المادية فحسب ، بل ويعطي براهين جديدة أيضاً على هذه الوحدة : ان الذرات وأضداد الذرات ترتبط فيما بينها بعمليات تحول متبادل •

المجموعة لها تاريخها • ان أجرام المجموعة الشمسية لم تحرز ، دفعة واحدة ، شكلها الحالي وخصائصها الراهنة • والعلم لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يرسم صورة مغرقة في التفصيل لهذه العملية بمجملها • ولكن الامـر الذي لا جدال فيه هو أن تاريخ المنظومة الشمسية كله ، عبارة عن عملية مادية ، طبيعية ، لا وجو فيها لاية معجزات ولا لاي تدخل من قبل « قوى سماوية » • اننا نستطيع مشاهدة كثير من التبدلات التي تطرأ على الشمس ، حتى بالاعتماد على منظار فلكي بسيط • ومن زمن لآخر تحدث على سطح الشمس اندفاعات نارية تبلغ ارتفاعا مقداره مئات آلاف الكيلو مترات ، وهي تدل على تبـدلات مكانية هائلة لمادة مشتعلة ، كما تبرز وتختفي بقع شمسية معتمـة ، هي عبـارة عن الاقسام الباردة نسبيا في المادة الشمسية • وفي أعماق الشمس التي لا تراها أعيننا تحدث باستمرار عمليات معقدة يتحول بموجبها الهيدروجين الى هليوم ممـا يغير تركيب الشمس الكيميائي تدريجياً • وهناك قسـم من المادة تقذفـه الشمس في الفضاء الكوني • والنجوم أيضا لاتبقى شيئا ثابتا • فيتوهج الكثـير منها رافعا قوة لمعانه الى درجات عديدة ، ويبدل من أحجامه ، ويتفتت •••الخ• ان منظومات نجمية كاملة تتلاشى ، لتنشأ منظومات نجمية أخرى •

هكذا نرى أن الحركة الخالدة ، والتغير الدائم ، هما أمران ملازمان لكل ما هو موجود • وليس هنالك أي عالم خاص لا يخضع لقانون الكينونة هذا • بيد انه حيث تنعدم بعض أشكال المادة ، لا بد وأن تنشأ أشـكال جديدة تبدأ تاريخها الخاص •

ان أية صغيرة مادية متناهية في الصغر لا تتلاشى من دون أثر ، ولا تنشأ من لا شيء • والمادة تتحول فقط من شكل الى آخر دون أن تفقد ، أبداً ، خصائصها الاساسية • فاذا تلاشى شيء مادي ، مثلا ، ذو كتلة معينة ، فلا بد من ظهور جسم مادي آخر ، أو عدد من الاجسام ، تساوي كتلته ، أو كتلتها ، كتلة الجسم المتلاشي ، دون زيادة أو نقصان • وفي جميـع عمليات التحول يبقى مجموع الشحنة الكهربائية ثابتا • وفي هذا ، كما في قوانين الطبيعة المماثلة، يتبدّى خلود المادة •

ان قانون حفظ الطاقة وتحولها الذي ينص على عدم تلاشي وعدم خلق حركة المادة ، يلعب دوراً عظيما في دعم فكرة وحدة العالم المادية • يقول انجلز : « مع اكتشاف هذا القانون ، تتلاشى آخر ذكرى عن القوى الخارقة المبدعة للكون »[1] ولا يستطيع شيء نقل أية حركة لجسم مادي ، مهما تناهى في الصغر ، الا بفعل تأثير حقيقي لجسم مادي آخر ، ينقل حركته الخاصة اليه كليا أو جزئيا • ان ما يفقده جسم من الحركة يناله جسم آخر • وليست هنالك أية حالة تخل بقانون الطبيعة العظيم هذا • ولا شيء يمكنه أن يخل به • وكل ما في الطبيعة خاضع له •

وبفضل هذا القانون تشكل جميع العمليات سلسلة وحيدة مترابطة لا يوجد فيها شيء ولا يمكن أن يوجد شيء غير مادي • والنشاط الانساني كله ، ومعطيات العلم جميعا ، يشهدان على صحة قانون حفظ الطاقة وتحولها في جميع العمليات دون استثناء •

ولا يوجد في أي شيء ، ولا في أي مكان ، ولا في أية من ظواهر الطبيعة والمجتمع ، ولا يمكن أن توجد أفعال ناشئة عن « عالم غير مادي » ، خفي ، تدل على وجود هذا العالم • فلكل شيء أسبابه الطبيعية الكامنة في هذه الاجسام المادية أو تلك ، في خواصها وفي تأثيراتها • واذا كان العلم عاجزاً الآن عن اعطاء جواب مستفيض على هذا السؤال أو ذاك ، فانه سيعطيه عاجلا أم آجلا ، دون أن يلجأ الى أية كائنات خفية خارقة ، قائمة في عالم غير عالمنا المادي• والعلم يفسر العالم المادي منطلقا من هذا العالم ذاته •

لقد أتى حين من الدهر كان الناس فيه لا يعلمون سر الحياة • ان السمات الخاصة بالعضويات الحية التي تميز بعمق الحي عن غير الحي أتاحت لبعض المفكرين ذريعة للتأكيد كما لو أن أساس الحياة هو قوة ما « حية » غير مادية ، توجه جميع العمليات في العضويات الحية • ان المثاليين يرون بشكل خاص ، تحول المادة اللاعضوية الى مادة عضوية في النباتات والحيوانات من فعل

---

(١) انجلز : « أنتي دوهرنيغ » ص ١٣ •

هذه « القوة الحية » • الا أن علم الطبيعة أثبت أن عمليـة تبادل المواد ، وهي العملية المادية الحادثة بصورة خاصة ، والخاضعة لقوانين حفظ الطاقة والكتلة، الناظمة لما تبقى من ظواهر الطبيعة ، أثبت أن هذه العملية هي التي تشـكل جوهر الحياة • وقـد كان لابحاث « ك • تيميريازيف » الكلاسيكية المتعلقـة بالتمثيل الكلوروفيلي في أوراق النبات الخضراء ، أهمية عظمى في اثبات ذلك• فبفضل التمثيل الكوروفيلي تتحول المواد غير العضوية التي يمتصها النبات من الوسط الخارجي ، الى مواد عضوية • وأثبت « تيميريازيف » أن عملية التمثيل الكلوروفيلي تحدث تحت تأثير سبب مادي » ، هو تأثير نور الشمس ، علما بأن نشاط التمثيل الكلوروفيلي يتحدد ، تماما ، بكمية الطاقة الشمسية التـي تمتصها أوراق النبات •

يقول « تيميريازيف » : ان الورقـة الخضـراء ، أو عـلى الاصـح ، خلية الكلوروفيل الخضراء المجهرية ، عبارة عن بؤرة ، عن نقطة ، في القضـاء الكوني ، التي تنتصب ، في احـدى نهايتهـا الطاقة الشمسية ، في حين تتنـاول جميع ظواهر الحياة في العالم أسبابها من الناحية الثانية » •

ان النبات وسيط بين السماء والأرض • انه بروميثيوس حقيقي ، اختطف النار من السماء • هذه النار ، هذه الاشعة الشمسية المختطفة ، تشتعل في ضوء القتيل الخافت وفي نور الكهرباء الباهر • وشعاع الشمس يدفع الى الحركة عجلة الآلة البخارية الضخمة ، وفرشاة الفنان ، وريشة الشاعر[1] •

لقد أتى حين من الدهر لم تكن كيفية نشوء الانسان فيه بعد معروفه • وفي هذه المرة أيضا أعطت الصعوبة المؤقتة في حل هذه القضية العلمية ، حجة لبعضهم للقول بوجود قوى روحية عزيت اليها معجزة خلق الانسان • ولكن هذه القضية وجدت ، بعد فترة من الزمن ، حلا علميا حقيقيا ينفي التصورات اللاهوتية المذكورة ، نفياً قاطعاً • ان نظرية العمل التي أتى بها انجلز في تفسير تطور الانسان ، والتي اعتمدت على نظرية داروين في التطور ، هي التي حلت

---

(١) تيميريازيف : « المؤلفات المختارة » الجزء الثاني • موسكو ١٩٤٠ ، ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣ •

مسألة نشوء الانسان • وهكذا أمكن ابعاد فكرة القوى اللا مادية وعالم ما وراء الطبيعة الخفي من هذا الميدان أيضا •

ان ظواهر الوعي تتميز أساسيا ، من حيث طابعها ، عن جميع الظواهر المادية • هذا التمايز استغله المثاليون للجهر بخطل فكرة وحدة العالم المادية •

ان الوعي ، باعتباره غير مادي ، كما سيبدو مفصلا في الفصل التالي ، ليس هو غير خاصة للمادة المنظمة بشكل خاص ، غير ثمرة لها ، ولا وجود له من دون المادة • وظواهر الوعي لا تشكل أي عالم خاص خارج العالم المادي وفوقه ، وعلى هذا فان ظواهر الوعي لا تخل بوحدة العالم المدية بأي شكل كان • وهي تظهر فقط كيف أن هذه الوحدة مغرقة في التعقيد ، ومتعددة الوجوه ، وهي تشتمل في ذاتها ، على أشكال متنوعة للمادة المتحركة التي تتمتع بخصائص وصفات متنوعة لا حد لها •

غالبا ما ينظر الى حياة المجتمع الانساني وتاريخه ، والى نشاط الناس والتقدم الاجتماعي على أنها ، جميعا ، نتيجة لما أراده « ما وراء الطبيعة » منذ الازل ، أو نتيجة لتأثير الفكرة ، الوعي ، الموجودين فوق الواقع المادي والمسيطرين عليه • لقد أظهرت المادية التاريخية ، باكتشافها الاسباب الحقيقية لتطور المجتمع ، خطل هذه الاراء • ان الحياة الاجتماعية لا تعدو كونها شكلا خاصا من أشكال حركة المادة • وقد نشأ تاريخيا عن أشكال أكثر بساطة للحركة المادية وعلى أساسها ، رغم أنه يخضع لقانونياته الخاصة •

ان اثبات الطابع الشامل لصلة المنشأ التي تربط بين جميع الاشكال المتباينة نوعيا للمادة ، والتي تربط أيضا بين ما يوافقها من أشكال الحركة ، هو البرهان القاطع الذي يدعم فكرة وحدة العالم • هذه الصلة بين الاشكال المتباينة للمادة ، وكذلك بين الاشكال المتباينة للحركة ، وجدت ، وهي موجودة وستوجد دائما وفي كل مكان ، في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل وفي جميع

أنحاء المكان اللانهائي ، دون استثناء • وعلى هذا فلم يوجد ، لا في الزمان ولا في المكان ، ولا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد أي شيء غير المادة المتحركة أو ماينشأ عنها • وفي هذا تستقر وحدة العالم •

ان العالم مادي • وهو وجد وخالد ولا نهائي • والانسان ذاته ، الذي هو النتاج الاعلى للعالم المادي ونوره ، عبارة عن جزء من كل « هائل » يقال له الطبيعة •

الفصل الرابع

المادة والوعي

سبق أن عرفنا أن المادة هي الاول وان الوعي هو التالي • وهذه النظرة هي نقطرة انطلاق الفلسفة المادية • وبعد أن عالجنا قضية المادة وأشكال وجودها ننتقل الى بحث أكثر تفصيلا يتناول الوعي وخصائصه •

١ : ـ الوعي هو خاصة المادة الرفيعة التنظيم

تعتبر قضية نشوء الوعي وجوهره احدى أصعب قضايا العلم • فكيف وفي أية درجة من درجات تطور المادة نشأ الوعي ؟ وكيف تنشأ الاحساسات والادراك والتصور والتفكير عند الانسان ؟ وكيف يتم الانتقال من الاحساسات والادراكات الى التفكير ؟ هذه الاسئلة ظلت مدة طويلة مجهولة من العلم ، مما أفسح المجال أمام تسرب نظريات خاطئة من حيث الاساس تعتبر الوعي خاصة أو نتيجة لنشاط شيء غير مادي (الروح) • وهذه الروح ، في زعمها ، غير مرتبطة بالمادة وبجسم الانسان ، ويمكنها أن تعيش حياتها المستقلة ، من دونه • وفي الوقت الذي يتعرض فيه الجسم المادي ، عاجلا أم آجلا ، للموت ، فان « الروح » اللامادية تبقى هي ووعيها ، في زعمهم ، حية خالدة • وقد وجدت هذه النظرات حتى عند أناس المجتمع البدائي الذين كانوا يفسرون الاحلام أو يعللون موت الانسان بأن « الروح » تهجر الجسم مؤقتاً أو الى الابد • والفلسفة المثالية لم تبق ع لى هذه التصورات المتفزلكة فحسب ، بل وأمدتها ، على العكس ، بالمبررات النظرية • كما توطدت تلك النظرات بمختلف ألوان هذه الفلسفة • كان كل لون من ألوان الفلسفة المثالية يذهب ، الى هذا الحد

او ذاك ، الى اعتبار الوعي (أو الروح) كائنا خاصاً من كائنات ما وراء الطبيعة ، ليس مستقلا عن المادة فحسب ، بل وهو خالق للمادة أيضا •

هذه القضية لم يكن حلها سهلا حتى بالنسبة الى الفلسفة المادية • فالى جانب التفسير الصحيح لجوهر الوعي ، باعتباره خاصة معينة من خواص المادة ، كانت هنالك أخطاء هامة • هكذا ذهب بعض الفلاسفة الماديين السابقين لماركس وانجلز ، والذين ظلوا في حيرة من أمر حل قضية نشوء الوعي ، ذهبوا الى أن الوعي هو خاصة للمادة ، هو خاصتها الخالدة الملازمة لجميع أشكالها • كما أن بعض الفلاسفة الماديين الذين عجزوا عن فهم مبدأ وحدة العالم المادية ، فهماً صحيحاً ، توصلوا ، عمليا ، الى نكران الوعي • انهم ذهبوا الى أن الوعي عبارة عن نوع خاص من المادة ، وأن الدماغ يفرزه كما تفرز ، مثلا ، الكبد الصفراء • كان هؤلاء هم الماديون العاميون • وفي أعقاب تطور المعارف العلمية أمكن تصحيح تلك الاخطاء • وقد توصلت المادية تدريجيا ، وخطوة إثر أخرى ، معتمدة على معطيات علم الطبيعة ، توصلت الى فهم جوهر الوعي فهما متزايد العمق ، على أنه بمثابة خاصة من خواص المادة الرفيعة التطور ، بمثابة نتاج لفعالية الدماغ • وتستقر صعوبة تقصي العمليات النفسية ، وظواهر الوعي، في أنها لا تدرك مباشرة بأي عضو من أعضاء حواسنا•ان الاحساس، والادراك، والتصور ، والفكر أمور لا يمكننا رؤيتها أو سماعها ، أو شمها ، أو لمسها • ان بالامكان رؤية عضو التفكير ، الدماغ ؛ بالامكان النظر مجهريا الى خلايا الدماغ ، كما تمكن ، باستخدام الاجهزة المناسبة ، دراسة التيارات الكهربائية التي تتشكل في النسيج العصبي وفي مادة المخ ••• الخ • الا أنه لا تمكن ، لا في الزمان ولا في المكان ، وحتى من خلال أحدث المجاهر ، رؤية الفكرة ولا يمكن قياسها طوليا ولا وزنها • ان الوعي ، ان الفكرة ، لا تتمتع بخصائص فيزيائية كتلك الخصائص التي تتمتع بها الاجسام المادية • بيد أنه لا ينبغي أن نستنتج من هذا أن الوعي يعود لعالم ما من عوالم ما وراء الطبيعة ، المتميزة أساسيا ، عن العالم المادي ، وهي مستقلة عن المادة • كما لا ينبغي أيضا أن

نستنتج من ذلك أن الوعي لا تمكن دراسته اطلاقاً بطرق موضوعية علمية ، دراسة دقيقة •

ورغم أننا لا ندرك بحواسنا المباشرة وعي الناس الآخرين ذاته ، الا أننا ندرك أفعال الناس الواقعية، وتصرفاتهم ، وكلامهم الذي يعكس أفكارهم• ويظهر الوعي الملازم للانسان وخصائصه في نشاطه الهادف ، وفي طبيعة علاقاته وصلاته المتبادلة مع الوسط المحيط به • ولم يكن عبثا أن يقال : « اذا أردت معرفة الانسان فانظر الى أعماله » ان التقصي الدقيق لنشاط الانسان العملي ، ولعلاقاته وصلاته المتبادلة مع وسطه الطبيعي والاجتماعي (وهو أمر تستطيع الدراسة الموضوعية تحقيقه) يمكّن من دراسة وعي الانسان أكثر جداً مما تمكن دراسة الانسان بذاته ، وعيه الخاص • ان دراسة الانسان ، بذاته ، للظواهر الجارية في وعيه الخاص ، دراسة صحيحة تعطينا مادة ثمينة وفيرة من أجل دراسة النفس ، ولا ينبغي النيل من قيمة هذه الطريقة • الا أن العلم قد حقق نجاحات هامة بشكل خاص ، في دراسته الوعي والنشاط النفسي ، لا سيما منذ أن اتخذ طرقا موضوعية في بحث الوعي • والعلم مدين بمنجزات هامة في هذا المجال ، للعالمين الروسيين الشهيرين « اي • م سوتشينوف » و « اي ب • بافلوف » اللذين صاغا ، على أساس إستخدام الطريقة العلمية في العلوم الطبيعية، نظرية منسجمة عن النشاط العصبي الرفيع عند الحيوانات والانسان •

ان النفس هي نتيجة لنشاط المخ المادي • يؤكد ذلك قبل كل شيء واقع أن الحوادث النفسية لا تحدث الا في الاجسام الحية التي تقوم بوظائفها بصورة طبيعية ، وتحوز جهازاً عصبيا • ان أكثر أشكال العمليات النفسية تعقيداً ، (بما فيها التفكير التجريدي المنطقي) التي تشكل ،في وحدتها الداخلية الوطيدة الترابط ، وفي اشتراط أحدها الآخر ، ذلك الشيء الذي نسميه بالوعي • ان أكثر هذه الاشكال تعقيداً مرتبط بوجود الجهاز العصبي الرفيع التطور ، وبجزئه الاعلى ، أي المخ •

وكلما كانت الحيوانات أقل تطوراً ، وكانت ذات جهاز عصبي أبسط من حيث التطور ، كانت الحوادث النفسية الخاصة بها أكثر بدائية • وهذه

الظواهر النفسية تنعدم عند تلك الكائنات المتناهية في البساطة والتي لاتتمتع بجهاز عصبي مركزي • ان ارتباط الوعي بالمادة المتطورة تطوراً خاصا يتبدى بسهولة عندما يصاب نشاط المخ بخلل ما نتيجة مرض أو اصابة خارجية • فاذا أصيب نصف الكرة المخية باصابة ، اختل نشاط نفس الانسان ، نشاط وعيه ، كليا أو جزئيا • فاذا ما شفي من الاصابة أو المرض عاد الوعي الى نشاطه السابق • ان علاقة الوعي بحالة المخ تتبدى عند النظر الى تلك الحوادث المعروفة كتخدير الناس واثارة التخيلات لديهم عن طريق مختلف أنواع المخدرات •

وتتمتع قشرة المخ بأهمية حاسمة بالنسبة الى وعي الانسان • انها كيان مادي مفرط في التعقيد يتمتع كل جزء منه بصفات خاصة ،وبيئة خاصة • انها تقسم الى مراكز مختلفة كمركز الرؤيا ، والسمع ، والحركة ، ••• الخ • وكل مركز من هذه المراكز يتصف ببنية مجهرية خاصة من حيث شكل الخلايا وتوزع الطبقات الخلوية ، ويلعب دوراً وظيفيا معينا في نشاط قشرة المخ بمجملها • بيد أن بنية هذه المراكز تتمتع بسمات عامة بينها • فالمخ يبرز ككل موحد •

ان مراكز قشرة المخ عبارة عن النهايات القشرية للمحللات [1] البصرية والسمعية والحركية وغيرها • ان الاجزاء القشرية للمحللات (نوى «،جمع نواة » المحللات) ليست مفصولة عن بعضها بحدود واضحة ما • فبعضها يمتد من وراء بعضها الآخر وبعضها يشتبك ببعض بواسطة تشكيلات عصبية خاصة• ان الاجزاء القشرية من المحللات تحقق أعلى الوظائف ـ أي تحليل وتركيب التهيجات الواردة الى المخ • ان أجزاء القشرة المبعثرة بين المحللات بالذات تعتبر مستقبلات ويمكنها أن تقوم ببعض الوظائف من نموذج تلك التي تقوم بها المحللات القشرية ولكنها أبسط منها •

ونتيجة لهذا فان أي خلل في نشاط أي جزء قشري من المحللات (في

---

(١) المحللات أجهزة عصبية معقدة تضم ، الى جانب أجزاء القشرة المشار اليها ، أجهزة الاستقبال أو المستقبلات (التشكيلات الطرفية للألياف العصبية الحسية التي تستقبل التهيج وتحوله الى اثارة عصبية) وتضم النواقل التي تنقل الاثارة من المستقبلات الى قشر المخ •

أعقاب عملية أو ارتجاج الخ •••) يجعل من غير الممكن القيام بأعلى الوظائف الخاصة بالمركز المصاب من المخ • بيد أن أجزاء المحللات المبعثرة تظل قادرة على القيام بالوظائف الاولية المرتبطة بالمستقبلات نفسها • وقد وضح بافلوف هذا الامر بالتجربتين التاليتين : ان الكلب الذي أزيلت منه الاجزاء الصدغية (أي منطقة الادراكات السمعية وتحليلها وتركيبها المعقدين) لم يمكنه أن يميز الاصوات المعقدة كاسمه مثلا ولكنه كان يميز الاصوات المنفردة وألحانها• أما الكلب الفاقد لاجزاء كرتي المخ الخلفية (أي منطقة الادراكات البصرية وتحليلها وتركيبها المعقدين) فلم يمكنه أن يميز بين الاشياء ولكنه كان يميز درجة الانارة والاشكال البسيطة • وقد وجد بافلوف في هذا برهانا قاطعا على الاهمية الراجحة لبنية قشرة المخ في عمليات النشاط العصبي العلوي • وبالاعتماد على بحوث تجريبية دقيقة أشار بافلوف الى أن مرض هذا الجزء أو ذاك من القشرة ، في حال بقاء الاجزاء الاخرى سليمة ، يمكن أن يؤدي الى نوع معين من التشويش في النشاط العصبي العلوي لدى الحيوان المصاب •

لقد أكد بافلوف على أهمية واقع التناسب بين أجزاء بنية المخ وبين ديناميكية العمليات العصبية • واعتبر أن « توافق الديناميكية مع البنية » أحد المبادىء الاساسية في نظرية النشاط العصبي العلوي • وبهذا طور بافلوف نظرة المادية الديالتيكية الى النفس بصفتها خاصة من خواص المادة المنظمة بشكل معين ، بصفتها وظيفة من وظائف المخ •

ان قشرة المخ ليست عبارة عن مجرد مجموعة من التشكيلات البنيوية المنفردة والمرتبطة خارجياً فقط والمتعايشة واحدة الى جانب الاخرى • فقد أكد بافلوف العلاقة المتبادلة العضوية بينها ، وأكد وحدتها • وقد كتب يقول : « اذا كان بالامكان ، من وجهة نظر معينة ، النظر الى قشرة كرتي المخ الكبيرتين على أنها مصنوعة من الموازييك ومؤلفة من عدد لا نهاية له من القطع المنفردة ذات الدور الفيزيولوجي الخاص في لحظة معينة ، فاننا من وجهة نظر أخرى نعتبرها منظومة ديناميكية معقدة تطمح دائما للاتحاد (للتكامل) ولتكرار نفس

نموذج النشاط الموحد [1] • ان هذا الفهم الديالكتيكي للعلاقة العضوية بين الكل والاجزاء في عمل قشرة المخ هو احدى أهم الصفات التي تميز تعاليم بافلوف • فبفضل هذا الفهم استطاع بافلوف التغلب على التطرف الخاطىء من الجانبين في تفسير عمل المخ : التطرف الاول هو الاتجاه الذي يسمى بالاتجاه الموضعي «اللوكالي»،والذي يعمد أنصاره الى جعل خاصية نشاط الاجزاءالمنفردة من المخ شيئاً مطلقاً ، متجاهلين وحدة المخ • والتطرف الثاني هو الاتجاه الذي يتجاهل كلية أهمية التشكيلات البنيوية المنفردة للمخ ولا يرى سوى وحدته •

وهكذا فالوعي عبارة عن نتاج المخ ، نتاج المادة الرفيعة التطور ، وهو وظيفة المخ ، وبالتالي فان المخ هو عضو الوعي ، عضو التفكير •

وعندما نقول بأن الوعي هو نتاج المادة لا نقصد بذلك أن الوعي الناشيء عن المادة ، والمرتبط بها ، يوجد كشيء خارجي عنها ، قائم الى جانبها ، كما توجد ، مثلا ، التفاحات النابتة على غصن شجرة التفاح وبشكل مرتبط به • ان العمليات الفيزيولوجية الجارية في المخ المفكر ، وان التفكير الواعي ، ليسا عمليتين متوازيتين ، بل هما عملية واحدة وحيدة ، والوعي هو حالتها الداخلية• يقول لينين « ان الوعي هو حالة داخلية للمادة » [2] • وعلى هذا لايمكن اطلاقاً الفصل بين الوعي والمادة المفكرة • وفي الوقت نفسه لاينبغي النظر الى الفكرة ، الى الوعي ، على أنه مادة ، أو شيء ما مادي (وهذا خطأ الماديين العاميين) • واذا اعتبرنا أن الوعي مادة « لا يبقى أي معنى لمعارضة المادة بالروح ، والمادية بالمثالية ، من وجهة نظرية المعرفة الفلسفية » [3] (لينين) • وفي حدود الابحاث التي تتعلق بنظرية المعرفة لابد من اقرار معارضة المادة بالروح••ولكن اقرار معارضة المادة بالروح ، والشيء الفيزيائي بالنفسي ، معارضة مطلقة ، خارج نطاق تلك الحدود ، انما هو خطأ فادح » [4] •

---

(١) بافلوف • المؤلفات الكاملة الجزء الرابع موسكو ـ لينينغراد ١٩٤٧ ص ١٩٥ •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٧٤ •

(٣) نظرية المعرفة هي قسم من الفلسفة الذي يدرس مصادر المعرفة العلمية ووسائلها ، وشروط صحتها •

(٤) لينين : المصدر ذاته • ص ٢٣٣ •

ان معارضة المادة بالوعي في نطاق نظرية المعرفة هي معارضة مطلقة بمعنى أنها معارضة حقيقية بين ما هو أول وما هو تال ، بين ما هو موجود منذ الازل وبين ما لاينشأ الا في مرحلة معينة من مراحل تطور الطبيعة • بيد أن معارضة المادة بالوعي هذه هي نسبية بمعنى أن الوعي لا يمكن ، بأي شكل كان ، أن يفصل عن المادة المفكرة ، وأن يعارض بها كشيء منعزل عنها وقائم بذاته • ليس الوعي شيئا غريبا عن الطبيعة ، انه نتاج طبيعي لها ، شأنه شأن الاشياء المادية ذاتها ، الحائزة على هذا الوعي •

ان العلم العصري الذي توصل الى نجاحات هامة في معرفة نشاط الدماغ ودراسة الظواهر النفسية ، وعمليات الوعي ، يضع أمامه لا مهمة توضيح هذه الظواهر فقط ، بل والسيطرة عليها ، وتوجيهها • يقول بافلوف : « اننا على ثقة من أن الوجهة التي اتبعها العلم في دراساته الدقيقة عن فيزيولوجيا دماغ الحيوانات ، ستوصله الى سيطرة عظيمة على الجهاز العصبي الرفيع التطور ، والى اكتشافات مذهلة لا تقل أهمية عن المنجزات التي حققها علم الطبيعة»[٤] •

ورغم وضوح معطيات علم الطبيعة فان الفلاسفة المثاليين ما يزالون ينازعون في أن الوعي هو نتاج ، هو وظيفة ، هو خاصة المادة المتطورة الى حد معين ، ينازعون في أن الانسان انما يفكر بالاعتماد على المخ • هكذا يذهب « ف • باولسن » الى أن قولنا : « التفكير يتم في الدماغ » ، قول لا معنى له • وهو يعتقد أن هذا القول شبيه بتأكيدنا أن الافكار توجد في المعدة أو في القمر • هذا « الاعتراض » ضد المادية سخيف الى حد دفع أحد الاطباء النفسيين الى القول بـ « أنني لم أسمع الا من المجانين والمعتوهين أن أنفسهم موجودة في المعدة أو في القمر » •

أما « أفيناريوس » ، المثالي الذاتي ، فينكر فكرة أن الفكر ، أن الاحساسات عبارة عن وظيفة الدماغ ، عن خاصته • وقد وجه لينين ، في كتابه « المادية والمذهب التجريبي » ، نقداً لاذعاً لنظرات هذا الرجل الفلسفية • لقد

---

(١) بافلوف : « المؤلفات الكاملة » الجزء الثالث الكتاب الاول نشر أكاديمية العلوم السوفييتية • موسكو _ لينينغراد ١٩٥١ ، ص ٢٨٩ •

حاول « أفيناريوس » أن يدعم وجهة نظره استناداً الى أن أحداً لم يشاهد كيف تتولد الاحساسات في المخ • وهو يرى أن الاحساسات موجودة دائماً ، ولكنها ليست دائما موعيّة من قبلنا • فعندما يحدث انتقال الحركة المادية (الاثارة) الى الكائن الذي نعتبره منتجاً للاحساس ، يحدث ، في الوقت ذاته ، « تحرر » الاحساسات الموجودة في الكائن قبل الاثارة ، وبذلك تصبح موعيّة ، كما لو أنها ليست نتيجة للاثارة • ان الاحساسات والتفكير ، في زعمه ، ليسا وظيفة الدماغ ولا نتاجا له • ولنفرض جدلا أن « افيناريوس » على حق عندما يقول بأن عمليات المخ لا تولد الاحساسات بل « تحررها » فقط على صورة ما ، آنذاك نضطر الى استنتاج أن احساسي بالالم من جرح أصيب به إصبعي اليوم ، كان موجوداً من قبل ، وأن احساسي برائحة الوردة التي سأشمها غداً قائم ولكنه لم يصبح بعد موعيا ••• الخ • فهل يمكن أن نوافق « أفيناريوس » على ما ذهب اليه دون أن نتنكر لابسط قواعد التفكير المنطقي العلمي ؟ بالطبع لا • ان كل انسان يلاحظ ، في كل برهة واقع أن احساساته تتولد نتيجة لتأثير العالم المادي الخارجي على أعضاء حواسه • وبفضل هذا بالذات يستطيع الانسان أن يحس توجيه نفسه وفقا لظواهر العالم الخارجي ، وأن يتغلب على العوائق المنتصبة أمامه ، وأن يتجنب ما هو غير ملائم ، وأن يجد ما يلائم وجوده ويسهل عليه فعاليته • ان « افيناريوس » وأنصاره يعودون بنا القهقرى نحو نظرية أفلاطون عن تذكر الروح للأفكار التي كانت عايشتها في العالم الروحي المثالي •

ويتهم « أفيناريوس » علماء الطبيعة الذين يعتبرون الاحساس والتفكير وظيفة الدماغ ،بأنهم يحشرون في الدماغ الافكار والاحساسات حشراً لايطاق ، مع أنه منها براء • وعملهم هذا يؤدي ، في زعمه ، الى التنكر للمفاهيم الطبيعية عن العالم ، والى الوقوع في أحضان المثالية ••• ان « أفيناريوس » يعتبر نفسه عدواً للمثالية ، لمجرد انه يعترف بحقيقة « الانا » و « الوسط » على حد سواء • ولكنه ، عمليا ، يدافع عن المثالية ، ويحارب المفهوم الطبيعي الحقيقي عن العالم، أي المادية • ذلك لان « الانا » و « الوسط » عبارة ، في زعمه ، عن مجموعة

من الاحساسات • ان « أفيناريوس » لم يحاول البرهنة على ما رغب بالبرهان عليه ، بل اعتبره أمراً بديهيا : لم يحاول اثبات الزعم القائل بأن الاحساسات موجودة من غير المادة المفكرة ، من غير الدماغ ، بل اعتبره بديهة • يقول لينين: « لما كنا لا نعرف بعد جميع ظروف الصلة التي تخضع لرقابتنا في كل دقيقة ، الصلة بين الاحساسات والمادة المنظمة على صورة معينة ، لهذا فنحن لا نعترف الا بوجود الاحساس وحده • هذا ما تؤدي اليه سفسطائية « أفيناريوس » [1]•

وهنالك مثاليون معاصرون « لا ينفون » ارتباط الوعي بالدماغ • ولكنهم لا يفهمون هذا الارتباط الا من حيث أن الدماغ هو ، فقط ، « أداة » ظهور الوعي • أما الوعي نفسه فهو غير مرتبط ، في زعمهم ، بالدماغ (وهذا ليس أكثر من تكرار لنظرية « أفيناريوس » الخاطئة) • وقد سلك المثالي الذاتي « ماخ » طريقة أخرى تختلف عن طريقة « أفيناريوس » في معالجة ، قضية ارتباط الوعي بالدماغ • فلكي لا يقع « ماخ » في تناقض مباشر مع معطيات العلوم الطبيعة ، الشاهدة على الصلة الوثيقة بين الوعي والاحساس وبين العمليات المادية للدماغ والجملة العصبية ، عمد الى ملاءمة هذه المعطيات مع فلسفته الذاهبة الى أن الاجسام عبارة عن مركبات من الاحساسات • وهو أمر يؤدي الى نتائج ممجوجة ، كما أبان لينين • ولما كان الدماغ جسماً فهو ، بالتالي ، حسبما ذهب اليه « ماخ » مجموعة من الاحساسات • ثم ان الدماغ جزء من الانسان ، فالانسان اذن مجموعة من الاحساسات كذلك • وعلى هذا فعندما نتجسس شيئاً ما ، ينبغي علينا أن نقول : « ان مجموعة من الاحساسات هي « آنا » تتحسس ، بمساعدة مجموعة أخرى منها ، هي الدماغ ، مجموعة ثالثة من الاحساسات » • ومهما كانت عليه « مجموعات الاحساسات » هذه من فوضى وتعقيد ، فاننا نستطيع تنسيقها بادئين بنقطة انطلاقها • ان من السهل الكشف عن خطأ نظرية « ماخ » الفاحش ، وعن التناقض فيها • « فماخ » يعلن أولا أن كل شيء عبارة عن احساسات ، ثم يأخذ ، عمليا ، بنظرات معاكسة تعتبر

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ، ٤٠ •

الاحساسات مرتبطة بعمليات هي عبارة عن تبادل حركات مادية بين الجسم العضوي والعالم الخارجي •

ان ما يسمى بالنظريات النسية المورفولوغية تذهب مذهبا آخر في التنكر لنظرية الوعي كوظيفة للدماغ • ان محاكمات أنصار هذه النظريات تبدو ، للوهلة الاولى ، وكأنها قويمة ، عندما يحاولون ايجاد تلك الاماكن الدماغية التي تنشأ فيها العمليات النفسية • الا أن نظراتهم ، تناقض ، في الواقع ، معطيات علم الطبيعة الحديث ، وهي خاطئة من الوجهة الفلسفية • وأنصار هذا الاتجاه المدعوم من قبل فيزيولوجين ومختصين في الاعصاب ، معاصرين ، يتوصلون الى حد التأكيد ، كما لو أن كل نقطة من نقاط الدماغ تختص بوظيفة نفسية مستقلة عن غيرها كل الاستقلال : ففي نقطة من هذه النقط يقوم ، في زعمهم ، مركز « معرفة الارقام » ، وفي نقطة أخرى مركز « لفهم الجمل » ، وفي نقطة ثالثة يقوم مركز « معرفة الحروف » ، وفي الرابعة مركز « تشكل صور الاشياء الحية » ، وفي الخامسة مركز « التعرف الى الاشياء اللا حية » ، وفي السادسة مركز « الأنا » الشخصية ، وفي السابعة مركز « الأنا » الدينية ، ••• الخ • ورغم أن هذه الوظائف النفسية تتلاءم والاجزاء المختصة من الدماغ ، فان أنصار هذه النظريات ينكرون ، من حيث الاساس ، الصلة الداخلية بين النفس والدماغ ، ويفصلون بينهما • وهم ، اذ يجزئون الدماغ الى أجزاء مبعثرة ، منعزلة عن بعضها ، وعن التأثيرات الخارجية ، يفقدون كل امكانية لفهم كيفية قيام الدماغ بنشاط شامل موحد • وهم يتوصلون الى تصور الوظائف النفسية كأشياء مستقلة عن بعضها كل الاستقلال ، ولكنها مترافقة ، في الزمان والمكان ، مع النشاط الفيزيولوجي لقشرة الدماغ ، وتحدث وفق قوانينها الخاصة التي لا يجمعها أي جامع مع قوانين فعالية الدماغ • هذه النظرات ليست ، في الواقع، أكثر من ترداد للنظرية الثنائية القديمة التي نبذها العلم منذ أزمان بعيدة ، لنظرية التوازن النفسي الفيزيائي القائلة بأن العالم عبارة عن صفين من العمليات المستقلة تماما ، عن

---

(١) المورفولوغيا : مجموعة العلوم التي تدرس شكل وبنية أجهزة الحيوانات أو النباتات •

صفين من العمليات الفيزيائية والنفسية الحادثة في جوهرين مختلفين (مادي وروحي) يوازي بعضها الآخر •

ويذهب المذهب ذاته أيضا أنصار النظرية القائلة بأن الدماغ عبارة عن كتلة لا تتصف ببنية وتمايز واضحين • وهم ، اذ عجزوا عن رؤية مصدر نشاط المحللات في تأثير الوسط الخارجي ، اذ عجزوا عن رؤية الصفة النوعية لعمل هذه المحللات ، المشروط بتباين التأثيرات المادية الخارجية ، اذ عجزوا عن ذلك ، حاولوا تفسير النفس كنتاج « لفعالية دماغ » وحيدة ، شاملة له كله ، وك « طاقة عفوية ذاتية للدماغ » تجابه كتلته المادية • وهكذا يذهبون مذهب التوازن النفسي •

ان مؤلفات « بافلوف » وكثير من العلماء الآخرين ، المتعلقة ببحث الفعالية العصبية المتطورة دحضت هذه النظريات الثنائية دحضاً تاماً • ان جميع الاعتراضات المناوئة لأهم أفكار المذهب المادي التي أثبتها علم الطبيعة ، والقائلة بأن الوعي عبارة عن خاصة المادة الرفيعة التطور ، ان جميع هذه الاعتراضات تبقى ، ولا يمكن الا أن تبقى ، عقيمة غير مجدية ، لأنها تناقض ، في جوهرها ، المعطيات العلمية الدقيقة •

هكذا نرى أهمية الطريقة المادية التي تعالج الظواهر من جميع النواحي للوصول الى نتائج صحيحة ، كما نرى الاخطار الجدية التي تدفع اليها الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الظواهر معالجة وحيدة الجانب •

٢ : ـ الوعي هو انعكاس العالم المادي

وهكذا فالوعي هو نتاج فعالية الدماغ•الا أنه لا ينشأ ولا يتشكل في الدماغ الا بفضل الصلة المادية بين الدماغ والعالم الخارجي • ان الدماغ متصل بالعالم الخارجي عن طريق نهايات أعضاء الحواس : من عين وأذن وأغشية الانف المخاطية ، وحليمات اللسان ، ونهايات الجلد العصبية ••• الخ •

لا تنشأ الاحساسات في الدماغ الا عندما تصل اليه الاثارة العصبية الناجمة عن اهاجة هذه الاشياء المادية أو تلك لأعضاء الحس • هكذا تنشأ الاحساسات

السمعية عن تأثير الموجات الصوتية على عضو السمع : كما تنشأ الاحساسات الشمية عن تأثير الصغيريات المادية على خلايا الشم الموجودة في المجاري الانفية.

وهكذا فمصدر الاحساسات هو العالم الخارجي ، هو المادة ، هو الوسط المادي ، الظواهر والاشياء ، المكونة له .

ان الاحساسات هي الاساس الذي تقوم عليه جميع ظواهر الوعي . ولا وجود لهذا الوعي من دون تلك الاحساسات . ومن خلال الاحساسات فقط يكتسب الوعي محتواه وغناه . فكلما كانت صلة الوعي بالعالم المادي المحيط به أوسع وأكثر تنوعاً ، كان أكثر غنى .

فمن المعلوم أن هنالك حالات يكون فيها الانسان منذ الولادة أعمى وأطرش وأخرس في وقت واحد . فاذا لم تتخذ تدابير معينة لمساعدة مثل هذا الانسان ، فان وجوده يقتصر على القيام بالوظائف الفيزيولوجية البحتة ، ويكون وعيه في غاية الفقر . وعندما ينجح الاطباء في رد ولو بعض أعضاء الحواس المفقودة اليه يتسع وعيه ويغتني ، ويصبح هذا الانسان عضواً كاملا في المجتمع ، قادراً على أن يعيش حياة ابداعية فعالة . واذا لم يقدر للدماغ أن تقوم بينه وبين العالم الخارجي صلات عن طريق أعضاء الحس ، فلا تنشأ في هذا الدماغ الاحساسات ، أي يصبح الانسان من غير وعي . يقول « ساتشينوف » عندما يكون الانسان مجهداً جسدياً من التعب ، ويغرق في ثبات عميق ، فان نشاطه النفسي يتضاءل ، من جهة ، حتى العدم (وهو في هذه الحال لا يحلم) ، وهو ، من جهة ثانية ، يتميز بفقدان تحسس المؤثرات الخارجية ، فلا يوقظه الضوء ، ولا الصوت القوي ولا حتى الالم . وهناك حالات أخرى يقترن فيها انعدام تحسس المؤثرات الخارجية بانعدام النشاط النفسي كحالة السكر والتخدر والاغماء . ان الناس يعرفون هذا . وليس هناك من يشك في أن الظاهرتين المذكورتين مرتبطتان سببيا . وتباين الناس في نظرتهم الى هذا الموضوع منحصر في أن بعضهم يعتبرون انعدام الوعي سببا لانعدام التحسس في حين يعتبر بعضهم الآخر العكس . ولا يمكن وجود وسط بين الحالين . فاذا أطلقنا النار قرب أذن انسان يغط في نوم عميق ، من

مدفع أو اثنين أو عدد منها ، استيقظ واستعاد نشاطه النفسي في الحال • أما اذا كان هذا الانسان فاقداً لسمعه فلا يوقظه اطلاق ولو مليون مدفع ، لسبب واحد هو عـدم استعادته لوعيه عن طريق هـذا الاطـلاق • كذلك الاعمى لا توقظه أشد الانـوار بهراً • وعندمـا ينعدم الحس في الجـلد لا يستطيع أكثر الآلام شدة أن يحدث أي تألم • وبكلمة واحدة إن الانسان الغارق في النوم ، والفاقد أعصاب حسه ، سيظل نائما حتى الموت • فهل بعد هذا يستطيع بعضهم القول بأن انفعالية النفسية ، والحركة العضلية المعبرة عنها ، ممكنة ، ولو للحظة خاطفة ، من غير اثارة حسية خارجية[1] •

ان خاصة واحدة لشيء معين تثير في دماغنا احساساً واحداً ، اذا تساوت الشروط • فكرة البليار لا يمكن أن تثـير فينا ، في لحظة معينة ، وفي ذات الشروط ، الاحساس باللون الابيض ، وفي لحظة أخرى ، الاحساس باللون الاسود ، ثم بالاخضر أو الازرق ، ثم من جديد بالابيض ••• الخ ؟ أو أن تثير فينا ، الآن احساسـاً بشيء أملس ثم بشيء غـير أملس أو غير ذلك ؟ أو ان خواص الاشياء المادية لا تثير فينا احساسات ما عضوية تتعاقب تعاقباً فوضويا ، بل تثير احساسات معينة تماما تتلاءم وطبيعة الاشياء الموضوعية • فـاذا شممنا رائحة شيء ما ، كان هذا دليلا على أن الشيء المذكور يتمتع بقدرة على افراز صغيريات منه حوله ، تتميز ببعض الخصائص الفيزيائية الكيميائية التي لا تتوفر لدى صغيريات أجسام أخرى لا تنفث رائحة • فنفث الرائحة عبارة عن خاصة موضوعية • ان وجود صغيريات في الهواء من جسم ينفث الرائحة ، يمكن أن يتبدى اعتماداً على وسائل فيزيائية وكيميائية بالاضافة الى عضو الشم • ولما كانت الخصائص المعينة للاجسام المادية تثير فينا احساسات معينة ، لذا فنحن نتمكن من تمييز هذه الخواص بعضها عن بعض • ان الخصائص الواحدة للاجسام ، هذه الخصائص المتميزة عن بعضها بدرجتها أو بشدتها (من حيث الحرارة أو

---

(١) سينشينوف : مؤلفات مختارة في الفلسفة وعلم النفس طبعة ١٩٤٧ ص ١٧٨ • كان في عيادة « بوتكين » ، العالم الشهير ، مريضة عمياء طرشاء • كانت هذه المريضة فاقدة حس جلدها في مختلف نواحي جسمها باستثناء يد لها • وكانت هذا في حالة ثبات بصورة عـامة • ولم تكن لتستيقظ الا يلمس يدها التي احتفظت بحساسيتها •

الوزن ... الخ) ، تثير فينا ، بصورة عامة احساسات من نوع واحد ، ولكنها متمايزة فيما بينها تمايزاً يتناسب وشدة تلك الخصائص . وفي تشابه وتباين الاحساسات الناجمة عن تأثير الاشياء المادية ، ينعكس تشابه وتباين الخصائص العائدة لهذه الاشياء .

ان الاشياء المادية تتمتع لا بخاصة واحدة بل بخصائص متعددة (من شكل ، ووزن ، ولون ، ورائحة ، وقساوة ، أو طراوة ، ونعومة أو خشونة ... الخ) . وتنقل أعضاء حواسنا الى الدماغ تأثيرات متنوعة في وقت واحد ، صادرة عن تلك الخصائص . وعلى هذا الاساس يتشكل في الدماغ ادراك واحد ، كامل للأشياء . ان الادراك هو مجموعة الاحساسات المرتبطة فيما بينها ترابطا متلائما مع ترابط خصائص الشيء ، المثير فينا الادراك المذكور . وكل ادراك معين يتلاءم مع الشيء المادي المثير لهذا الادراك . ان خاصة الاشياء المادية ، وتشابه هذه الاشياء وتباينها ، تنعكس في خصائص الادراك .

بيد ان الاحساسات والادراكات تتلاءم والاشياء الخارجية لا كاشارات اتفاقية أو علامات تناسب الاشياء الدالة عليها ولكن كنسخ عنها متلائمة مع هذه الاشياء ذاتها . ان الاحساسات والادراكات عبارة عن انعكاسات للاشياء المادية وصور ونسخ عنها . هذا هو أحد أحجار الزاوية في نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية . وقد قدم علم الطبيعة براهين لا تدحض على صحة هذه النظرية .

لقد ساعد « سوتشينوف » كثيراً في اثبات أن الاحساسات عبارة عن انعكاسات وصور ونسخ صحيحة لاشياء العالم الخارجي . ان تطبيق الطريقة التي انتهجها « سوتشينوف » في البرهنة ، كفيل باقناعنا بأن الاحساسات البصرية تعطي ، عملياً ، انعكاسات صحيحا للاشياء التي ننظر إليها .

اذا اتجهت العين نحو شيء خارجي ما ارتسم انعكاس هذا الشيء على قعرها في الشبكية . ويحدث الانعكاس حسب قوانين العدسات عبر عدسة العين التي تشبه عدسة محدبة الوجهين . ولكن هذا الانعكاس الفيزيائي ليس ، بعد ، الصورة البصرية الموجودة في الوعي ، بل هو مجرد حلقة وسطى بين الشيء الخارجي والصورة في الوعي . ونحن لا نعرف بعد فيما اذا كان الوعي

ينقل الانعكاس الى الشبكة حين تتكون الصورة فيه ، أو يأخذ الصورة من الشبكة بعد انعكاسها عليها•وعلى كل فلدينا مجموعة مؤلفة من ثلاثة أمور مرتبطة فيما بينها ، وهي : ١ : ـ الشيء الخارجي ، ٢ : ـ الانعكاس على الشبكية ، ٣ : ـ الصورة في الوعي • المهم الآن هو السؤال التالي : هل تتشابه الصورة في الوعي مع الشيء الخارجي أم لا ؟ وتتأتى صعوبة الجواب من أننا لا نعرف الشيء بذاته بشكل مستقل عن صورته في الوعي التي تكونت فيه بشكل مباشر، ولا بد للاجابة على السؤال المذكور من اللجوء الى وسائل وسيطة •

لنأخذ عدسة عادية محدبة الجانبين ، ولنحدث بواسطتها انعكاساً على شاشة الجسم الذي نجري عليه تجربتنا • ان الانعكاس على الشاشة ، والجسم الخارجي ، متشابهان طبقاً لقوانين العدسات • وبالاضافة الى هذا ، فاننا نتأكد من تشابههما عن طريق مقارنة أحدهما بالآخر مباشرة : فالانعكاس على الشاشة ، والجسم المنعكس ، هما ، بالنسبة للعين ، شيئان خارجيان على حد سواء • ومن تشابه الاحساسات التي يولدها كلاهما في الجهاز البصري نستطيع القول بأنهما متشابهان • وبما أن عدسة العين تعمل كالعدسة العادية (ويمكن اقامة البرهان على هذا بالتجارب) فان الانعكاس الذي تنقله عدسة العين الى الشبكية مشابه للشيء الخارجي • وعندما ننظر الى الشاشة ، فاننا نرى عملياً ذات الجسم المنعكس على الشبكية ، وذلك لان كلا الانعكاسين حادثان بموجب عمليات فيزيائية واحدة • أما عندما نوجه بصرنا الى الجسم الخارجي ، فان دماغنا آنذاك ، يتفاعل مع الصورة الحادثة في الوعي ، وبالتالي ، فاننا عندما ننظر الى الشاشة ، والى الجسم الخارجي ، نقوم ، في الحقيقة ، بمقارنة بين الانعكاس على الشبكية وبين الصورة الحادثة في الوعي • فماذا تعطينا هذه المقارنة ؟ ان سيتشينوف يلخص نتائج هذه المقارنة بما يلي : « ان المثلث والدائرة واطار النافذة والهلال الخ•••المعكوسة في الشبكية يتحسسها الوعي كما هي عليه : أي كمثلث ودائرة واطار وهلال الخ ••• والصورة الغبشاء في الشبكية تظهر في الوعي غبشاء كذلك • والنقطة الثابتة ترسم في الوعي ثابتة أيضاً ، والطير الطائر يرتسم في الوعي متحركاً • وأماكن الانعكاس الضعيفة الانارة توعى

بشكل غير واضح ؛ أما النقاط المتألقة فتبرز في الوعي ناصعة • وبكلمة واحدة ان الوعي بالنسبة الى الصور على الشبكية مرآة لا تقل صدقاً عن الشبكية والاجهزة العاكسة في العين ، بالنسبة الى الشيء الخارجي • فاذا كان الامر الاول في المجموعة السابقة مشابهاً للثاني ، والثاني مشابهاً للثالث ، كان الاول مشابها للثالث كذلك • وهذا يعني أن الشيء الخارجي غير المعروف ، أو الشيء بحد ذاته ، مشابه لصورته المنعكسة في الوعي[1] • والاحساسات البصرية تعطي صوراً صحيحة لا لشيء واحد فقط ، بل ولمجموعة من الاشياء المدركة• ولكي نتحقق من هذا يمكن استعمال المحاكمة المذكورة من قبل باعتبار أن المجموعة هي شيء واحد مركب ، مؤلف من أجزاء مختلفة • ولكن هل تعكس العين بأمانة أوضاع الاشياء المكانية ؟ ان العلم يجيب بالايجاب في هذا المجال أيضا • فلكي نقدر وضع الاشياء المكاني وبعدها عنا ، ننقل البصر ، بالتوالي ، من شيء الى آخر ، محولين محور العين نحو الانف الى هذا الحد أو ذاك • فاذا كان الشيء قريبا حولنا المحور تحويلا شديدا ، أما اذا كان أبعد حولنا المحور تحويلا أقل • ان الاحساس المرتبط بتقليص العضلات التي تحرك العين يسمح لنا بتقدير زوايا الدوران ، وبهذا الامر يرتبط ارتباطا مباشراً احساس بعد الشيء عنا • الواقع أن الانسان عندما يشمل ببصره المنظر المحيط به ، تقوم عيناه بعمليات هندسية كالتي يقوم بها الطبوغرافيون عند ما يمسحون الارض طبوغرافيا • وكما أن المخططات الهندسية الطبوغرافية تعطينا صورة صادقة عن أوضاع الاشياء المكانية ، كذلك فان الاحساسات البصرية تعطيناصورة حقيقية ، بوجه عام ، عن تلك الاوضاع • الواقع أن تقدير الادوات الهندسية للزوايا يحدث بصورة أدق من تقدير العضلات المحركة للعين • ولهذا فصورة المنظر الحادثة بواسطة العين تكون أقل دقة، وهو أمر يتبدى خاصة عندما تكون الاشياء مغرقة في بعدها • ولكن العين ، على العموم ، تعكس الواقع بشكل حقيقي في هذا المجال أيضا • وبالامكان أيضا تبيان أن العين تعكس المقادير النسبية للاجسام عكسا صحيحا تقريبا •

---

(١) ستشبنوف : « المنتخبات الفلسفية والنفسية » ص ٣٢٣ •

ان الواقع التالي يثبت ، بصورة عامة، صحة انعكاس العالم الخارجي في الاحساسات البصرية • فالانسان المندفع بسرعة كبيرة بين أجسام محيطة به ومبعثرة كثيراً في طريقه ، وغالبا ما تكون ذات أشكال كثيرة التعقيد ، يستطيع تجنب العوائق بنجاح بفضل ارشاد عينيه له • هذا النجاح لا نحوزه الا اذا قامت العينان بعكس أشياء العالم الخارجي عكسا صحيحا وبسرعة كبيرة • وهناك احساسات أخرى هي انعكاسات العالم الخارجي وصوره • ولهذا يمكن الحديث عن « صور » صوتية وضوئية لعمليات العالم الخارجي • ان احساساتنا الصوتية تعكس بأمانة حركات الاجسام الصوتية • ويمكن الحكم على صحة هذا الواقع بالاعتماد على ما تبينه الاجهزة الفيزيائية التي تسجل حركات الاجسام الصوتية تسجيلا دقيقا • فما يكاد ينبعث صوت الجسم حتى ينشأ الاحساس بالصوت • ومع انقطاع الحركات الصوتية يتوقف الاحساس الصوتي • وفي الوقت الذي تتغير فيه الحركات الصوتية شدة وذبذبة وتواصلا، تتغير الاحساسات الصوتية ارتفاعا ونغمة وطولا • والفرق في جرس الصوت المدرك يتجاوب والفرق الموضوعي في طابع الحركة الصوتية ••• الخ •

ويتمتع الاحساس (والادراك) ، باعتباره شكل انعكاس العالم ، بصفتين هامتين : أولاهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس مباشر للعالم المادي (فبين الاحساس، باعتباره عنصر الوعي ، وبين الواقع الموضوعي الذي يعكسه لا توجد أية حلقات وسيطة.) • وثانيتهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس الخواص المعينة لأجسام مادية حسية : عبارة عن انعكاس لا اللون بشكل عام ، بل انعكاس لون جسم معين ، في وقت معين ، وفي ظروف معينة ، عبارة عن انعكاس لا الوزن بشكل عام ، بل انعكاس وزن جسم معين ، في وقت معين ، وفي ظروف معينة ••• الخ •

ليس الانسان كائنا بيولوجيا فحسب ، بل وكائنا اجتماعيا • وأعضاء حواس هذا الانسان ليست نتاج التطور البيولوجي فحسب ، بل ونتاج التطور الاجتماعي أيضا • ان الانسان اذ يعمل ، ويؤثر على الطبيعة ، يتغير هو نفسه ، في الوقت ذاته ، وتتغير أعضاء حواسه • فعين النسر تبصر الى أبعد مما تبصر

عين الانسان المجردة ، ولكن عين النسر لا تميز واحداً بالمائة مما تستطيع رؤيته عين الانسان • ان البصر والسمع ، والشم ، واللمس ، هي نتاج تطور الانسان التاريخي ، نتاج تلاؤمه مع شروط وجوده ، مع خصائص نشاطه العملي • والقدرة على التحسس والادراك عطاء في حوزة الناس جميعا • الا أن الفنان قادر ، بفضل خبرته العملية ، على تمييز فروق دقيقة في الالوان أعظم مما هو في استطاعة الناس الآخرين • ثم ان سمع العديد من الحيوانات قادر على استرقاق ما لا يكاد يسمع من الاصوات ، الا أن الانسان المتطور في مجال الموسيقى ، قادر على سماع عدد من الاصوات أكبر بما لايقاس مما تسمعه أغنى آذان الحيوان حساً كأذان الكلب مثلا •

ان ادراك الانسان للعالم ليس هو ادراكا تأمليا سلبيا ، ليس هو ادراكا انعكاسيا جامداً • انه ادراك فعال • فالانسان يتحسس ويدرك أشياء العالم المحيط به وظواهره ، في سياق العمل ، وفي سياق النشاط الاجتماعي المحوّل للعالم ، مما يتيح له التعرف على العالم بشكل أعمق • وتلعب دوراً في سياق ادراك الانسان للعالم المحيط به لا أعضاء حواسه والاشياء المدركة من قبله فحسب ، بل وجميع ما كدسه الانسان والانسانية من تجربة تاريخية أيضا •

ونحن غالباً ما نكون على صلة بالكثير من أشياء الوسط المحيط بنا • وقد أصبح دماغنا ، بفضل الادراك المتكرر المتعدد لأشياء بعينها ، قادراً على استحضار صورة كاملة للأشياء لا ، فقط ، عندما تبعث فينا مباشرة مجموع تلك الاحساسات التي هي قادرة بشكل عام ، على بعثها فينا ، بل وعندما تبعث فينا ، عملياً ، بعض فئات هذه الاحساسات فقط • فعندما أنظر ، مثلا ، الى شمعدان معدني أعرفه ، فانني أدركه لا كشيء يتمتع فقط بشكل خارجي معين ، بل وكشيء صلب ، بارد ، ثقيل • ان الشمدان في اللحظة الراهنة ، لا يبعث في ، مباشرة ، لا احساسات لمسية ولا حرارية ولا وزنية ، ما دمت لا ألمسه • الا أن هذه الاحساسات قد سبق أن نشأت في الماضي ، لا نتيجة النظر اليه ، بل نتيجة أخذه بيدي ، وتحسسه ، وتقدير وزنه • وبفضل ذلك تكونت في وعيي مجموعة ثابتة من الاحساسات التي تشكل صورة للشيء ككل ، تشكل فكرة عنه • فما

أن أرى الشمعدان الآن ، وتنشأ لدي احساسات بصرية فقط ، حتى تنشأ أيضاً عندي ، بالتداعي ، صورة عن الخصائص الاخرى لهذا الجسم •

وهكذا فالدماغ قادر على اعطائنا فكراً ، صوراً عن تلك الاشياء في الوقت الذي لا تثير فينا احساسات عنها • وهذه الصور ، تبدو ، وكأنها نتاج النشاط الاعتباطي للوعي • الا أن الامر على خلاف ذلك • فلا يمكن أن تتكون الا صور تلك الاشياء التي أثارت فينا ، عمليا ، في وقت ما ، احساسات طبعت آثارها في دماغنا • ان الصور التي تقوم على الاحساسات والادراكات هي انعكاسات وصور للعالم المادي ؛ شأنها شأن هذه الاحساسات والادراكات •

ولكن كيف نفسر ما ينشأ عن النشاط النفسي للدماغ من صور تمثل مخلوقا نصفه انسان ونصفه الآخر حصان ، أو تمثل عروس البحر التي نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة ؟ ان أمثال هذه المخلوقات لم يرها ولم يلمسها انسان على وجه البسيطة،وهي لم تثر فينا أية احساسات لسبب بسيط هو أنها غير موجودة • ومع هذا فان صورها الذهنية موجودة • أولا يدحض هذا الفكرة المادية القائلة بأن الاحساسات ، بأن الادراكات ، والصور عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي ، عن انعكاس العالم المادي ؟ كلا وألف كلا • تشهد على ذلك بوضوح تلك الاجزاء التي يتألف منها جسم عروس البحر والحصان ـ الانسان • ان الناس الذين لم يقدر لهم أن رأوا الحصان والسمك، لايمكنهم أن يكونوا صورة عروس البحر والحصان الانسان •

لما كانت الصور غير مرتبطة بتوفر الاحساسات في وقت معين ، فهي تتمتع باستقلال نسبي ، ويمكن أن يمتزج بعضها ببعض كيفيا في الدماغ • ويستطيع خيال الانسان أن يجمع بين عناصر أكثر الصور تباينا ، هذه الصور التي تكونت على أساس ما كان من احساسات وادراكات في وقت ما • الا أن هذه العناصر كلها ، ليست في نهاية المطاف ، غير انعكاس للواقع الموضوعي •

وحتى التصورات الخيالية التي لا تعرف حداً لا تنفصل عما تتحسسه الاحساسات عند عكس هذه للعالم الخارجي • وما نتاج التصورات الخيالية الانسانية، مهما كانت

عليه من بعد عن الحقيقة الا انعكاسا صحيحا أو مشوها عن الواقع • بين التصورات المشوهة للواقع نجد الشيطان والجن ومختلف كائنات ما وراء الطبيعة • ونحن واجدون ، حتى في هذه الصور التخيلية ، سمات انسان الارض • فالجن والشياطين وكائنات ما وراء الطبيعة الاخرى تعزى اليهم هذه الخصائص الانسانية أو تلك ، ولكن في حدها الاعظمي من الافراط •

ان أشياء العالم الخارجي وظواهره تنعكس في التصورات ، خلافا للاحساسات والادراكات ، لا بجميع الخصائص الفردية العديدة ، بل تنعكس فيها من دول تفاصيل كثيرة • ففي التصور تحتل المكان الاول من الوضوح بعض السمات النموذجية العامة للاشياء والظواهر المتشابهة • ثم ان التفكير الذي يستخدم المفاهيم أداة له ، هو ، أيضا ، انعكاس للعالم الخارجي • وهذا الشكل من انعكاس العالم غير ممكن من غير احساسات أيضا • الا أن التفكير ، خلافا للاحساسات والادراكات والتصورات ، لا يتمتع بطابع حسي مجسد ، وهو لا يعكس الاشياء والظواهر المنفردة فحسب ، بل ويعكس ، بصورة رئيسية ، ما هو عام في الاشياء والظواهر ، يعكس جوهرها الداخلي ، والصلات والقانونيات الخاصة بها • ويحدث هذا الانعكاس المعمم للواقع عن طريق التفكير المجرد بمساعدة المفاهيم •

لنأخذ ، على سبيل المثال ، مفهوم « الكتلة » • هذا المفهوم ، هو ، من حيث المحتوى ، انعكاس للخاصة الموضوعية العامة التي تتمتع بها جميع الاجسام المادية بدون استثناء (الكبيرة منها والصغيرة الملساء والخشنة ، والسوداء والبيضاء ، والباردة والحارة ، وذات الرائحة والخالية من الرائحة) ، وهي خاصة تنحصر في أننا ، اذا أردنا أحداث تغيير معين في سرعة هذه الاشياء ، في فترة زمنية معينة ، لا بد لنا من أن ندفعها بقوة معينة • ان خصائص الاجسام لا أهمية لها في هذا المجال ، كما لا أهمية لاختلاف نوعية القوى التي تدفع هذه الاجسام • بيد أنه كي نتوصل الى استيعاب وجود خاصة عامة في الاجسام تنعكس في مفهوم الكتلة ، لا بد للاحساسات أن تعكس في دماغ الانسان ملايين الحوادث الحسية لتبدل سرعة الاجسام تحت تأثير القوى المختلفة •

ان جميع النظريات العلمية بحق هي انعكاس صحيح للعالم المادي ، مهما كانت عليه هذه النظريات من التجريد من حيث الصيغة • لنأخذ نظرية القيمة القائمة على أساس العمل • فمقولة القيمة عبارة عن تجريد ، ولكنها تعكس ، بعمق ودقة ، جوهر ظواهر المجتمع الرأسمالي السلعي ، تعكس العلاقات بين منتجي السلع • انها ، وحدها ، القادرة على تمكيننا من فهم مصدر فضل القيمة ، في الرأسمالية ، والعلاقات المتبادلة بين البروليتاريين والرأسماليين • أو لنأخذ نظرية حركة « السائل المثالي » في علم السوائل • ان السائل المثالي هو السائل الذي لا يحوز احتكاكاً داخليا (لزوجة) ، ولا ينقل الحرارة • هذا السائل بالذات لا وجود له في الطبيعة • فهل يعني ذلك أن نظرية حركة هذا السائل لا تعكس أي شيء واقعي ؟ كلا لا يعني ذلـك • ففي شـروط معينـة تكون اللزوجة ، في بعض السوائل ، ضئيلة الى درجة لاتؤثر معها ، تأثيراً أساسيا ، على طابع حركتها • كذلك القول بالنسبة الى نقل الحرارة • فمفهوم السـائل المثالي يبـدو ، اذن ، انعكاسا لسائل حقيقي في مثل تلك الظروف بالذات ، وتبدو النظرية انعكاسا لجريان سائل حقيقي •

يقول لينين : « ان نظرية الفيزيائيين عبارة عن انعكاس للأجسام والسوائل والغازات الموجودة خارج وعينا ، وبشكل مستقل عنه • بيد أن هذا الانعكاس تقريبي ، طبعا ، ومن الخطأ تسمية هذا « التقريبي » أو المبسط « تعسفاً[1] » وهذا ينطبق أيضا على جميع النظريات العلمية في الفروع الاخرى من المعرفة •

ان انعكاس العالم في التفكير المجرد ليس انعكاسا مباشراً ؛ وذلك لقيام الاحساسات والادراكات والتصورات بين التفكير والواقع الموضوعي •

وتحصل المعرفة الصحيحة المتكاملة الاطراف نتيجة عمل فكري طويـل شاق • وربما عبر بعض الأخطاء ، مثل مفهوم « المادة الحرارية العديمة الوزن» ومفهوم المادة النارية التي هي أساس الاحتراق في كل جسم قابل للاشتعال ، وهما المفهومان اللذان وجدا في ز من ما • ولكن حتى في مثل هذه المفاهيـم

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٥٣ •

الخاطئة انعكست بعض خصائص الظواهر الواقعية • هكذا انعكست في مفاهيم « المادة الحرارية العديمة الوزن » بعض خصائص التيارات الحرارية مما أتاح وضع نظرية نقل الحرارة التي احتفظت أفكارها الاساسية بأهميتها حتى الآن •

كيف نتمكن من تمييز المعرفة الصحيحة ، والانعكاس الصحيح ، للعالم المادي ، عن الاخطاء والتخبط ؟ ترى هل في حوزة الانسانية وسيلة دقيقة للتأكد من صحة عكس الوعي للواقع ؟ نعم • ان هذه الوسيلة هي نشاط الناس العملي • وسنعالج في الفصل التاسع مقياس الحقيقة ، ونوضح ديالكتيك المعرفة، وقوانين تطورها •

يقول لينين : ـ ان أهم ميزة يتميز بها المادي عن المثالي ، هي أن الاحساس ، ان الادراك ، ان التصور ، وبصورة عامة ، وعي الانسان ، ينظر اليه على انه صورة للواقع الموضوعي • ان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا • وحركة التصورات ، والادراكات ••• الخ تتلاءم وحركة المادة خارج ذاتي »[١] •

لا شك أن مقدرة الدماغ على عكس العالم الخارجي في الاحساسات والتصورات والمفاهيم مدهشة الى حد أن المثاليين جعلوا الوعي في وضع فريد بالنسبة الى ظواهر العالم كلها ، فمنحوه قوة خارجة عن الطبيعة الى حد التاليه• ولكن الوعي لا يتضمن أي شيء خارج عن الطبيعة • انه خاصة من خواص المادة • صحيح أنه خاص بالاجسام المادية الرفيعة التطور ولكن هذا لا يعني أنه ينشأ في المادة المتطورة نشوءً مفاجئاً دون أن تكون له أسس في خصائص أخرى للمادة أكثر بساطة •

وينشأ الاحساس ، قانونيا ، عن تطور وتكامل امكانية الانعكاس الخاصة بالمادة كلها • وقد أشار لينين الى أنه لا صحة للظن بأن كل مادة هي «واعية»• غير أن « من المنطقي الافتراض بأن المادة بمجملها تحوز خاصة قريبة من الاحساس ، من حيث الجوهر ، هي خاصة الانعكاس »[٢] •

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤ •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٨١ وكذلك ص ٣٤ •

فما هي هذه الخاصة ؟ ان جميع الاجسام المادية بلا استثناء ، يؤثر بعضها في الآخر ، الى هذا الحد أو ذاك • وأبسط شكل لهذا الانعكاس الملازم للمادة كلها ، هو تبدل يطرأ على بعض الاجسام المادية تحت تأثير بعضها الآخر ، تنطبع بواسطته (التبدل) خواص التأثيرات الخارجية في الاجسام المادية • مثل هذا الشكل من الانعكاس معروف بوضوح في الطبيعة اللا عضوية كانعكاس الاشياء في المرآة • ان جوهر هذا الانعكاس قائم في اعادة توزع أشعة الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة • فاعادة توزع الاشعة المكاني عبارة عن رد فعل الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة • وفي خصائص اعادة توزع الحزمة الضوئية تنطبع خصائص الاجسام المعكوسة • ان تبدل خواص الحديد تحت تأثير الحقل المغناطيسي هو أيضا شكل خاص من الانعكاس • وتبدل خواص الحديد هو رد فعله على التأثير الخارجي ، وفي مغنطته تنطبع خصائص هذا المؤثر الخارجي •

ان طابع الانعكاس الناجم عن التأثيرات الخارجية يتحدد بطبيعة التأثيرات كما يتحدد بخصائص الجسم المعاكس ، بخصائص نوعيته • ويؤدي نشوء الاجسام المادية المتزايدة باستمرار في تعقيدها ، والقادرة على الدخول في صلات وتأثيرات متبادلة متزايدة التعقيد مع الاجسام الاخرى ، يؤدي الى ظهور أشكال انعكاس جديدة أكثر تعقيداً • ان شكل الانعكاس الذي يلائم أبسط الاجسام المادية المعروفة ، هو الشكل الفيزيائي المعبَّر عنه بتغير وضع هذه الاجسام الفيزيائي ، وبظهور ردود فعل فيزيائية ذات علاقة قانونية بالتأثيرات الخارجية المذكورة أعلاه • هكذا يجيب الاليكترون على تأثير الساحة الكهربائية الخارجية عليه ، بتغيير السرعة (بالتسارع) ، بتغيير بنية ساحته الخاصة ، بقذف أشعة كهرطيسية • في هذه التبدلات تنطبع خصائص الساحة المؤثرة ، انطباعا محدداً• ويمكن الحديث ، في مجال العمليات الكيميائية ، عن شكل كيميائي خاص للانعكاس • ومع نشوء الاجسام الزلالية ظهر شكل جديد للانعكاس خاص بها ، هو الحساسية • ان الزلاليات تتمتع بلدانة عظيمة وتتأثر كل التأثر بالوسط الخارجي • فبعض التأثيرات تحدث تبدلا شديداً الى هذا الحد أو ذاك ، في

الخصائص الفيزيائية والكيميائيةللزلاليات (تحدث « تغيراً في طبيعةالزلاليات » دائمياً أو مؤقتاً) • وتحدث تأثيرات أخرى جِدّ دقيقة في بنية الزلاليات وفقا لظروف الوسط الجديدة ، كما تظهر خصائص وسائطية جديدة (أي خصائص التسريع أو الابطاء الشديد لجريان التفاعلات الكيميائية) ، وهي خصائص تتصف بطابع التكيف مع الظروف الخارجية المتغيرة • ان أحد مظاهر حساسية الاجسام الزلالية هو قدرتها على تغيير أحجامها وشكلها تحت تأثير العوامل الخارجية ، وهذه القدرة مرتبطة بوجود أجزاء خاصة في بنية الجسم الزلالي ، وهي مجموعات متفاعلة أو وظيفية •

ان ظهور المادة الحية قد صوحب بظهور شكل بيولوجي من أشكال الانعكاس أكثر تعقيداً هو قابلية التأثير أو (الانفعال) • وليست حساسية الجسم الزلالي بالنسبة لشكل الانعكاس هذا الآ عبارة عن « سلفه الكيميائي» • ان قابلية التأثير هي قدرة كل ما هو حي على الاستجابة للمؤثرات الخارجية بنشيط أو تثبيط تبادل المواد وبتغيير سرعة النمو وبتغيير المكان وما شابه ذلك• مما يؤدي الى تكيف العضوية مع ظروف الوسط المتغيرة • ان تطور الحياة قد أدى خطوة فخطوة الى تعقيد هذا الشكل من الانعكاس •

وعلى أساس التخصص المتزايد في وظائف مختلف أنسجةوأجزاء الجسم أخذت العضويات خلال ارتقائها تتوصل الى درجات أعلى فأعلى من الكمال في عكس ظروف الوسط الخارجي • وقد رافق هذا تغير بنية العضويات نفسها ، هذا التغير الذي جرى طبقا لظروف الوسط المحيط •

ان العضوية والوسط ـ يشكلان وحدة • ويعتبر هذا القول الموضوعة العظيمة الاهمية في تعاليم ميتشورين حول تطور الطبيعة الحية • وهي تسمح بدراسة الانعكاس البيولوجي من وجهة نظر جد عريضة • اذ لا ينبغي اعتبار أن الانعكاس البيولوجي هو فقط هذه الاستجابات الحسية أو تلك التي تقوم بها العضويات متأثرة بمؤثرات معينة من الوسط الخارجي في لحظة معينة ، بل انه العملية الارتقائية اللا متناهية بمجملها لتطور العضويات والتي تتكيف خلالها هذه العضويات طبقا لظروف الوسط الخارجي المتغيرة •

ومع ظهور جهاز عصبي متطور لدى العضويات، ناشيء عن تلك الانسجة التي تخصصت في نقل التأثرات ، اتخذ العكس البيولوجي صفات جديدة ذات أهمية مبدئية • وبالطبع فان جوهر العكس البيولوجي لم يتغير ، فهو لا يزال كالسابق يقوم في ايجاد الصلة بين العضوية والوسط ، تلك الصلة التي يعتبر وجودها سبباً في توافق خواص العضوية وسلوكها مع الوسط • ولكن عند توفر جهاز عصبي مركزي فان صلات العضوية مع الوسط لا تقوم فقط من خلال عوامل الوسط التي تتصف بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان • اذ أنها الى جانب ذلك تقوم أيضا من خلال العديد من العوامل التي لا تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة • وهذه الاخيرة هي بمثابة الانذارات والاشارات الدالة على ظهور العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان • ان مثل هذه الصلات تقوم خلال التطور الفردي للحيوانات في حالات يكون فيها تأثير عامل ما من العوامل التي ليس لها أهمية بيولوجية مباشرة سابقا ، لسبب من الاسباب، موافقا لتأثير عامل ما من العوامل التي لها أهمية بيولوجية جوهرية ويكون سابقا بشكل مباشر • واذا تكرر هذا التوافق عدداً كافياً من المرات فانه يصبح من الكافي وجود العامل الثاني وحده دون وجود العامل الاول لكي يظهر لدى الحيوان رد الفعل الذي يثيره لديه العامل الاول المتمتع بأهمية حيوية مباشرة بالنسبة اليه • فاذا نحن مثلا أشعلنا مصباحا أمام كلب قبل أن نقدم له الطعام مباشرة فانه بعد عدد من المرات يتكرر فيها هذا التوافق بين تقديم الطعام واشعال المصباح سيصبح لعاب الكلب يسيل حتى عند اشعال المصباح وحده بدون ظهور الطعام • ان اشعال المصباح ، وهو أمر لا يتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة ويعتبر بالنسبة للكلب شيئاً لا معنى له البتة ، قد أصبح في مثل هذه الظروف بمثابة شارة لظهور الطعام ــ وهو عامل له أهمية بيولوجية مباشرة • ان هذه الشارة تستدعي رد الفعل نفسه الذي يستدعيه العامل المشار اليه بالمصباح • ان ردود الفعل الجوابية لدى الحيوانات لا على العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بل على شاراتها التي نشأت لدى كل حيوان خلال حياته المنفردة على أساس تجربة وجوده في ظروف معينة قد اكتشفت من قبل

العالم إ. ب. بافلوف ، الذي سمّى هـذه الردود بالافعـال المنعكسة الشرطية. ولم يكن العلم يعرف قبل بافلوف الا الافعال المنعكسة الفطرية التي سـماها بافلوف : الافعال المنعكسة اللا شرطية . وهي عبارة عن ردود الفعل الجوابية التي تقوم بها الحيوانات تحت تأثير العوامل البيولوجية المباشرة ، وهي الردود التي نشأت خلال التطور الارتقائي للحيوانات من نـوع معين ، والتي تثبتت بقوة وأصبحت تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل . ومن جملة الافعال المنعكسـة اللاشرطية مثلا افراز اللعاب لدى الحيوانات عند تناول الغذاء ، ورف الجفون عند ظهور شيء ما بشكل مفاجىء أمام العين وهلمجرا . ان الافعـال العكسية اللا شرطية الاكثر تعقيداً تدعى بالغرائز . وكلمة « شرطية » تشـير الى أن رد الفعل المعين لدى الحيوان يمكن أن يظهر في ظروف موافقة بواسطة أي عامل آخر لا أهمية بيولوجية له لو أن تأثيره اتفق زمنيا مع تأثير عامل بيولوجي . ان الافعال المنعكسة الشرطية غير ثابتة ومتغيرة . فبعضها يمكن أن يختفي اذا كفت الشروط التي خلقته عن التكرار ، وبعضها يمكن أن يظهر وفقا للظروف المتغيرة في حياة الحيوان . وبمساعدة هذه الافعال بالذات يحدث التكيف عـلى الوجه الأكمل مع الوسط المحيط لدى الحيوانات العالية التطور . أما الافعال المنعكسة اللا شرطية فانها ثابتة وسائدة بالنسبة لكل النوع المعين من الحيوانات بأكمله ، وهي بمثابة الاساس الذي تتشكل عليه الافعال المنعكسة الشرطية . ولا يوجد بين الافعال المنعكسة الاولى والثانية حد مطلق لا يمكن تجاوزه . فقد أشار بافلوف الى أن هنـاك امكانية تحول الافعال المنعكسة الشرطية الى لا شرطية .

ان مجموعة الافعال المنعكسة الشرطية واللا شرطية لدى الحيوانات ليست الا أعلى شكل لعكس هذه الحيوانات لظروف وجودها . ففي الافعال المنعكسة اللا شرطية ينعكس ما هو دائم أبدا تقريبا خلال حياة النوع . أما في الشرطية فينعكس تنوع العوامل المتغيرة التي تؤثر على الحيوان وتنـوع علاقاتـه مـع الوسط . ان انعكاس العالم في الافعال المنعكسة يخضع لقنونات خاصة يتحدث عنها بافلوف في تعاليمه المتعلقة بالافعال المنعكسة الشرطية والنشاط العصبي ، وهي تعتبر انجازاً عظيما في العلم الطبيعي المعاصر .

ان الفعل المنعكس الشرطي يتميز عن غيره من أشكال الانعكاس الملازمة لانواع المادة المختلفة من حيث تعقيدهـا ، يتميز بأهمية خـاصـة تقـوم في : ١ً ـ ان الفعل المنعكس الشرطي هو شكل من نشاط القسم الاعلى من الجهاز العصبي المركزي للحيوانات ـ أي نشاط دماغها • و ٢ً ـ أن الفعل المنعكس الشرطي ليس عملية فيزيولوجية محضة بل هو الى جانب ذلك ظاهرة نفسيـة كذلك • انه أبسط الظواهر النفسية • ومع سير تطور العالم الحيواني ، ارتقى النشاط الانعكاسي الشرطي رلمدماغ وتعقد تدريجياً • ولكن هذا النشاط لميكن مجرد نتيجة منفعلة لهذه العملية البيولوجية الارتقائية • فما ان نشأ هذا النشاط حتى أصبح قوة فاعلة في تلك العملية • وبفضل توفر انعكاس الواقع في ردود الفعل الشرطي تكونت ظروف جد ملائمة لتسير مع تطور العالم الحيـواني • وبذلك تأمنت اعادة تكون البنية العضوية ووظائفها ، تكونا سريعا متلائمـا مع شروط الوسط المحيط • وبهذا اقترب الزمن الذي ظهر فيه الانسان ، لاول مرة ، على الارض مع الوعي الذي يلازمه باعتباره شكلا انسانيا خاصاً لانعكاس الـواقـع •

لنر الآن الصفات المميزة لهـذا الشكل الجديـد من الانعكـاس • ان الحيوانات تعكس الوسط الخارجي حسب متطلباتها البيولوجية المحضة فقط ، أي ما يرتبط بالدرجة الاولى ، بالشروط البيولوجيةالأساسية لوجودها• وهي لا تعكس من الظواهر العديدة الاخرى ، ظواهر العالم المحيط بها ، الا ما أصبح شارة لتلك الشروط البيولوجية • هذا الانعكاس ليس نتاجاً للـوعي • ويلعب الانعكاس بواسطة الشارات أهم دور فيه •

ان الظواهر ذات الطابع غير البيولوجي عندما ترتبط في علاقة زمنية مع الظواهر البيولوجية تصبح بمثابة شارات للواقع • وقـد سمى « بـافلـوف » مجموع هذه الشارات التي تعبر عن غنى العلاقات بين الحيوان وبين الظروف الخارجية باسم نظام الشارات الاول • وهو النظام الوحيد الذي يتوفر لـدى الحيوانات • وبما أن الاجسام والظـواهر الملموسة هي ، وحـدها ، التـي

تشكل أساس شارات هذا النظام ، لـذا فـان عالم الحيوانات النفسي القائم على أساس النظام المذكور ،يعتبر انعكاسا حسيا ملموسا حتى في أكثر أشكالهتطورا•

هذا النظام الاول لا تستقل به الحيوانات فقط بل ويشاركها فيه الانسان أيضا • وهو يلعب الدور الاساسي في سني الطفل الاولى ، كما يتمتع بأهمية بالغة عند اليافعين • غير أن هذا النظام ليس بالنظام الوحيد عند الانسان • انه أعجز من أن يشمل كل غنى شكل انعكاس الواقع لدى الانسان • ان الدور الحاسم هنا يقع على عاتق نظام الشارات الثاني ، الذي يميز ، جذريا ، أسلوب الانعكاس الخاص بالانسان ، عن أسلوب الانعكاس الخاص حتى لدى أكثر الحيوانات تطورا • ويتكون النظام الثاني من الكلمات المسموعة والمرئية ، أي من الكلام البشري • ان الكلام عبارة عن وسائـل اثـارة حقيقية ، شأنها شأن وسائل الاثارة الخارجية الاخرى ، ولكنها تتميز عن غيرها باستخدامها كتفسير ، وكشارات لتلك الاجسام أو الظواهر التي تؤلف نظام الشارات الاول ، أي انها تصبح شارة الشارات •

يقول « بافلوف » : « ان الانسان يتمتع ، بنظام شارات آخر هو شارة نظام الشارات الاول ، أي يتمتع بالكلام ••• وبهذا يضاف عامل جديد للنشاط العصبي ،عامل تجريد وتعميم شارات النظام السابق التي لاحصر لها،عامل يحدد شروط قدرتنا اللا محدودة على توجيه أنفسنا في العالم المحيط بنا ، ويشكـل ، العلم المعتبر درجة رفيعة من تلاؤم الانسان مع الوسط المحيط به . »(١) •

ويتبين من الدور الذي تلعبه الكلمة،يلعبه الكلام،بالنسبة لنظام الشارات الاول (شارة الشارات) ، أن كلا من هذين النظامين يعمل ، لا بشكل مستقل عن الآخر ، بل في صلة وثيقة معه ، وبصورة متفاعلة • ولا ينمو نظام الشارات الثاني الا على أساس الاول ، ويتأثر بخصائصه ، كما أن الاول يتكون ، نتيجة لوجود الثاني ، كانعكاس حسي مَوْعيّ •

ان كل ما يعكسه نظام الشارات الاول ، وما يدل عليه الكلام فيمـا بعد ، يصبح مَوْعيّاً • والطابع الموعى الذي يتسم بـه الانعكاس الانسـاني يعتبر

(١) « بافلوف » : « المجموعة الكاملة » الجزء الثالث ، الكتاب الثاني ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ •

الخاصة الاساسية في هذا الانعكاس،التي تميزه عن الانعكاس الخاص بالحيوان. ومن أجل ابراز هذه الخاصة يسمون الانعكاس الانساني بالوعي .

ثم ان شكل الانعكاس الانساني (الوعي) يتمتع بسمة هامة أخرى ، تقوم على أن الوعي عامل فعال جداً في تأثير الانسان على الطبيعة في مجال العمل. فبفضل العمل يتلاءم الانسان مع الشروط الخارجية لا بتغيير نفسه وأعماله فحسب ، بل وعن طريق تغيير الشروط الطبيعية الخارجية . ان الحيوانات لا يعدو نشاطها حد التلاؤم مع العالم الخارجي . أما وعي الانسان الذي هو نتاج ظروف وجوده الاجتماعية والتاريخية ، ونتاج نشاطه الاجتماعي العملي ، فيصبح ذاته عاملا فعالا في النشاط العملي . ان الوعي مشروط بالواقع الموضوعي من حيث مصدره ومحتواه العام . وبهذا المعنى لا يمكن اعتباره شيئاً ما مستقلا تمام الاستقلال عن الواقع الموضوعي . وهو ، بالاضافة الى ذلك ، **ليس مجرد انعكاس لما هو قائم في العالم ، في اللحظة الراهنة ، وفي** الظروف الحالية فقط . فالنشاط الابداعي الذي يقوم به الدماغ يحوّل ، بالاعتماد على قوانين التفكير ، شكل الحاضر الى شكل جديد يتناسب مع ظروف أخرى تحل في المستقبل البعيد أو القريب . وفي هذا ينحصر إستقلال الوعي النسبي . فبامكان الوعي استباق سير الاحداث الفعلي ، والتنبؤ بالنتائج التي ستتجلى عن الاحداث . وهو بهذا يحفز الانسان الى نشاط هادف اما الى بلوغ هذه النتيجة ، أو الى تجنبها . ان النتائج المتوقعة لتطور الاحداث ، وهي النتائج التي يهدف اليها الانسان ، ويلعب نشاطه دورا جوهريا في بلوغها ، يسميها الهدف . ان تحديد الاهداف ، والبحث الفعال عن الوسائل والطرق المؤدية الى بلوغ حتى أبعدها منالاً ، يشكلان السمة المميزة للوعي . وعلى هذا الاساس يقوم نشاط الناس العملي . وقد أصاب هيغل اذ قال : « ان العقل داه بقدر ما هو جبار » . ان دهاءه هو ، على العموم ، في نشاطه المتخذ الوسائل أداة له ، جاعلا الاشياء تتبادل التأثير وفقا لطبيعتها ، محققا الهدف الذي سعى اليه ، دون أن يتدخل مباشرة في هذه العملية » (١) .

---

(١) هيغل : « موسوعة العلوم الفلسفية » موسكو عام ١٩٢٩ ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .

وفي واقع الاستقلال النسبي للوعي يتجلى التناقض الديالكتيكي الخاص به • فكلما اقترب الوعي من الواقع ، وعكسه بدقة وكمال أوفى ، تمتع بدرجة أعظم من الاستقلال ، لأنه بهذ ، يستطيع الابتعاد بقوة أعظم عن الحاضر ، والتطلع تطلعا أبعد الىَ المستقبل البعيد دون أن يفقد محتواه القيم ، دون أن يتحول الى أوهام وتخيلات فارغة •

ان استيعاب الناس لانعكاس العالم الخارجي يخضع سلوكهم لرقابة عقلهم الخاص • فالانسان ليس شيئاً آلياً يخضع لتأثير القوى اللاشعورية،«اللاعقلانية» ولتأثير « الغرائز العمياء » كما يذهب اليه مثلا مذهبفرويد• إن العقلوالارادة يلعبان دوراً عظيماً في مجمل سلوك الانسان • وهذا ما يميزه عن الحيوانات ، ويسمو به عما تبقى من الطبيعة ، التي هـو جزء منها • الا أن الانسـان ليس مجرد كائن طبيعي ، بل هو كائن اجتماعي ، قبل كل شيء • لهذا ، فهو في سلوكه ، كما سنرى ، يتأثر تأثيراً حاسماً بشروط كيانه الاجتماعي بصـورة خاصة • هذه الشروط هي التي تحدد عقله ووعيه وارادته •

ان بحث الطريق التاريخي لتطور خاصة المادة التي سماها لينين خـاصة الانعكاس ، يدفعنا لاستخلاص النتائج التالية :

١ : ـ لم يظهر الوعي الا في مرحلة معينة من مراحل تطور المادة •

٢ : ـ ان الوعي المرتبط ارتباطا وثيقا بأكثر أشكال المادة تطورا ، أي بدماغ الانسان ، هو وظيفة الدماغ المذكور •

٣ : ـ **ان الوعي ، من حيث النشوء** والمحتوى والدور ، هـو أكمـل انعكاس للعالم الخارجي •

٤ : ـ الوعي والانسان هما نتاج العمل ، على حد سواء •

هذه النتائج هي تأكيد لعمق صحة حل القضية الاساسية في الفلسفة الذي قدمته الفلسفة الماركسية • وهي نتائج تثبت أسبقية المادة على الوعي • وهو أمر

لا ينبغي فهمه فقط بمعنى أن الوعي ينشأ عن المادة ، بل وبمعنى أن محتوى الوعي يتحدد بالواقع المادي الذي يعكسه الوعي •

ان تاريخ تطور خاصة الانعكاس تعطينا أيضا جوابا على قضية امكانية معرفتنا للعالم • فاذا كان الوعي قد نشأ وتطور ، منذ البدء ، كخاصة لانعكاس العالم ، وكوسيلة نهتدي بواسطتها ، ونحدد ، على أساسها ، سلوكنا في الواقع المادي المحيط بنا ، فان واقع سلوكنا السليم انما يتحدث عن أن الوعي المختبر بالتجارب العملية هو انعكاس صحيح للواقع •

٣ : ـ نقد « نظرية الرموز »

تطابق انعكاس العالم في الوعي مع الواقع

ان القول بأن الوعي هو انعكاس للعالم المادي يعتبر أساس النظرية المادية الخاصة بالمعرفة • فاذا كان الوعي انعكاسا للعالم الخارجي ، فهو ، بالتالي ، ثانوي بالنسبة الى أولوية هذا العالم الموجود بصورة موضوعية ، مستقلا عن الوعي • ذلك أن الانعكاس لا يمكن أن يوجد من غير وجود الشيء المنعكس ، في حين أن الشيء المنعكس يوجد مستقلا عن فعل انعكاسه • والاعتراف بهذا انما يعني نكران وجهة النظر المثالية والاخذ بوجهة النظر المادية •

ان أحد البراهين التي يلجأ اليها المثاليون في محاولتهم دحض نظرية الانعكاس ، يتمثل في هذا الواقع ، مثلا ، واقع أن الاحساسات الضوئية لا تنشأ عن تأثير الضوء على العين فحسب ، بل وتنشأ أيضا عن تأثيرات أخرى ، وخاصة عن ضربة على العين ، أو عن تيار كهربائي • وعلى هذا الاساس ، صاغ الفيزيولوجي الالماني « موللر » نظرية تذهب الى أن الاحساسات لا تتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي بل بأعضاء الحواس ذاتها ، ب « الطاقة النوعية » الملازمة لها • فمهما كان مصدر التأثير على العين ، فان العين ترد ، دائما ، رداً واحداً ، ترد باحساس ضوئي • وهو أمر تتميز به أيضا أعضاء الحواس الاخرى • وهذا يعني ، في زعم « موللر » ، أن احساساتنا ليست انعكاسات للعالم

المادي المحيط بنا. وقد سمي « فورباخ » هذه النظرات بـ « المثالية الفيزيولوجية ». ان النظرات التي يعرضها «المثاليون الفيزيولوجيون » لا يمكن اعتبارها مقنعة .

لقد كان « موللير » على صواب عندما لاحظ الخاصة التي يتميز بها رد الفعل لدى أعضاء الحواس. ولكنه أخطأ عندما فسر هذه الخاصة على أنها خاصة موجودة منذ البداءة . الواقع أن هذه الخاصة ليست مستقلة عن المؤثرات الخارجية ، بل انها مشروطة بطبيعة هذه المؤثرات . وقد نشأت هذه الخاصة نتيجة تطور طويل على أساس تلاؤم وظائف أعضاء الحس مع تأثير مثيرات خارجية معينة . وبالتالي ، فان تكوّن هذه الخاصة ، ذاته ، لدى أعضاء الحواس هو انعكاس لوجود الكائنات الحية . فالعين ، مثلا ، تتلاءم وادراك تأثير الاشعة الضوئية : انها تصور على الشبكية جملة الحزمة الضوئية ، وعلى أساس الاثارة الحادثة في الدماغ يتولد الاحساس البصري ، تتولد صورة مشابهة للشيء المنظور . صحيح أن المؤثرات المختلفة الواقعة على العضو الواحد من أعضاء الحواس ، وخاصة على العين ، يمكن أن تحدث احساسات من نوع واحد . الا أنه لا ينبغي تجاهل الفارق الشاسع بين الاحساس الضوئي الناشيء ، مثلا ، عن منظر طبيعي منبسط أمامنا ، وبين الاحساس الناشيء عن ضربة تصيب العين . الاول عبارة عن احساس لوحة معينة ، مفهومة ، مشبعة بانسجام الالوان والاشكال ، ولها بنية تعبيرية واضحة ، وتناسق مقنون بين جميع أجزائها . أما الاحساس الثاني فهو أحساس بشيء غير محدد ، ولا شكل له ، ولا يتمتع بصورة واضحة ، ولا ببنية ولا بشخصية متميزة. قد يتراءى لنا أن الاحساسات الضوئية الناجمة عن النظر الى الاشياء ، وعن ضربة العين ، متشابهة ، في كلا الحالين ، من حيث الاساس . فالجملة العصبية ، والدماغ ، في كلا الامرين ، يتفاعلان مع شيء مادي واحد من حيث النموذج والطبيعة ، شأن الالوان في علبة تلوين الرسام والالوان على اللوحة . الا أن هذا الشيء المادي يختلف كل الاختلاف من حيث الشكل . فهو في علبة التلوين مجرد خربشة ، بينما هو في اللوحة أثر فني . وهذا الفارق بالذات هو الذي يتمتع بأهمية حاسمة . ان الاحساسات الضوئية تنشيء صور أشياء العالم الخارجي بفضل الصيغة الملائمة.

يذهب « غيل مغولتز » العالم الطبيعي البارز في القرن التاسع عشر ، والآخذ بأفكار « موللر » ، الى انه لا تشابه بين الاشياء الخارجية وبين الاحساسات الناشئة عنها ، رغم هذا النشوء • وليست هذه الاحساسات سوى رموز وشارات للأولى • وقد كتب « غيل مغولتز » في مؤلفه « فيزيولوجية البصريات » يقول : « لقد اعتبرت الاحساسات رموزاً للظواهر الخارجية ، ونفي عنها كل تشابه مع الاشياء التي تمثلها »[1] •

كان ما ذهب اليه « غي مغولتز » عبارة عن خطيئة كبرى ، تنسخ نقطة انطلاقه المادية القائلة بوجود الاشياء خارج احساساتنا •

أما بليخانوف الذي عرض في أحد مؤلفاته نظرات مادية ، صحيحة ، على العموم ، فلم يسم الاحساسات انعكاسات أو صوراً ، أو نسخا للأشياء المادية ، بل اعتبرها رموزاً هيروغلوفية لها • ونظرا للأهمية الفائقة التي تتمتع بها هذه القضية عالج لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » نظرية الرموز أو الهيروغلوفية ، معالجة خاصة •

ان نظرية الرموز ، أو الهيروغلوفية ، تحمل الى نظرية المعرفة ، عدم الثقة بدلائل أعضاء الحس • انها تحمل على الشك بوجود الاشياء خارجا عنا، لان الرموز ، لان الشارات أو الهيروغلوف ممكنة حتى بالنسبة الى مالا وجود له في الواقع • وليست صور قوى ما وراء الطبيعة الا برهانا على هذه الرموز التي تمثل أشياء مزعومة •

تكشف أعضاء الحس لنا الحقيقة الموضوعية ، وبمساعدة هذه الاعضاء نتعرف عليها • هذا ما يعترف به أي انسان لم تضلله الفلسفة المثالية • يقول لينين : ان نظرية الرموز لا تنسجم مع مثل هـذه النظرة (المادية ١٠٠٪ ، كما رأينا) ، وذلك لأنها تشكك بالحس ، تشكك بما تدلنا عليه أعضاؤنا الحسية • ولا شك أن الصورة لا يمكن أبدا أن تتماثل كليا مع الاصل ، الا أن الصورة شيء ، والرمز ، والشارة الاتفاقية ، شيء آخر • ان الصورة تفترض بالضرورة وبصورة

---

(١) عبارة من كتاب لينين : « المادية ومذهب النقد التجريبي » المؤلفات • الجزء ١٤ ص ٢٢٠ •

حتمية أن الشيء المعكوس ذو وجود موضوعي • أما الشارات الاتفاقية ، أما الرمز ، أما الهيروغليف ، فهي مفاهيم تحمل عنصر نظرية عدم امكانية المعرفة ، وهو لا داعي له هنا •

وعلى هذا ، فلا يمكننا أن نكون منطقيين حتى النهاية في نظرية المعرفة المادية ، اذا لم نـدافع عن النظرية القائلة بأن الاحساسات هي صور ونسخ وانعكاسات الاشياء والظواهر القائمة في العالم المادي ، لاشاراتها الاصطلاحية ، لاهيروغليفيتها • ان الذهاب الى أن الاحساسات هي نسخ، هي صور لاشياء العالم الخارجي ، أو الذهاب الى أنها رموز لهذه الاشياء ، ليس هو مجرد جدل حول الكلمات والاصطلاحات ، بل هو جدل حول جوهر نظرية المعرفة ذاته •

ان أعداء المادية ، اذ يحاولون التشكيك بما تدل عليه الحواس ، هذا التشكيك الذي يؤدي ، كما رأينا ، الى الريبة في وجود الواقع الموضوعي ، وحتى الى انكاره كلياً ، ان هؤلاء الاعداء ، غالبا ما يعتمدون على ما يسمى بـ « خداع الحواس » •

يقول هؤلاء الاعداء : لنأخذ شيئين ، موجودين في غرفة واحدة ، وفي شروط واحدة،أحدهما معدني،والآخر خشبي • فاذا لمسنا بيدنا الشيء المعدني ثم الخشبي وجدنا ، بشكل واضح ، أن المعدن أبرد من الخشب ، في حين لو قسنا حرارتهما بمقياس الحرارة لوجدناها واحدة • وهذا يعني أن احساساتنا قد خدعتنا • زد على ذلك أن الحواس يمكن أن تعطينا في وقت واحد ، شارات متناقضة لشيء واحد • فاذا وضعنا يدنا اليمنى في ماء ساخن ، واليسرى في ماء بارد ، ثم نقلناهما الى ماء عادي ، تبين لنا أن اليد اليمنى تشعر بالبرودة ، في حين أن اليسرى تشعر بالحرارة ، فأيهما هو الصحيح ؟ وهل يمكننا هنا أن نعتمد على دلائل أعضاء الحواس ؟

ولكن هل صحيح أن أعضاء الحواس التي تعمل بصورة طبيعية تخدعنا فيما نشير اليه ، ولا تعكس الواقع الموضوعي بصورة صحيحة ؟ فلنتمحص المثال المضروب • ان درجة حرارة اليد هي قرابة ٣٦° ،وحرارة الشيئين اللذين

نتلمسهما تعادل حرارة الغرفة ، أي تتراوح بين ١٨° ـ ٢٠° . فاذا ما لمسنا الشيئين بيدنا انتقلت حرارة اليد اليهما وفق قانون الفيزياء القائل بأن الحرارة تنتقل من الاجسام التي تتمتع بحرارة أعظم الى الاجسام التي تتمتع بحرارة أدنى . غير أننا عندما نلمس الخشب تتدفق حرارة اليد اليه ببطء لسوء نقله اياها ، أي لا ترتفع حرارة غير الجزء الملموس منه تقريبا . أما في المعدن فحرارة اليد تسري بسرعة أعظم بسبب حسن نقله للحرارة وبسبب انتشاره في شتى أنحاء المعدن . وما تنقله الينا احساسات جلدنا الملامس للشيئين ليس هو غير انعكاس للفارق بين سرعتي انتقال الحرارة . وهكذا نرى أن هذه الاحساسات ليست بعيدة عن خداعنا فحسب ، بل وتعكس لنا ناحية اخرى من الواقع ، هي ناحية الفارق في نقل الحرارة عند الشيئين المذكورين . مما يدفعنا الى ضرورة دراسة الواقع بشكل أدق .

وعلى هذا الاساس أيضا يفسر التناقض في مدلولات أعضاء الحواس . ان أعضاء الحواس لا تخدعنا ولكنها تبين أن العمليات تسير في الاجسام بشكل متباين تبعا لتباين أحوال الاشياء ، وما كانت عليه قبل بدء العملية المذكورة . لقد كانت يدنا اليمنى ، في المثل الذي ضربناه ، ساخنة في حين كانت اليسرى باردة . فلما وضعناهما في ماء واحد بدأت اليمنى تفقد بعض حرارتها ، في حين بدأت اليسرى تكتسب من حرارة الماء . وهذا بالذات ما تشير اليه احساساتنا . نستنتج من هذا أن مدلولات أعضاء حواسنا التي هي مصدر جميع ما نعلم عن العالم ، ينبغي استقراؤها وتحليلها بشكل صحيح . آنذاك نتبين أنها ذهبت في صحة عكسها للواقع أكثر مما كنا نتوقع في البداءة . وليس هذا بالامر الغريب . الواقع أننا في حياتنا نتعلم ، تدريجيا ، تفسير ما تدلنا عليه أعضاء الحواس ، فالطفل لا يدرك ، في فجر طفولته ، الفوارق بين أبعاد الاشياء : انه لا يرى القمر أبعد من الكرة ، ويبذل جهدا واحدا لنوال ذاك وتلك . أما الانسان الراشد الذي ولد فاقد البصر ، ثم أعيد اليه بصره اثر عملية جراحية ، فهو لا يدرك في الفترة الاولى لاستعادة بصره ، تباعد الاجسام . فيبدو له كما لو أن الاشياء جميعا قائمة بالقرب منه ، ويخاف أن يتعثر بها في

حين أنها بعيدة عنه • وهو لا يكتسب القدرة على حسن استخدام عضو النظر لديه الا تدريجيا ، وبمساعدة بصره يكتشف دائما جوانب جديدة وجديدة من الواقع • ولكن « حسن استخدام » أعضاء الحواس ، انما يعني ربط نشاطها بنشاط التفكير • ولا يمكن الوصول الى عكس الواقع عكسا صحيحا الا عند توفر الوحدة التي لا انفصام لها ، بين الاحساسات والتفكير •

وهكذا فليس هناك مجال للشك المبدئي بما تدلنا عليه أعضاء حواسنا • ولكن هذا لا يعني أن الاحساسات تعطي صورة دقيقة كل الدقة عن الواقع الموضوعي ، في ذات اللحظة التي يصبح فيها هذا الواقع موضع ادراك أعضاء حواسنا • ان الصورة الاولية للاشياء المادية تتوضح وتغتني وتتكامل تدريجيا ، على أساس الادراكات المتكررة كثيراً ، وعلى أساس عمل الفكر المتحقق منه بمختلف أعضاء الحواس ، وعلى أساس نشاط الانسان العلمي المتعدد الجوانب •

ان انعكاس الاشياء في وعينا لا يحدث مرة واحدة ودفعة واحدة ، وهو ليس صورة جامدة لا حياة فيها ، بل هو عملية تمر في مراحل متعددة ، هو عملية فاعلة من البحث والتجريب تقود أحيانا الى تجرد الفكر عن الواقع • وكما ان الفنان المزود بقماش اللوحة والالوان لا يستطيع رسم لوحته اذا ما جلس الى جانب أشياء دون أن يحرك ساكنا ، ودون أن يرسم بفرشاته ، كذلك الناس الآخرون لا يستطيعون عكس العالم الخارجي في وعيهم بعمق اذا لم يكونوا ايجابين وفعالين ، ولم يقيموا بين الاشياء علاقات مختلفة •

يقول لينين : « ان الاحساس عبارة عن صورة ذاتية للعالم الموضوعي» (١) وهذا يعني أن الصورة (الانعكاس) موجودة في وعي الذات ، وأنها ليست مادية بل ذاتية•وكون الصورة على هذه الحال انما هو مشروطبنية الجملة العصبية ، بنية الدماغ ، بطبيعة نشاطها • بيد أن هذه الصورة الذاتيةهي انعكاس للعالم الموضوعي• وانعكاس العالم الخارجي في الوعيهو شيء موضوعيمن حيث

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٠٦ •

نشوئه ومصدره ومحتواه • وبفضل هذا ، يتوفر في احساساتنا ، في وعينا ، ذاك الشيء الذي لا يتعلق بالذات • لا يتعلق بوعي الانسان • هذه التصورات والافكار التي يتناسب ويتطابق محتواها مع الاشياء التي يعكسها الوعي ، وبالتالي لا يتعلق لا بالانسان ، ولا بالانسانية ، هذه الافكار والتصورات تسمى بالحقيقة الموضوعية •

ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية هو أحد الاركان الاساسية في المادية : « فلكي يكون الانسان ماديا لا بد من اعترافه بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا أعضاء الحواس » [1] •

ويعني وجود الحقيقة الموضوعية أن العالم ليس ماديا فحسب ، بل ومن الممكن معرفته أيضا ، لان التعرف على العالم يعني امكانية التوصل الى الحقيقة الموضوعية • والمادية ، اذ تعترف بهذه الحقيقة ، تعطي حلا صحيحا للناحية الثانية من قضية الفلسفة ، الاساسية ، وتدحض مذهب استحالة المعرفة •

ولما كان الوعي يعطي الصورة الحقيقية عن العالم شيئا فشيئا ، لا دفعة واحدة ، لذا فان الانسان الذي لا يؤمن بامكانية المعرفة يتيه في بحر من الشكوك • فهو لا يعرف فيما اذا كنا نستطيع ، في مثل هذه الحال ، التعرُّف على الواقع الموضوعي أم لا ؟ واذا كنا نشك ، في صحة معرفتنا له فكيف نستطيع التعرف على وجود هذا الواقع أو عدم وجوده ؟

بيد أن هذه الشكوك كلها ليست غير ثمرة للطريقة الميتافيزيكية المعادية للديالكتيكية في معالجة عملية المعرفة • وذهابنا الى أن الواقع لا يمكن التعرف عليه دفعة واحدة ، لا يعني أن ما نعرفه عنه الآن غير صحيح • ان أنصار نظرية عدم امكانية المعرفة ، والمثاليين الذاتيين ينكرون الحقيقة الموضوعية • غير انه يمكن التعبير عن وجودها ، بحصولنا ، عمليا على النتائج التي كنا ننتظرها ، على وجه العموم ، وذلك انطلاقا من معارفنا عن الاشياء والعالم الخارجي • أما عدم نجاحنا في ذلك ، فهو يعني اننا سنكشف ، عاجلا أم آجلا

---

(١) لينين « المؤلفات » ١٤ ص ١٢٠ •

أخطاء في معارفنا ومحاكماتنا، لا بد من اصلاحها • وقد سخر « تشيرنيشفسكي » في مقاله « طابع المعرفة الانسانية » سخرية لاذعة من المذهب المدرسي الريبي العقيم الذي يأخذ به أنصار استحالة المعرفة • وقد اتخذ « تشيرنيشفسكي » من محاكمة القائل باستحالة المعرفة الدائرة حول تمتع الانسان بيدين أم لا ، مصدراً لسخريته هذه • يقول « تشيرنيشفسكي » ان الانسان الذي يبدو له أن يديه سليمتان، يبدو له كذلك، أن له يدين اثنتين•ولو أنه قدر لهذا الانسان أن يعرف أن له يدين ، اذن لكان له يدان اثنتان • ولكن هل هو ذو يدين اثنتين أم لا ؟ هذا أمر لا يعرفه ولا يستطيع أن يعرفه ، لا هو ولا أحد غيره من الناس • نحن لانعرف غير تصوراتنا عن الاشياء • أما الاشياء ذاتها فلا نعرفها ولا نستطيع معرفتها• وبما أننا لا نعرف الاشياء لذا لا نستطيع مقارنتها بتصوراتنا عنها • ولهذا لا نستطيع معرفة ما اذا كانت تصوراتنا عن الاشياء شبيهة بالاشياء • ربما كانت شبيهة بها ، ولكن قد تكون غير شبيهة بها • ان لدينا تصوراً عن اليد ، وبالتالي ، فهناك شيء ما يثير فينا التصور عن اليد • ولكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف فيما اذا كان تصورنا عن اليد يشبه هذا الـ « شيء ما » الذي يبعث فينا التصور • ربما كان التصور شبيها به ، وفي هذه الحال يكون الشي ءالذي نتصوره يداً ، يداً ، في الواقع • ويكون لدينا يدان واقعيتان • بيد انه ربما كان تصورنا عن اليد غير مشابه لـ « شيء ما » الموجود فعليا ، الذي ننسب هذا التصور له • وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً غير موجود ، وبالتالي لا وجود للأيدي لدينا • ونحن نملك ، عوضا عن اليدين ، مجموعات ما لشيء ما ، مجموعات ما لا تشبه اليدين ، لشيء ما نجهله ولكننا لانملك يدين ••• » (١)

تتصف الحقيقة الموضوعية بأنها : ١) غير متوقفة على عدد المعترفين بها سواء قلوا أم كثروا • وغالبا ما تحظى الحقيقة ، وخصوصا في مجال المسائل العلمية المعقدة باعتراف قلة من الناس ، في باديء الامر • ٢) تنتزع الاعتراف بها ، عاجلا أم آجلا ، متغلبة على الاوهام والترهات ، حتى ولو دعمت هذه

---

(١) تشيرنيشفسكي : « المؤلفات الفلسفية المختارة » الجزء الثالث ١٩٥١ ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧ •

بالقوة • ولنتذكر في هذا المجال تعاليم « كوبرنيك » • ان ملاحقة الكنيسة لانصار هذه التعاليم لم تستطع الوقوف في وجه انتشارها • كما أن الماركسية التي لم يكن ليعترف بها منذ قرن سوى حفنة من الناس ، أصبحت الآن نظرية تعتنقها ملايين غفيرة من الجماهير غازية القلوب والعقول • ٣) تؤدي الى نتائج ناجحة في النشاط العملي فيما اذا أحسن استخدامها •

ربما لا يوجد في العالم فلاسفة ينفون وجود الحقيقة على العموم • ان أمثال هؤلاء الفلاسفة سيفشلون سريعا وهم يغوصون في تناقضات لا مخرج لهم منها • وهم لا يستطيعون حتى القول بأن انكارهم للحقيقة أمر حقيقي • والا فهم سيعترفون بوجود حقيقة واحدة على الاقل، وبالتالي، فستنهار مواقعهم• ان كثيراً من أعداء المادية لا ينكرون الحقيقة على العموم،بل الحقيقة الموضوعية « فقط » • وهم يفسرون الحقيقة حسبما يحلو لهم•فيذهب الماخيون منهم الى أن الحقيقي هو « الامر ذو الاهمية العامة » ، في حين يذهب البراغماتيون الى أن الحقيقـي هو الذي يؤمن النجاح • ان جوهر الحقيقة قائم في الموضوعية ، وبانعدام الموضوعية تنعدم الحقيقة • لهذا كانت محاولة الماخيين والبراغماتيين خلق « الحقيقة » من دون الاعتراف بموضوعيتها ، لا صلة لها بالمعرفة الحقيقية القادرة الجبارة • والحقيقة الموضوعية ستصبح عاجلا أم آجلا ، أمراً ذا أهمية عامة ، أي معترفا به من العموم • بيد أن هذا ليس هو الشيء الرئيسي فيها • المهم لا عدد الناس المعترفين بها ، (اذ أنها لا تتوقف على الانسان أو الانسانية) بل المهم هو كونها صحيحة أم لا ، وهل تتناسب مع الواقع الموضوعي أم لا ؟ فمن المعروف أن تعاليم خاطئة ، كالاوهام اللاهوتية ، غالبا ما تغزو عقول عدد كبير جداً من الناس ، ومع هذا فهي لا تصبح صحيحة لهذا السبب وحده • ان هذه النظرية أو تلك لا تعتبر حقيقية لمجرد انها ذات أهمية عامة ، بل لانها تعكس الواقع عكسا صحيحا ، وتتأكد صحتها بالممارسة العملية • صحيح ان الحقيقة التي تطبق في الواقع تطبيقا صحيحا تؤدي الى النجاح ،ولكن ليس كل ما يؤدي الى النجاح هو الحقيقة بصورة عامة • يدل على ذلك أن بعض الناس اللا أخلاقيين ينجحون عن طريق الغش والخداع • ان الحقيقة

الموضوعية هي الكنز الثمين الذي من أجله تعمل حواسنا وتفكيرنا بلا انقطاع ، مكملا بعضها بعضا ، وبفضله ترتقي المعرفة الانسانية من درجة الى أخرى •

٤ : ـ الكلام والتفكير

ان التفكير المجرد والمعمم والحادث بواسطة المفاهيم المعبر عنها بالكلام أمر خاص بالانسان وحده • لقد أدى الارتقاء البيولوجي الى تطور العالم الحيواني حتى الدرجة التي نجدها عند أسلاف الانسان ـ الانسان القرد ـ ذوي المجموعة العصبية الرفيعة التطور ، والقادرة على السير قدما نحو الكمال • بيد أن تحول سلفنا ـ الانسان القرد ـ الى انسان ، لم يكن نتيجة عوامل بيولوجية ، بل نتيجة عوامل جديدة ، أي نتيجة العمل الاجتماعي الذي أصبح نقطة انطلاق تطور لا شبيه له فيما تبقى من ظواهر الطبيعة • يقول انجلز : « ان العمل ، بمعنى معين ، هو الذي خلق الانسان • وقد ظهر الكلام والتفكير بفضل نشاط الانسان العملي ، بالذات • ان الاستعمالات الاولى لاشياء الطبيعة ، بصفتها أدوات للعمل ، واعداد هذه الادوات الواعي ، بشكل خاص ، عملا على توسيع أفق الانسان البدائي توسيعا كبيرا ، بأن كشفا له عن خواص جديدة للاشياء المحيطة به • وقد حقق الناس ، فيما بعد ، في سياق العمل الاجتماعي ، اكتشافات جديدة وجديدة وسعت أفق تصوراتهم وادراكهم الحسية ، وعملت على تطوير تفكيره تدريجيا • وقد أتاح التفكير ، بدوره ، امكانيات جديدة أمام تطور النشاط العملي الذي أدرك الناس في سياقه فوائد العمل الجماعي • يقول انجلز : « وبكلمة موجزة ، لقد توصل الانسان الذي هو في سبيل التكون كانسان ، الى مرحلة ظهرت فيها الحاجة الى أن يقول شيئا ما للانسان الآخر • فخلقت الحاجة عضوها الخاص • كانت حنجرة القرد اللا متطورة تتحول ، عن طريق التنغيم ببطء ، ولكن بصورة متواصلة ، الى حنجرة قابلة للتنغيم أكثر فأكثر ، في حين كانت أعضاء الفم تتعود تدريجيا على لفظ أصوات متتالية مؤلفة من مقاطع »[1] • هكذا نشأ

(١) انجلز : « دياليكتيك الطبيعة » ص ١٣٤ •

الكلام المؤلف من مقاطع ، اللغة ، كما نشأ معه التفكير • ولم يكن بمقدور الكلام والتفكير أن ينشأ كخاصة شخصية لهذا الفرد أو ذاك • انهما ، من حيث المصدر والمحتوى ، يتصفان بطابع اجتماعي واضح • يقول ماركس وانجلز « ان الوعي كان منذ البداءة ، نتاجا اجتماعيا ، وسيظل كذلك ما دام هناك بشر على العموم »[1] •

ما ان يظهر الكلام حتى يؤثر تأثيرا عظيما على النشاط العملي • فبدون الكلام الذي يربط بين الناس يتعذر الانتاج الاجتماعي العقلاني ، في حدود واسعة الى حد ما • كما يؤثر الكلام ايضا على الناس الناطقين به ، ذاتهم • ان العمل والكلام المؤلف من مقاطع يصبحان العاملين الرئيسين في تطور الدماغ • وهو أمر يرافقه تحسن في تطور أعضاء الحواس • وفيما يلي برهان على مدى أثر النشاط العملي في تطوير هذه الاعضاء • ان الخبراء من عمال النسيج المتخصصين في نسج الاقمشة السوداء ، يميزون حتى ٤٠ فارقا في اللون الاسود ، في حين لا يميز الآخرون أكثر من فارقين أو ثلاثة • كما أن الطحانين ذوي الخبرة الواسعة يستطيعون بالاعتماد على حاسة اللمس لديهم ، تحديد نوع الطحين تحديداً دقيقا ، ومعرفة المكان الذي أنبت قمحه • وتبلغ احساسات الشم عند الانسان درجة من الدقة والتحسس غير عادية فيما اذا دعت الحاجة العملية لذلك • وهكذا نجد مقتفي الآثار الافريقيين يتتبعون عن طريق الشم ، الاسود والزرافات وحمير الوحش ، تتبعا أفضل من كلاب الصيد •

ان فكرة الانسان يعبر عنها بالكلام • هذه الفكرة ذات غلاف لغوي عادة • فعندما ينقل أحد الناس فكرته الى الآخر ، يعبر عنها بالكلمات الملفوظة بشكل مسموع من الآخرين • هناك من يبدو لهم أن الكلام لا لزوم له الا من أجل أيصال الفكرة الى الآخرين • لذا فالكلام لا يلزم الانسان نفسه من أجل التعبير عن أفكاره • وهذا خطأ • فكما أن اللوحة التي يرسمها الفنان لا تتكون الا نتيجة وجود الالوان ، فنيا ، على القماش ، كذلك الفكرة لا توجد عند

(١) ماكس وانجلز : « المؤلفات » الجزء الثالث ١٩٥٥ ص ٢٩ •

الناس الطبيعيين الا بسبب وجود الكلمات والكلام • ولا يمكن لاحدهما أن يوجد من غير الآخر • يقول ماركس : اللغةهي الواقع المباشر للوعي ، هي المادة الطبيعية للفكرة • ان مرد الرأي الخاطيء الذاهب الى أن الافكار يمكن أن توجد بدون الكلمات ، هو أن الانسان عندما يفكر في ذاته ، لا يلفظ عملياً ، لا بصوت مسموع ، ولا بينهوبين نفسه ، جميع الكلمات التي كان ينبغي أن يلفظها لو أنه أراد ايصال فكرته ذاتها الى شخص آخر • كما أن الانسان يشعر ، أحيانا ، بصعوبة كبيرة في اختيار الكلمات اللازمة ، أو كما يقال ، « لا يجد الكلمات » لكي يعبر للآخرين عن فكرته ، ويوضحها لهم ، مع أن هذه الفكرة تبدو واضحة تماما بالنسبة اليه • هنا تبدو الكلمات لا قاصرة عن التعبير عن الفكرة فحسب ، بل انها تجعل من الصعب فهمها • بيد أن هذا لا يعني اطلاقا أن الفكرة المعنية توجد من غير غلاف كلامي • فنحن عندما نفكر في ذاتنا لا نعطي ، في الغالب ، الاعظم ، تعبيرا كلاميا مفصلا لافكارنا • ولكن اذا لم نجد ، هنا ، جميع الكلمات اللازمة لصياغة الفكرة بشكل مفصل واضح، فلا بد من وجود هذه الكلمات أو تلك ، دائما • ونحن عندما نحاول التغلب على الصعوبات في انتقاء الكلمات اللازمة نصيغ الفكرة ذاتها • وعندما نعطي الفكرة تعبيرها الكلامي الكامل ، تصبح هذه الفكرة واضحة ودقيقة ومنسجمة • فالغلاف الكلامي المفصل يسبغ على الفكرة أعظم قدر من الكمال لا من حيث الصيغة فقط ، بل ومن حيث المضمون أيضا • ولا ينبغي أن نستنتج من قولنا بأن الفكرة واللغة غير منفصلتين ، انهما شيء واحد • ويتجلى الفرق بينهما في أن الفكرة عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي ، في حين أن الكلمة هي وسيلة التعبير ، وسيلة تثبيت الفكرة ، بالاضافة الى أنها وسيلة نقل الفكرة للآخرين • وبفضل الكلمة بالذات ، يمكن أن ندرك أفكار الآخرين • واذا كانت الفكرة لا توجد من غير كلمات ، كذلك الكلمات تصبح مجرد أحرف فارغة من دون الفكرة ، من دون ما تعكسه الفكرة • ان التفكير واللغة مترابطان ترابطا وثيقا فيما بينهما ، ويشترط أحدهما الآخر •

ان أشياء العالم المحيط بنا ، وظواهره ، تنعكس مباشرة في الاحساسات

التي تثيرها تلك الاشياء والظواهر • وهذا ما ندعوه بالانعكاس الحسي للاشياء والظواهر الحسية مع جميع فوارق خصائصها الفردية • الا أنه ينشأ ، على أساس الاحساسات ، كما رأينا ، شكل انعكاس ينعكس فيه، في اللحظة الراهنة، ما لا يؤثر مباشرة على أعضاء الحواس ، ولكنه ممثّل بشيء آخر أو ظاهرة أخرى ، تشير الى الشيء الاول • وهو أيضا انعكاس للواقع ، مجسّد ، حسي ، مع فارق توفر خطوة الى الامام في طريق التجريد والتعميم•ان امكانية التجريد مشروطة بأن الاشارة المدركة من قبل أعضاء حسنا هي شيء متميز تماما عما ترمز اليه هذه الاشارة بظهورها ، كما أنها مشروطة أيضا بأن ظاهرة واحدة يمكن أن يشار اليها ، في ظروف مختلفة ، باشارات متباينة • وبالاضافة الى ذلك فان كل اشارة من هذا النوع ، باعتبارها شيئا أو ظاهرة معينة بدقة ، تخدم كممثل لظاهرة معينة بدقة • انها شارات للأشياء والظواهر الحسية •

أما نشوء نظام الاشارات الثاني للواقع ، عند الانسان، فقد أفسح امكانيات لا حد لها ، فعلا ، أمام تطور الانعكاس المعمم والمجرد المتزايد ، أمام تطور الانعكاس في المفاهيم • فالكلمة التي هي اشارة الاشارات تستخدم كممثل لا لاشارة ما واحدة ، بل لمجموعة كبيرة من الاشارات المتماثلة في نموذجها ، وهي متشابهة في الامر الرئيسي والجوهري رغم تباينها في تفاصيلها • لهذا لا يعكس فيها شيء ما واحد ملموس ، بل عدد من الاشياء والظواهر الموحدة الا نموذج،وعدد من الروابط التي تربط هذه الاشياء والظواهر بعضها ببعض • فكلمة الفرجار لا تعني فرجارا بعينه ، مع ما يلازمه من خصائص فردية ، بل الفرجار على العموم ، أي نموذجا أو جنسا معينا من الاشياء ، سواء أكان طوله ١٥ ، أو ١٦ أو ١٤ سم ؛ وسواء أكان مصنوعا كله من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك ••• الخ • والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى • نستنتج من ذلك نتيجة هامة جدا : هي أن الكلام عبارة عن تجريد للواقع ، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد • يقول لينين : « كل كلمة عبارة عن تحميم »[1] •

---

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٢٥٦ ٠

مع هذه الخاصة للكلام يرتبط شكل النشاط النفسي الخاص بالانسان ، وهو تكوين المفاهيم واستعمالها ، أي التفكير النظري • فبفضل الكلام بالذات ، أصبح بامكان الوعي استعمال لا ما تقدمه الاحساسات في وقت معين فحسب ، بل وما قدمته في السابق ، وما يمكن أن تقدمه في المستقبل • وبفضل ذلك نشأت امكانية فصل خاصة الشيء ، ذهنيا ، عن الشيء ذاته ، امكانية تجريد بعض خواص الاجسام عن بعضها الآخر ، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة •

ليس الكلام شارة الشارات الا عندما ينشأ على أساس الاحساسات التي تعكس الاشياء المادية الموافقة • فاذا انعدمت الاشياء أصبحت الكلمة فارغة ، محرومة من الفكرة ، ولا معنى لها •

لنفترض أن الرسام أرسل شخصا ما لاحضار فرجار قائلا : أرجوك احضار فرجاري • ان كلمة فرجار ، بذاتها ، لا تثير لدى هذا الانسان تلك الاحساسات التي يثيرها الفرجار عندما ننظر اليه أو نلمسه بأيدينا • وهذه الكلمة ليست الا اشارة الى الاحساسات التي يعانيها الانسان عندما يجد الفرجار • بيد أنه ، اذا كان الانسان الذي توجه اليه الرسام برجائه لم يسبق له أن شاهد الفرجار أبدا ، ولا تثير فيه هذه الكلمة تداعيا لمجموعة احساسات معينة ناشئة على أساس تجربته الحسية الشخصية ، فان كلمة فرجار لا تستطيع القيام بدور شارة الشارات •

وما تقدم لا يعني أن الاحساسات لاتعكس الامر العام الموجود في الاشياء والظواهر الحسية ، والا لما انعكس هذا الامر العام بواسطة الفكرة والكلمة • فعندما نتحسس رائحة أزهار مختلفة نستطيع أن ندرك ، حسيا ، الشيء العام الملازم لرائحة الازهار كجنس معين من النبات • الا أن هذا الشيء العام في الاحساس ، متصل اتصالا وثيقا بالخاص [1] • وهو في الكلمة ينفصل عن الخاص ويتجرد عنه • الا أن حدوث هذا التجريد بمساعدة الكلمة كان

---

(١) الخاص هنا احدى مقولات الخاص والعام والوحيد الفلسفية •

مسبوقا بتحسن تدريجي في المقدرةعلى تمييز الشيء العام الذي يحتويه الخاص، بواسطة الاحساس •

ان اكتساب القدرة على ذلك التوسع في التعميم القائم في كلام الانسان المثقف المعاصر ، المعتاد على التفكير المجرد ، لم ينشأ دفعة واحدة مع ظهور الكلمة مباشرة • كانت مقدرة الانسان البدائي على التفكير المعمم ما تزال هزيلة رغم بدئه بالكلام • كانت لغته لا تحتوي الا على القليل من المفاهيم العامة ، كما أن عمومية هذه الأخيرة كانت محدودة • ويمكن التثبت من ذلك عند دراسة لغة بعض القبائل المتأخرة المعاصرة ، علما بأن هذه القبائل قد قطعت أشواطا بعيدة الى الامام اذا ما قورنت بقبائل الزمن البدائي • هكذا نرى أن لغة احدى القبائل تحتوي على ٧٥ كلمة للتعبير عن عمليات السير التي تتباين فيما بينها بفوارق بسيطة ، وعلى أكثر من ١٠ كلمات للتعبير عن الطبخ ، ولكنها لا تحتوي على أية مفاهيم عامة لعمليتي السير والطبخ • وهناك بعض القبائل الشمالية التي تعبر بكلمات منفردة عن الثلج مقرونا بحالات معينة ك : « الثلج على الارض » ، « الثلج المتساقط » ، « الزوبعة الثلجية » ، « الثلج المتراكم » ، ويزيد عدد مثل هذه التعابير لديها عن أربعين ، في حين أنها لا يوجد لديها كلمة عامة تعني الثلج بالذات • وهناك قبائل لا تحتوي لغتها على كلمة عامة تعني « عجل البحر » ، بل تحتوي على تعابير كالتالية : « عجل البحر على قطعة من الجليد » ، « عجل البحر في الماء » ، عجل البحر المتسلق على قطعة الجليد » ••• الخ • بيد انه مهما بدا تقصير هذه اللغة في التعميم ، فهي ، في الواقع ، ذهبت بعيدا بالنسبة الى نظام الشارات الاول،وحتى بالنسبة الى رشيمات الكلام الاولى • انها تحتوي على تعاميم كبيرة يعبر بفضلها عن الثلج ، بمختلف أشكال تراكمه ، بكلمة معينة ، كما يعبر عن « عجل البحر » المستلقي على الجليد بكلمة معينة أيضا على الرغم من الفوارق الملازمة لوضع عجل بالنسبة الى آخر • وفي هذا تتضح المسافة الشاسعة التي تفصل مستوى تطور الوعي الانساني عن المستوى الذي كان عليه وعي الانسان البدائي •

يتألف الكلام ، قبل كل شيء ، من كلمات ، وهذه من مقاطع صوتية •

فما هي العلاقة القائمة بين هذه الاصوات وبين الظواهر والاشياء التي تعنيها ؟ ان الأصوات عبارة عن اشارات اصطلاحية وضعتها الشعوب خلال تعايشها عبر القرون الطويلة • ولا توجد ولا يمكن أن توجد أية علاقة سرية بين هذه الأصوات والاشياء التي تدل عليها • ان تصور قيام علاقة خفية بين أصوات الكلمات وبين الاشياء هو تصور مختلق ومن صنع المشعوذين الذين يدعون بوجود أسماء « حقيقية » ما للأشياء والناس ، اذا ما نطقنا بها استطعنا التأثير على الاشياء وعلى الناس ، وتقرير مصيرهم • ان ما يدحض ، عمليا ، وجود أية علاقة سحرية ، سرية ، بين الاشياء والكلمات المعبرة عنها هو أن الشيء الواحد يعبر عنه ، عند مختلف الامم ، بالاعتماد على أصوات مختلفة•ان الشيء الذي يسميه الروس « ستول » (أي طاولة) ، يسميه الالمان « ديرتيخ » ، والافرنسيون « تابل » ••• الخ • بيد أنه اذا كان تركيب الكلمات من الاحرف يمكن أن يحدث اتفاقا أو عرضا ، فان ما تعنيه هذه التراكيب الكلامية والكلمات ليس عرضا،ولا اتفاقيا•فالناس في نشاطهم العملي يحتكون بالاشياء والظواهر • لهذا لابد للغة من أن تحتوي على تلك الكلمات التي تعني الظواهر والاشياء الضرورية لمعيشة الناس•وبما أن الناس يستخدمون الخواص المتنوعة لهذه الاشياء والظواهر ، لذا ، لابد وأن تشتمل اللغة على كلمات تعبر عن هذه الخواص•كما ينبغي أن تنشأ تلك الكلمات التي تعبر عن حركة الاشياء ، وعن تأثير بعضها على بعض ، وعن الروابط فيما بينها ، ما دام هذا ضروريا للناس • وقد أدى نشاط الناس العملي الى نشوء الكلمات التي تعني علاقات الاشياء المكانية والزمانية• كما كان لابد من نشوء الكلمات التي تعني العلاقة بين الناس ، بعضهم ببعض ، وبينهم وبين الظواهر المحيطة بهم • ان حاجات العلم وتطوره أدت الى نشوء كلمات جديدة تعبر لا عن الاشياء وخواصها المدركة حسيا ، فحسب ، بل وعن العلاقات الخفية الدفينة في أعماقها ، وعن قانونياتها وجوهرها • كما كان لابد أيضا من ظهور كلمات تعني خواص العلاقات والصلات بين الاشياء ، وكلمات تعني كلمات أخرى وتعبر عن العلاقات بين الكلمات •

وعلى هذا ، فكل ما يتمتع بمعنى كلامي ، ويدخل متن اللغة تحت شكل كلمات ، لا يمكن أن يكون عرضيا ولا اتفاقيا ، وهو يتحدد ، بالضرورة ، بحاجات الشعب العملية الهامة معاشيا ، وبحاجات التفكير المتطور لكي يعكس الواقع الموضوعي بشكل أدق • ان اللغة والتفكير يعكسان ما يعرفه الناس عن العالم الخارجي وعن أنفسهم ، كما يعكسان ما يعرفه الانسان من وسائل المعرفة التي هي في حوزته ، في الفترة الراهنة •

الفصل الخامس

العلاقة القانونية لظواهر الواقع

١ : ـ نظرية التطور الديالكتيكية

نستنتج مما سبق قوله أن أهم سمة تسم الفلسفة الماركسية تكمن لا في الاعتراف بمادية العالم فحسب ، بل وفي الاعتراف بأن المادة ، أن الطبيعة ، توجد ، دائما ، في حركة أبدية ، مقنونة ، وفي تبدل وتطور مستمرين . وسنعالج الآن أعم قوانين التطور .

ان قوانين العالم الموضوعي هي قوانين الحركة والتطور . ولا يمكن فهم الاشياء ولظواهر فهما صحيحا ، ولا تفسيرها تفسيراً صائبا الا اذا درست في سير عملية نشوئها وتطورها . وقد أبان العلم ، شيئا فشيئا ، وفي ميدان بعد آخر من ميادين الواقع ، تطور العالم المحيط بنا . وفي نهاية القرن التاسع عشر أخذت فكرة التطور تنتشر انتشاراً واسعا ، وتنال اعترافا شاملا .

الا أن الاعتراف وحده بمبدأ التطور غير كاف . اذ لا بد من فهم طابع هذا التطور ومصدره ، كما لا بد من فهم القوانين العامة المسيرة لاي تطور . من الممكن الاعتراف بالحركة ، ومع هذا فقد لا يخرج المعترف عن نطاق الميتافيزيكية . فتحت تأثير نجاحات العلم ، ولا سيما اعتباراً من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر ، أخذت تنشأ نظريات ارتقائية عامية تعترف بالتطور قولا ، ولكنها ، عمليا ، تدافع عن النظرات الميتافيزيكية القديمة للطبيعة ، بعد أن تكيفت قليلا مع روح الزمن . يقول لينين بأن مثل هذا الاعتراف بفكرة التطور يجعل من الحقيقة شيئاً مبتذلا[١] .

---

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٢٣٩ .

الواقع أن فهم التطور على انه مجرد عملية اضافة تغييرات بسيطة جزئية، اضافة تغييرات كمية محضة ، الى ما هو موجود ، يختلف كل الاختلاف عن فهم التطور على انه عملية معقدة يتعرض الشيء خلالها لا لتبدلات كمية فحسب، بل ولتبدلات وتحولات كيفية عميقة أيضا ، مما يؤدي ، مع الزمن ، الى شيخوخة الاشكال التي فات أوانها ، والى اختفائها عن المسرح لتخلي مكانها لاشكال جديدة أعلى وأكمل • ومن الواضح أن هذين المفهومين يشكلان نظريتين للتطور على طرفي نقيض •

النظرية الاولى ميتافيزيكية لان الحركة والتطور ، في نظرها ، لا يؤديان الى القضاء على القديم وابادته والى ولادة الجديد • انها تنفي التناقضات الداخلية في الظواهر والاشياء ، وصراع المتناقضات كمصدر المتطور • وهي تفهم التطور على أنه مجرد كمية تدريجية تنساب بيسر ، نافية القفزات النوعية التي تحدث في درجة معينة من التطور •

أما الثانية فهي النظرية الديالكتيكية ، العلمية الوحيدة • لانها تفهم التطور فهما متلائما مع الواقع القائم موضوعيا ، تفهمه على أنه حلول الجديد محل القديم ، على أنه موت القديم ونشوء الجديد • وهي تكشف التناقضات الداخلية التي تحدث في الاشياء المتبدلة ، وترى في حل هذه التناقضات وتطورها القوة الرئيسية المحركة للتطور •

ان لينين فيما كتبه « حول قضية الديالكتيك» يقارن بوضوح وعمق ما بين هاتين النظريتين ، ما بين هذين المفهومين عن التطور • يقول لينين : « هناك مفهومان أساسيان للتطور (للارتقاء) التطور كتقليل واكثار وتكرار والتطور كوحدة المتناقضات » (ازدواجية الشيء الواحد لوجود التناقضات التي ينفي أحدها الآخر، والعلاقة المتبادلة بينها) • في المفهوم الاول للحركة تبقى الحركة ذاتها ، والقوة الدافعة لها ، ومصدرها ، وسببها ، تبقى أشياء غامضة (أو أن هذا المصدر الباعث لها ينقل الى الخارج ليرتبط بما وراء الطبيعة أو الذات أو غير ذلك) • أما في المفهوم الثاني فيوجه الانتباه الاول الى معرفة مصدر الحركة « ذاتها » • المفهوم

الاول ميت ، فقير ، جاف • أما الثاني فحيوي • وهذا المفهوم وحده هو الذي يعطي مفتاح سـر « القفزات » و « توقف التدرج » و « التحول الى الشيء المضاد» و «القضاء على القديم ونشوء الجديد»[1] • في هذه الافكار التي عرضها لينين نتبين الفارق المبدئي الجذري بين التصورات الميتافيزيكية الارتقائية العامية وبين النظرية الديالكتيكية الماركسية ، عن التطور • وعندما يذهب الديالكتيك الى اظهار التطور كاستبدال مقنون للجديد بالقديم ، انما يكتسب بهذا ، أهمية ثوريــة عظيمة • وليس من قبيــل العبث أن سمى « غيرتسن » الديالكتيك يجبر الثورة •

إن التعرف الى هذا الفارق المبدئي بين هاتين النظريتين للتطور أمر هام بالنسبة الى فهم العالم علمياً ، وإلى النشاط العملي•فالمفهوم الميتافيزيكي للتطور عاجز عن توجيه العلم والمعرفة العلمية توجيها صحيحاً • فلو أن التطور لـم يكن غير حركة من غير استبدال الجديد بالقديم ، من غير تناقضات داخلية ، وانتقــال من حال الى حال ، لما أمكن فهـم التنوع العظيـم الغنى للعـالم المتطور ، هـــذا التنــوع المـدهش من حيث تعقيـده وتفرعه • ولتعـذر أيضاً ايجـاد الحل الصحيح لمسـألة كيفيـة نشـوء صغيريات مادية معينـة من صغـيريات أخرى ، وكيفية حدوث تحول العناصر الكيميائية ، وكيف نشأت المادة العضوية ، الحياة ، من المادة اللاعضوية ، خلال ملايين السـنين على الارض ، وكيف تحولت أنــواع من النبات والحيوان الى أنواع أخرى ، وكيف نشــأت ، فيما بعـد ، المادة الحساسة القادرة عـلى التفكير عن المادة اللا حساسة •

تدل نظرية التطـور الديالكتيكيـة على الطريـق الصحيح للمعرفـة ، وبالتالي ، على الطريق الموثوق للسيطرة على قوانين الطبيعة وقواها • فاذا كان التطور عبارة عن عملية انعدام القديم ونشوء الجديد ، فان مهمة العلم تكمن في دراسة كيف ان الطبيعة ذاتها ، كيف ان المادة في حركتها الخاصة تتحول

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ •

من أشكال الى أخرى ، من الأشكال البسيطة الى المعقدة ، من الدنيا الى العليا ، مشكلة هذا العالم الموضوعي المحيط بنا والغني بتنوعه • وفي طريق الفهم هذا ، خاصة ، حقق العلم نجاحات مذهلة في دراسته للطبيعة• والعلم الحديث يقدم البراهين الجديدة المتواصلة ، اثناء حله لا عقد قضايا الفيزياء الذرية ، وغزو الفضاء ، والبيولوجيا ، وعلم الاجتماع ••• الخ ، على صحة النظرية الديالكتيكية عن التطور •

ان الديالكتيك الماركسي يقدم مفتاح سر تعقيد تطور العالم الموضوعي وتنوع هذا التطور الفائق ، كما يدل على غنى محتواه وأشكاله • وهو يدرس أعم قوانين التطور ، وعملية موت القديم وولادة الجديد ، وعملية التجدد الخالد للعالم •

وقوانين الديالكتيك الأساسية هي : ١) قانون تحول التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • ٢) قانون وحدة المتناقضات وصراعها • ٣) قانون نفي النفي • وكل قانون من هذه القوانين يعكس ناحية جوهرية ما من نواحي التطور الموضوعي ، وحدته ، وشكله ، وعامله •

القانون الأول يبين كيف تتعرض الاشياء للتبدلات والتحولات الكمية ، وبفضل أية عمليات يتم ذلك • كما يبين كيف يتضمن التطور ، الى جانب شكل النمو التدرجي المنسجم في التبدلات الكمية اللاملحوظة ، شكل توقف التدرج ، شكل القفزة من الحالة النوعية القديمة الى حالة نوعية جديدة •

أما قانون وحدة المتناقضات وصراعها فيكشف عن مصادر كل تطور وعن دافعه الداخلي ، وقوته المحركة التي يحتويها صراع النواحي المتناقضة، والقوى والاتجاهات الخاصة بالأشياء •

وأما القانون الثالث فيعكس ويسم الصلة المتتالية بين مختلف مراحل التطور ، ووجهة التطور الرئيسية ، واتجاهه الأساسي الكامن في حركته التصاعدية من الشكل البسيط الى المعقد ، ومن الأدنى الى الأعلى ، يعكس ويسم الشكل « الحلزوني » المعقد لهذه الحركة •

ليست القوانين المذكورة غير قوانين الديالكتيك الاساسية ، غير أهمها • انها بعض قوانينه • ويوجد الى جانبها عدد وافر من المقولات أمثال العلاقة العامة للظواهر ، والسبب والنتيجة ، والمحتوى والشكل ، والعرضية والضرورة ، والجوهر والظاهر ••• الخ •

ان قوانين الديالكتيك ومقولاته هذه لم تخترع اختراعاً ، بل استخلصت من الطبيعة والحياة الاجتماعية • انها تعكس القوانين الموضوعية القائمة بشكل مستقل عن وعي الانسان • ولهذا السبب بالذات يقدم لنا الدياكيلتيك الماركسي امكانية التغلغل في كشف عمليات تطور الكائنات والمعرفة ، وفهم هذه العمليات المعقدة العديدة الوجوه •

إن الطبقات المستمرة المدافعة عن القديم لا تتقبل روح الديالكتيك الماركسي الثورية • ويعتبر نفي الطابع الموضوعي للديالكتيك إحدى وسائل نضال خصوم الماركسية • ويحاول الاصلاحيون ، والاشتراكيون البرجوازيون الصغار ، وكثير من ممثلي مختلف تيارات الفلسفة البرجوازية يحاولون إثبات أن الديالكتيك بعيد عن الواقع الموضوعي ، وأن مفعول بعض مبادئه لا يتعدى في أحسن الحالات ، الا في مجال التفكير • فالفيلسوف البرجوازي الفرنسي « ميرلا بونتي » ، مثلاً ، يهاجم ، في كتابه « مغامرات الديالكتيكية » ، فكرة الديالكتيكية باعتبار أنها تبرز في « الشيء » ، في الكائن ، أي لا تبدو مقتصرة على الوجود ، تبرز الديالكتيك » • ان المثاليين يعارضون قوانين الوجود بقوانين التفكير • ولكن بما أن قوانين الديالكتيك هي ، في الواقع ، قوانين الوجود الموضوعي ، فهي لهذا ، بالذات ، تعتبر قوانين « للديالكتيك الذاتي » أي للمعرفة ، للتفكير •

لقد سبق أن قلنا بأن الطريقة العلمية الحقيقية للمعرفة ، ليست عبارة عن مجموعة من القواعد الكيفية التي يوجدها العقل الانساني • هذا المفهوم لا يأخذ به غير المثاليين • ان الطريقة العلمية هي مماثلة الواقع ذاته ، لذلك فهي الطريقة الصحيحة للبحث في ظواهر العالم الموضوعي ؟ فلكي نعالج الواقع

معالجة صحيحة ، علمية ، لكي ندرسه ونبدله عملياً ، لابد من الاعتماد على قوانينه الخاصة به • والديالكتيك الماركسي يعرفنا على أعم قوانين تطور الواقع كله ، من طبيعة وحياة اجتماعية ، وتفكير أيضاً •

ومن الخطأ ، في هذا المجال ، أن نرى جوهر الطريقة الديالكتيكية في حشر هذه الوقائع أم تلك ضمن أطر القوانين والمفاهيم الديالكتيكية • ليس هذا الامر أكثر من فهم عامي للديالكتيك • وقد حذر كلاسيكيو الماركسية مراراً بقولهم ، إن الديالكتيك ليس مجرد أداة لاثبات الحقائق الجاهزة ، بل هو مرشد للبحث في الظواهر والعمليات الحقيقية ، هو طريقة معرفة الحقيقة الموضوعية •

إن أي قانون ، كما سنرى بعد ، انما يشمل ويعبر عن جوهر كمية عظمى من الظواهر المتماثلة ، وعن علاقتها الداخلية ، أي عن الأمر العام الأساسي الذي يسم هذه الكتلة من الظواهر • إلا أن كلاً من هذه الظواهر تتمتع بخصائص خاصة بها ، ومفعول ينعكس من خلال هذه الخصائص الخاصة بكل ظاهرة على حدة • لذلك يجد القانون في كل عملية ، وكل ظاهرة ، فردية ، تعبيراً خاصاً •

وإذا كان هذا الأمر يخص جميع قوانين العلوم ، فلابد ، من باب اولى ، اخذه بعين الاعتبار عند معالجة أعم قوانين التطور • ان قوانين الديالكتيك تعمل في جميع الميادين : في الطبيعة العضوية وغير العضوية • ففي الطبيعة العضوية تعمل في عالمي النبات والحيوان ، كما تعمل في المجتمع في مختلف المراحل التاريخية ؛ وهي عبارة عن قوانين التفكير في جميع مجالات المعرفة : كالرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجيا والاقتصاد السياسي ، وعلم الجمال ••• الخ • ومن الواضح أن قوانين الديالكتيك ، باعتبارها قوانين عامة تتطور حسبها هذه الظواهر والعمليات المتباينة ، تتبدى فيها بشكل يختلف باختلاف طبيعة كل ظاهرة وعملية •

هـذا الأمر على جانب كبـير من الاهمية حتى لا نذهب الى الاستنتاج

الخاطىء القائم على أن معرفة قوانين التطور الديالكتيكي العامة كافية ، وحدها للنجاح ، آلياً ، في المعرفة والنشاط العملي • إن التطبيق الحسي للديالكتيك ، كطريقة ، على الظواهر الحسية ، بعد أخذ خواصها بعين الاعتبار ، ان الدرس الدقيق لوقائق التطور الحسية وشروطه ، هو ، وحده ، الذي يؤمن النجاح في المعرفة والنشاط العملي • لهذا كان مطلب التحليل الحسي للواقع إحدى أهم خصائص الديالكتيك الماركسي واكثرها تأثيراً • ولهذا بالذات نجد أن أهم مبدأ للديالكتيك يقول : لا وجود للحقيقة المجردة ، والحقيقة هي ، دائماً ، حسية •

والديالكتيك بعيد عن المذهب التخطيطي[1] الذي يحشر مختلف التطورات الحسية الحية فيشكل واحد أو اكثر • وهذا الديالكتيك الماركسي، عندما يشير الى أعم قوانين التطور ، انما يطالب بكشف غنى الاشكال الحسية الذي لا حد له ، أشكال التعبير عن هذه القوانين في الواقع ؛ واخذها بعين الاعتبار •

وهذا يعني أن لابد من النظر الى قوانين ومبادىء التطور الديالكتيكي العامة في وحدتها الوثيقة مع الخاص والوحيد العائدين لكل ظاهرة وعملية • كما لابد من الأخذ بعين الاعتبار ، غنى الأشكال الحسية الذي لاحد له ،أشكال ظهور قوانين الديالكتيك في الواقع •

لهذا عرف لينين الديالكتيك الذي يعكس هذا الفن اللامتناهي من أشكال التطور بأنه « المعرفة الحية المتعددة الجوانب (والتي تتكاثر جوانبها باستمرار أبدي) والفروق التي لا حصر لها بين مختلف طرق معالجة الواقع وتناوله»[2]• و « هذا العدد المتكاثر باستمرار لجوانب » الديالكتيك ، و « الفروق التي لا حصر لها بين مختلف طرق معالجة الواقع » ، انما هو انعكاس لتعقد المادة المتطورة ، ولتعدد اشكالها الذي لانهاية له •

---

(١) المذهب التخطيطي (شيماتيزم) يعني وضع مخططات مسبقة لتفسير الظواهر المختلفة حسب هذه المخططات تفسيرا تعسفيا •

(٢) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٢٣٠ •

ولننتقل الآن الى تفصيل اعمق لجوهر الديالكتيك وقوانينه.ومقولاته • ولنبدأ بمقولات الديالكتيك أمثال العلاقة العامة للظواهر ، واشتراط احداها الأخرى • ان الحديث عن هذه المقولات امر لابد منه لتعميق بحث قوانين الديالكتيك الأساسية •

٢ : ـ العلاقة المتبادلة بين الظواهر

السبب والنتيجة

أول ما يلفت انتباهنا عند النظر الى المادة المتحركة هو العلاقة المتبادلة الشاملة بين الظواهر ، واشتراط بعضها بعضاً ، وتداخلها اللا نهائي •

إن سير تطور المعرفة العلمية يبرهن على التبعية المتبادلة والعلاقة القائمة بين مختلف الظواهر ، القائمة بين جميع نواحي كل ظاهرة على حدة ، هذه العلاقة التي تنشأ عنها عملية الحركة الموحدة الجوانب في العالم كله • وقد أثبت العلم أن العالم عبارة عن كل واحد ، ترتبط أجزاؤه المختلفة ،وظواهره ، وعملياته ارتباطاً وثيقاً فيما بينها • كما أن مختلف أشكال حركة المادة يتحول بعضها إلى بعض • فالطبيعة العضوية مرتبطة بالطبيعة اللاعضوية المنشئة الأولى • وحياة الناس غير ممكنة من غير التفاعل المتبادل مع الطبيعة • والمجتمع الانساني

لا وجود له خارج الطبيعة • انه جزء خاص منها ، انه شكل خاص لحركة المادة خاضع لا للقوانين العامة فقط ، بل وللقوانين الخاصة به أيضاً • إن نواحي الحياة الاجتماعية المختلفة مترابطة فيما بينها •

وتحمل العلاقة بين الأشياء طابعاً متبايناً : فبعض الظواهر مرتبطة فيما بينها ارتباطاً مباشراً ، في حين يرتبط بعضها الآخر ببعض عن طريق الكثير من الحلقات الوسيطة • الا أن هذه العلاقة تبرز دوماً كعلاقة متبدلة ، وكارتباط وتأثير متبادلين • إن العلاقة المتبادلة بين الاشياء هي علاقة شاملة ، فكل ظاهرة مرتبطة بالأخرى • يقول انجلز : « إن الطبيعة التي تضمنا تؤلف بمجملها منظومة ما ، تؤلف مجموعة ما في العلاقات بين الأجسام • ونقصد هنا بكلمة « جسم » كل واقع مادي ، بدءً من النجوم ، وانتهاءً بالذرات » (١) •

إن المادية الديالكتيكية لاتعمل على اختراع العلاقات اصطناعياً ، بل تضع أمام العلم مهمة الكشف عنها في الواقع الموضوعي ذاته • واستيعاب الشيء يعني دراسته مع جميع علاقاته والأشياء الوسيطة التي تربطه بغيره •

السببية هي أحد أشكال القانونية العامة للعلاقات القائمة بين الظواهر • والعلوم جميعها ، عندما تدرس الظواهر ، تحاول كشف أسباب نشوئها وتطورها والتغيرات التي تطرأ عليها ثم موتها • فمعرفة الظواهر والعمليات هي ، قبل كل شيء ، معرفة أسباب نشوئها وتطورها • والانسان عندما أوجد مفهوم « السبب » و « النتيجة » ، إنما عزل هذه أو تلك من نواحي العملية الموضوعية الموحدة • « ولا بد لنا ، من أجل فهم الظواهر كلاً على حده ، من اقتلاعها من العلاقة العامة ، ثم درسها بشكل منعزل • وفي هذه الحال تبرز أمامنا الحركتان المتعاقبتان ، الأولى باعتبارها السبب ، والثانية باعتبارها النتيجة » (٢) •

السبب والنتيجة عبارة عن مفهومين متناسبين • فالظاهرة التي تستدعي

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٤٥ •

(٢) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٤ •

نشوء ظاهرة أخرى ، تبرز ، بالنسبة اليها ، كسبب • وحصيلة أثر السبب هي النتيجة • والسببية هي هذه العلاقة الضرورية بين الظواهر ، التي لابد ، في وجودها ، من أن تنشأ واحدة عن الأخرى • فتسخين الماء ، مثلاً ، سبب تحوله إلى بخار ، لاننا في كل مرة نسخن الماء تحدث عملية تشكل البخار •

لقد تكوّن مفهوم السبب والنتيجة أثناء سير عملية النشاط الاجتماعي ومعرفة العالم • فعرف الانسان ، مثلاً ، بواسطة العمل ، أن الاحتكاك يولد الحرارة •

وتتمتع مقولتا السبب والنتيجة بأهمية كبرى • فيهما يعكس التفكير أهم قانونية للعالم الموضوعي • ومعرفة هذه القانونية ضرورية لنشاط الناس العلمي • فاذا عرف الانسان ، المجتمع ، أسباب نشوء الظواهر أمكنه التأثير عليها ، وتجديدها افتعاليا ، واستدعاءها إلى الحياة ، أو اتقاء نشوئها •

ولكي نقضي على شر ما أو نتقي حدوث كارثة ما (من مرض وقحط وحرب عدوانية الخ •••) لابد ، أولاً ، من معرفة سبب ظهوره • ان جهل السبب الذي ينتج الظاهرة يجعل الانسان عاجزاً ، ضعيفاً ، أمام الظواهر ، أما معرفته به فتتيح للانسان والمجتمع إمكانية العمل عن علم ومعرفة •

إن السبب يسبق النتيجة زمنياً ويستدعيها • ولكن هذا لايعني أن كل ظاهرة سابقة تكون في صلة سببية مع الظاهرة اللاحقة • فالليل سابق للنهار ، ومع هذا فليس هو سبباً للنهار • لاينبغي الخلط بين العلاقة السببية وبين التوالي الزمني للظواهر • فالانسان المؤمن بالخزعبلات يميل الى الاعتقاد بأن الحرب إنما مبعثها ظهور مذنب أو كسوف شمسي سابق لها ••• الخ•

كما لابد من التفريق بين السبب والذريعة • فالذريعة هي الحادث ،الذي يستبق استباقاً مباشراً ، حادثاً آخر ، ويطلق عنان ظهوره ، ولكنه لايولده • والعلاقة بين النتيجة والذريعة موجودة ولكنها ظاهرية وغير جوهرية • كان تقديم لحم متفسخ في الحساء لبحارة المدمرة « باتومكين » ذريعة لانتفاضتهم في حزيران عام ١٩٠٥ • وكان سبب الانتفاضة تفاقم التناقضات بين الشعب وبين

النظام القيصري المتفسخ ، وتعاظم الروح الثورية في الجيش والأسطول • أما تقديم اللحم المتفسخ للبحارة فقد كان ذريعة ، كان دافعاً للانتفاضة ، الا أنه لم يرتبط بالانتفاضة الا خارجياً ، الا بشكل عضوي • فلو لم يكن هذا الحادث لكان غيره باعثاً على الانتفاضة •

إن العلاقة السببية للظواهر تتسم بطابع الشمول والعموم • فكل ظواهر العالم وكل التبدلات تنشأ في أعقاب تأثير السبب • ولا وجود لظواهر من دون أسباب • ان الانسان ليتعرف الى الصلة السببية للظواهر تعرفاً متباينا بدرجة دقته • وقد لانعلم حتى الآن أسباب بعض الظواهر إلا أن هذه الاسباب موجودة موضوعياً • فالطب مثلاً لم يتمكن بعد من معرفة سبب الأمراض السرطانية ، إلا أن هذا السبب قائم ولا بد ان يكتشف في نهاية المطاف• بالامكان إعطاء تعاريف مختلفة للسببية ، وأن تكون لدينا افكار متعددة عن قبول هذه الصيغة الرياضية لقانون السببية أو تلك • الا أن هذا ليس هو الأمر الذي يفرق بين المادية والمثالية في فهم السببية •

إن السببية هي محل صراع بين المادية والمثالية ، لأن كلاً منهما ترجع مصدر معلوماتنا عن السببية الى شيء يختلفُ عن الشيء الذي ترجعه إليه الثانية • المادية تعترف بالعلاقة السببية للظواهر ، وتعتبر هذه العلاقة موضوعية مستقلة عن إرادتنا ووعينا ، كما تعترف بانعكاس هذه العلاقة في دماغ الانسان انعكاساً صحيحاً إلى هذا الحد أو ذاك • أما المثالية فهي اما أن تنكر العلاقة الشرطية السببية لجميع ظواهر الواقع ، أو تستنتج السببية لامن العالم الموضوعي ، بل من الوعي ، من العقل •

ان الفكرة القائلة بأن جميع ظواهر العالم مشروطة ببعضها ، سببياً ، تعبر عن قانون السببية • والفلاسفة الذين يعترفون بموضوعية هذا القانون ، وشمول أثره جميع الظواهر يدعون بالديتيرمينيين (١) • اما الفلاسفة الذين

---

(١) نسبة الى ديتيرمينيزم (من الكلمة اللاتينية Determinare يحدد) وهو المذهب الذي يقول بوجود شرطية سببية شاملة بالنسبة لجميع الظواهر •

ينكرون هذا القانون فيدعون باللاديتيرمينيين • ويتطلب هذا القانون تفسيراً علمياً طبيعياً لجميع الظواهر ، دون اللجوء الى تفسير ظواهر الطبيعة والمجتمع بقوى خارقة تكمن في ما وراء الطبيعة • وعلى هذا فالسببية المادية لاتترك مكاناً لهذه القوى والمعجزات ••• الخ •

يذكر تاريخ الفلسفة بعض الفلاسفة الذين نفوا وجود العلاقة السببية الموضوعية وعلى رأسهم « هيوم » الذي يصيب ، عندما يقول بأن معرفتنا بالعلاقة السببية بين الظواهر تتأتى عن طريق التجربة • ولكنه يخطىء عندما يكمل تسلسل أفكاره ، كما يخطىء في فهم التجربة بالذات • إنه يفهم التجربة على انها نتاج الاحساسات الذاتية ولا تحتوي على أي مضمون موضوعي • اننا نلاحظ في التجربة أن الظواهر تسير واحدة إثر أخرى • ولكن « هيوم » يقول : ١ً : ــ ليست لدينا أية أسس للقول بأن الظاهرة اللاحقة هي نتيجة للسابقة • ٢ً : ــ وليست لدينا أية أسس لاستنتاج شيء ما للمستقبل بناء على تجربتنا السابقة والحاضرة • وهذا يعني أن العلاقة السببية (في رأي هيوم) هي العلاقة المعتادة بين الاحساسات فقط ، والتنبؤات التي تبنى على أسسها ليست إلا توقعاً لهذه العلاقة • إن تجربتنا الماضية تعطينا الحق في أن نتوقع تولد الحرارة نتيجة الاحتكاك ، ولكن ليست لدينا ، ولا يمكن أن تكون لدينا أية ثقة في موضوعية هذه العملية (اي تولد الحرارة) وضرورتها • وهكذا نرى أن العلاقة السببية ، في رأي « هيوم » ، ليست الا علاقة متوالية ، محددة ، بين الاحساسات والأفكار •

بيد أن المادية الديالكتيكية تؤكد ، باعتمادها على معطيات العلم ، أن البرهان على موضوعية السببية إنما هو الممارسة العملية • يقول انجلز : « يمكن لتعاقب ظواهر معلومة من ظواهر الطبيعة تعاقباً منتظماً ، ان يولد فكرة عن السببية ، كالحرارة والنور الناشئين مع ظهور الشمس • الا أنه لا وجود هنا ، بعد ، للبرهان • ولو اعتبرنا هذا برهاناً لكانت ريبيَّة « هيوم » محقة في تأكيدها بأن « الشيء الذي يتكرر بانتظام بعد شيء ما لايمكن أبداً أن نعتبر

أن سبب ظهوره هو هذا ال « شيء ما » ؟ إلا أن نشاط الانسان هو الذي يتحقق من وجود السببية •

فأذا مركزنا ، بمساعدة مرآة مقعرة ، حزمة من الأشعة الشمسية ، وحصلنا منها على النتائج التي نحصل عليها من مركزة إشعاع نار عادية (أي على الحرارة) نكون قد أثبتنا بأن الحرارة منبعثة عن الشمس •

ان الواقع القائم على ان وجود الأسباب لاينتج ، دائماً ، النتائج المتوقعة ، لايدحض السببية الموضوعية ، بل ، على العكس ، يؤكدها • فالضغط على زناد البندقية لايؤدي ، دائماً ، الى اطلاق النار • ولكن هذا الحادث لايطعن في موضوعية السببية ، بل ينبهنا الى وجود سبب آخر (كرطوبة البارود أو عطل الكبسولة ••• الخ) •

ولم يكن « كانت » على وفاق مع « هيوم » في أن السببية ليست غير العلاقة الاعتيادية للاحساسات • فهو قد اعترف بوجود السببية ، ولكن لا في العالم الموضوعي ، بل في عقلنا المدرك • ان التجربة ، في رأيه ، لاتعطينا علاقة سببية ، لأن السببية موجودة بشكل سابق للمحاكمة ، ومخلوقة مع العقل المدرك ، وعلى أساسها ترتبط الادراكات المختلفة في المحاكمة العقلية •

وقد كرر الماخيون والوضعيون والكانتيون الجدد نظريات « كانت » و « هيوم » عن السببية في ألوان مختلفة [1] • يقول ماخ : « لا وجود ، في الطبيعة ، للسبب ولا للنتيجة » و « جميع اشكال قانون السببية ، تنشأ عن توقانات ذاتية » (أي من صنع البشر انفسهم) •

---

(١) لقد تبنى « راسل » فكرة هيوم عن السببية معتقداً أن مفهوم السبب تعميم سابق للعلم لايخدم الا كدليل بسيط على الفعل • وينحصر الفارق بين « هيوم » و « راسل » فيما يتعلق بفهم السببية في أن « راسل » لا يعتبر أن قانون السببية يعتمد على العادة ، كما يعتبر « هيوم » ، بل انه يعتمد على الثقة الحيوانية (البدائية) التي توطدت توطداً عميقاً في اللغة • يقول « راسل »: « ان الثقة في السببية الخارجية لنوع معين من التجربة انما هي بدائية ، وملازمة ، بمعنى معين، لسلوك الحيوان (راسل : « المعرفة الانسانية ، ١٩٥٧ ص ٤٨٩) • ان قانون السببية لايعكس، من وجهة نظر المثاليين ، أية علاقات موضوعية ، بل يعبر فقط عن التعاقب الزمني في تبدل الاحساسات •

وحاول « ايدينغتون » ، الفلكي الفيزيائي،البرهان على صحةاللاديتيرمينية في خطاب له عن « افلاس الديتيرمينية » • فكان يعمل على اقناع مستمعيه بأن القضاء على الديتيرمينية ليس ابتعاداً عن الطريقة العلمية ، بل يزيد في عمق ودقة تحليل الظواهر المبحوثة [(١)] • ترى هل يأتي « ايدينغتون » ببراهين ما جديدة في صالح اللاديتيرمينية ؟ أبداً • انه لايفعل اكثر من اجترار ما قاله « هيوم » منذ زمن بعيد • لنستعرض خط سير محاكمته • يقول « ايدينغتون » بأن جميع النتائج التي نحصل عليها على أساس الاحساسات ، إنما تعود الى برهة ما زمنية سابقة • فنحن ، مثلاً ، نتقصّى ، بطرق كيميائية ، تركيب ملح ما • ان النتيجة التي نتوصل اليها انما تعود ، من حيث الأساس ، لا لهذا الشيء المعين (الملح) ، بل للشيء الذي كان موجوداً قبل القيام بعملية التحليل • أي أننا انطلقنا من النتيجة الى السبب ، ونحكم من الحاضر على الماضي ، وهو أمر لاينبغي ، في زعمه ، فعله • فاذا كان « هيوم » قد دحض وجود القانونية ، وخاصة السببية ، باعتبار أنه ليس بالامكان استنتاج المستقبل من الحاضر والماضي ، فان نظرات « ايدينغتون » هي نظرات « هيومية » من وجه آخر : انه ينكر القانونية في الطبيعة لأنه ليس بالامكان في رأيه استنتاج الماضي من الحاضر •

صحيح أننا عندما نستنتج الماضي من الحاضر قد نتعرض للوقوع في أخطاء ، شأن كل استنتاج فكري • فعند القيام بتحليل كيميائي لمادة ما يمكن أن تستنتج أن العنصر « أ » ناتج عن المادة « ك »،في حين انه ناتج عن مادة أخرى لم نأخذ دورها في التفاعل بعين الاعتبار • بيد ان الممارسة العملية كفيلة بتصحيح هذه الأخطاء ، وهي تتيح الكشف المؤكد عن المواد التي يتأتى منها هذا العنصر أو ذاك • فالتجارب العديدة تؤكد لنا ، مثلاً ، أن الصوديوم والكلور ينتجان ، كيميائياً ، عن ملح الطعام • كما أن هذه الممارسة العملية تجعلنا نتحقق أيضاً من صحة نتائج المحاكمات المنطقية ، المتعلقة بتوضيح العلاقات السببية •

---

(١) ايدينغتون : « انحطاط الديتيرمينية » واشنطن ١٩٣٣ ص ١٤٩ •

يصر الفلاسفة المثاليون العصريون على اسقاط كلمة « السبب » من المفردات الفلسفية ، زاعمين أن السببية ولى زمانها ، شأنها شأن النظام الملكي• وهم يستبدلون قانون العلاقة الوظيفية بقانون السببية • فلا ينبغي ، لهذا ، القول بأن الظاهرة « أ » تولد الظاهرة « ب » ، بل ان « أ » ، و « ب »مرتبطتان احداهما بالأخرى ، و « أ » ترافق « ب » ، دائماً ، سابقة اياها أو لاحقة لها •

إن مفهوم الوظيفة ، أو العلاقة الوظيفية ، هو أحد المفاهيم الاساسية في العلم • وهو يعكس العلاقة القائمة موضوعياً بين الظواهر • فاذا كان لدينا عددان س و ع ، وكان العدد ع يغير مقداره كلما تغير مقدار العدد س ، وفق قاعدة معينة ، أمكننا أن نقول ان هذين العددين موجودان في تبعية وظيفية • العدد ع هو وظيفة بالنسبة الى العدد س ، حسب المعادلة التالية :

ع = و (س)

ويكون أحد هذين العددين متغيراً تابعاً ، والآخر مستقلاً (غير تابع) • فالطريق المقطوع ، مثلاً ، هو وظيفة بالنسبة الى الزمن ، ولهذا فعندما نتحرك بسرعة معينة تزداد المسافة المقطوعة مع ازدياد الزمن •

يذهب بعض فلاسفة البرجوازية ، ولا سيما ممثلا المدرسة الكانتية الماربورغية الجديدة (ناتورب ، وكاسيرير) الى تعميم المفهوم الرياضي عن العلاقة الوظيفية ليشمل جميع العلاقات في الطبيعة والمجتمع ، بعد تأويله تأويلاً مثالياً • انهم يذيبون السببية ، كعلاقة موضوعية للظواهر ، في مفهوم من مفاهيم المنطق المحض ، وهو مفهوم العلاقة بين المقادير ، أو مفهوم العلاقة بين المفاهيم والاحساسات ، كما يفعل بعضهم •

صحيح أن العلاقة بين السبب والنتيجة يمكن ان نتصورها في شكل تبعية وظيفية : فالنتيجة هي وظيفة بالنسبة الى السبب • ولكن هذا يطمس الأمر الأساسي في السببية ، يطمس أن السبب ، كظاهرة حقيقية ، يولد ويشترط النتيجة ، كظاهرة حقيقية ثانية • ففي شكل العلاقة الوظيفية يمكن أن نتصور انواعاً جد مختلفة من التبعية ، بينها التبعية الخارجية ، والقليلة الأهمية ، وحتى

التعسفية • ان المثالي يذيب السببية في التبعية الوظيفية بحجة ان العلم لا يهمه كيف تنشأ الظواهر ، كما لا يهمه ان كان لها سبب للوجود أم لا ، بل يهمه فقط وجود علاقة فيما بين الظواهر (أو المقادير) يمكن التعبير عنها بمعادلة معينة • بيد أن هذه النظرة غير صحيحة •

ان بعض المثاليين يستبدلون العلاقة المنطقية بين الأساس والنتيجة بالعلاقة السببية • بيد انه لا بد من التمييز بين علاقة الظواهر السببية ، وبين علاقة الأساس والنتيجة • فالأساس ، في المنطق الصوري ، هو الفكرة التي تنشأ عنها فكرة أخرى • فقولنا بأن « حرارة الغرفة عادية » ناشيء عن فكرة ثابتة تقول بأن ميزان الحرارة يشير الى الدرجة ٢٠ • فدلالة الميزان هذه ليست سبباً للحرارة العادية في الغرفة ، بل هي أساس للوصول الى النتيجة التي انتهينا اليها عن حرارة الغرفة • فالسببية اذن ليست هي العلاقة بين الأفكار في المحاكمة المنطقية ، بل هي تلك العلاقة التي تربط الظواهر الحقيقية بعضها ببعض ، وتجعل احداها تستدعي الأخرى • إن العلاقة المنطقية للافكار في محاكمتنا (أي علاقة الأساس والنتيجة) هي انعكاس علاقات الأشياء في الواقع ، بما في ذلك انعكاس العلاقة الشرطية السببية بين هذه الاشياء • لا شك أن الفرق بين السبب والأساس لايعني ، اطلاقاً ، انعدام السببية في نطاق التفكير ، وأن ما يعمل هنا هو من العلاقات المنطقية المحضة فقط ، وأن مبدأ السببية في التفكير يتخلى عن مكانه لمبدأ الأساس الكافي[1] • الواقع هو أن كل فكرة مشروطة سببياً •

إن معرفة العلاقة السببية الواقعية تستخدم أساساً لنشاط الناس العملي • فاذا عرفنا الأسباب ، وأثرنا عليها أمكننا خلق الظواهر التي يريدها المجتمع ، أو عرقلة نشوء الظواهر الضارة به ، أو اللا مرغوب بها ، والنضال ضدها •

لقد تعرض مبدأ السببية لهجوم بعض الفيزيائيين الأجانب الذين يؤكدون أن الفيزياء العصرية تدحض الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر لها

---

(١) مبدأ الاساس الكافي ، قانون في المنطق يعتبر ان لكل ظاهرة أسبابا وان بعض هذه الاسباب أساسية وكافية للاعتراف بوجود الظاهرة •

سبب وجودها ، وأن معرفتنا لهذه الأسباب ولشروط عملها تجعلنا نحدد النتائج التي تنشأ عنها • وفي رأيهم ان العمليات التي تحدث في نطاق صغيريات الذرة تخلو من علاقة سببية شرطية ، ذلك أن أي صغيرة ، كالاليكترون مثلاً ، لا تخضع لقانون السببية ، هي تنتقي طريق حركتها بحرية وسط امكانيات كثيرة •

بيد أنه لا وجود ، في الواقع ، لأية حادثة تدحض السببية في عالم ظواهر الصغيريات ، ولا يمكن أن توجد • ان الفيزيائيين الذين ينكرون قانون السببية في هذه الظواهر يعتمدون ، عادة ، على التناسب اللا محدَّد • ولكن هذا التناسب لايدعو إلى نفي السببية في ظواهر عالم الصغيريات • إن قانون السببية لايؤكد سوى ان جميع الظواهر مشروطة سببياً • أما كيف تبرز السببية في بعض الظروف الحسية ، وهل بالامكان أن تحدَّد ، في وقت واحد ، وبدقة متناهية ، سرعة الصغيريات واحداثياتها ، فهذا شيء آخر • وحله يتطلب أخذ الخصائص الحسية للأشياء بعين الاعتبار • ففي عمليات الأجسام الكبيرة يمكن تحديد وضع الأجسام وسرعتها في وقت واحد ، أما في عالم الصغيريات فلا يمكن ذلك•

إن تحديد وضع الصغيريات وسرعتها ، في وقت واحد ، وبدقة متناهية ، أمر غير ممكن • وهذه القانونية التي اكتشفها الفيزيائيون في مجال حركة الأجسام المتناهية في الصغر لا يمكن أن تدخل في نطاق مفهوم السببية ، الذي كان سائداً في العالم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ودخل التاريخ تحت اسم « الديتيرمينيسم اللابلاسي » (نسبة للعالم الفرنسي لابلاس) •

إن شكل الديتيرمينية اللابلاسي ، أي شكلها الميكانيكي ، الناشى على أساس دراسة الحركة الميكانيكية للأجسام الكبيرة ، يفترض امكانية معرفة الاحداثيات والسرعة ، معرفة دقيقة ، في وقت واحد • ولكن دراسة العمليات الذرية تصطدم بخصائص الصغيريات الخاصة (فالاليكترون يتمتع ، في وقت واحد ، بخصائص كوربوسكوليارنية[١] وخصائص تموجية) • ولهذا لايمكننا هنا أن

(١) أي جزئيات الصغيريات من جسم ما •

تطبق مفهومي الاحداثيات والسرعة الموضوعين أصلاً للأجسام الكبيرة بنفس المقدار الذي نطبقهما في هذه الأخيرة •

تزودنا الفيزياء الحديثة بمعطيات عملية غنية تؤيد شمول قانون السببية ، والأشكال العديدة لظهوره • فنستطيع ، مثلاً ، اذا عرفنا زاوية اصطدام الاليكترون والبوزيترون (علماً بانهما يتحولان ، في شروط معينة ، الى فوتونين) ، وسرعة حركتهما ، أن نحدد ، سلفاً ، اتجاه حركة الفوتونين الناشئين عن هذا الصدام • أفليس هذا دليلاً على النسبية في عالم ظواهر الجسيمات ؟ لو لم يعمل قانون السببية في هذا العالم ، لو أن حركة الصغيريات جرت كما يحلو لها ، وبشكل تعسفي ، لأنتج الاليكترون والبوزيترون ، في ظرف ما ، فوتونين ، وفي ظرف آخر فوتوناً واحداً أو بروتونين • إلا أن العمليات في عالم الجزئيات تخضع لقوانين معينة ، ولها تتابع محدَّد • فكيف يمكن الحديث عن التعسف في حركة الصغيريات « الأولية » عندما يتحرك الفوتونان المتكونان في ظروف معينة ، في اتجاه معين ، يمكن التنبأ به سلفاً بعد معرفة زاوية الصدام وسرعة الحركة ؟

لقد دافع الماديون ، قبل ماركس وانجلز ، عن الطابع الموضوعي للعلاقة السببية بين جميع ظواهر الواقع ، وصاغوا أساسه • الا أنهم اقتصروا في بحثهم على الشكل الميكانيكي للسببية ، الذي يبرز السبب فيه ، دائماً ، كسبب خارجي بالنسبة الى النتيجة •

إن القول بأن سببية الشكل الميكانيكي لحركة المادة هي الشكل الوحيد لقانونية علاقة الظواهر في العالم ، يؤدي الى فهم السببية فهماً ميتافيزيكياً • والواقع أن أشكال العلاقة السببية متعددة الوجوه • فالسببية في البولوجيا ، مثلا ، ليست هي السببية في المكانيك والفيزياء والكيمياء • كما أن طابع السببية في ظواهر الحياة الاجتماعية اكثر تعقيداً منه في المجالات الأخرى •

لقد تمكنت المادية الديالكتيكية من التغلب على المفهوم الميتافيزيكي الضيق للسببية • فأظهرت أن الرابطة بين السبب والنتيجة تحمل طابع التأثير المتبادل :

فليس السبب فقط هو الذي يؤثر على النتيجة مولداً اياهـا ، بل ان النتيجـة ايضاً تؤثر على السبب تأثيراً فعالاً ، وتبدله • وفي عملية التأثير المتبادل يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما • « فالأمر الذي نعتبره الآن ، أو هنا ، سببا ، يصبح ، هناك ، أو في وقت آخر ، نتيجة ، والعكس صحيح »[1] • فتطور الرأسماليـة في روسيا ، مثلاً ، كان سبباً في القضاء على حق القنانة ، الا أن القضاء على حق القنانة هذا ، كان ، بدوره ، سبباً لتطور الرأسمالية التالي •

ان التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يعني تأثير احدهما على الآخر تأثيراً متواصلاً ، مما يؤدي الى حدوث تبدل في السبب والنتيجة • فالعلم والانتاج ، مثلاً يتطوران نتيجة التأثير المتبادل لكل منهما على الأخر ، تأثيرا متواصلاً : فالتبـدل الـذي يطرأ عـلى الانتـاج سبب تبـدلات أساسـية في العلم • والاكتشافات العلمية تؤدي الى تطوير التكنيك والتكنولوجيا في الانتاج • إن التأثير المتبـادل يبرز كسبب داخلي (كسبب ذاتي) لتبدل ظواهر الواقـع • والعالم ، باعتباره عبارة عن تأثير متبادل بين مختلف الظواهر ، ليس بحاجة ، من أجل حركته وتطوره ، الى أية دفعة أولى ، ألى أية قوة غيبية خالقة • ولهذا اعتبر انجلز « هيغل » مصيباً في ذهابه إلى ان التأثير المتبادل هو السبب النهـائي الحقيقي لجميع الأشياء ، ومعرفتنا لا يمكن أن تتجاوز حد التبادل المتبادل •

صحيح أن القوى والعوامل المتفاعلة فيما بينها ليست ذات اهمية واحدة • والعلم مجبر على اكتشاف الأسباب المحدِّدة الحاسمة ، في منظومة القوى التي تبادل التأثير •

إن الظواهر المحيطة بالأسباب والنتائج المتفاعلة فيما بينها تؤثر على هذه الاسباب والنتـائج • ومجموع تلك الظواهر يدعى بالشـروط • بعض هـذه الشروط يساعد على ولادة النتائج ، وبعضها يعطل عمل الأسباب • ان معرفـة الاسباب وشروط عملها تمكن الانسان من التنبؤ بالعمليات وتوجيهها • فتحطيم ذرة من الاورانيوم يمكن ان يؤدي ، تبعاً للظروف ، اما الى انفجار قوة جبارة،

---

(١) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ٢٢ •

واما الى توليد الطاقة توليداً بطيئاً • وهو أمر يستخدم في نشاط الناس العملي • فالاشعاعات التي يولدها التفكك اللاانفجاري تستخدم في الطب وعلم الاقتصاد الزراعي وفي غير ذلك من الأبحاث •

ان ظاهرة واحدة يمكن نشوؤها من أسباب مختلفة تبعاً لاختلاف الظروف • كما أن سبباً واحداً يمكن أن يؤدي الى نتائج متباينة • فالطاقة الهائلة الحادثة نتيجة التفكك اللا انفجاري يمكن أن نحصل عليها اما نتيجة تحطيم نواة الاورانيوم أو نتيجة تركيب نواة هيدروجين مع نواة هيليوم •

وعلى الرغم من تنوع صلات السببية المتبادلة بين الظواهر، فانها لا تستنفد كل غنى الصلات المقنونة في العالم • يقول لينين : « ليست السببية ، كما نفهمها عادة ، غير جزء يسير من العلاقة التي تربط بين ظواهر العالم • بيد أنها ليست جزء من علاقة ذاتية بل من علاقة موجودة موضوعياً »[١] • وترتبط الظواهر فيما بينها بمختلف الصلات من زمانية ، ومكانية ، وتلازمية ••• الخ وهذه الصلات مرتبطة مع السببية دون أن تكونها •

٣ : ـ القانون باعتباره صيغة للعلاقة الجوهرية بين الظواهر الوحيد ، والخاص ، والعام

لقد درسنا من قبل قانون السببية وأهميته •فما هو القانون ، وما هي العلاقات التي تتسم بالقنونة ؟

إن القانون ، بأوسع معناه ، هو علاقة محدّدة ضرورية بين الأشياء والظواهر والعمليات ، تنتج عن طبيعة هذه الاشياء الداخلية ، عن جوهرها • ومفهوم القانون هو إحدى درجات معرفة الانسان لوحدة ظواهر العالم الموضوعي وعلاقتها ، وتبعيتها المتبادلة • وقد تكون هذا المفهوم في اعقاب تطور العلم والفلسفة خلال تاريخها الطويل •

---

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ١٣٦ •

ليست كل علاقة بين الظواهر قانوناً • القانون هو تلك العلاقة الداخلية التي تحمل طابعاً جوهرياً ، إنه الامر الجوهري في حركة الظاهرة • ومفهوما القانون والجوهر هما من طينة واحدة ، ومرتبة واحدة • فقانون « منديلييف» مثلاً ، يكشف عن العلاقةالداخلية الجوهريةالقائمةبين وزن العنصرالجوهري، أو ما يسمى الآن بشحنة النواة الذرية ، وبين خواصه الكيميائية• وعندما نقول الجوهر ، فانما نعني العلاقات الداخلية الثابتة • ان الجوهر ، كأمر داخلي ، ينتصب قبالة ناحية الواقع الخارجية المتغيرة • وعندما نقول بأن الظاهرة عبارة عن الجانب الخارجي ، وان الجوهر هو الجانب الداخلي ، لا نعني تقابل الجانبين مكانياً بل تقابلهما من حيث اهميتهما في تحديد صفات الشيء •

ثم ان القانون عبارة عن علاقة ضرورية بين الظواهر • والعلاقات المقنونة تعمل ، في شروط معينة ، بشكل الزامي ، وبقوة محدّدة بالضرورة • فقانون سقوط الاجسام الذي اكتشفه « غاليليه » يعتبر قانوناً لأنه ينطبق لا على جسم واحد فقط ، بل على الاجسام كلها • وهو لا يعتمد على الصدفة ، أو على زمن معين • فالأجسام كلها ، وفي أي زمن كان ، تسقط بالضرورة على الأرض بتسارع قدره ٩٫٨ م/ثا • والقانون لا يمكنه الا أن يعمل فيما اذا توفرت الشروط اللازمة لعمله[١] •

إن العلاقات المقنونة هي نتاج السببية الشرطية للظواهر • فلو لم تكن

---

(١) ان الاصطلاحين : قانون وقنونة ،يعبران عن علاقات من طينة واحدة ، ولذلك فهما غالبا ما يستخدمان بمعنى واحد • الا أن هناك فارقا ما في استعمالهما • فالقانون هو الكلمة المعبرة عن العلاقة الضرورية الحسية القائمة بين الظواهر ، مثلا قانون القيمة القائمة على أساس العمل ، القائل بأن قيمة السلعة تحددها كمية العمل الضروري اجتماعيا لانتاجها ، أما كلمة قنونة فتستخدم ، قبل كل شيء للتعبير عن انتظام الظواهر المتكررة وتواليها • فنجد ، مثلا ، في تعاقب فصول السنة تكرارا منتظما : الخريف يتلو الصيف ، والصيف يتلو الربيع •• الخ • في هذا التوالي والانتظام تبتدي القنونة، كما تبتدي في ظاهرتي الخسوف والكسوف الدوريتين • ثم ان لفظ القنونة يستعمل ايضا للدلالة على عدم عفوية الظاهرة المعنية • ان الماركسية تعلم ان تطور المجتمع عبارة عن عملية ضرورية مقنونة بدقة • هنا لا نشير ، بشكل حسي ، الى قانون معين بذاته ، بل نلاحظ وجود علاقة ضرورية ، فالقنونة نراها هنا كعملية ضرورية مشروطة بأسباب معينة ، وفي هذه العملية يمكن أن يعمل لا قانون واحد ، بل مجموعة كاملة من القوانين •

الظواهر مشروطة سببياً لما تمكنا من الحديث عن القنونة • هل كان بالامكان توفر توال دقيق في فصول السنة لو لم تكن هنالك أسبابه : أي حركة الارض حول الشمس ، وميل محور الأرض نحو سطح مدارها ؟

بيد أن السببية لا تستنفد العلاقات المقنونة كلها • انها ، كما رأينا ، ليست غير جزء من العلاقة المتبادلة الموضوعية ، ذات الأشكال المتعددة التي يكشفها العلم لنا •

ان أهمية العلاقة المقنونة وضرورتها يحددان خصائص القانون الأخرى• فالقانون هو الأمر العام في الظواهر• وهذا يعني أن العلاقة الضرورية المحدّدة ، المعبر عنها بالقانون لاتخص ظواهر منفردة وحيدة ، بل تخص جميع الظواهر أو العمليات التي هي من هذا النوع • فقانون الطبيعة أو قانون المجتمع سمي قانوناً لأنه يعبــر عن أمر عام : عن أن توفر شروط وأسباب معينــة يؤدي ، بالضرورة الحتمية ، في كل مكان وزمان ، الى نشوء ظواهر ، ونتائج معينة • إن قانون الجاذبية الشامل يعبر عن خاصــة ملازمة لجميع أشــياء الطبيعــة بلا استثناء • كما يعبر قانون (بويل ـ ماريوت) عن خاصة لاتلازم الغازات كلها ، بل الغازات المتخلخلة الموجودة في ظروف بعيدةُ عن حالة التحول الى سوائل • بيد أن هذا القانون يعبر عن الخاصة الجوهرية للغازات • إن العلاقة التي ينشئها هذا القانون تحمل ، بالنسبة الى هذه الظروف ، طابع الضرورة ، وهي شاملة للغازات المذكورة لأن الغازات عندما توجد في مثل هذه الظروف تنشأ بين حجمها وضغطها علاقة دقيقة معينة •

ودرجة شمول القوانين تقل او تكثر تبعاً لاتساع حلقة الظواهر التــي تشملها هذه القوانين • فهناك قوانين تعمل في جميع الظواهر الطبيعية (كقانون حفظ الطاقة وتحولها) ، كما توجد قوانين تخص بعض اشكال حركة المادة (كالشكل البيولوجي مثلاً) • ثم ان القوانين الاجتماعية متباينة في درجــة عموميتها : بعضها يعمل في جميع التشكيلات ، وبعضها لا يعمل الا في تشكيلات معينة • ومهمة الفلسفة دراسة اكثر القوانين عمومية وهي القوانين التي تعمل في الطبيعة والمجتمع والتفكير •

والقانون ، باعتباره أمراً عاماً شاملاً ، لا يوجد خارج الظواهر والعمليات ... الخ المنفردة ، وبمعزل عنها ، بل انه موجود فقط في صلة معها .

إن صفة الشمول هي الصفة العامة الموجودة موضوعياً ، والمشتركة بين اشياء واقعية . وتتجلى هذه العمومية المشتركة في وحدة خصائص هذه الأشياء ووحدة سماتها وشاراتها . ونحن نعني بكلمة وحيد أو منفرد ، تلك الأشياء والظواهر والعمليات والحوادث الواقعة في الطبيعة والمجتمع ، ولكن بعد أخذ كل واحدة على حدة . ويمكن أن تبرز مجموعة كاملة من الأشياء والظواهر كشيء وحيد عندما تنظر إليها بالنسبة الى مجموعة أخرى أكثر منها شمولاً ، ومرتبطة بصفات مشتركة معينة .

والى جانب مقولتي العام والوحيد يعالج العلم مفهوم الخاص ، الذي يبدو حلقة الوصل بين العام والوحيد . إن الخاص هو عام بالنسبة الى الوحيد ، أما بالنسبة الى العام فهو وحيد . القمح ، مثلاً ، وحيد ، والحبوب ، خاص ، والنبات عام . فالحبوب ، كخاص هي عامة بالنسبة الى القمح ، ووحيدة بالنسبة الى النبات .

وتتباين نظرة الاتجاهات الفلسفية الى العام وعلاقته بالوحيد بتباين هذه الاتجاهات . فالمثالية الموضوعية تذهب الى جعل العام أمراً مطلقاً : انه سابق للوحيد وخالق له . الى هذا ذهب « هيغل » عندما قال : « العام هو أساس الوحيد وجذره ، ومادته »[1] . وهو يعتبر أن الثمرة على العموم ، والمعدن على العموم ، يوجدان بشكل مستقل وسابق للثمار والمعادن الوحيدة .

وهناك فلاسفة آخرون يذهبون ، على العكس ، الى نفي موضوعية العام ، والى الاعتراف بالوجود الواقعي للوحيد فقط . وهم ينظرون إلى العام كنتيجة لنشاط فكر الانسان . فيقول « لوك » ، مثلاً ، « ان العام والشامل لايخصان وجود الاشياء الواقعي ، بل هما من وضع العقل واختراعه للاستخدام الخاص ،

---

(١) هيغل : « المؤلفات » الجزء ، عام ١٩٣٩ ، ص ٢٨٣ .

وهما لا يخصان الا القوانين ، والكلام ، والأفكار »[1] • أما الوضعيون والفينوميناليون[2] فيأخذون بوجهة النظر القائلة بأن العام يعبر عن أمر غير موجود ، ولا يمكن ان يحدث في الواقع •

إن المثالية الموضوعية، شأنها شأن الفينوميولوجيا والوضعية تفصل كلها فصلاً ميتافيزيكياً بين العام والوحيد ، مما يؤدي إما الى أفكار صوفية عن القوة الخلاقة، والقدرة على فعل كل شيء ، اللتين يتصف بهما العام ، وإما الى النظرة المثالية الذاتية التي تنظر الى العام (بما فيه قنونة الطبيعة والمجتمع) كنتيجة لابداع الوعي الانساني •

أما الديالكتيك المادي فهو يعترف بموضوعية الوحيد والعام ، وبأنهما يوجدان بشكل لاينفصل أحدهما فيه عن الآخر • وقد لاحظ لينين« ان المنفرد لايمكن أن يوجد الا في العلاقة التي تؤدي إلى العام • والعام لا يوجد الا في المنفرد ، ومن خلاله • وكل منفرد هو ، (على هذا الشكل أو ذاك) ، عام • وكل عام هو (جزء أو ناحية أو جوهر) للمنفرد • كل عام يشمل ، تقريباً فقط ، الأشياء المنفردة كلها • وكل منفرد يدخل ، بشكل غير كامل ، في العام ••• الخ • ثم إن كل منفرد مرتبط بآلاف المسالك بنوع آخر من المنفردين»[2] •

تظهر صلة الوحيد بالعام في كل مكان • فالكيميائي ، عندما يقوم بدراسة عنصر من العناصر ، كالهيدروجين مثلاً ، انما يحدد علاقة هذا العنصر بالعناصر الأخرى • إنه يجد أن الهيدروجين عبارة عن غاز • فالعام (الشكل الغازي) لا يوجد الا في الوحيد (هيدروجين ، اوكسجين ، آزوت •••) • والعام هو احد خواص الوحيد (الهيدروجين) ولا يستنفذ جميع غنى الشيء • الهيدروجين ، شأن أي وحيد آخر ، يتمتع بعدد لا يحصى من الخواص • اذ أن الظاهرة الوحيدة ذات خواص عامة تشترك بها مع الظواهر الاخرى ، وأخرى خاصة تخصها وحدها ، وتميزها عن غيرها من الظواهر • وهكذا فالعام والخاص

---

(١) جون لوك : « حول الفكر الانساني » ١٨٩٨ ص ٤٠٨ •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء العشرون ص ١٨٢ •

موجودان في الظاهرة في ترابط وثيق • ولا تمكن معرفة العام الا عن طريق دراسة ومقارنة عدد كبير من الأشياء الوحيـدة • فالمعرفة هي الارتقـاء من الوحيد الى العام عَبر الخاص •

وفي سير التطور الموضوعي يمكن للوحيد أن يتحول الى عام ، يمكن أن تصبح الظاهرة الوحيدة قنونة عامة للتطور • والانتقال من الوحيد الى العام عبر الخاص يمكن أن يُرى ، في المجتمع ، في مثال تطور أشكال القيمة • فشكل القيمة البسيط (فيه تجد قيمة السلعة الوحيـدة تعبيرها في قيمـة سلعة وحيدة أخرى) كان الشكل البدائي للتبادل ، عندما كان هذا التبادل يحمل طابع أفعال وحيدة وعرضية • ومع تطور المجتمع أصبح التبادل أكثر انتظاماً، وانتقل شكل التبادل البسيط الى شكل أكثر تطوراً ، واصبحت قيمة السلعة تجد تعبيرها في قيم عدة سلع تقوم بدور المعادل • وفي النهاية انتقل التبادل من افعال وحيدة الى عمومية ، وظهر شكل القيمة العام :اي ان السلع كلها اصبحت تتبادل على أساس سلعة واحدة هي المعادل العام (النقد) • إن الشكل البسيط للقيمة ، وشكلها المتطور ، وشكلها العـام ، تلعب ، بالنسـبة الى بعضها ، دور الوحيد ، والخاص ، والعام •

ان فهم العلاقة المتبادلة ، والانتقال المتبادل بين الوحيد والخاص والعام ، يتمتع بأهمية معرفية وعملية كبيرة • وهو يساعد أيضاً على النضال ضد الجمود العقائدي ، وضد التحريفية ، في تقدير ظواهر الحياة الاجتماعية •

المحرف يتجاهل العام في الظواهـر ، عندما يجعل الوحيـد والخاص مطلقين • ولكن كل وحيد يتضمن ، كعنصر، العام الذي يوجد بشكل حقيقي• ان الظواهر الوحيدة موحدة بالقنونة العامة التي تتوجب معرفتها من اجل فهم تطور الظواهر وتوجيهها عملياً • وتعرفنا الماركسية اللينينية على القنونات العامة لحركة السير نحو الاشتراكية • وتنحصر مهمة الأحزاب الشيوعية، في مختلف البلدان ، في تطبيق الحقيقة العامة الكامنة في الماركسية اللينينية تطبيقاً خلاقـاً على الظروف الموضوعية لكل بلد على حدة•مثل هذا الجمع بين العام والوحيد،

هو الذي يؤدي إلى فهم الواقع ، علمياً ، ويؤمن الادارة الصحيحة في القضية الجبارة قضية تحويل المجتمع اشتراكياً •

الجامد عقائدياً لا يلتفت إلا الى العام في الظواهر المختلفة ، ويتجاهل الوحيد أو الخاص ، النوعي • وهو بهذا ، يحاول حشر الظواهر كلها ضمن إطار واحد ، متجاهلاً الشروط الخاصة لتطور الظواهر في هذا البلد أو ذاك، وفي هذا الزمن أو ذاك ، والوضع الحسي لهذا التطور ، وخواصه النوعية • وبدون معرفة هـذه الخواص لا يمكن فهم فعل القنونات العامـة • إن الجامد عقائدياً ، إذ يلم بالصيغ التي يعبر بها عن العام ، لا يلتفت إلى تطبيق هذه الصيغ على الوضع الحسي المتبدل • وفي مطلب المعالجة الحسية هذا يستقر جوهر متطلبات الطريقة الديالكتيكية • ويؤدي تجاهل خواص الوحيد والخاص إلى تشويهات وأخطاء فادحة • فكيف يمكن بناء الاشتراكية في وطن ما دون أخذ خصائصه النوعية بعين الاعتبار (من تاريخ وتقاليد وخصائص قومية •• الخ)؟

لقد أعطى الحزب الشـيوعي السوفييتي ، بنشاطه ، صـوراً عن الفهم الصحيح لقضايا العام والخاص ، وعن حلها الموفق • ويعتبر برنامجه الصورة المشرقة لمثل هذا الفهم الديالكتيكي • فهو ، إذ ينطلق من الأفكار الأساسية للماركسية اللينينية ، يقوم بتحليل حسي للظروف الراهنـة ، ويحدد طرق حركة مجتمعنا نحو الشيوعية •

وبما أن القانون يعكس العام في الظواهر ، لا جميع خصائصها ، فان الظاهرة الوحيدة تظل أغنى من القانون • فقانون الثورة الاجتماعية الذي يبين حتمية انتقال المجتمع ، في درجة من درجات تطوره ، الى تشكيلة اقتصادية أخرى ، لايستنفذ كل غنى محتوى الثورات الاجتماعية ، في الأزمان والأوطان المختلفة • وكل ثورة اجتماعية منفردة أغنى من هذا القانون ، واكثر تنوعاً •

ان القانون هو الأمر القوي ، الوطيد ، المتكرر ، المتماثل ، في الظواهر • والظواهر هي متشابهة ومتباينة في آن واحد • وبالامكان ، دائماً ، وجود ناحية أو أكثر تتشابه بها أشياء الواقع المغرقة في تباينها • ان الديالكتيك ينكر تماثل

الظواهر المطلق ، ولكنه يعترف بوجود التماثل النسبي (تماثل الظواهر في بعض الخواص والنواحي) •

أما الفلاسفة اللاديتيرمينيون فينكرون موضوعية القنونات • وهم يعتبرون أن الظواهر لا تتحدد بالأسباب والضرورة ، بل ترتبط بالآلهة «بالعقل الأعلى»، بالارادة أو الأهداف • ورغم تباين اشكال هذه المدرسة ، فهي تؤدي ، في نهاية المطاف ، الى استبدال النظرة الدينية بالنظرة العلمية • يقول لينين : « إن تجريد العلم من القوانين ، ليس هو ، عملياً ، غير الالصاق التسري للقوانين بالديانة »[1] •

يذهب اللاهوت صراحة الى أن جميع ظواهر الطبيعة انما نشأت وتتحرك بارادة خارجة عن الطبيعة ، كما أن النظام في العالم مبعثه هذه الارادة • وهذه النظرة الدينية يدعو اليها الفلاسفة المثاليون ، على اختلاف ألوانها • هكذا نرى « المذهب الشخصي » مثلاً ، وهو أحد ألوان الفلسفة الحديثة ، ينطلق من أن الاساس الأول للكون إنما هو « الفرد الاعلى » ، « خالق العالم » ، الآلهة ؛ وليست قوانين الطبيعة والمجتمع إلا مظاهر لارادة آلهية •

ثم إن الكانتيين أيضا ينكرون الطابع الموضوعي للقنونة • وهم يعتبرون أن قوانين الطبيعة إنما هي من صنع عقلنا المدرك • وفي الطبيعة ذاتها ، في عالم الظواهر ، لا توجد مفاهيم الضرورة ، والجوهري ، والعام ، لأن التجـربة لاتدلنا على وجودها • ومحاكماتنا عن العالم الخارجي تكتسب طابع العمومية ، لأن في أساسها ، على حد قولهم ، تكمن مقولات عقلنا المدرك العامة السابقة للوجود •

أما النظرة المثالية القائلة بأن العقل يملي القوانين على الطبيعة فهي منتشرة انتشاراً واسعاً في الفلسفة الوضعية • هكذا يقول الماخي « بيرسون » : « إن القانون ، بمعنى الكلمة العلمي ، هو ، من حيث الجوهر، نتاج الروح الانسانية، وليس له أي معنى خارج الانسان • وهو مدين بوجوده للقدرة الخلاقة التي

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء العشرون ص ١٨٢ •

يملكها العقل المفكر • ومن الأصوب التأكيد بأن الانسان يعطي الطبيعة القوانين ، لا العكس »[1] •

ويؤكد الفيلسوف « فيتغينشتين » ، وهو من أنصار الفلسفة الوضعية الجديدة ، أن قانون السببية ليس له من القانون إلا شكله • إنه اسم مجانس للقانون ، لا تعبيراً عن العلاقة الموضوعية للظواهر • «وحوادث المستقبل لانستطيع استنتاجها من حوادث الحاضر • والايمان بالصلة السببية ليس إلا من باب الاعتقاد بالخرافات » • إن المحاكمات التي يطلق عليها العلم اسم القوانين ليست ، في زعم هؤلاء ، إلا جملاً لغوية، وهي لا تعكس سلوك الأجسام المادية ذاتها »[2] •

إن الفلاسفة المثاليين ، إذ ينفون موضوعية القوانين ، يحاكمون أحياناً كما يلي : القانون عبارة عن الأمر الجوهري في الظواهر • إلا أن الانسان ذاته ، في الواقع ، عندما ينطلق من متطلباته ، يجعل من بعضها أمراً جوهرياً ، ومن الأخرى غير جوهرية • ويتساءل البراغماتي « شيللر » كيف يمكن ان نعرف ، إذن ، ما هو جوهر الانسان ؟ إن اللاهوتيين يذهبون الى أن الأمر الجوهري في الانسان هو في أن له روحاً • أما الطبيب فيذهب إلى أن الأمر الجوهري فيه هو في أن له جسماً ، والطباخ في أن له معدة ، والغسالة في أنه يلبس ثياباً[3] • فاذا انطلقنا من وجهات النظر المختلفة هذه ، وجدنا أن جميع الأمور المذكورة جوهرية بالنسبة إلى الانسان ، بنفس القدر الذي هو جوهري فيه كسبه للنقود • إن الجوهري بالنسبة إلى الشيء ذاته لانستطيع معرفته ، كما أن وضع القضية عن جوهر الشيء يدعى أنه لا معنى له •وما دمنا لانعترف بالجوهر الموضوعي ، فلا يمكن أن نعترف بالقنونة الموضوعية أيضاً •

بيد أن جوهر الشيء ، في الواقع ، لا يتحدد حسب رأي الناس ،

---

(١) ك • بيرسون « قواعد العلم » ١٩١١ ص ١١١ •

(٢) ل• فيتغينشتين : Tractatus Logico - Philosophicus لندن ١٩٤٩ ص ١٠٩ •

(٣) شيللر : « المنطق الصوري » لندن ١٩١٢ ص ٥٤ •

ومصالحهم العملية • فالانسان ، مثلاً ، شأنه شأن أي موضوع آخر للمعرفة يتمتع بالعديد من النواحي والخواص التي تثير اهتمام الباحث • ولكن أي اهتمام كان لا يحدد جوهر الانسان • وليس بالامكان فهم هذا الجوهر الا اذا أوضحنا خصائصه التي تميزه عن عالم الحيوان • آنذاك يتبدى أن الانسان يتمتع بنوعية جوهرية تميزه عن غيره من الأحياء ، هي أنه يصنع أدوات الانتاج ، ويعمل • لذا فان جوهر الانسان يتحدد بمجموعة من العلاقات الاجتماعية المحددة تاريخياً •

صحيح أن الشيء يخضع لتأثير قوانين كثيرة ، لأنه يوجد في إطار علاقات عديدة مع غيره من الأشياء • إن فروع المعرفة العلمية ، المختلفة ، تدرس القوانين المختلفة التي يخضع لها جسم ما بذاته • فالكيميائي يهتم بالماء من حيث تركيبه الكيميائي وتفاعله مع الأجسام الأخرى ، في حين يهتم الفيزيائي به من نواح أخرى : يهتم بتبدل أوضاعه الفيزيائية العامة ، بنقله للحرارة، والكهرباء ••• الخ • لهذا فالكيمياء والفيزياء تكشفان عن قوانين مختلفة تعمل في جسم واحد • إلا أنه لا الكيمياء ولا الفيزياء بخالقة للقنونة ، بل هي تدرسها• وتوفر قنونات عديدة لجسم واحد ، لايمكن استخدامه حجة للدلالة على ذاتية هذه القنونات وتبعيتها للانسان ومتطلباته وتفكيره •

ثم إن قوانين الطبيعة والمجتمع لا تتبدى بشكلها البسيط ، بل تتعقد عند ظهورها بسبب ظروف عديدة • فمفعول هذا القانون أو ذاك يصطدم بعدد وافر من القوى والميول المتعاكسة التي عليه أن يشق طريقه من خلالها • فالقانون الاقتصادي الرأسمالي ، مثلاً ، القائل بميل معدل الربح الى الهبوط ينتج عن التضاؤل النسبي لتوظيف الرسمال المتحول بالنسبة الى الرسمال الثابت • وينشأ هذا التضاؤل ، بدوره ، عن التقدم التكنيكي ، وعن تعاظم بنية الرسمال العضوية • ومع هذا ، فان هبوط معدل الربح لا يبرز الا كميل مسيطر ، نظراً لأسباب كثيرة •

والقول ذاته يمكن قوله في قانون افتقار الشغيلة في ظلال الرأسمالية

ذلك أن مفعول هذا القانون معارض بمفعول قانون آخر ، هو قانون نضال البروليتاريا الطبقي ، وكذلك تنافس النظامين : الرأسمالي والاشتراكي • ولهذا لا يتبدى قانون افتقار البروليتاريا بشكل واحد في البلدان المختلفة • إن نهب شعوب المستعمرات ، وعلف الارستقراطية العمالية في الوطن الأم على حساب هذه الشعوب ، يؤثران أيضاً على عدم تساوي مفعول قانون افتقار البروليتاريا •

ويعمد بعض المثاليين الى استبدال الغائية بالقنونة الموضوعية في الطبيعة والمجتمع ، معارضين القانون بالهدف معارضة ميتافيزيكية • وقد وجدت ، حتى في الفلسفة اليونانية القديمة ، نظرة تذهب إلى أن الظواهر كلها إنما تنشأ من أجل غاية نهائية ما ، من أجل سبب غائي مستقل ، في رأيها ، عن الأسباب المؤثرة • وهي تزعم أن نشاط الناس ، وحياة المجتمع ، وجميع الحركات في الطبيعة ، انما تتحدد بهذا الهدف ، بهذه الغاية • كما أن الكون ذاته قد نظم من أجل هدف سام ما (الآلهة) • ان هذا التفسير لظواهر الكون ، المنطلق من الأهداف النهائية التي تنحو اليها خواطر الطبيعة ، حسب زعم أصحابه ، يسمى « تيليولوغيا » •

لقد نشأت « التيليولوغيا » كتبرير للاهوت • واشترك الفلاسفة المثاليون ورجال اللاهوت في صياغة برهان تيليولوغي ـ فيزيائي لاثبات وجود الآلهة • ويذهب انصار هذا البرهان إلى إن غائية تنظيم الطبيعة ، وما يتصف به هذا التنظيم من عقلانية ، انما هما شاهدان على عقلانية السبب الذي أوجدها ، اي شاهدان على وجود كائن مفكر ، عاقل ، هو الاله • ويقول الفيلسوف الألماني « ليبنيتز » بوجود انسجام وتوافق في العالم أوجدهما الاله مسبقاً ، وعالمنا ذاته هو أحسن العوالم الممكنة » •

وقد سخر الشاعر الألماني « هايني » ، في كتابه « رحلة عبر غارتس » من « التيليولوغيا » التي تذهب الى أن كل شيء في الطبيعة مكون بشكل محكم

وغائي إلى حد أن الأشجار هي خضراء لأن اللونالأخضر مفيد للعين... وأن الاله أوجد الحيوانات القرنية لأن الحساء باللحم يقوي الانسان ، كما خلق الحمير ليستخدمها الناس للمقارنة ، وخلق الانسان نفسه ليأكل الحساء باللحم وحتى لا يكون حماراً » .

لقد انتقد الماديون هذه النظرة التيليولوغية . فعارضها ديموقريط ، وأبيقور ، ولوكريتس ، وبيكون ، والماديون الفرنسيون وغيرهم ، بمبدأ السببية الشرطية في ظواهر الطبيعة . في حين عارضها ماديو القرنين السابع عشر والثامن عشر بفهم السببية ميكانيكياً مما أدى الى محدودية المادية الميتافيزيكية . هكذا فسروا كنازة الجلد الذي يحفظ جسم الانسان ، بتقلص المسامات تحت تأثير الهواء البارد . وكان عدم تطور علم البيولوجيا لايتيح تفسير حوادث الغائية النسبية في الطبيعة الحية ، تفسيراً صحيحاً .

أما المادية الديالكتيكية فهي ، بدحضها النظرة التيليولوغية عن العالم ، أعطت تفسيراً عقلانياً ، صحيحاً ، للهدف ولعلاقته بالقنونة الموضوعية . إن الطبيعة لا تضع أهدافاً . صحيح أننا نصطدم ، في العالم العضوي بما يسمى بالغائية ، وتلاؤم النبات والحيوان مع الوسط المحيط ، والاعضاء مع بعضها ، بالبنية « الغائية » للأعضاء . هكذا يغير بعض الحيوان لون جلده حسب فصول السنة . فالأرنب أبيض في الشتاء ، ورمادي فيالصيف. إلا أن التلاؤم«الغائي» ليس هو النشاط الواعي الموجه من أجل هدف معين . فلا الحيوان ولا النبات، من باب أولى ، بواضع لذاته أي هدف كان . وليست « الغائية » ، في العالم العضوي ، أكثر من التلاؤم مع الوسط ، وهذا التلاؤم نتيجة مقنونة لتأثير العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية ، العضوي .

لقد أعطى « داروين » تفسيراً صحيحاً « للغائية » في الطبيعة ، وأبان نسبية ووحدانية جانب البنية الغائية في الكائنات الحية. إن التلاؤم الذي اكتسبه الحيوان والنبات مع الوسط لم ينشأ إلا كنتيجة لمبدأ الاصطفاء الطبيعي الذي يقول بأن كل ما لا يتلاءم يموت في معركة الصراع من أجل البقاء . فتلاؤم

النبات والحيوان الغائي انما هو نتيجة العلاقة المتبادلة بين الكائن الحي وظروف وجوده • وهو يتصف بالنسبية ، ويفقد معناه اذا ما اقتلع من هـذه الظروف الحسية • إن اللون الأبيض ذو غاية ونافع للأرنب في ظروف الشتـاء ، ولكنه يصبح مضراً إذا لم تتغط الأرض بالثلج •

إن المادية الديالكتيكية ، إذ تنتهج الديتيرمينية بدقة ، لا تستبعد الأهداف ولا حرية فعل الانسان • وفضلاً عن ذلك ، فان النظرة الـديتيرمينيـة هي ، وحدها ، التي يمكنها أن تعطي التقدير الصحيح الدقيق لدور الهدف ، ونشاط الناس المتوجه لنوال هذا الهدف • وفي الطبيعة تتبـادل التأثير قـوى عمياء غير واعية ، وتتبدى القوانين العامة من خلال التأثير المتبادل لهذه القوى • ليس في الطبيعة أهداف واعية • أما المجتمع فيتطور نتيجة عمل الناس المتمتعين بالوعي ، والذين يرسمون أهدافهم •

إن الانسان لايحدث التغييرات في الطبيعة بمجرد وجوده ، بل إنـه يجبر الطبيعة ، بعمله ، على خدمة أهدافه • وقد جعل المثاليون خاصة نشاط الانسان هذه مطلقة ، وفصلوا الهدف الواعي لنشاط الانسان عن القنونات الموضوعيـة الناشئة عن النشاط ، وعمموا مفهوم الهدف على الطبيعة •

إن الاهداف التي يضعها الانسان أمامه في نشاطه العملي يمكن أن تتلاءم، او أن تتعارض مع قنونات العالم الموضوعي • وكلما تعرف الانسان على قـوانين الطبيعة والمجتمع تعرفاً أدق ، استطاع أن يضع أهدافاً اكثر صحة ، وقائمـة على أسس علمية •

هكذا نرى أن هدف نضال البروليتاريا الثوري هو إقامة نظام عادل ، اقامة الشيوعية ، على أنقاض الرأسمالية • هـذا الهدف لنضال البروليتاريا الطبقي مشروط سببياً • إنه ناتج عن قنونات تطور المجتمع الموضوعيـة التي عرفهـا الانسان •

وعندما تُستخلص أهداف الانسان من قوانين تطور العـالم المـادي التي

اكتشفها ، يصبح نشاطه العملي من أجل تحقيق الأهداف ناجحاً • وعلى هذا ، فان معرفة القوانين تتيح للانسان إمكانية التنبؤ بالنتائج القريبة والبعيدة لتدخله النشيط في سير العملية الطبيعي • أما اذا قامت أهداف الانسان على معرفة العلاقات السطحية اللاجوهرية ، فقط ، فان نشاطه العملي يمكن أن يتعثر • إن وضع الهدف بشكل علمي صحيح ، والانتقاء الصحيح لوسائل تنفيذه ، يمكنان الناس ، من استخدام القوانين الموضوعية لفرض سيطرتهم على قوى الطبيعة والمجتمع •

وهكذا ، فالاعتراف بطابع القوانين الموضوعي لايعني اطلاقاً عجز الانسان أمام قوى الطبيعة والمجتمع • والجبرية بعيدة عن المادية الديالكتيكية بعد الذاتية عنها • صحيح أنه لايمكن القضاء على قوانين الطبيعة والمجتمع ، ولكن هذا لايعني أن الناس عاجزون عن تغيير الشروط التي تنشأ على أساسها هذه القوانين أو تلك ، وبالتالي ، لايعني انهم عاجزون عن تغيير مفعول القوانين ذاتها • وهكذا ، فمع القضاء على شروط وجود المجتمع الرأسمالي يبطل مفعول قوانين الرأسمالية • وبدلاً من هذه القوانين تنشأ ، على أساس الشروط الجديدة الناشئة ، قوانين جديدة ، هي قوانين الاشتراكية •

ويختلف الشكل الذي يتبدى فيه القانون ، تبعاً لاختلاف الظروف •إن قوانين واحدة يمكن أن تظهر على أشكال مغرقة في التباين • فهناك قوانين طبيعية خالدة ، ولكن شكل ظهورها يتباين بتباين الشروط • يقول إنجلز : « إن القوانين الطبيعية الخالدة تتحول أيضاً ، اكثر فأكثر ، إلى قوانين تاريخية • فكون الماء سائلاً بين درجتي الصفر والمائة سنتغراد ، هو قانون أبدي طبيعي ، ولكن حتى يعمل هذا القانون لابد من توفر ١ : ــ الماء ، و ٢ : ــ الحرارة المعينة ، و ٢ : ــ الضغط العادي • ليس للماء وجود في القمر ، ولا تحتوي الشمس منه غير عناصره المكونة له • لهذا ، فالقانون المذكور لا وجود له في الجرمين السماويين المذكورين » [١] •

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٩ •

ثم إن كثيراً من القوانين الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية لاتعمل إلا في شروط الارض فقط • أما في الأجرام السماوية الأخرى ، حيث تتوفر ظروف متباينة ، فتعمل قوانين أخرى • واذا » رغبنا بالحديث عن القوانين الطبيعية الشاملة ، المطبقة بشكل واحد على جميع الأجسام ، بدءً من الضباب وانتهاءً بالانسان ، فلن نجد لدينا غير قانون « الثقل » ، ولربما أمكن إيراد أعم صيغة لنظرية تحول الطاقة ••• الا أن هذه النظرية ذاتها تتحول ، اذا ما طبقت بالتوالي ، على جميع ظواهر الطبيعة ، إلى تصوير تاريخي للتغيرات الجارية واحداً بعد آخر في أية منظومة عالمية منذ نشوئها إلى فنائها • أي أنها تتحول إلى تاريخ تسيطر ، في كل مرحلة من مراحله،قوانين أخرى،أي أشكال أخرى لظهور الحركة الشاملة ذاتها • وهكذا ، نجد أنه ما من شيء يحوز معنى شاملاً مطلقاً سوى أمر واحد هو الحركة •

هكذا نجد أن عمل القوانين مرهون بشروطها • كما أن أشكال ظهور هذه القوانين تتبدل حسب الظروف الحسية المتباينة • إن الانسان الذي يحيط بالقوانين وبأشكال ظهورها العديدة ، يستطيع تبديل الظروف واستخدام القوانين في حاجاته العملية • أنه يستطيع لجم القوى العفوية في الطبيعة والمجتمع ، والسيطرة عليها • كما يستطيع خلق بعض شروط عمل القانون ، والقضاء على الأخرى ، حاصلاً ، بذلك ، على نتائج متباينة • والأهمية العملية لمعرفة قوانين الطبيعة والمجتمع من قبل الانسان ، تستقر في السيطرة على هذه القوانين ، وفي استخدامها لصالح المجتمع وأهدافه ، وفي السيطرة على قوى الطبيعة والمجتمع ، وتوجيهها توجيهاً نافعاً يتفق وأهداف الانسان •

بيد أن الاحاطة بقوانين الطبيعة والمجتمع ، واستخدامها استخداماً عملياً ، يصطدمان بصعوبات جمة • ان القانون لاتستطاع رؤيته ، ولا يمكن لمسه ، وهو لا يدرك بالحواس المباشرة • إن قوانين الميكانيك السماوي ليست مكتوبة ، كما يقال ، في السماء • واكتشاف القانون هو نتاج عملية طويلة ، نتاج عملية النشاط التجريدي للتفكير الانساني ، أي نتيجة عملية المعرفة •

يشتمل العلم على مفهوم يدعى ب « القنونة الاحصائية » التي لا تعمل ، الا ، بالنسبة إلى مجموعة من الظواهر ، ولا تطبق على كل من عناصر هذه المجموعة ، بمفرده ، كالقنونة الديناميكية • في هذه القنونة الاحصائية التي تعمل بالنسبة الى كتلة من الظواهر توجد صفة عامة ما مشتركة بين هذه الظواهر بشكل فوضوي • هذه القنونة تتبدى ، ويمكن أن تظهر ، في عدد كبير من الحوادث ، في جملة كبيرة من الوقائع • إن تجميع عدد كبير من الحوادث ، من الظواهر الوحيدة ، يؤدي الى اختفاء الانحرافات العرضية الى هذه الجهة أو تلك : فالعرضيات تبتلع بعضها وتتوازن فيما بينها • مثال ذلك أن مجموع قيم السلع يتوافق ومجموع أسعارها • لكن هذه القنونة لا يمكن أن تظهر في كل سلعة بمفردها ، إذ أن سعرها يكون ، تارة ، اعلى ، وتارة ، أخفض من قيمتها • يقول لينين : « من الطبيعي تماماً ، ان لا تظهر القنونة في مجتمع منتجي السلع المبعثرين ، والمرتبطين ببعضهم عن طريق السوق فقط ، الا بشكل قنونة متوسطة ، اجتماعية ، بشكل قنونة جماعية ، بعد القضاء المتبادل على الانحرافات الفردية في هذه الناحية أو تلك »[1] • وشبيه بذلك أيضاً ضغط الغاز على جدار الوعاء • هذا الضغط يخضع لقنونة معينة ، وله مقدار ثابت • إلا أن حركة كل جزيء على انفراد تحمل طابعاً عرضيا داخل الوعاء • ولا يمكن التنبؤ بدقة عن اتجاه حركة كل جزيء من الغاز في الوعاء ، بمجرد الاعتماد على معرفة القنونة الاحصائية •

إن القانون الاحصائي يتمتع بجميع دلائل القانون : من موضوعية ، وضرورة ، وشمول • وهو يطبق على مجموعة من نوع واحد ، ويعبر عن الارتباط الجوهري الضروري بين الظواهر • ولابد ، لكشف القنونة الاحصائية من دراسة عدد كبير من الصدف • ويوجد « قانون الاعداد الكبرى » المعبر عن ديالكتيك العلاقة بين الضرورة والصدفة • هذا القانون يذهب إلى أن المفعول الكلي لعدد كبير من العوامل العرضية يؤدي إلى نتيجة لا تتعلق بكل حادثة على انفراد •

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢١ ص ٥٠ •

ويلاحظ بين الفلاسفة وعلماء الطبيعة الاجانب ميل الى فصل القنونة الاحصائية عن الديناميكية • ويتبدى هذا الفصل ، قبل كل شيء ، في التأكيد على أن الظواهر الخاضعة للقنونة الاحصائية ، غير خاضعة لأية قنونة ديناميكية ما • فقوانين الميكانيك الكوانتي لاتحمل أي طابع إحصائي • لهذا فسلوك الاليكترون الفرد لايتحدد بأية قنونة موضوعية ، كما يقول الفيزيائيون اللاديتيرمينيون •

بيد أن القنونة الاحصائية لاتعني اطلاقاً أن الظاهرة الواحدة من المجموعة لاتخضع ، على العموم ، لأية قوانين موضوعية • إن حركة كل وحدة على انفراد من وحدات المجموعة ، في هذا الاتجاه أو ذاك ، وابتعادها الى هذه الناحية او تلك ، انما هو امر مشروط سببياً • فسعر سلعة ما يمكن أن يكون أعلى كثيراً من قيمتها ، وهو ارتفاع مرتبط بأسبابه كالطلب الكبير ، مثلاً ، وانعدام المزاحمة في ظرف معين •

ليس في العالم من ظواهر تخضع اما لقنونة احصائية فقط أو لقنونة ديناميكية فقط • ففي كل ظاهرة يتشابك مفعول الكثير من القوانين المختلفة • ذلك أن الظواهر توجد في علاقات عديدة مع ظواهر أخرى : فهي ترتبط مع بعض الظواهر بقنونة احصائية ، في حين ترتبط مع بعضها الآخر بقنونة ديناميكية • والقنونة الديناميكية لاتنفي القنونة الاحصائية، وهذه لاتنفي تلك• فحركة جزيء الغاز ، في الوعاء ، مثلاً ، مرتبطة مع الجزئيات الأخرى بقنونة إحصائية • الا أن هذا الجزيء بالذات ، بالاضافة الى الجزئيات الموجودة في الوعاء تخضع للقنونة الديناميكية التي تحدد وضع الوعاء في المكان • هكذا نرى أن علاقة الظواهر ، المقامة إحصائياً ، مشروطة سببياً •

٤ : ـ الضرورة والمصادفة

إن التطبيق الصحيح لمبدأ الديتيرمينية مرتبط بالحل الصحيح لقضية العلاقة بين الضرورة والمصادفة • فاذا لم تتوضح هذه العلاقة لا يمكن فهم عمل القوانين الموضوعية •

لقد قيل من قبل إن العلاقات المقنونة مشروطة موضوعياً ، وضرورة

وجوهرية • الضروري هو ما ينشأ عن الجوهر ، عن العلاقة الداخلية للاشياء، ولا بد له من أن يحدث • أما المصادفة فهي عكس الضرورة ، وتتصف بأنها غير ثابتة ، وغير مرتبطة ، داخلياً وضرورياً ، بجوهر العملية • فالظاهرة التصادفية يمكن أن تكون وألا تكون ، يمكن ان تحدث هكذا ، أو على شكل آخر • الضرورة لها سبب في ذاتها ، أما المصادفة ففي غيرها • فظفر النظام الاجتماعي الجديد ، الاشتراكية ، مثلاً ، هو ظاهرة ضرورية نشأت عن التطور الاجتماعي السابق كله • إنها لابد وأن تحدث في العالم كله • وسبب هذه الظاهرة مستقر في القنونة الداخلية لتطور المجتمع • والمصادفة هي أن تنتقل بزرة نبات ما الى مكان ما لم يكن يبذر فيه هذا النوع • المصادفة هي أن تجد هذه البزرة هناك الشروط الملائمة لنموها• إن سبب هذه الظواهر مستقر خارج البذار : فسير تطور البذار لا يتضمن في ذاته أسباب نقله الى هذ المكان أو ذاك • ولا تتعلق بالبذار الشروط التي سيقع فيها ، والعوائق التي سيلقاها في مكان نموه • وليس من الضرورة إطلاقاً أن يقع البذار المعني في المكان المعين ، وأن يجد فيه الشروط الملائمة لنموه ••• الخ • وعندما تنضج بزرة نبات ما ، فان وجوده التالي وقف على كثير من المصادفات •

يذهب الميتافيزيكيون الى أن الضرورة والمصادفة أمران ينفي أحدهما الآخر : فالضروري لا علاقة له بالمصادفة ، والمصادفة تنفي الضرورة بشكل مطلق • أما المادية الميتافيزيكية فتتميز بنفي المصادفة ، وبالاعتراف بسيطرة الضرورة المطلقة المحضة في الطبيعة والمجتمع • يقول ديموقريت ان كل شيء لا يتم الا بالضرورة • « ان الناس هم الذين اخترعوا فكرة المصادفة كي يستخدموها حجة لتغطية عجزهم عن المناقشة »[1] • أما ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون فقد اعتبروا المصادفة مقولة ذاتية • فيقول « غولباخ » : إن كل ما في الطبيعة والمجتمع والتفكير الانساني خاضع للضرورة المطلقة • ولا يمكن وجود غير ذلك : « كل ما نراقبه ضروري ، أي انه لا يستطيع أن يكون غير

---

(١) « ماديو اليونان القديمة » ص ٦٩ •

ما هو عليه »[١] • وأي كائن حي لا يستطيع أن يفعل غير ما هو فاعله • ولا تستطيع أية ذرة أن تتلاقى مع الأخرى مصادفة • وفي رأي « غولباخ » أن الحديث عن المصادفة يعني أننا لا نعرف قوانين الطبيعة • وقد بُرهن على انتفاء المصادفة بأن السببية موجودة في العالم موضوعياً ، وهي تنفي أية مصادفة • والحادث الذي نسميه مصادفة ، ليس غير ذلك الحادث الذي لم يكتشف ، بعد ، سبب وجوده • فما ان يتبدى السبب حتى تبلغ المصادفة نهايتها • من هنا نستنتج أن المصادفة هي مقولة ذاتية تعبر عن جهلنا بالشيء • وقد افترض ماديو الماضي ، خطأ ، أن الاعتراف بموضوعية المصادفة لابد وأن يؤدي الى النظرة المثالية عن العالم ، الى اللاديتيرمينية •

إن التطرف يستدعي التطرف ، ونفي المصادفة يؤدي عمليا ، في ظروف معينة ، الى انزال الضرورة منزلة المصادفة • فقولنا بأن كل شيء ضروري بشكل مطلق ، يعادل في قوته التأكيد المعاكس القائل بأن كل الأشياء ، على حد سواء ، مصادفة • ثم إن القول بأن كل شيء ضرور ي ، يعني اذابة الضرورة ، كشكل خاص لعلاقة الظواهر ، في مجموعة من المصادفات • لو أن كل شيء ضروري لكان عدد أوراق شجرة معينة ظاهرة محتومة كحتمية قانون الجاذبية الشامل •

كان ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون الذين انكروا المصادفة ، يفسرون ، عملياً جميع الحوادث في تاريخ المجتمع بظروف تصادفية • يقول « غولباخ » : « علينا أن نعتقد بأنه ما من سبب ، مهما كان عليه من ضآلة أو بعد ، إلا وكان له علينا ، أحياناً ، تأثير عظيم غير متوقع • فقد تتجمع في سهول ليبيا الجرداء أول رشيمات العاصفة التي يحملها الريح ، وتصل إلينا بشكل يكفهر له جونا ، ويؤثر على حالة الانسان النفسية وعواطفه • والانسان يؤثر ، نتيجة هذه الظروف الناشئة ، على كثير من الناس الآخرين ، ويقرر ،بتحكمه، مصير الكثير من الشعوب »[٢] • وهكذا فالظرف التصادفي (عاصفة في ليبيا)

---

(١) ب • غولباخ « منظومة الطبيعة » ١٩٤٠ ص ٣٥ •

(٢) ب • غولباخ : « منظومة الطبيعة » ص ٣٦ •

يمكن أن يحدد سير التطور الاجتماعي ، ويثير الحروب ، والمصائب للشعوب•
لقد رفع الماديون الفرنسيون الاسباب التصادفية إلى درجة الضرورة ، ونتيجة لذلك ، وقعوا ، أنفسهم ، في المثالية والجبرية •

إن المادية الميتافيزيكية التي تنكر المصادفة ، تقف عاجزة في نضالها ضد الجبرية التي تربي الناس على الخضوع أمام القوى العفوية للطبيعة والمجتمع ، وأمام إرادة المصير الصوفي •

أما الوضعيون المعاصرون فينكرون وجود الضرورة في الطبيعة والمجتمع• فيؤكد « فيتغيشتين » انتفاء وجود مثل هذه الضرورة التي تستدعي حدوث أمر ما نتيجة حدوث أمر آخر • في رأيه لا توجد الا الضرورة المنطقية ، أي ضرورة نشوء محاكمة عن أخرى • هذه الضرورة لاتعكس أية قنونة موضوعية ، بل تنشأ عن طبيعة اللغة •

بيد أن نشاط الناس العملي يثبت وجود الضرورة والمصادفة ،موضوعياً، في الطبيعة والمجتمع • الا أن مجرد الاعتراف بالوجود الموضوعي للضرورة والمصادفة أمر غير كاف، • الحق أننا نستطيع التفكير كما يلي : ان الضرورة توجد بذاتها مستقلة عن المصادفة ، وكذلك المصادفة توجد بذاتها مستقلة عن الضرورة • بعض العلاقات والحوادث ضرورية فقط • وبعضها الآخر تصادفي فقط • وليست للعلم أية علاقة بالمصادفات رغم وجودها • والعلم لا يطالب إلا بدراسة الجوهري ، الالزامي ، الثابت • مثل هذه النظرة أخذ بها ، مثلاً ، الميتافيزيكي « خ• فولف » •

غير أن الضرورة ، ذاتها ، تتبدى عبر مصادفات لا حصر لها ، كما يتبدى العام عبر الظواهر الوحيدة • ومهمة العلم تنحصر في الكشف عن الضرورة والقنونة في فوضى المصادفات التي تتبدى لنا • والمادية الجدلية تكشف ، بكل عمق ، ومن جميع النواحي ، عن العلاقة المتقابلة بين المصادفة والضرورة ، وعن انتقال الأولى الى الثانية ، والثانية الى الأولى في عملية تطور المادة•المصادفة هي شكل ظهور الضرورة ، وهي تكملة لها • يقول انجلز : « الشيء الذي

يتأكد أنه ضرورة يتألف من مصادفات محضة ، وما يدعى مصادفة انما هو شكل تختفي وراءه الضرورة »[1] .

لنفرض أن تاجراً صغيراً أفلس في بلد رأسمالي وأصبح بروليتارياً. إنه لأمر كثيراً ما يحدث . والتاجر ذاته يعتقد بأن الحادث مجرد مصادفة ، ولا علاقة له اطلاقاً بالضرورة . صحيح أن إفلاس هذا التاجر ، لا غيره ، أمر تصادفي . وصحيح ايضاً أن تاجراً آخر ، في مكان آخر ، وفي ظروف أخرى، يبقى مدى الحياة محافظاً على ماله . ويمكن العثور على كثير من الظروف التصادفية التي عملت على خراب صاحبنا المذكور بالذات ، كأن يكون فتح الى جانبه ، مثلاً ، مخزن كبير يبيع سلعه بأسعار أرخص ، مما أدى إلى فقدانه زبائنه ... الخ . الا أن خلف هذا الحادث التصادفي ، تختفي الضرورة اختفاءها وراء كل مصادفة . إن افلاس صغار الملاكين (من تجار ، وحرفيين، وفلاحين) في ظروف المجتمع الرأسمالي ذي الصناعة المتطورة ، هو عملية ضرورية لابد منها ، هي قانون الرأسمالية .وهذه الضرورة تعبد لنفسها الطريق عبر كتلة من المصادفات (افلاس صغار الملاكين الافراديين هؤلاء أم أولئك). وبدون هذه الظواهر الوحيدة ، وبالتالي ، التصادفية بالنسبة الى السير العام لتطور الظواهر الاقتصادي ، لايمكن أن تظهر الضرورة الاقتصادية .

إن المصادفة ليست انعدام السببية . فكل المصادفات لها أسبابها . لقد أفلس التاجر لأن مخزناً كبيراً مضارباً فتح إلى جانبه . وعندما يوجد السبب وتتوفر شروط فعله ، لابد من نشوء النتيجة . إن السببية هي الشكل العام لعلاقة الظواهر . إلا أن شروط عمل سبب معين يمكن أن تتوفر ، ويمكن ألا تتوفر . والأسباب ذاتها متباينة . هناك أسباب تنشأ عن المنطق الداخلي لعملية التطور ، وتبدو ، بالتالي ، ضرورية . وهنالك أسباب ذات طابع تصادفي يمكن الا يوجد لها مكان في الواقع .

إن الموت العادي في اعقاب الشيخوخة والعجز ليس أمراً تصادفياً . أما

---

(١) انجلز : « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ص ٣٨ .

موت الانسان الصحيح الجسم في أعقاب صدمة سيارة فيمكن الا يكون لهمكان بين العديد من الشروط ، فيما لو أن الانسان المذكور خرج من بيته قبل دقيقة أو بعد أخرى ، أو فيما لو صادف صديقاً له ووقفا معاً • إن المصادفة تبرز في نقطة تلاقي عدد من الظواهر المشروطة سببياً • ولكن تلاقي هذه الظواهر في هذه النقطة بذاتها ليس امراً إجبارياً ، بل هو نتيجة تجمع كثير من الظروف• وانعدام واحد منها قد يمنع حدوث تلك الامكانية •

إن المصادفة والضرورة تنتقل كل منهما ، في عملية التطور، الى الأخرى• فالحوادث الفردية لتحول الأسير الى عبد ، مثلاً ، لوحظت قبل قيام نظام الرق ذاته • ولكن هذه الحوادث لم تكن ضرورية ، كما لم تكن مميّزة ، ولم تكن ناجمة عن الحاجات الداخلية للنظام القبلي • ولكن عندما تطورت قوى الانتاج الى درجة نشأ معها انتاج المنتوج الفائض ، لم يعد الاسترقاق حادثاً فردياً ، بل غدا ظاهرة عامة ، غدا علاقة اقتصادية سائدة في المجتمع القديم •

ثم إن العلم لاينكر وجود المصادفة • ذلك لأن المصادفة موجودة موضوعياً ، والعلم مطالب بدراستها • ولكن العلم لاينبغي ان يتوقف عند هذا• عليه أن يكتشف ، خلف المصادفات ، الضرورة والقنونة اللتين تتبديان في المصادفات •

إن المصادفة ، إذ تبدو موجودة موضوعياً ، تؤثر على تطور الظواهر تأثيراً يعظم أو يقل • الناس ذوو الميول والكفاءات المتباينة هم الذين يصنعون التاريخ• عندما تتضح ضرورة اجتماعية ما ، آنذاك يتوفر ، دائماً ، الناس الذين يطبقونها في الحياة • ولكن كيف ينفذون هذه الضرورة ؟ هذا الأمر يتعلق بكثير من الظروف التصادفية : كمقدرة القادة ، وميولهم ، وصفاتهم ، وهم الذين يتزعمون الحركة • ان وجود هذا الشخص بالذات على رأس حركة معينة هو ، بالنسبة الى السير التاريخي العام ، أمر تصادفي • ولكن ما إن اصبح هذا الشخص على رأس الحركة المذكورة حتى يطبعها بطابعه في هذه الأحداث أو تلك ، وينال الحركة بتأثيره •

تؤثر المصادفات على حياتنا تأثيراً متبايناً • فبعضها يؤثر تأثيراً سيئاً ، وبعضها يسرع سير تطور العمليات ، وبعضها الآخر يعقد السير ويجعله يتباطأ في حركته • وفي مختلف مراحل تطور المجتمع ترتبط حياة الناس ارتباطاً متباين الدرجة بمصادفات الطبيعة • فحياة الرجل البدائي الاول كانت كلها ، تقريباً ، متعلقة بمصادفات الطبيعة • وارتبط الحصول على وسائل المعيشة كثيراً بمصادفات الظروف ، كالصيد الناجح مثلاً ••• الخ • وكانت المصيبة العفوية الواحدة (من جفاف ، أو أمطار جارفة أو غزو •••) تستطيع ، أحياناً ، القضاء على القبائل • ومع تطور القوى المنتجة في المجتمع ، وتطور العلم ، تحرر الناس شيئاً فشيئاً من سلطان المصادفة •

في الاشتراكية يتمتع الناس ، لأول مرة في التاريخ ، بامكانية توجيه العمليات الاجتماعية ، أكثر فأكثر ، وباستخدام القوانين ، عن وعي ، في صالح المجتمع كله • في الاشتراكية تقبض الشعوب بأيديها على وسائل الانتاج الضخمة ، وتستخدم العلم المتزايد الاهمية ، وهي أمور تمكن من القضاء على الآثار السيئة لكثير من مصادفات الطبيعة • في الاشتراكية تخدم معرفة قوانين تطور الطبيعة ، وتكنيك الانتاج الجبار ، سيطرة الانسان على القوى العفوية ، وتطبق في صالح الشعب •

٥ : ـ الامكانية والواقع

لكي نفهم عمل قوانين الطبيعة والمجتمع فهما أعمق ، وظهور الضرورة عبر المصادفة ، وطرق ووسائل استخدام الانسان للقوانين الموضوعية من اجل تحقيق اهدافه العملية ، لابد لنا من بحث قضية الامكانية والواقع ، وشروط تحول الاولى الى الثاني ، وانتقالها إليه •

إن مقولة الامكانية تعبر عن قدرة المادة ، في عملية الحركة ، على اخذ أشكال مختلفة • فأية ظاهرة كانت تستطيع ، في شروط معينة ، استبدال شكل وجودها ، والانتقال ، والتحول ، الى ظاهرة أخرى (الاشكال الدنيا ، مثلاً ،

تنتقل الى العليا) • وتتحدد هذه الامكانية بأنجميع الأشياءوالظواهر والعمليات توجد في حركة دائمة وتبدل متواصل ، يحدث وفق قوانين معينة مستقلة عن ارادة الناس ووعيهم • يمكن للظاهرة أن تصبح غيرها • انها تحتوي في ذاتها ، على هذه الامكانية الموضوعية • ولكن أي اتجاه يمكن أن يأخذه تبدل شيء معين ، وأي شيء يصبحه ، كل هذا يتعلق بالشروط المعنية ، وبالظروف المعنية •

إن اهم مهمة أمام العلم ونشاط الناس العملي هي اكتشاف واظهار الامكانيات الكامنة في ظواهر الطبيعة والمجتمع ، وشروط تحولها الى واقع جديد • إن الامكانية تتحول الى واقع نتيجة الضرورة والقنونة الكامنتين في الكائن •

الواقع[1] هو الامكانة المحققة • وهذه الأخيرة تعبر عن اتجاه الحركة المقنونة للوجود (في الطبيعة والحياة الاجتماعية) •

إن امكانية واحدة تستطيع أن تتحقق في اشكال متباينة تبعاً لتباين الظروف • فالرأسمالية تطورت في عدد من البلدان حسب الطريقة الاميركية أو البروسية ••• الخ •

ترتبط اشكال تحقق الامكانيات بعدد من الظروف (فامكانية جني محصول حسن من القمح في اي مكان كان ، في العام الجاري ، مرتبطة بالعديد من العوامل المقنونة : كنوع البذار ، وتحسين حراثة الارض وانتقاء الدورة الزراعية الصالحة) • الا أن هذه الامكانية مرتبطة بظروف تصادفية كثيرة (ككمية الرواسب ، وأيام السنة المشمسة ، والطقس في زمن الحصاد) • لهذا فعند ظهور امكانيات ما تنبغي دراسة العوامل الضرورية والتصادفية التي تحدد هذه الامكانية •

---

(١) ان تعبير « الواقع » يستخدم بمعنى آخر أكثر شمولا ، ويعني جميع العالم المحيط بنا ، مع جميع امكانياته المتوفرة فيه • أما هنا فاننا نعالج الواقع بعلاقته مع الامكانية •

الامكانية معاكسة للاستحالة •

إن محاولة ابراز الاستحالة ممكنة ، وابراز الممكن استحالة هي طريقة محببة لايديولوجي البرجوازية العصريين ، الذين يعملون على تفسير العالم تفسيراً إرادياً[1] • فتجاهلهم قانون المنافسة وفوضى الانتاج ، في الرأسمالية ، يدفعهم الى القول بامكانية قيام رأسمالية « ممنهجة » « منظمة » ، لا تعرف الأزمات • إنهم في هذا يعرضون المستحيل وكأنه أمر ممكن الحدوث •

لابد من معالجة الامكانية والاستحالة معالجة حسية • فالمستحيل الآن قد يصبح ممكناً نتيجة تبدل الظروف ، ونشوء قوانين جديدة • فبناء الاساس التكنيكي المادي للشيوعية في الاتحاد السوفييتي ، كان غير ممكن بعد ثورة اوكتوبر مباشرة • ولكن عندما نفذ الحزب برنامجه الثاني ، وانتصرت الاشتراكية كلياً ، نشأت الظروف الضرورية للانتقال التدريجي الى الشيوعية، وخلق اساسها المادي •

إن الامكانية ، والواقع ، متعارضان نسبياً كناحيتين للتطور : كنقطة انطلاق ونتيجة للتطور • وبما أن التطور عبارة عن سلسلة من الأحداث ، فان كل حلقة في هذه السلسلة هي نقطة انطلاق بالنسبة الى أحد الحوادث،ونتيجة بالنسبة إلى حادث آخر •

إن النظام الاقطاعي احتوى ، في مرحلة معينة من مراحل تطوره ، على امكانية الرأسمالية ، وهذه على إمكانية الاشتراكية•

---

(١) الارادية : هي لون من ألوان المثالية ، وأنصار الارادية يذهبون الى أن الارادة هي أساس كل ما هو موجود •

ورغم ان الامكانية والواقع يمكن ان يتحول أحدهما الى الآخر ، فلابد من التمييز بينهما تمييزاً دقيقاً • إن اعتبار الممكن واقعاً إنما يعني الوقوع في خطأ كبير ، وجر النفس والآخرين إلى الضلال • فلو كان كل ممكن واقعاً في الوقت ذاته ، لما وجد أي تطور في الطبيعة والمجتمع • والخلط بين الممكن والواقع في السياسة يؤدي الى خطأ فاحش ، ومخادعة للنفس •

ولو أننا واصلنا محاكماتنا وفق طريقة الذاتيين لاضطرارنا إلى الاعتراف بأن كل شيء ممكن • ان وجود المصادفات في العالم يدفعهم إلى القول بأن كل شيء ممكن الحدوث ؛ بأن كل شيء ممكن • فاذا كانت الأرض ، اليوم ، تدور حول الشمس فمن الممكن ، غداً ، أن تدور الشمس حول الأرض • ولهذا فكل مرغوب ممكن • هذا المفهوم الذاتي للامكانية غير صحيح ، وهو يعاكس التطور الواقعي لظواهر الطبيعة والمجتمع •

لابد لنا ، في النشاط العملي ، أن نعتمد لا على أن كل شيء ممكن (كل شيء ممكن الحدوث) ، بل على الامكانية الواقعية الناشئة عن القنونة الفعالة القائمة ، وعن الشروط الموجودة • ان وجود القنونة الموضوعية ضرورة ، ولكنه لا يكفي لنشوء هذه الامكانية الواقعية أو تلك • لا بد من شروط تسهل ظهور هذه القنونة في هذا الشكل المعين بالذات •

هنالك امكانيات مختلفة • ولا ينبغي الخلط بين نوعين من الامكانيات : الامكانية المجردة (الشكلية) ، والامكانية الحقيقية • ووجود قنونة معينة يشترط الامكانية المجردة الشكلية ، فقط ، التي لايمكن ، في وضع تاريخي ملموس معين ، أن تتحول الى واقع لانعدام المقدمات الضرورية لتحقيقها • فامكانية اندلاع ازمة فيض انتاج اقتصادية ، مثلاً ، مستقرة في تناقضات السلعة على العموم ، في انفصال فعل البيع عن فعل الشراء ، في الزمان والمكان ، في ازدواجية السلعة الى سلعة ونقد ، في تطور وظائف النقد كوسيلة للتداول •

إلا أن امكانية ازمة فيض الانتاج ، في ظروف الاقتصاد السلعي البسيط، تحمل طابعاً شكلياً مجرداً • ورغم أنه ، في ظروف الانتاج السلعي البسيط ، يمكننا ان نبيع دون أن نشتري ، الا أن الخطر الحقيقي للازمة الاقتصادية لم ينشأ بعد • وحتى لو ان تاجراً صغيراً ما ، (او مجموعة من التجار) سيبيع دون ان يشتري ، فان تأخراً محسوساً في بيع السلع لايحدث ، والسوق لن تفيض بالسلع ، ولن يضطر المنتج الى تسريح العمال لسبب بسيط هو انهم غير موجودين لديه • إن امكانية هذه الازمة تصبح واقعاً ، في شروط المجتمع الرأسمالي ، حيث يتحول النقد الى رسمال ، ويصبح العمل مأجوراً • هنا الانتاج يحمل طابعاً اجتماعياً ، في حين تحمل الحيازة طابعاً فردياً ؛ وانفصال فعل البيع عن فعل الشراء ، وما ينشأ ، في أعقاب ذلك من إعاقة في بيع السلع ، يؤدي الى الأزمة وزعزعة المجتمع الرأسمالي : إلى اضطراب التجارة، وتقلص الانتاج ، ونمو البطالة ، وخراب صغار الملاكين ، وافلاس المؤسسات الصناعية والتجارية والمصرفية •

ويتحدث الكثيرون من الايديولوجيين البرجوازيين ، في سعيهم وراء تزيين الامبريالية ، عن غنى الامكانيات الكامنة في الرأسمالية بالنسبة الى الناس البسطاء • فهم يذهبون الى أن أي انسان في المجتمع الرأسمالي بمقدوره ان يصبح من اصحاب الملايين ، وأن ينال كل ما يريد • إلا أن هذه الامكانية شكلية محضة • والعامل ليس بحاجة الى أن يتمتع بامكانية شكلية لأن يصبح راسمالياً ، بل هو بحاجة الى تلك الإمكانية الواقعية التي تعني خلاصه من الاستثمار ، وحصوله على عمل وبيت جيد ، وغذاء وثقافة ، وتجعلهسيد وطنه• وفي سبيل نجاح النشاط العملي في الواقع لابد للانسان ، والطبقة الاجتماعية الطليعية ، من أن يكشفا الامكانية الواقعية اللازمة لهما ، وان يحددا طرق تطبيقها في الحياة ، وأن يعملا حسب هذه الطرق •

إن الامكانية ليست أمراً جامداً لايتبدل • إن تطورها نتاجفعل القوانين• وهكذا فامكانية انتصار الثورة الاشتراكية في الدول الرأسمالية تتطور مع تطور الرأسمالية وتفاقم تناقضاتها •

إن كل قانون في الطبيعة والمجتمع لا يتجلى ، كما هو معلوم ، بشكل صاف واضح ، بل يبدو كنزعة وميل . ومفعول هذا القانون أو ذاك يصطدم بالعديد من القوى المعارضة ، ولذلك فظواهر الواقع تخفي ، في طياتها ، امكانيات متناقضة ، كل منها يعتمد على نزعات معينة للتطور المقنون . ومن بين الامكانيات المتصارعة تنتصر ، في النهاية ، إمكانية واحدة ، وتتحول الى واقع .

واذا لم تتوفر جميع الشروط الضرورية ، فان الامكانية الحقيقية لاتتحول الى واقع • ان البذار يتضمن في ذاته امكانية تحوله الى نبات ، ولكن ذلك يتطلب بذره في وقت معين من السنة ، وفي أرض محروثة ، كما ينبغي توفر الحرارة والرطوبة المناسبتين • وهناك كثير من البذار الذي لاينبت بسبب انعدام الشروط الضرورية •

هناك إمكانيات تحمل طابع الضرورة ، وهي ستتحقق حتماً إن عاجلاً أو آجلاً • فظفر الاشتراكية ، مثلاً ، في جميع انحاء العالم سيتم حتماً • ولكن حتى هذه الامكانيات لا تتحول الى واقع الا عندما تنضج الشروط الضرورية كلها (فلظفر الاشتراكية لابد من عوامل موضوعية وذاتية معينة) • إن العلم يكشف عما يكمن في الطبيعة والمجتمع من امكانيات ، ويدرس شروط تحقيقها• وبذلك يشير الى طرق القضاء على الامكانيات الضارة بالانسان ، ويساهم في تحويل الامكانيات المرغوب فيها الى واقع •

يمكن للامكانية أن تتحول الى واقع حتى من دون تدخل الانسان • وهو أمر يحدث في الطبيعة عادة ، حيث تتراكم الشروط الضرورية لتحقيق الامكانية تراكماً مستقلاً عن نشاط الناس • أما في الحياة الاجتماعية ، فتحول الامكانيات الى واقع ، انما يتم عبر نشاط الناس العملي • وعندما يعي الانسان القنونة الكامنة في أساس الامكانية ، يستطيع ، بنشاطه ، أن يسرع في تحويل هذه الامكانية الى واقع ، وأن يوجه التطور في الوجهة المرغوبة • ودراسة الامكانيات الكامنة في الوضع القائم للاشياء ، وايجاد الامكانية التي تتجاوب ومتطلبات قوى المجتمع التقدمية ، لهما تأثير كبير على نجاح النشاط العملي •

إن المعالجة الموضوعية لظواهر العالم المحيط بنا ، وكشف جميع الشروط الضرورية لتحقيق الامكانيات ، هما العنصران الهامان في تحليل الظواهر تحليلاً علمياً ديالكتيكياً •

عندما تنضج هذه الامكانية الموضوعية او تلك ، في المجتمع ، فان تحقيقها

يتعلق بنشاط الناس العملي •

★ ★ ★

الفصل السادس

قانون الانتقال
من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية

١ : ـ التبدلات الكمية والنوعية وانتقال بعضها الى بعض

عند دراستنا للطبيعة يتكشف أمام نظرنا التنوع العظيم في ظواهرها وعملياتها وأشيائها •

وقد حاولت الفلسفة وعلم الطبيعة ، منذ القديم ، الكشف عن أسباب هذا التنوع النوعي للطبيعة ، وعن كيفية ارتباط هذه الظواهر المختلفة نوعياً ، بعضها ببعض ، كارتباط الطبيعة اللاعضوية ، مثلاً ، بالطبيعة العضوية (الحية) ، وكارتباط بعض أنواع النباتات والحيوانات مع بعضها الآخر ، وارتباط الانسان مع الحيوانات ••• الخ • ولكن الكشف الصحيح لم يتحقق دفعة واحدة • وهو أمر غير مستغرب باعتبار أن العلم الذي لم يكن متطوراً بعد ، وكذلك نشاط الانسان العملي ، ظلا زمنا طويلاً في مستوى لايتيح حل هذه المسألة الصعبة المعقدة •

ذهب بعض الفلاسفة والعلماء إلى أن تنوع الطبيعة الكيفي هو أمر بديهي، وينبغي تقبله كواقع • وهم إما أنهم لم يحاولوا توضيح هذا الواقع ، أو أنهم افترضوا أنه من صنع قوى ما وراء الطبيعة • في حين ذهب آخرون منهم إلى نفي التباين النوعي بين ظواهر الطبيعة ، وأرجعوا التباين كله الى مجرد تباين كمي • لقد اعترفوا بالتطور ولكنهم فهموه كتبدل كمي ، كتجميع وتركيب

كميتين لأجسام لا تتبدل نوعياً • هذه النظرة عن العالم نشأت منذ القديم ، وانتشرت اعظم انتشار في القرنين السابع عشر والثامن عشر •

يقول الفيلسوف اليوناني القديم « أناكثاغور » (القرن الخامس قبل الميلاد) ان الطبيعة تتألف من كميات لا حصر لها من « البذور » « ذات القدرة على الأخصاب » • وصور التطور على أنه اتحاد هذه « البذور » وانفصالها بكميات مختلفة • وهو يرى أن الشيء يختلف عن الآخر بكونه مؤلفاً من كمية من « البذور » ذات النوعية الواحدة ، تقل أو تكثر • ويقوم برهان هذه النظرة الساذجة على أن الانسان الذي يستخدم الطعام ، مثلاً ، تنمو فيه العظام والشعر والاظافر ••• الخ ؛ وبالتالي فالطعام يحتوي على العظام والشعر والأظافر في شكلها الجاهز ولكن بصورة صغيرة •

أما الفيلسوف الافرنسي « روبيني » الذي عاش في القرن الثامن عشر فقد اعتبر أن كل ما هو موجود عبارة عن مظهر للطبيعة العضوية ، أي الحية ، وذلك لعجزه عن تفسير الانتقال من الطبيعة غير الحية إلى الطبيعة الحية ، تفسيراً علمياً ، بسبب تأخر علم البيولوجيا آنذاك • وكان هذا الفيلسوف يعتبر أنه لا فرق هناك بين الحجر ، والشجرة ، والحصان ، والانسان ، من حيث النوعية • يقول « روبيني » : « يمكننا أن نجدُ في الحجر وفي النبات ، على حد سواء ، ذات الصفات والخصائص الضرورية للحياة ، والتي نجدها في الجسم البشري • ولا فرق هناك إلا في تركيبات هذه الصفات ، وفي عدد الاعضاء ونسبها وترتيبها وشكلها »[1] •

لاشك أن الأشياء التي ذكرها « روبيني » تنطوي على شيء عام • الا أن الخواص العامة لا تنفي الفارق النوعي العميق ، والقوانين الخاصة التي تنشأ بموجبها تلك الأشياء وتوجد • فنحن لا نستطيع فهم حياة الانسان ونشاطه بالاعتماد فقط على الشيء العام الذي يجمعه مع الحجارة والشجر (على اعتبار أن الشيء المشترك بينهم جميعاً هو تألفهم من عناصر كيميائية معينة ، وأنهم

---

(١) « ج· روبيني » ـ « الطبيعة » · ١٩٣٥ ص ٥٠٨ ·

موجودون في المكان والزمان ... الخ) • ان توضيح الاختلافات النوعية بين الانسان والحجارة ، بين النباتات والحيوانات هو ، وحده ، الذي يساعدنا على فهم مكان الانسان ودوره في السلسلة العامة لتطور الطبيعة •

لقد كان لنظرية التطور الكمية مبررها التاريخي القائم على ان الميكانيك والرياضيات ، كانا ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أكثر العلوم تطوراً• فكان لابد للنظرة الميكانيكية الكمية إلى الطبيعة ، من أن تدفع بالفلاسفة والباحثين الى إهمال الاختلافات النوعية للأشياء ، وإلى إرجاع كل تنوع أشكال الحركة إلى الشكل الميكانيكي البسيط ، وإلى فهم التطور باعتباره تكديساً كمياً محضاً ل « قراميد » ما ، غير متغيرة نوعياً ، ويتشكل العالم منها • كان للنظرية الكمية ، آنذاك ، معنى تقدمي في النضال ضد الدين ، لأنها حاولت ، عكس الديانة ، إعطاء توضيح علماني طبيعي لتنوع صور العالم • إلا أن إرجاع تنوع الأشياء والتطور إلى اختلافات كمية ، وتبدلات كمية محضة ، خاطيء تماماً •

لقد سار العلم نحو الحقيقية في طريق معقد ، متناقض ، ممهداً التربة لظهور التفسير الصحيح الوحيد لتنوع العالم كيفياً ، ومقيماً العلاقة الواقعية بين النواحي الكمية والنوعية في الظواهر والعمليات • فتطور الكيمياء ، والفيزياء ، والبيولوجيا وغيرها من العلوم ساعد الانسان على النفوذ إلى جوهر الظواهر ، وعلى فهم التطور كتحول بعض الأشياء ، نوعياً ، الى أشياء غيرها ، نتيجة التبدلات الكمية • وكان لنجاحات الكيمياء اهمية كبيرة خاصة في هذا المضمار • يقول انجلز : « ان بالامكان تسمية الكيمياء بعلم التبدلات النوعية في الأجسام ، تلك التبدلات الحادثة عن تأثير تبدلات الكيان الكمي »[1] •

إن تطور الفيزياء ، في السنوات العشر الأخيرة ، واكتشاف تحول العناصر والاشعاع الرادوي ، وتحول بعض الصغيريات « الأولية » إلى أخرى ، كل هذا يؤكد ، مرة بعد اخرى ، المفهوم الدياليكتيكي للتطور في الطبيعة ، ويغني هذا المفهوم بمعلومات جديدة •

---

(١) انجلز : « دياليكتيك الطبيعة » ص ٤١ •

إن النظرية الماركسية الديالكتيكية عن انتقال التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية هي تعميم لمعطيات العلوم عن الطبيعة ، تعميم لتجربة التاريخ الانساني العالمي ، وهو يكشف عن أحد أهم قوانين التطور الموضوعية •

ولابد ، لفهم قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية فهماً أفضل، لابد ، قبل كل شيء ، من معالجة مفهومي الكم والنوعية • فعندما ندرس شيئاً ما يتبدى لنا ، قبل كل شيء ، كيانه المحدد الذي يميزه عن الأشياء الأخرى• وهذا بالذات ما يكون نوعيته • إن الطبيعة عبارة عن وحدة أشياء وظواهر وعمليات متنوعة • هذا التنوع في الطبيعة هو تعبير التباين النوعي بين الأشياء • فهنالك ، مثلاً ، اختلاف نوعي بين الطبيعة اللاعضوية والطبيعة العضوية • فلا يستطيع الكائن الحي الوجود إلا في شروط تبادل المواد النوعي مع الوسط المحيط به • أما غير الحي فلا يلزمه مثل هذا التبادل • وكذلك فان بين الأجزاء المختلفة للطبيعة العضوية ، بين النبات والحيوان ، مثلاً ، توجد فوارق نوعية • أما الانسان فانه ، اذا ما قورن بهما ، فهو من نوعية أخرى •

إن التحديد النوعي أمر ملازم لجميع الظواهر الاجتماعية • فالرأسمالية، مثلاً ، عبارة عن نوعية معينة ، عن مجموع عدد من السمات والصفات والنواحي الجوهرية بالنسبة لهذا النظام : كوجود طبقة ملاكي وسائل الانتاج ، وطبقة العمال المأجورين ، واستثمار العمال من قبل الرأسماليين ••• الخ • أما الاشتراكية ، باعتبارها تشكيلة اجتماعية جديدة نوعياً ، فتتمتع بصفات أخرى : من ملكية جماعية لوسائل الانتاج ، وانعدام العمل المأجور ، والقضاء على استثمار الانسان للانسان •

هذان المثلان المضروبان يتيحان لنا فهم أن النوعية هي ، قبل كل شيء ، ما يحدد الأشياء والظواهر ويبينها ، هي وحدة سماتها ونواحيها الأساسية التي تجعل منها هذه الأشياء والظواهر بالذات ، لا غيرها • وليست هنالك أية ظواهر أو أشياء مجردة من التحديد النوعي • فالكائن المجرد من كيانه النوعي غير ممكن الوجود : إن المرج والبحيرة والشجرة والنجم والكائن الحي ••• الخ

عبارة عن ظواهر وأشياء متباينة وذلك نتيجة كياناتها المحددة المختلفة .

ثم إن النوعية ليست مجرد تحديد . انه تحديد ملازم للشيء داخلياً ، وعلى هذا فتبدل النوع يعني تبدل الشيء المعني . فاذا توقف الجسم الحي عن تبادل المواد مع الوسط المحيط به فانه يموت ويفقد نوعية الجسم الحي ، ذلك أن تبادله المواد مع الوسط المحيط به هو جوهر حياته ووجوده .

إن النوعية تظهر من خلال الخواص . ورغم ان مفهومي النوعية والخاصة غالباً ما يستعملان بمعنى واحد ، إلا أن بينهما اختلافاً . فالخاصة هي أحد الاشكال التي تعبِّر فيها كيفية شيء ما عن نفسها خارجياً بالنسبة للأشياء الأخرى .

ولا يمكننا أن نعرف شيئاً عن كيفية موجود ما (أي عن الكيان المحدد الداخلي لهذا الشيء) إلاّ من الصفات الملازمة لهذا الشيء التي تتجلى فيها كيفيَّته . فنحن لا نستطيع أن نحكم على هذا الانسان أو ذاك وعلى سماته الانسانية إلاّ بالاعتماد على علاقاته بالناس والمجتمع . ويظهر الشيء المحدد كيفياً في خصائص كثيرة . فالعنصر الكيميائي ، مثلاً ، يعبر عن نفسه في الخصائص الملازمة له كانتمائه إلى مجموعة المعادن ، أو أشباه المعادن ، ووزنه الجوهري المعين و ... الخ ، ويتجلى المعدن في الخصائص الملازمة كالكثافة ، والقدرة على التحمل ، ودرجة الانصهار ، وناقليَّته للحرارة والكهرباء الخ ... ثم إن الشيء لايتميز بخاصة واحدة فقط بل بالعديد من الخصائص . بيد أنه من الخطأ اعتبار النوعية مجموعة من الخصائص فقط . فالنوعية هي ما يربط جميع خصائص الشيء في وحدة واحدة ، وهي ما يعبر عن كلية الشيء وتمامه .

وعندما نميز النوعية عن الخاصة لا ينبغي أن نضع حداً فاصلاً مطلقاً بينهما . إذ أن نوعية الشيء هي عبارة عن خواصه الاكثر جوهرية ، التي تحدد جمع خواصه الأخرى والتي بدونها لايبقى الشيء ، الشيء ذاته .

وخواص الشيء لا تظهر كلها دفعة واحدة وفي وقت واحد . ويتعلق بروز هذه الخواص أو تلك بالعلاقات الحسية التي يرتبط بواسطتها هذا الشيء مع

الأشياء الأخرى • ففي احدى أشكال العلاقات تتبدى خواص للشيء معينة ، وفي أشكال أخرى للعلاقات تتبدى خواص أخرى لهذا الشيء نفسه • فخواص الشيء يمكن أن تتغير تبعاً لتغير علاقاته مع العالم المحيط • كما يمكن أن تختفي أو تظهر بعض خصائص الشيء بدون أن يتغير هو نفسه أو نوعيته الأساسية • فتغير بعض خصائص الشيء يعني بالطبع أن هذا الشيء يتعرض لتغيرات نوعية ما • ولكن هذه التغيرات لا تمس كيانه النوعي الأساسي الذي يجعل منه هذا الشيء بالذات لا شيئاً آخر غيره • وهو أمر ينبغي أخذه بعين الاعتبار حتى لا ينشأ لدينا ، من ناحية ، تصور خاطيء ، يقوم على أن الشيء يبقى هو ذاته طوال حياته أو وجوده ، دون أن تطرأ عليه ، اطلاقاً ، أية تبدلات نوعية ، وحتى لانعتبر ، من ناحية أخرى ، أن تبدل بعض نواحي الشيء وخواصه ، انما هو تبدل جذري لجوهره ونوعيته • مثال ذلك أن بعض خصائص الرأسمالية تتبدل في مرحلة الرأسمالية العليا ، الامبريالية ، : فتتحول المزاحمة الحرة الى نقيضها ، أي الى احتكار • وبدون أخذ هذا التحول الهام بعين الاعتبار لا يمكن فهم الرأسمالية المعاصرة • بيد أن هذا التحول لايعني انعدام النوعية الجذرية الأساسية للنظام الرأسمالي ، وهي التي تجعل منه رأسمالية •

إلا أن نوعية النظام الرأسمالي الأساسية الجذرية ، التي تجعل منه رأسمالية لا تنعدم ، رغم أن ايديولوجيي الامبريالية ، والمحرفين يحاولون اظهار الرأسمالية المعاصرة كشيءجديد، كمجتمع غير برجوازي•وتصفيةجميع السمات الأساسية التي تحدد الرأسمالية كنوعية اجتماعية اقتصادية معينة (الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ونظام العمل المأجور واستثمار العمال) هي وحدها ، التي تعني تصفيتها ، والانتقال الى النوعية الجديدة •

إن النوعية تعبر عن استقرار الشيء وثباته نسبياً ، مما يميزها عن الخصائص التي تستطيع ، في نطاق شيء معين ، أن تتبدل بصفتها غير ثابتة • وبفضل النوعية يصبح الشيء ما هو عليه في الواقع • ويتحدد زمن وجود الشيء

بكيانه كنوعية معينة • ان التبدل النوعي يعني انقطاع وجود شيء معين وتحوله الى شيء آخر •

ان النوعيـة ، حسب تعبير هيغـل ، هي الحد الذي تتميـز بفضله بعض الأشياء عن الأخرى • وهذا الحد ليس خارجياً ، ليس مكانياً ، بل هو داخلي ويعبر عن نوعية الأشياء ، عن اصالتها • انه حد غير مفروض على الاشياء من قبل الوعي الانساني ، بل ملازم موضوعياً للاشياء ذاتها • ولولاه لاختلط كل شيء في كتلة واحدة لا تباين بين أجزائها •

وعلى هذا فمفهوم النوعية يعكس ناحية هامة جداً بالنسبة الى جميع الاشياء والظواهر والعمليات في العالم الموضوعي • وينجم عن كل ما قلناه أن النوعيـة يمكن تعريفها بأنها التحديد المرتبط ارتباطاً لا انفصام له مع الشيء ذاته ، وأنها مجموع الصفات والسمات الجوهرية التـي تكسب الشيء اسـتقراراً نسبياً ، وتميزه عن غيره من الأشياء الأخرى •

ونوعية الأشياء لاتوجد منفصلة عن ناحيتها الكمية • إن مفهوم الكميـة هو أيضاً مقولة عامة تعكس ناحية من النواحي الهامة لأي شيء أو ظاهرة أو عملية • وتبرز الكمية أيضاً كتحديد للاشياء ، الا أنها ، خلافاً للنوعية ، تميز الشيء من ناحية درجة تطور خصائصه : كمقـــداره ، وحجمه ، وعـدده ، وسرعة حركته ، وبهر لونه ••• الخ • فالطاولة ، مثلاً ، يمكن ان تكون كبيرة أو صغيرة ، والصوت يمكن أن يكون طويلاً أو قصيراً ، شـديداً أو خافتـاً ••• الخ

إن التحديد الكمي للظواهر الاجتماعية لايعبر عنه ، دائماً ، بمثل المقادير الدقيقة التي يعبر بها عن ظواهر الطبيعة اللاعضوية • ولكن كل ظاهرة ، وكل عملية تتمتع هنا أيضاً لا بناحية نوعية فقط ، بل وبناحية كمية أيضاً • مثال ذلك مستوى تطور إنتاجية العمل ، والقوى المنتجة ، ووتيرات تطور الانتاج ، وغير ذلك من نواحي الحياة الاجتماعية ، وعدد الناس العاملين عملاً منتجاً ، ودرجة استثمار العمال من قبل الرأسماليين ••• الخ •

ثم إن كمية الشيء ، وكيانه الكمي المحدد لـه ، بالمقارنة مع النوعيـة ، يتمتعان بعدد من الخصائص التي تهم معرفتها كثيراً حتى نفهـم جوهر قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • إن الشيء لا يعود الشيء الذي كانه، عندما يفقد نوعيته ، وبالتالي ، فان النوعية مطابقة للشيء ذاته وكأنها تمتزج معه في وحدة لا تنفصم • وهـو أمر لا يصح قوله في الناحية الكميـة للشيء • فالكمية يمكن أن تنقص أو تزيـد ، دون أن يفقد الشيء حالته النوعيـة • إن النحاس الصلب ،مثلاً ، لايتحول إلى شيء آخر إذا ما ارتفعت درجة حرارته الى ٦٠٠° أو ١٠٠٠° • فالكمية هي صفة تحدد الشيء من الخارج اكثـر مما تحدده من الداخل ، وتبـدو ، للوهلة الأولى ، وكأنها منفصلة عن النوعيـة • وهي لا ترتبط بالشيء ارتباطاً وثيقاً كما ترتبط النوعية • فاذا تبدل الشيء كمياً فانه لا يتحول الى شيء آخر ما دام التبدل لم يتجاوز حداً معيناً •

لنعالج ، بصورة أعمق ، التبدلات الكمية وأهميتها في سـير التطور • اننا عندما أكدنا بأن الشيء يمكن تكبيره أو تصغيره دون أن يفقد نوعيته ، لم نأخذ بعين الاعتبار حدود هذا التبدل الكمي • والواقع أن درجة الحرارة اذا ارتفعت في المثل المضروب الى ١٠٨٣° ، يبدأ النحاس بالانصهار • وهذا يعني أن عدم تأثر الشيء بالتبدل الكمي محدود بحد معين ، فاذا تجاوز التبدل في العدد أو المقدار أو الحجم ، أو اية كمية اخرى ، هذا الحد فان هذا التجاوز سيؤثر على مصير الشيء •

من هذا نستنتج أن الكمية ، ان التبدلات الكمية مرتبطة، داخلياً ،بالنوعية، بالشيء • الا أن هذه العلاقة لاتظهر دفعة واحدة • إن التبدلات الكمية لهـا أيضاً حدود معينة • بيد أنه اذا كان « خرق » الحد النوعي للشيء ، يستجر وراءه تبدلاً في الشيء ذاته ، فان حدود التبدلات الكمية للشيء ، تبقى اكثر مرونة : فيمكن للتبدلات الكمية أن تتأرجح ، أن تكون اكثر أو أقل ، دون أن يستجر هذا وراءه رأساً تبدلاً في نوعية الشيء • إلا أن تأثـير التبـدلات الكمية على الشيء يتبدى ، بوضوح ، عند زيادة هذه التبدلات • فخلال سير

التبدلات الكمية تبرز ، بروزاً مقنوناً ، اللحظة التي يؤدي فيها أصغر تبدل في الكمية الى تبدل نوعي جذري ، يؤدي الى نشوء نوعية جديدة • أي أن التبدلات الكمية ذات حدود معينة • فاذا تجاوزتها ، أثرت على الشيء ذاته ، على كيانه النوعي • وهكذا فالكمية هي هذه الناحية من الاشياء والظواهر والعمليات، هذه الناحية التي تميز درجة تطور هذه الاشياء ، وحجمه ، وشدته ، والتي تحوز تعبيراً عددياً وتنحصر خاصيتها في أن تبدلها ، عندما يبلغ حداً معيناً ، يؤثر على نوعية الشيء •

ان علم الطبيعة يقدم دلائل كثيرة على هذه الصلة المتبادلة بين التبدلات الكمية والنوعية • فاذا قسمنا جسماً غير حي الى صغيريات متناقصة الحجم ، فلابد من بلوغ حد تستدعي ، بعده ، التبدلات الكمية تبدلات نوعية • إن الجسم يقسم إلى جزيئات ، وهذه الى ذرات • والذرات تتميز عن الجزيئات بنوعيتها وخصائصها • كما أن هذه الأخيرة تتميز عنالاجسام الطبيعية•والذرات ذاتها ليست نهاية التقسيم • إنها تتألف ايضاً من صغيريات اكثر صغراً : من بروتونات ، ونيترونات ، واليكترونات تحوز قوانين حركة خاصة بها • إن التصادم والتفاعل المتبادل بين الذرات المتحركة في طاقة لا تتجاوز بعض الاليكتروفلتات يُبقي هذه الذرات على ما هي عليه دون أن تفقد نوعيتها • وبالامكان زيادة الطاقة الى ألوف المرات مع بقاء النتيجة واحدة • ولكن ما ان تبلغ الطاقة ملايين الاليكتروفولتات حتى تحدث تبدلات نوعية في نوىالذرات ، وتتحول بعض الذرات الى بعض آخر •

ولكي يصبح بالامكان القيام بسلسلة من ردود الفعل لتحطيم النواة بهدف ايجاد انفجار ذري لابد من توفر كمية معينة من الاورانيوم • ان الحد الأدنى الضروري من الأورانيوم لحدوث هذا التفاعل (قرابة كغ) يدعى ب « الكتلة الحرجة » • فاذا قلت الكمية عن ذلك لاتحدث سلسلة ردود الفعل ولا يحدث الانفجار •

ثم إن الكمياء ، بين كثير غيرها ، تعطينا أمثلة واضحة على أن التبدلات

العددية تتحول اذا ما بلغت حداً معيناً ، الى تبدلات نوعية • فاذا ما جمعنا عناصر واحدة في نسب كمية متباينـة ، نحصل على أشياء متباينـة نوعيـاً • وقـانون « منديلييف » الدوري قائم على أساس انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • يذهب « منديلييف » الى أن خصائص العناصر الكيميائية متعلقة بمقادير وزنها الذري • وقد أتاحت المنجزات العلمية الحديثة جعل هذه النظرية اكثر دقة وبرهنت على أن مكان كل عنصر كيميائي في لوحة « منديلييف » يتحدد بمقدار شحنة نواته • ويؤدي التبدل الكمي في هذا المقدار الى تحولات نوعية للعناصر •

في هذه العلاقة بين التبدلات النوعية والتبدلات الكمية تنتفي كل سرية • إن الناحية الكمية للأشياء لا تنفصل عن ناحيتها النوعية • فالكميـة هي كميـة نوعية معينة : من مقدار الشيء ، وحجمه ، وشدته ودرجة تطوره • والتبدلات الكمية ليست اكثر من عملية مستقلة نسبياً : إن التبدلات الكمية المتواصلة الى ما بعد الضد المعين لكل شيء ، تدخل في تناقض صارخ مع النوعي ، وتصبح عاجزة عن البقاء سوية معها ، آنذاك يتبدل الشيء ، تتبدل نوعيته •

وهكذا فان التحديد الكمي والنوعي للأشياء قائمان في صلة لا انفصام لها • إن تبدل أحدهما يستدعي التبدلات المقنونة للآخر • فعندما تصل التبدلات الكمية حداً معيناً خاصاً بالشيء ، تستدعي تبدلات نوعية • الا أن الصلة بـين الكم والكيف ليست وحيدة الجانب • فليست التبدلات الكمية هي ، وحدهـا ، التي تتحول الى تبدلات كيفية • إن العكس صحيح أيضاً • فكل عملية انتقال للتبدلات الكمية الى تبدلات نوعية ، تعني ، في الوقت ذاتـه ، انتقال التبـدلات النوعية إلى تبدلات كمية جديدة • وهو أمر طبيعي ، لأن النوعيـة الجديـدة تمتزج عضوياً بكمية جديدة ، بنسب كمية جديدة •

إن تعاونية العمل ، مثلاً ، أي جمع عدد من المنتجين المبعثرين تحت ادارة وتوجيه واحد ، هي شكل نوعي جديد للانتاج • هنا انتقلت التبدلات الكمية الى نوعية جديدة • وهذه النوعيـة الجديـدة (اي تعاونيـة العمل) تخلق ، بدورها ، إنتاجية عمل أرفع من إنتاجية المنتجين المبعثرين • فبفضل تعاونيـة

العمل ترتفع القوة الانتاجية لكل عامل منفرد يشكل عمله جزء من كل • وهذا يعني أن التبدلات النوعية تستدعي تبدلات كمية جديدة •

ومن المعلوم أن الاقتصاد الاشتراكي يتطور بوتيرات لم تستطعها الرأسمالية حتى في عصرها الذهبي من تاريخها • وهو أمر يفسر بأفضليات الاشتراكية على الرأسمالية • وبكلمة أخرى إن الانتقال الى نظام اقتصادي جديد (الاشتراكية) يولد وتيرات تطور جديدة • أي أن النوعية تتحول الى كمية •

وهذا يعني أن التحديد النوعي للأشياء ليس ، وحده ، الذي يتعلق بالكمية ، بل ان الكمية ، أن التحديد الكمي للأشياء ، مشروط أيضاً بالخواص النوعية لهذه الأشياء • وفي مفهوم المقياس تنعكس وحدة النوعية والكمية ، وعلاقتهما المتبادلة ، وارتباط إحداهما بالأخرى • إن كل شيء هو مقياس ، بمعنى أن كمية معينة تستقر في أساس خاصته النوعية • وعلى العكس فان تحديده الكمي مرتبط بالجوهر النوعي للشيء • وقد سمى « هيغل » المقياس بـ « الكمية النوعية » ، وبالتالي ، يمكننا تسمية المقياس بـ « النوعية الكمية • إن المقياس هو وحدة الكمية والكيفية وتفاعلهما المتبادل • والشيء ، باعتباره تحديداً نوعياً ، يمكن ان يوجد في علاقة لا مع أية كمية كانت ، بل مع كمية معينة ، رغم تذبذبها في حدود معينة ، والحدود الكمية لتبدلاته مشروطة بالتحديد النوعي للشيء • المقياس هو إحدى مقولات الديالكتيك المادي الهامة • فبفضله نستطيع حيازة الشيء كوحدة للنوعية مع الكمية ، وكتركيب لهما • إن المقياس هو حد وجود الشيء • وخرق المقياس يجعل الكيان المعين ، الشيء المعين ، غير ممكن الوجود • وبمقدار ما يكون الشيء موجوداً لازمه مقياسه •

ثم إن المقياس أمر هام جداً في الفن • فمن دون المقياس لايمكننا التعبير عن جمال الطبيعة والانسان • والقول صحيح ايضاً في المفاهيم والمبادىء الأخلاقية • فالاثم الذي لا يؤذي ، في البداءة ، والمرتكب ضد مبادىء المجتمع الاشتراكي ، يمكن أن يتكون ، عند حد معين ، إلى جريمة • والقصة الوعظية

التي يرويها لنا الكاتب كريلوف بعنوان « حساء ديميان » تبين لنا ضرورةالمقياس حتى في قواعد استقبال الضيوف •

بيد أنه لاينبغي أن نستنتج مما سبق قوله أن الخروج الطبيعي على المقياس هو أمر معاكس لطبيعة الأشياء • فالحديث تناول فقط أن لكل شيء حدوده في العلاقة المشروطة المتبادلة للكيانين الكمي والكيفي • وهي حدود لايمكن تخطيها دون المس بالشيء ؛ ذلك أن تخطي هذه الحدود ، تخطي حدود المقياس ، يجعل الشيء يتوقف عن كونه الشيء المعني ، ويتحول إلى شيء آخر • ان المقياس يعين ، بدقة ، الحد الذي لاتؤدي معه التبدلات الكمية الى حدوث تبدلات نوعية • وعندما تتخطى هذه التبدلات الكمية ذلك الحد ، يكف المقياس عن أن يصبح مقياس هذا الشيء ، ويحدث تبدل نوعي في هذا الأخير •

إن خروج التبدلات الكمية عن مقياس الشيء ، هو ظاهرة مقنونة وشرط لتطور العالم الموضوعي • فنتيجة للخروج عن المقياس تؤدي التبدلات الكمية الى تبدل نوعي جذري • تختفي النوعية القديمة لتنشأ نوعية جديدة ، يلازمها مقياس جديد • وفي نطاق المقياس الجديد تتم التبدلات الكمية التي تؤدي ، في درجة معينة ، الى تبدل نوعي جديد ، الى استبدال الاشكال القديمة التي فات زمانها ، بأشكال جديدة • هكذا يتوالى التطور اللانهائي •

من خلال ما سبق قوله نستطيع استخلاص جوهر القانون المبحوث :

إن قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية ، هو قانون تَخْرُق ، بموجبه ، التبدلات الكمية التي كانت ، في البداءة ، غير ملحوظة ، وتكدست تدريجياً حتى بلغت حداً معيناً ، تخرق مقياس الشيء ، وتستدعي حدوث تبدلات نوعية أساسية ، تتبدل بسببها الأشياء ، وتختفي النوعية القديمة لتنشأ نوعية جديدة •

إن هذا القانون الذي هو أحد القوانين الهامة في تطور العالم الموضوعي وتبدله ، يتمتع بأهمية كبرى في مجال المعرفة • فقد سبق أن قلنا ان قوانين

الديالكتيك هي قوانين الوجود وقوانين المعرفة • إن قانون الانتقال من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية ، يتطلب ، قبل كل شيء ، دراسة الخاصة النوعية ، دراسة كيان الأشياء ، وإلا لما أمكن معرفة أمر عن الأشياء • فدراسة التحديد النوعي لهذه الفئة ، أو لتلك المجموعة من الظواهر ، هي الطريق الصحيح الوحيد الذي يتيح صياغة القانونيات الخاصة بتطور هذه الظواهر ، وهي قانونيات متباينة عن قوانين الظواهر الأخرى • وهكذا لا نستطيع فهم عدمملاءمة قوانين ميكانيك « نيوتن » الكلاسيكي لتفسير حركة الجسيمات الصغيرة (من بروتونات ، واليكترونات ، ونيترونات ••• الخ) إلا عندما نأخذ الخاصة النوعية لهذه الجسيمات بعين الاعتبار • فهنا تعمل قوانين الميكانيك الكوانتي • إن الطبيعة الحية توجد وتتطور وفق قوانينها التي تتميز عن قوانين الطبيعة اللاعضوية • كما أن المجتمع الانساني يخضع لقوانين أخرى غير قوانين الطبيعة • لهذا تناضل الماركسية ضد النظريات التي تقضي على الفارق النوعي بين قوانين المجتمع وقوانين الطبيعة ، وتحاول جعل الأولى من طينة الثانية ، وتفسر حياة المجتمع بالخصائص البيولوجية للعروق الانسانية ، وبالكفاح من أجل البقاء •

ويحاول التحريفيون العصريون ، مثلاً ، محو الفارق النوعي الأساسي بين الاشتراكية والرأسمالية ليزينوا هذه ، وليغرقوا الشغيلة في تصورات كاذبة نقول بأن من الممكن تغيير طبيعة النظام الرأسمالي من غير تحويله ثورياً • الا أن نوعية الشيء ، كما رأينا ، لا توجد منفصلة عن ناحيته الكمية • لهذا يولي الديالكتيك دراسة الكمية ، والعلاقات الكمية بين الاشياء ، أهمية كبرى • فالنوعية ، فالشيء ، لايمكن فهمه من غير أخذ كيانه الكمي بعين الاعتبار •

إن دراسة الكيان الكمي للأشياء هي عملية معقدة ، تفترض القدرة على التجرد عن التنوع النوعي للأشياء • ودراسة الناحية الكمية للظواهر عبارة عن درجة تعميق المعرفة القادرة على كشف قوانين هذه الظواهر • فعندما حلل الفيزيائيون مثلاً ، اللون الأبيض إلى أجزائه المكونة له ، وذهبوا الى أن موجات كهرطيسية متفاوتة الأطوال تستقر في أساس الفارق النوعي بين

الألوان المختلفة (أحمر ، بنفسجي ، أخضر ••• الخ) ، آنـذاك أصبـح التخليل العلمي للضوء ممكناً • وقد كتب الفيزيائي السوفييتي الشهير « س• فافيلوف » في هذا الخصوص يقول : « ان ميـدان الظواهر الضوئيـة الذاتي الحرون ، الذي استعصى حله عـلى العلماء ، طوال ألوف السـنين ، كشف ، فجأة ، عن جوهره الكمي ، وأصبح ، منذ الآن ، خاضعاً كلياً للتحليل العلمي الدقيق »(١) • كما أن من المعلوم أيضاً أن الكيمياء أصبحت تقف بقـوة عـلى قدميها بفضل تبني الطريقة الكمية في دراسة الأشياء • مما أتاح وضع مثـل هذه القوانين الكيميائية الهامة : كقانون ثبات التركيب ، وقانون النسب المضاعفة ••• الخ • وليس من الصدفة في شيء أن تحتل الطريقةالرياضية للمعرفةأهمية متعاظمة في العلوم الحديثة والنشاط الاجتماعي •

ثم إن قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبـدلات كيفية ، باعتبـاره قانوناً للمعرفة ، يحذر من جعل الطريقة الكمية في البحث ، شيئاً مطلقاً ، ويطالب برؤية محدوديتها ، وبدراسة العمليات الكمية في علاقتها الوثيقة بالكيان النوعي للأشياء • صحيح أن القضية تختلف باختلاف مجالات المعرفة •ففيالرياضيات مثلاً ، التي تقوم على العلاقات الكمية المحضة ، يحق لنا التجرد عن نوعيـة الأشياء • الا أنه كلما تعقد شكل الحركة المادية المبحوث ، وكلما أصبح هذا الشكل في درجة أعلى من سلم الطبيعة ، أصبح من الأهمية بمكان ، عند دراسة العلاقات الكمية ، عدم إسقاط الخاصة النوعية للاشياء والعمليات من الاعتبار ، وأن نأخذهما في تأثيرهما المتبادل وعلاقتهما المشتركة التي لا تنفصم • وهو أمر له اهميته العظمى ، خاصة ، عند دراسة الظواهر الاجتماعية •

لقد أشار لينين أكثر من مـرة الى أن علمـاء الاجتماع والاقتصـاديين البورجوازيين يستخدمون الاحصاء مثلا ، من أجل تشويه الواقع • إن الاحصاء يدرس الناحية الكمية من العمليات الاجتماعية ، التي لاتمكن دراسة الظواهر الاقتصادية مثلاً من دونها ، ولكن لما كان الاحصاء لايدرس غير الناحية الكمية

(١) « س• فافيلوس » : « العين والشمس » ١٩٥٦ ص ٢٢ •

من الظوهر الاجتماعية المعقدة ، لذا يمكن ، إذا أراد الانسان ، تحويله من وسيلة للبحث العلمي إلى وسيلة لنشر الأفكار الكاذبة . هكذا نجد أن الاقتصاديين البورجوازيين يتعمدون ، في إحصاءاتهم ، تصنيف الاستثمارات الزراعية وفق دليل واحد هو مساحة الأرض ، وذلك لدحض النظرية الماركسية الذاهبة الى أن الرأسمالية تعمل على تنحية المنتجين الصغار ، حتى في الزراعة ، كما تتعاظم فيها الاستثمارات الرأسمالية الضخمة ؛ وكذلك للدفاع عن الفكرة الكاذبة التي تقول باستقرار الاستثمارات الصغيرة في ظل الرأسمالية. وهكذا يتجاهلون تلك العمليات النوعية كاستخدام العمل المأجور في الزراعة ، وتوظيف الرساميل في الأراضي ... الخ الأمر الذي يسم تطور الزراعة كتطور ذي نوعية رأسمالية . يقول لينين : « إن أخذ كمية الأراضي فقط بعين الاعتبار لا يتيح أبداً التعبير عن جميع العمليات المعقدة والمتنوعة الأشكال . فمن هذه العمليات ، بالذات ، ينشأ السير العام للتطور الرأسمالي في الزراعة »[١].

وعند استرشادنا بالقانون الديالكتيكي الخاص بالانتقال من الكم الى الكيف، ومن الكيف الى الكم ، لا بد لنا من أن نأخذ بين الاعتبار العمليات الكمية ، والعمليات الكيفية ؛ كما لا بد من النظر الى علاقاتها ومشروطيتها المتبادلة . هذه المعالجة وحدها هي التي تشكل أحد الشروط الهامة للمعرفة الحقيقية .

٢ : ـ وحدة شكلي التطور : الشكل الارتقائي والشكل الثوري ـ القفزات

إن تحليل التبدلات الكمية والتبدلات الكيفية للأشياء يدل على أن هذين الشكلين من التبدلات عبارة عن شكلين مختلفين للحركة رغم أنهما مرتبطان بعضهما ، ولكل منهما خصائصه. فالتبدلات الكمية عبارة عن شكل ارتقائي[٢]

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢٢ ص ٤٧ .

(٢) غالباً ما تستعمل كلمة ارتقاء في معنيين . يراد بالمعنى الاول مفهوم الارتقاء الذي يرادف مفهوم « التطور » . ان نظرية « داروين » عن نشوء الاجناس تسمى ، مثلا ، نظرية الارتقاء ، وذلك لأنها تنطلق من أن الاجناس العضوية ليست ثابتة بل هي في تطور . والارتقاء ، بهذا المعنى ، يشمل التبدلات الكمية والتبدلات النوعية معاً . ويراد بالمعنى الثاني الارتقاء الذي هو أحد أشكال التطور ، وهو على وجه التحديد ، التبدلات الكمية التدريجية للأشياء ، تمييزاً لها عن التبدل النوعي الثوري الذي يحدث على شكل قفزة . وكلمة « الارتقاء » هنا تستعمل دائماً بمعناها الثاني .

للتطور • أما التبدلات النوعية فهي ، على العكس ، شكل ثوري له • وبما ان التبدلات الكمية والكيفية مرتبط بعضها ببعض ، لذا نستنتج ، بالضرورة ، أن التطور هو وحدة التبدلات الثورية والارتقائية • وهو أمر له أهميته المبدئيــة الكبيرة ، ويشكل احدى النواحي الهامة في نظرية التطور الديالكتيكية •

التطور الارتقائي هو التبدل الذي يطرأ ، بسببه ، على الكائن تبدل كمي تدريجي • أما التطور الثوري فهو تبدل الكائن تبدلاً نوعياً جذرياً • التبدل الثوري عبارة عن قفزة ، عن توقف التبدلات الكمية التدريجية ، عن انتقال من نوعية إلى أخرى • وكل تبدل نوعي يتم بشكل قفزة •

وبما أن التطور ، كما رأينا ، عبارة عن انتقال من التبدلات الكمية الى التبدلات الكيفية ، والعكس بالعكس ، فهو لا يمكن أن يتم ارتقائياً فقط ، أو ثورياً فقط • ومع هذا فقد عرف تاريخ الفلسفة والعلوم نظريات تقتصر على جانب واحد ، وتأخذ اما بالشكل الارتقائي للتطور وحده ، أو بشكله الثوري فقط • أمثال هذه النظريات قائم حتى الآن • وتذهب وجهة النظر الارتقـائية العامية إلى أن التطور ذو خط متواصل مستمر من التبدلات الكمية دون أيــة تبدلات كيفية ، دون أية قفزات • وتعبر عن وجهة النظر هذه ، في ميــدان البيولوجيا نظرية التشكل المسبق • أما نظرية وايزمن في البيولوجيا الحديثــة فهي تعبير أصيل عن التشكل المسبق •

لقد أثبت « بليخانوف » بوضوح خطــل وجهــة النظر تلك • يقــول « بليخانوف » : « عندما يتحدث الميتافيزيكيون عن نشوء ظــاهرة ما ، أو عن نشوء مؤسسة اجتماعية ما ، فهم يصورون القضيــة وكأن هــذه الظـاهرة أو المؤسسة كانت في يوم ما صغيرة جداً ، وغير مرئية تماماً ثم كبرت شيئاً فشيئاً • أما اذا جرى الحديث عن تلاشي ظاهرة أو مؤسسة ما فيفترض العكس ، أي تصاغرها التدريجي حتى تصبح غير مرئية مطلقاً • هــذا التطور المفهــوم على النحو المذكور لا يمكن أن يوضح شيئاً • انه يفترض وجــود هــذه الظواهر

نفسها التي ينبغي عليه تفسيرها ، كما لا يأخذ بعين الاعتبار سوى التبدلات الكمية التي طرأت عليها [1] .

مثل هذه النظرات الارتقائية العامية انتشرت انتشاراً واسعاً في الحياة الاجتماعية بشكل خاص . كما تعتمد الفلسفة البرجوازية هذه النظرات في دفاعها عن النظام الرأسمالي . وتذهب الفلسفة المذكورة إلى التأكيد بأن المجتمع لا يتطور الا تطوراً ارتقائياً ، من غير حدوث تبدلات جذرية ، ومن غير هزات وانقلابات ثورية . وهي تعتبر القفزات الثورية في التطور ، قفزات لاتأتلف مع الطبيعة ، وتلحق الخلل بـ « السير الاعتيادي المتناسق » .

على أساس هذه النظرية الميتافيزيكية تقوم الاصلاحية في الحركةالعمالية، هذه الاصلاحية المحرفة للاشتراكية العلمية الماركسية . يذهب الاصلاحيون الى أن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ممكن الحدوث من غير ثورة ، نتيجة اجراء بعض الاصلاحات الصغيرة ، ومن دون تخطي اطار المجتمع البرجوازي ، ومن غير استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية . يقول لينين: « إن التحريفيين (ويعني الاصلاحيين) يعتبرون كل حديث عن « القفزات » وعن معارضة المجتمع القديم كله بالحركة العمالية ، معارضة مبدئية ، مجرد سفسطة ، معتبرين الاصلاحات عبارة عن تنفيذ جزئي للاشتراكية » [2]. ويؤكد المحرفون المعاصرون ، كما كان تأكيدهم أيام « بيرنيشتاين » ، أن الاشتراكية أو عناصر الاشتراكية ، كما لو أنها تنمو في كل مكان ، بما فيه الدول الرأسمالية . وهم يعتبرون بعث « البيرنيشتوينية » هذا إغناءً جديداً للماركسية . إن المحرفين يخلطون بين المقدمات المادية للاشتراكية ، التي أنشأتها وما تزال تنشئها الرأسمالية الحديثة ، وبين الاشتراكية ذاتها .ويخوض الاصلاحيون والمحرفون نضالاً ضارياً ضد الماركسية الثورية ، ويشقون صفوف الحركة العمالية ، ويدفعون هذه الحركة الى التفاهم مع البرجوازية ، والنظام الرأسمالي .

---

(١) بليخانوف : « منتخبات من المؤلفات الفلسفية » الجزء الاول عام ١٩٥٦ ص ٥٦٩ .

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ .

هكذا يكمن جوهر وجهة النظر الارتقائية العامية في الابراز الوحيد الجانب للتدرج في التطور ، وفي سيره سيراً هادئاً ، وفي نفي القفزات الثورية وأهميتها في التطور •

وهناك نظرية تماثل السابقة في خطلها ومعالجتها القضايا من جانب واحد ، ولكنها أقل انتشاراً منها • هذه النظرية تذهب إلى أن التطور عبارة عن سلسلة من القفزات والانقلابات دون أي تدرج • وقد انعكست هذه النظرات انعكاساً واسعاً في النظريات العلمية الطبيعية والنظريات الاجتماعية • وكانت هنالك محاولات ، مثلاً ، لتفسير تبدلات العالم العضوي بكوارث مفاجئة تنشأ من حين لآخر ، وتؤدي الى تبدلات في العالم النباتي والحيواني ، كنظرية العالم الفرنسي الشهير « كيوفيي » في القرن التاسع عشر • وأخذ يمثل هذه النظرات بعض علماء الطبيعة ايضاً • لقد ذهب البيولوجي الهولاندي « غيفودو فريز » إلى أن النباتات تعيشَ مئات السنين وألوفها دون أن تتبدل مطلقاً • وفجأة، وتحت تأثير « قوة خلاقة » تحدث القفزة ، تحدث « الدفعة » حسب تعبيره : فتتبدل النباتات نوعياً • وهو يعتقد أن تطور الطبيعة الحية يتسم « بشكل قافز » • ولكن من أين تتأتى هذه القفزات ، وما هي العوامل التي تسببها ؟ يجيب « غيفودو فريز » بأنها مجرد صدفة •

إن الفوضويين ، والفوضويين النقابين ، يذهبون تلك المذاهب عن تطور الحياة الاجتماعية • إنهم يفترضون أن الانقلابات الاجتماعية تحدث بشكل مفاجيء ، وبدون فترة تحضيرية ، وبدون تجميع القوى المتواصل ، وبدون الارتقاء البطيء الذي يخلق المقدمات الضرورية للثورة •

هاتان النظرتان تعالجان الأمور من جانب واحد ، ولا تنسجمان مع واقع تطور العالم الموضوعي • يقول لينين : « ان الحياة والتطور في الطبيعة يشتملان على الارتقاء البطيء والقفزات السريعة ، أي توقف التدرج »[1] • وكل شكل من شكلي الحركة هذين عبارة عن مرحلة مقنونة وضرورية في تطور الكون كله•

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ •

إن التطور الارتقائي هو المرحلة التي يتعرض فيها الشيء لتبدلات كمية تدرجية • هذه التبدلات غير قادرة ، بذاتها ، على إحداث نوع جديد ، الا أنها تحضر للتبدل النوعي • ولكي يقع هذا التبدل لابد من توقف التبدلات الكمية التدرجية ، لابد من القفزة التي يتم الانتقال ، بواسطتها ، من القديم إلى الجديد • وتلعب التبدلات الكمية ، والقفزات ، دوراً كبيراً في عملية التطور • لذلك لابد من دراسة هذه المقولة الفلسفية دراسة أوسع •

إن مفهوم القفزة يعبر عن مرحلة مقنونة في عملية التطور ، عن مرحلة تصدع في التبدلات الكمية التدرجية ، يعبر عن هجوم التبدلات الكيفية • إن القفزة تتم المرحلة الارتقائية •

واذا ما قورنت القفزة ، اذا ما قورن التبدل الثوري ، بالحركة الارتقائية، التدرجية ، تبين أنها تتميز بصفات هامة • ففي الوقت الذي يحمل فيه الارتقاء الى الشيء تبدلات جزئية ، دون أن تنال من نوعيته ، من جوهره ، تبدو القفزة عبارة عن شكل التبدلات الجذرية ، عن انتقال الشيء من نوع إلى آخر • صحيح أن الارتقاء هو أيضاً شكل تبدلات الشيء ، الا أن هذه التبدلات ليست جذرية ، رغم أنها يمكن أن تكون هامة • مثال ذلك أن تطور الرأسمالية ، ولا سيما في المرحلة الامبريالية ، يعد المقدمات المادية الضرورية للانتقال إلى الاشتراكية • الا أن التعاظم الكمي الارتقائي لهذه المقدمات لايعني بعد الانتقال إلى الاشتراكية ، والقضاء على النظام البرجوازي • ولن يحقق هذا غير الثورة الاشتراكية ، غير القفزة الثورية •

يقول لينين : « إن الرأسمالية تحفر قبرها بيديها ، وتخلق بذاتها عناصر النظام الجديد • ولكن هذه العناصر ، في الوقت ذاته لا تغير ، شيئاً من دون القفزات ، في وضع الأمور العام ، ولا تمس سيطرة الرأسمال » [١] •

وتنحصر الأهمية الاجتماعية العظيمة للنظرية الدياليكتيكية عن انتقال

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ ٠

التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، في أن هـذه النظرية تضع اسس قانونية الثورات الاشتراكية وضرورتها ، عند الانتقال من النظام الاجتماعي الذي فات أوانه الى نظام جديد اكثر تقدمية ، كالانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية •

ثم إن القفزة تعني انقطاع تدرج التبدلات الكميـة ، انقطـاع مواصلـة التطور • وطبيعي انه لاينبغي فهم انقطاع مواصلة التطور بمعنى توقف التطور• ففي مرحلة معينة لا يتوقف الا نوع من أنواع تبـدلات الشيء ، هـو النـوع الارتقائي الذي يتسم بالتدرج ، بمواصلة التبدلات الكمية في حـدود النوعيـة القديمة • ان القفزة هي الانتقال من نوعية الى أخرى • وهذا يعني انه حـدث « توقف » في التطور : نشأ شيء جديد ، ولف القديم العدم ، ونشأت « عقدة » جديدة في سير الحركة ، نشأت مرحلة جديدة ، نشأ مقياس جـديـد • لهذا فالقفزة ، عدا عن أنها لا توقف التطور ، فهي ، الى جانب ذلك ، شكل أسرع تبدل ، أعلى نقطة في التطور ، وفيها يحدث انهيار الشيء البالي الذي يعرقـل الحركة التالية ، كما يتعبد الطريق امام اشكال اكثر تقدمية ، وحيويـة • إن الثورات الاجتماعية هي برهان ساطع على أهمية القفزات الجبـارة في تطـور المجتمع •

وتتميز القفزة عن تدرج التبدلات الكمية بأنها شكل تبدل الأشياء بسرعة أعظم نسبياً • فالتبدلات الكمية تجري ، عادة ، ببطء ، في حين أن القفزات تتم في فترات زمنية قصيرة الى حد كبير •

بيد أن هذا لا يعني أن القفزات تحدث ، دائماً ، وفي جميع الاحـوال ، خلال لحظة واحدة • فهناك قفزات لا تتم الا خلال وقت طويل • انها يمكن أن تستغرق زمناً طويلاً في تطور المجتمع (كالثورة الاشتراكية العالمية ،مثلاً)•

ثم إن القفزة ، خلافاً للتبدلات الكمية التدرجية التي غالباً ما تكون غير ملحوظة ، وغير ملموسة ، وغير مرئيـة ، عبـارة عن شكل التبـدلات المرئيـة المكشوفـة •

ورغم جميع الفوارق القائمة بين الحركة الارتقائية والحركة الثورية ، بين الحركة المتواصلة والحركة القافزة ، فان كلتيهما تشترط الأخرى ، وتشكل طرفاً في عملية تطور واحدة : فالتبدلات الكمية تحضر القفزات ،تحضر انقطاع تدرج التبدلات الكمية ، والقفزة تخلق شروط التبدلات الكمية التالية.

لهذا كان تطور الطبيعة ، والمجتمع ، والفكر الانساني يحدث لا وفق خط متواصل لا انقطاع فيه ، حيث يتم الانتقال من شيء الى آخر ، بشكل غير مرئي ، وغير ملحوظ ، بل وفق خط تنقطع فيه التبدلات الكمية التدريجية بقفزات ، وبالانتقال من القديم الى الجديد ، وبنشوء تشكيلات جديدة نوعياً . لقد كان نشوء الحياة ، ونشوء الوعي كخاصة المادة الرفيعة التطور ، أعظم قفزتين ، اعظم انقطاعين للتدرج ، في تاريخ تطور الطبيعة . ويعتبر نظام العناصر الدوري خير مثال على وحدة الاستمرار والانقطاع في تطور الطبيعة.إن الفارق النوعي بين ذرات العناصر قائم على الفارق الكمي في شحنات نواها . ويتم الانتقال من عنصر الى آخر على شكل قفزة . فكل عنصر جديد عبارة عن عقدة نوعية في سلسلة التطور ، هو حلقة جديدة نوعياً ، ومقياس جديد . وعلى سبيل المجاز ، سمى « هيغل » التطور الذي يحدث ، خلاله ، الانتقال من مقياس الى آخر ، بـ « الخط العقدي للمقاييس » . ان كل مقياس جديد هو أشبه بـ « العقدة » ، انه تشكل نوعي جديد أوجدته الطبيعة في طريق تطورها اللانهائي .

إن الحياة العضوية هي هذا « الخط العقدي للمقاييس » ، حيث تنقطع التبدلات التدريجية بالقفزات ، بنشوء أشكال جديدة نوعياً . وعندما تمت القفزة الجبارة ، ونشأت الحياة من المادة غير الحية ، فان التطور التالي للمادة الحية لم يكن عبارة عن نمو كمي متدرج للاشكال التي نشأت في البداءة . وقد أحسن البيولوجي الأكاديمي السوفييتي « كوماروف » حين قال في هذا الخصوص : « لو أن الحياة ، بعد نشوئها على الارض ، استمرت بالنمو كمياً فقط ، لتغطي سطح الأرض بطبقات سميكة من الزلال الذي يشبه ما تصنعه ، الآن ، الجراثيم ، والأميب ، وغيرها من العضويات المماثلة . غير أن الكمية

تتمتع بخاصة الانتقال الى النوعية ، وعلى هذا فكتل الجسم القائمة في علاقات متبادلة متباينة (كيميائية وفيزيائية ... الخ) مع الوسط الخارجي ، تكتسب نوعيات متباينة ، أو كما يقال ، تتمايز • إن الكتلة ذات النوع الواحد تصبح ذات انواع متعددة »[1] •

إن أنواع النباتات والحيوانات عبارة عن « عقد » مختلفة نوعياً ، معبرة عن تمايز المادة العضوية ، عن تحول النوع الواحد الى انواع واشكال متعددة • وليس خط تطور النباتات والحيوانات عبارة عن سلسلة متواصلة ، بل هو استمرار يقطع ، على شكل قفزات ، بنشوء أشكال وأنواع عضوية جديدة •

وما قيل عن وحدة التدرج الكمي ، وعن القفزات النوعية ، في الطبيعة ينطبق تماماً على تطور المجتمع • وكل تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة إنما نشأت في أعقاب التطور الكمي التدريجي في التشكيلة القديمة ، وعنت قفزة جبارة ، وتغيراً جذرياً في تطور المجتمع •

كما ان تطور المعارف الانسانية يحدث ايضاً عبر انقطاعات التدرج • فتسبق الاكتشافاتالعلمية العظمية فترات تراكم بطيء في الوقائع والملاحظات ، وفي نشوء افكار ومبادىءجزئية افرادية • وهو أمر يتيح ، فيما بعد ، « بشكل فجائي » ، « بشكل غير ملحوظ » حدوث قفزة الى الأمام سريعة • وكمثال على هذه القفزات في تطور العلم نذكر : وضع النظام الشمسي من قبل كوبرنيك واكتشاف قوانين الميكانيك من قبل « غاليله » و « نيوتن » ، واكتشاف « لومونوسف » لقانون حفظ المادة والحركة ، ونظرية داروين عن نشوء الأنواع ، ونشوء الماركسية الذي يعتبر تحولاً ثورياً عظيماً في تاريخ الفكر الانساني ، وتطوير لينين للماركسية وصياغته نظرية الامبريالية والنظرية الجديدة للثورة الاشتراكية ، ونظرية بناء المجتمع الشيوعي؛وكذلكالاكتشافات العلمية العديدة في القرن العشرين ، كنظرية النسبية ، والميكانيك الكوانتي ، والفيزياء الذرية ، ونظرية ميتشورين في البيولوجيا ، واكتشاف غزو الفضاء ... الخ •

---

(١) « ف• كامايوف » : « نشوء النبات » عام ١٩٤٣ ص ٤٤ •

ليس تاريخ الفكر هو ، وحده ، عبارة عن وحدة الاستمرار والانقطاع ، وحدة التدرج والقفزات بل أن أية عملية من عمليات المعرفة هي هذه الوحدة • لابد من تراكم كمي متواصل من الوقائع والملاحظات على مستوى المعرفة الحسية من اجل الانتقال الى التعميم الذي يعني قفزة من احدى درجات المعرفة إلى درجة أخرى – من التأمل الحي الى التفكير المجرد•وهذه الفقرة تعني تعميق المعرفة ، والانتقال من دراسة الظواهر الخارجية الى جوهرها •

إن منظومة العلوم العديدة تعكس وحدة استمرار الطبيعة وانقطاعها • وكل علم من العلوم ، سواء منها علم الفيزياء ، أو الكيمياء ، او البيولوجيا ، أو العلوم الاجتماعية الاخرى ، يدرس الأشكال المختلفة للحركة ، وهي الاشكال التي تتمايز نوعياً فيما بينها • ومع هذا فالعلوم كلها مرتبطة بعضها في منظومة علمية واحدة ، لان العلوم تعكس النواحي الفردية للمادة المتحركة ، للطبيعة الواحدة التي لاحصر لتنوعها • وكما أن الطبيعة مستمرة ومتقطعة ، كذلك العلوم فهي موحدة ، مستمرة (أي مرتبط بعضها ببعض) من جهة ، ومتقطعة (أي منفصلة) ، من جهة أخرى •

٣ : – تنوع أشكال الانتقال من النوعية القديمة الى النوعية الجديدة

إن الديالكتيك المادي غير محدود بالفكرة القائلة بأن الانتقال من نوعية الى نوعية أخرى يحدث عن طريق القفزة • فمفهوم القفزة لا يشير الى كيفية حدوث التحولات النوعية إلا إشارة عامة • في حين يتطلب الدياليكتيك دراسة تعدد أنواع أشكال انتقال شيء إلى آخر ، وتنوع اشكال القفزات • ويتمتع مطلب الدياليكتيك هذا بأهمية طرائقية كبيرة•انه يعتمد التحليل الحسي لاشكال الانتقال الحسية التي تتنوع في الظواهر والعمليات المختلفة تبعاً لاختلاف الظروف •

في هذا المجال تتبدى أهمية طريقة لينين في معالجة القفزات في المجتمع •

لقد انتقد لينين اولئك الاشتراكيين الذين أعلنوا ، وقد عرفوا ان الانتقال من تشكيلة الى أخرى يتم عبر القفزات ، اعلنوا عن وجود قفزة بين الرأسماليـة والاشتراكية . ولكنهم لم يذهبوا الى أبعد من ذلك . ان المهم ، في نظر لينين ، هو ايجاد الشكل الحسي للقفزة ، ايجاد الشكل الحسي للانتقال ، والاحاطة به ، والتعبير عنه ، والعمل من ثم وفقاً لذلك .

إن اشكال القفزات ، إن اشكال الانتقال من القديم الى الجديد ، تتحدد بطبيعة الأشياء والظـواهر المتطورة ، وبالشروط الحسـية التي تتطـور فيها . ليس بالامكان حشر هذه الاشكال المختلفة في مخطط ما مبسط . المهم ، وقـد عرفنا قانون الدياليكتيك العام الذاهب الى ان كل انتقال من حالـة نوعيـة الى أخرى انما هو قفزة ، أن نوضح الأشكال الحسية لهذا الانتقال في كل حادثة . ولنضرب الامثال الدالة على تعدد أشكال التحولات النوعية .

هنالك أشياء لا تحدث تبدلاتها النوعية الا على شكل قفزة تسبب تغيرالشيء تغيراً تاماً ، دفعة واحدة . هكذا تتبدل العناصر الكيميائية نوعياً ، وهو أمر نجد تعبيره العلمي في جدول « مانديلييف » . ولنلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن التبدلات الكمية التي تؤدي الى التحولات النوعية للعناصر انما تجري بشكل خاص . فلدى الانتقال من عنصر إلى آخر ، ولنقل مثلاً ، من الأوكسجين الى الفتور ، لايوجد تعاظم تدريجي للتبدلات الكمية في شحنة النواة : ان الشحنة تزداد ، دفعة واحدة ، بمقدار وحدة ، مما يحدث القفزة ، يحدث الانتقال الى عنصر جديد . ان شحنة نواة الاكسجين تساوي ٨ ، في حين تساوي شحنة الفتور ٩. وعلى هذا ، فالتبدلات النوعية ، فالقفزات ، ليست وحدها التي تسير وفق شكل خاص ، بل وكذلك التبدلات الكمية ، وذلك وفقاً لطابع الظواهر والعمليات .

لقد ألمح انجلز الى هذا عندما لاحظ الشكل الخاص لانتقال أحد أشكال الطاقة الى شكل آخر ، كتحول الحرارة الى حركة مكانيكية،والعكس بالعكس.

---

(١) عنصر كيماوي غازي لا لون له وبرائحة ثومية .

في هذا الانتقال لاتوجد زيادة أو نقصان في كمية الطاقة • هنا تبقى كمية الطاقة كما كانت ولكن النوعية تتبدل • فهل يعني هذا المثل خرق قانون انتقال التحولات الكمية الى نوعية ، وان الاخيرة تنشأ من غير تبدلات كمية تمهيدية ؟ كلا • فهنا ايضاً تستدعي التبدلات الكمية تبدلات نوعية ، ولكن وفق شكل خاص • ان الانتقال من شكل حركة الى شكل آخر ، هو دائماً ، كما يقول انجلز ، عملية تتم ، على أقل تقدير ، بين جسمين ، يفقد احدهما كمية معينة من حركة ذات نوعية ما (كالحرارة) ، في حين ينال الجسم الآخر كمية مناسبة من الحركة من نوعية ما (كالحركة الميكانيكية ، والكهرباء ، والتحلل الكيميائي)[1] •

ومهما تمايزت القفزات (اي الانتقال من نوعية إلى أخرى) في شكلها فان جوهرها يبقى واحداً ، إنها ، في أي شكل كانت ، عبارة عن انقطاع في التطور ، عبارة عن تبدل جذري ، عن تحول الشيء ، عن القضاء على القديم ونشوء الجديد • وقد أشار انجلز ، في حديثه عن شكل الانتقال التدريجي من نوعية الى أخرى ، الى أن الانتقال من شكل حركي الى شكل آخر ، يبقى دائماً ، مع اعتبار التدرج كله ، عبارة عن قفزة ، عبارة عن انعطاف حاسم »[2] •

هناك من يعتقد أن القفزة لابد لها وان تتم بشكل فعل خاطف • ولا شك أن القفزات ، كما سبق ان قيل من قبل ، هي ، بالنسبة الى مراحل التطور الارتقائي ، عبارة عن شكل للتطور أسرع وأشد • ولكن هذا لا يدعو الى الاستنتاج بأن القفزات مرتبطة بفترات زمنية محددة على وجه الدقة • لقد نبه لينين في مقاله عن « المهمات المرحلية للسلطة السوفييتية » ، مشيراً إلى مهمة بناء الحياة الاشتراكية الجديدة والديموقراطية السوفييتية ، ومهمةاجتذاب الجماهير الواسعة الى الادارة الحكومية ، نبه الى أن هذه المهمة لايمكن أن تحل في لحظة واحدة • وكتب في معرض انتقاده اولئك الذين يظنون ان القفزات من هذا

---

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٣٩ •

(٢) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ٦٣ •

النوع يمكن أن تتم دفعة واحدة ، كتب يقول : « ان اكثرية اولئـك الذين يسمون أنفسهم بالاشتراكيين ، والذين قرأوا عن الاشتراكية في « الكتب » ، ولكنهم لم يتعمقوا في الأمور الجدية ، ان أكثرية هؤلاء لايستطيعون فهم ان مؤسسي الاشتراكية قد سميا الانقطاع من وجهة نظر انعطافات التاريخ العالمي ب « القفزة » ، وأن القفزات من هـذا النوع تستغرق فترات تبلغ عشر سـنين وربما اكثر »[1] • وعندما سمى لينين فترة التحويـل الاشتراكي للمجتمع ، بمجملها ، عصر « القفزات الكبرى » أشار إلى أنه يحدث ، في نطاق القفـزة الكبيرة ، عدد كبير من القفزات في مختلف نطاق الحياة الاجتماعية • فبعض القفزات يمكن أن تحدث بسرعة ، في حين يتطلب بعضها الآخر عملاً دقيقـاً يستدعي الصبر ، ووقتاً طويلاً • وعلى هذا فمدة حدوث هذه القفزة أو تلك تتحدد بخصائص العملية ، تتحدد بجوهر التبدلات الحادثة ، وهنـا لايمكن تطبيق أي انموذج جاهز •

لقد اكتسبت قضية تعدد أشـكال الانتقال من القـديم الى الجديد ، في الظروف الحديثة ، أهمية كبـيرة نظريـة ، وعملية • إن كثيراً من البـلدان المتباينة في مستواها الاقتصادي والسياسيْ والثقافي ، وفي تقاليدها التاريخيـة ، تسير في طريق الاشتراكية • وستسير على هذا الطريق أيضـاً ، دول العـالم الاخرى ، عاجلاً أم آجلاً • إن نظرية الماديـة الدياليكتيكيـة عن القفزات ، باعتبار هذه القفزات مرحلة حتمية ، وعاملاً ضرورياً في كل تطور ، إن هذه هذه النظرية تضع ، بصورة فلسفية ، قانونية الثورات الاجتماعية وضرورتها • لقد سلحت الفلسفة الماركسية البروليتـاريا وحزبها بوعي ضرورة التحضـير للثورة الاشتراكية وتنفيذها ، وبدون هذه الثورة لايمكن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية •

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢٧ ص ٢٤٣ •

ان مراحل التطور الارتقائي ، في المجتمع القديم ، وهي المراحل التي نضجت فيها شروط القفزة الثورية ، كثيرا ما اشتملت ، بصورة عامة ، على فترات زمنية طويلة جداً • وهو أمر يجد تفسيره في عفوية تطور المجتمع في الماضي ، وفي أن الطبقات السائدة أبدت مقاومة ضارية ضد التبدلات الاجتماعية التي كانت تهم قوى اجتماعية طليعية جديدة • أما في المجتمع الاشتراكي فيتم التطور ، يتم الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية ، في أعقاب نشاط الجماهير الواعي ، بقيادة الحزب الشيوعي ، وفق القوانين الموضوعية الموعاة • ونتيجة لذلك فان وتيرات التطور الارتقائي ، ومراحله ، واعداد التبدلات الضخمة ، تصبح اكثر قصراً ، كما يتسارع سير التطور الاجتماعي •

وبما أن الطبقات السائدة في المجتمع القائم على التناقضات تقاوم التحولات

التي نضجت في القضايا الاجتماعية ، فان فترات التطور الارتقائي ، وفترات التطور الثوري منفصل بعضها عن بعض ، بشكل حاد • ان تراكم قوى الجديد، القادرة على تحطيم مقاومة القوى الرجعية المدافعة عن القديم يتوالى الى زمن ما ، وما ان تتم هذه العملية حتى يحين وقت القضاء على القديم ، حتى تحين القفزة ، الثورة التي تنفذ التبدل النوعي •

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ص ٦٢ •

وهكذا يتبدى قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، كما رأيناه تبدياً خاصاً في العمليات المختلفة وفي الظروف التاريخية المتباينة • كما أن أهمية هذا القانون الطرائقية تكمن في أنه اولاً ، يشير الى طريق التطور العام الشامل لجميع ظواهر العالم الموضوعي • كما تكمن ، ثانياً ، في أن هذا العام يتطلب للقيام بالعمل بنجاح أعظم ، أن نجد ، ونلتقط ، ونفهم ، بشكل محسوس ، أشكال الانتقال النوعية الخاصة التي تعود لكل حادثة على انفراد •

الفصل السابع

قانون
وحدة وصراع المتناقضات

لقد رأينا ان قانون انتقال التبدلات الكمية الى كيفية ، يعكس ناحية من نواحي التطور الهامة ،ويكشف عن « ميكانيكية » سير التحولات النوعيةللاشياء• الا أن نظرية انتقال التبدلات الكمية الى كيفية لا تجيب على سؤال ما هو مصدر كل تطور ، بما فيه انتقال التبدلات الكمية الى كيفية • يجيب على هذا السؤال قانون ديالكتيكي آخر ، هو قانون وحدة وصراع المتناقضات ، قانون التناقضات كمصدر للتطور •

يقول لينين عن نظرية التناقضات بأنها « نواة » الدياليكتيك الماركسي التي هي مفتاح فهم جميع نواحي وعوامل التطور • أهمية هذا القانون تساعد على النفوذ الى أعماق جوهر الاشياء والعمليات ، والتعرف الى الروابط والعلاقات المتناقضة القائمة بين النواحي المختلفة للاشياء المنفردة ، وكذلك بين الاشياء المتباينة • وقانون انتقال التبدلات الكمية الى التبدلات الكيفية ، الذي سبق ان درسناه ، هو أيضاً احد انعكاسات التطور عبر المتناقضات • لقد رأينا ان نمو التبدلات الكمية يستدعي تناقضاً بين كيان الشيء الكمي أو النوعي • وحل هذا التناقض يتطلب الخروج الى ما وراء حدود النوعية السابقة ، وتشكيل نوعية جديدة ، والا لما امكن التطور اللاحق • والقفزة هي حل هذا التناقض • وبدون قانون وحدة وصراع المتناقضات ، لا يمكننا ، كما سنرى ، فهم حتى جوهر قانون « نفي النفي » • ان قانون صراع ووحدة المتناقضات مستقر في اساس العلاقات المتبادلة بين محتوى الشيء وشكله ، بين الجوهر والظاهرة ، بين العفوية والضرورة •

لهذا فقانون وحدة وصراع المتناقضات يحتل مثل هذا المكان الرئيسي في الدياليكتيك الماركسي • ويتحدد دوره واهميته في انه يكشف عن الدوافع والمصادر الداخلية للتطور • لهذا يعتبر هذا القانون المحك الذي يكشف مدى علمية وحيوية هذه النظرية او تلك من نظريات التطور • وليس من قبيل الصدفة ان نرى اعداء الماركسية القدامى والجدد ، الذين يتوقون الى دحض الدياليكتيك ، قاموا ويقومون باعمال ضد النظرية الدياليكتيكية للمتناقضات ، كمصدر ، وقوة محركة للتطور •

ولنر الآن الخطوط الرئيسية للدياليكتيك الماركسي عن قانون وحدة وصراع المتناقضات •

١ : الاشياء والظواهر كوحدة المتناقضات

صراع المتناقضات هو مصدر التطور

السمة الاساسية المميزة للنظرة الميتافيزيكية عن العالم هي نفي الناقضات الداخلية للظواهر وعمليات العالم الموضوعي • لا شك ان الميتافيزيكين يعترفون بأن بين الاشياء المختلفة يمكن ان توجد وتوجد فوارق وتناقضات • الا انهم ينكرون اطلاقاً امكانية التناقضات الداخلية في الشيء أو الظاهرة ، أو العملية ، الواحدة • ويعتبر الميتافيزيكيون أن لا صحة للفكرة القائلة بأن الشيء المعين يتضمن في نفسه شيئاً آخر ، نتيجة ما يحوزه من نواح وميول متناقضة • ففي رأيهم ان الفكرة وحدها ، وهي الفهم الذاتي للأشياء ، يمكن ان تكون تناقضية داخلياً ، الا أنها تصبح آنذاك خاطئة ، غير صائبة •

لقد أسس أرسطو القانون المنطقي الشكلي للتناقضات • وبموجب هذا القانون لا يمكن ان نقول احكاماً متناقضة عن الشيء المأخوذ في علاقة واحدة ، وفي زمن واحد • هذا القول لاشك في صحته • فالانسان الذي يؤكد بأن هذا النمط موجود وغير موجود، يحق لنا تماماً أن نقول عنه إنه غيرصحيح التفكير•

الا أن أريسطو ذاته ، الذي عبر بصحة عن هذا المبدأ للتفكير المستقيم

منطقياً، والذي لاتناقض فيه، توصل الى نتيجة خاطئة مفادها أن التناقضات الداخلية في الاشياء الموجودة موضوعياً غير ممكنة • انه يقول : « اذا كان ليس بالامكان أن نكون صادقين في قولنا ، عندما نؤكد وننفي في وقت واحد شيئاً ما ، كذلك فليس بالامكان اعطاء تعريفين متناقضين في وقت واحد لشيء واحد » •

لاشك اننا لا نستطيع القبول بذلك • فلا ينبغي اطلاقاً ان نستنتج من قولنا بأن « الاعتراف ، في وقت واحد ، بوجود شيء معين ، ونفي وجوده هو فكرة غير صحيحة » ان نستنتج بأن الشيء الموجود حقيقة ، لايتمتع بخصائص داخلية متناقضة • فليس صحيحاً أن نعتبر انعكاس هذه التناقضات الداخلية في محاكمتنا فكرة غير صحيحة • بل على العكس من ذلك ، فكلما عكس التفكير الانساني التناقضات الداخليـة للظواهر ، والعمليات ، بعمق ، وعى هذا التفكير تلك التناقضات بشكل أحسن وأتم • فليس عجيبا ، لهذا ، أن تبرز منذ الخطوات الاولى لتطور التفكير الفلسفي ، فكر عن التناقض الداخلي لظواهر الطبيعة • هذه الفكرة طورها في القديم الفيلسوف اليوناني هيراقليط ، فقال ان كل شيء موجود ، وفي الوقت نفسه غير موجود ، لان كل شيء يجري ، كل شيء يتبدل باستمرار ، كل شيء موجود في عملية مستمرة للنشوء والانعدام • وقد شـبه هيراقليط العملية العالمية للتبدل الخالد ، بسيل ، بنهر : « فلا نستطيع في وقت واحد أن نغطس في نهر واحد مرتين » • وابرز هيراقليط فكرة عميقة عن مصدر الحركة والتطور حين قال « كل شيء يحدث عبر النضـال » • وفي مؤلفـات اريسطو توجد أمثلة عبقرية عديدة عن الدياليكتيك، كما توجد تلميحات منفردة عن التناقض الداخلي للاشياء • كما وجدت هذه الفكرة في الفلسفة الهنـدية والصينية القديمة •

وفي القرنين ١٧ ، ١٨ ، في فترة سيطرة النظرة الميكانيكية والميتافيزيكيـة عن العالم ، انتشر القول بأن اشياء الطبيعة وظواهرهـا حرة من التناقضـات الداخلية • هذا النقص فرضه وضع العلوم الطبيعية آنذاك • وفيما بعد انتشرت في الفلسفة البرجوازية النظريات التي تنـكر وجود التناقضـات الداخليـة في الاشياء رغم المعطيات العلمية ، لان ذلك يوطد اوضاع البرجوازية ومصالحها

الطبقية • كان في صالح الايديولوجيين الراسماليين ان يتصوروا القضية ، كما لو أن المجتمع البرجوازي خال من التناقضات الداخلية ، وهو مثال الانسجام الطبقي والسلم •

ويحتل (هيغل) مكاناً خاصاً بين الفلاسفة البرجوازيين في مرحلة ولادة الراسمالية • ففي الدياليكتيك الهيغيلي خصص مكان هام للتناقضات ، وصراع المتناقضات كمصدر للتطور • ورغم أن هذه الافكار طورت في شكل مثالي وغير صائب ، فهي على كل حال وجهت ضربة للنظرة المثالية عن العالم ، التي تنكر واقع التناقضات ، وصراع المتناقضات • كما يبذل الفلاسفة البرجوازيون العصريون كل ما في وسعهم لدحض تعاليم الدياليكتيك عن التناقضات • والسمة المميزة لهجومهم على الدياليكتيك هي نفيهم التناقضات في الأشياء ذاتها ، ونقلها الى ميدان الوعي والافكار • وهذا هو شأن الهيغلية الجديدة ، احد التيارات الرجعية في الفلسفة البرجوازية لعهد الامبريالية • ان الهيغليين الجدد ينتقدون هيغل لاعترافه بتناقضية الكائن ، ويدعون تناقضات الاشياء « أوهاماً » • وفي رأيهم أن التناقضات يمكن أن توجد في التفكير فقط • ف « سيدني هول » أحد ممثلي البراغمية ، والفيلسوف الأميركي الرجعي ، يخشى الاعتراف بوجود التناقضات الداخلية في الظواهر والأشياء ذاتها ، وذلك خاصة لأن دياليكتيك تطور التناقضات الداخلية في المجتمع الرأسمالي ، يولد النضال الطبقي ، والثورات الاجتماعية •

ان كثيراً من الفلاسفة البرجوازيين ، وحتى في زماننا هذا ، يضطرون الى الاعتراف بحقيقة التناقضات ، ولكنهم يحاولون القول بأن التناقضية والتناحر القائمين مثلاً في الحياة الاجتماعية للمجتمع الراسمالي ، هما خالدان ، ولا حل لهما ، وبأن جوهر العلاقات المتبادلة بين الطبقات كأنه مستقر في عدم امكانية التغلب على التناقضات الاجتماعية •

وهناك آخرون ، يرون التناقضات ، بل ويشيرون الى اهميتها ايضاً ، ولكنهم يعتبرون أن حلها ممكن فقط في ميدان الدين • ويقول أحد أنصار هذه

الأفكار » لايمكن حل التناقضات في الواقع الحي ، بل يمكن فقط وعيها في صلاتها • ويبدو أن الشعور الديني هو المهيأ وحده للتغلب عليها على أساس ما سام لاعقلاني •

واعظم ما يتميز به الفلاسفة البرجوازيون هو ميلهم الى اخفاء المتناقضات، والصراع فيما بينها ، والدفاع عن فكرة المسالمة بين هذه المتناقضات • وهذا مايتميز به أيضاً الاصلاحيون والانتهازيون العاملون في الحركة العمالية • وهم يعملون كذلك على ستر التناقضات الطبقية في المجتمع البرجوازي ، وينشرون نظرية المسالمة بين الطبقات •

وامام النظرة الميتافيزيكية عن العالم ، التي تنكر المتناقضات كمصدر للتطور في العالم الموضوعي ، يقف الدياليكتيك الماركسي بتعاليمه عن وحدة وصراع المتناقضات • وهو اذ ينطلق من المعطيات العلمية الموضوعية ، والتجربة التاريخية للانسانية ، يؤكد أن جميع الاشياء والظواهر ذات تناقضات داخلية ، وأن كل شيء : هو وحدة متناقضات ، وحدة أوجه وخصائص ونزعات متضادة • ان كل أشياء العالم المحيط بنا ، وظواهره تتمتع بناحية ايجابية ، وأخرى سلبية • لها ماضيها ولها مستقبلها • فيها ما مضى زمانه وهو في طريقه الى الموت ، وفيها ما هو في طريق النمو والتطور • وصراع هذه الاتجاهات المتناقضة التي تحتويها الاشياء وظواهر العالم الموضوعي ، هو مصدر التطور ، وهو القوة المحركة له •

واذا كنا نفهم الشيء ، والظاهرة على أنهما كتلة من تطابق مطلق ،فمهمة العلم تنحصر في التغلب على خطيئة الوعي هذه ، وفي كشف تناقضات الشيء الداخلية • وكما يدلنا تاريخ العلم ، فان هذه التناقضات لابد لها من أن تتكشف عاجلاً أم آجلا • ولا يمكننا وعي الأشياء ، وجوهرها وقوانين تطورها ، الا عن طريق كشف التناقضات الداخلية •

ان نجاحات العلم في السنوات العشر الاخيرة تضرب لنا الامثلة الباهرة التي تؤكد صحة الدياليكتيك • وكلما تعمق العلم في نفوذه الى جوهر ظواهر الطبيعة ، تبدى طابعها التناقضي الداخلي بشكل أوضح • وتتمتع منجزات الفيزياء

الذرية النووية في هذا المجال ، بمنزلة خاصة • لقد سبق لنا أن تحدثنا عن الذرة كوحدة جزئيات ذات شحنات متعاكسة • فبين جزئيات الذرة ، وكذلك داخل النواة الذرية تعمل قوى الجذب والنبذ • وهذه التأثيرات المتقابلة بين القوى المتناقضة هي التي توضح العمليات الحادثة داخل الذرة والنواة • وهذا يؤيد صحة تأكيد انجلز القائل « بأن الجذب والنبذ لا ينفصلان عن بعضهما بعضاً ، شأن السالب والموجب » • ولقد اثبتت الفيزياء الحديثة أن الساحة والشيء (مثلاً الاليكترون) يمثلان بطبيعة بنيتهما وحدة داخلية بين هذه المتناقضات مثل الخصائص الجسيمية (الكوربوسكولارية) والتموجية • وهذا ظفر حقيقي للدياليكتيك •

علينا ان نفرق بين التناقضات الداخلية والتناقضات الخارجية • فنحن نفهم من التناقض الداخلي ، العلاقة المتبادلة بين ناحيتين متناقضتين للشيء ، عندما تفترض وتشترط احداهما الأخرى،في وقتواحد ،كما تنفي احداهما الاخرى، وتتنابذ معها • وفي نطاق الوحدة الكلية لاتستطيع ناحية من التناقض أن توجد من دون الأخرى ، وفي الوقت نفسه ، ونتيجة طابعهما التناقضي ، تنفى ناحية وتنبذ الناحية الأخرى • فهذه العلاقة المتبادلة ، وهذا النفي المتبادل هما السمة الاساسية للتناقض الداخلي • وهو أمر نستطيع رؤيته في اي مثل على الظواهر والمفاهيم المتناقضة : كالسلبي والايجابي ، القطب الشمالي والجنوبي ، الضوء والظل ، الجذب والنبذ ، الزائد والناقص ، الخير والشر • فبين جميع هذه المفاهيم توجد علاقة الارتباط المتقابل ، والتنابذ المتقابل • كل منهما هو ضد الآخر ، ونفيه ، وفي الوقت نفسه وجوده الخاص ، مشروط بذلك الآخر • ان التناقض الداخلي تمكن رؤيته في مثل ابسط شكل للحركة: انتقال الجسم في المكان • ان الحركة هي تناقض واضح • فلا يمكننا ان نتحدث عن الجسم المتحرك بأنه موجود ، في اية فترة من الزمن ، فقط في نقطة معينة واحدة •

صحيح اننا لا نخطىء اطلاقاً عندما نقول مثلاً ان القطار المتحرك موجود في فترة معينة ، في نقطة معينة ، وفي فترة زمنية اخرى ، في نقطة اخرى • هذا

التأكيد كاف لفهم شيء بسيط ، كمكان وجود القطار • الا انه غير كاف للتعبير عن جوهر الحركة • ذلك التأكيد يصف نتيجة الحركة لا جوهر الحركة ذاتها • وعندما نحاول فهم الحركة ، نصطدم بالتناقض : فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة ، في نقطة معينة من المكان ، ولكنه لم يعد في هذه النقطة ، اي موجود في هذا المكان المعين وفي غيره •

ولقد حاول نقاد الدياليكتيك اكثر من مرة دحض هذا الطابع التناقضي للحركة • انهم يقولون بأن الجسم المتحرك ، موجود ، عملياً ، في فترة زمنية معينة في مكان معين ، وفي فترة اخرى ، في مكان آخر • اي أنهم لم يأخذوا الا جانباً واحداً من الحركة (الانقطاع) ليجعلوه مطلقاً : فالمكان الذي عبره الجسم قسموه الى عدد من النقاط والقطع المنفصلة بعضها عن بعض ، وقالوا بأن الجسم المتحرك موجود اما في هذه النقطة من المكان أو في تلك •

اما في الواقع فالحركة ليست توقفاً فقط ، بل واستمراراً ، والا لما امكن انتقال الجسم المتحرك من نقطة الى أخرى• فنقاط المكان المنفصلة ليست مستقلة عن بعضها بعضاً (انقطاع) ، بل ومرتبطة فيما بينها • وهذا الارتباط ليس غير استمرار المكان • فكل من الوضعين المتناقضين ، الانقطاع والاستمرار ، يفترض الآخر ، ويوجد فقط في وحدة معه • يقول لينين : « ان الحركة هي وحدة الاستمرار (الزمني والمكاني) والانقطاع (الزمني والمكاني) • ان الحركة هي تناقض ، هي وحدة التناقضات » •

ان القول بأن الجسم المتحرك يوجد ، في كل فترة زمنية ، فقط في نقطة معينة من المكان ، يميت الحركة • وتتحول هذه الى عدد من حالات السكون • في حين أن الحركة ، في الواقع ، هي وحدة السكون والتبدل : فلا شك أن الجسم المتحرك هو قائم في مكان معين ، وفي الوقت نفسه غير قائم فيه • هذان المتناقضات (سكون وحركة) مرتبطان فيما بينهما ، وينفي احدهما الآخر • وخارج وحدة المتناقضات هذه ، تنعدم حتى أبسط الحركات ، وهي الحركة الميكانيكية ، أي انتقال الجسم في المكان •

ان ما قيل اعلاه يطبق على اي شيء وظاهرة وعملية في العالم الموضوعي• فلكل تناقضاته الداخلية وكل واحد هو « وحدة المتناقضات » •

ان التناقض الداخلي، إن وحدة النواحي والاتجاهات المتناقضة في الشيء، لا بد وان يشترط الصراع بين النواحي المتناقضة • والصراع بين المتناقضات هو النتيجة الطبيعية ، القانونية لواقع ان المتناقضات داخل الشيء يشترط ، في وقت واحد ، بعضها بعضاً ، وينفي بعضها بعضاً • فلو أن النواحي المتناقضة اشترطت وتطلبت بعضها بعضاً فقط ، دون أن ينفي بعضها بعضا ، لما أمكن آنذاك وجود صراع بينها • وكذلك لو أن النواحي المتناقضة تنفي بعضها بعضاً فقط ، دون أن توجد في وحدة ، دون أن يرتبط ويتعلق بعضها ببعض ، لما أمكن ايضا قيام حالة صراع بينها •

إن الفلاسفة والاقتصاديين البرجوازيين ، حتى ولو اضطروا الى القول بتناقضات الرأسمالية ، يشيرون الى عامل واحـد فقط ، الى ناحيـة واحـدة من العلاقة المتقابلة بين المتناقضات ، الى وحدتها ، وتطابقها ، دون ان ينبثوا ببنت شفة عن الناحية الثانية ، عن نفي بعضها بعضاً ، عن التناقض فما بينها • هـذه الطريقة تجعلهم يتصورون المتناقضات موجودة بعضها الى جانب بعض دون أن ينفي بعضها الآخر ، ويصارع أحدها الآخر • وهكذا يغمض الطرف عن تلك القوة التي تدفع التطور الى الامام ، وتكون مصدر كل تطور ، اي الصراع بين الطبقات المتناحرة ، بين المصالح والنزعات الطبقية •

ونرى في الدياليكتيك الهيغيلي ، الى جانب الفكرة العبقرية القائلة بـأن التناقض يدفع الى الامام ، انه يقوم ميل الى المسالمة بين المتضادات • وفي هـذا الميل ، يبرز ، بلا شك ، الطابع البرجوازي للفلسفة الهيغلية ، وعدم رغبـة هيغل باستخلاص جميع النتائج من الدياليكتيك ، « ابجدية الثورة » •

هذا وان النواحي المتناقضة داخل الشيء ، لاتقف الواحدة من الاخرى موقف اللامبالاة • فكل ناحية ، من نواحي التناقض تجسد ميلاً ما : السلبية أم الايجابية ، التأثير أو عكس التأثير ، الثورية أو المحافظة ، ما فات أوانـه وما

بدأ حياته ••• ولما كانت هذه الميول المتناقضة قائمة في الوحدة ، وتوجد في الشيء الواحد ، في جوهره ذاته ، فانها لاتقف موقف اللامبالاة الواحدة من الأخرى ، بل يجري الصراع بينها •

ثم ان التناقض القائم بين الميول ، لابد له عاجلاً أم آجلاً ، وعلى هذا الشكل او ذاك ، ان يجد حله • فعلى أية صورة يحل؟ان الدياليكتيك الماركسي يجيب قائلاً « عن طريق صراع المتناقضات » •

من هنا تتأتى الأهمية العظمى للصراع بين المتناقضات في التطور • ان حلّ « النزاع » بين الميول المتناقضة التـي تحتويها الظواهر والاشـياء ، انما هو في الصراع ، وعن طريق الصراع • وكما أن الحقيقة تنشأ وتتبلور في الجدال ، في اصطدام وجهات النظر ، والافكار ، والآراء ، المختلفة ، فان التطـور يعبـد لنفسه طريقه الى الأمام ، في الصـدام ، في صراع النواحي والقوى والميـول المتناقضة الخاصة بالشيء : كل ما يعيق التطور صائر الى الفشل ، ولا يظفر في نهاية الحسابات الا ما هو حامل للتطور • وهذا يعني أن صراع المتناقضات هو القوة المحركة للتطور •

لو انه لم يكن هناك تناقضات داخلية في الاشياء والظواهر ، لو انه لم يكن صراع بين النواحي والاتجاهات المتناقضة ، لبقيت الاشياء والظواهر غير متبدلة ، ولما أمكن حدوث التطور ، والتبدل النوعي ، ولبقي كل شيء في حالة الجمود • لو لم تقم ، مثلاً ، الطبقات الطليعية في المجتمع بنضال ضد الطبقات التي انقضى زمانها ، لما انحلت التناقضات القائمة بين الطرفين ، ولعجز المجتمع عن التحرك الى الامام ، والتطور • لهذا فالماركسية تبقى غريبة عن الافكار الانتهازية القائلة بانسجام الطبقات المتعادية • ان الشيوعيين هم الأنصار الحازمون للنضال الطبقي، لان هذا النضال هو القانونية الموضوعية للمجتمع المنقسم الى طبقات متناحرة • وليس هنالك من طريق آخر لتطور هذا المجتمع ، واستبدال الجديد الطليعي بالقديم المنخور • ان تعاليم الديالكتيك الماركسي عن صراع المتناقضات يتمتع ،

كما نرى ، بأهمية ثورية عظمى : لانها تفسر فلسفياً قانونية النضال الطبقي ، في المجتمع المقسم الى طبقات متناحرة •

لهذا أشار لينين عندما أبان السمة المميزة لجوهر التطور ، قائلاً « التطور هو صراع المتناقضات » • هذا التعريف شمل الأمر الاساسي في التطور ، اي مصدره ، والقوة المحركة فيه •

إن صراع المتناقضات هو عملية معقدة لنشوء وتطور وحل التناقضات • ولهذه العملية درجاتها ومراحلها ، وطابعها الخاص في كل درجة من هذه الدرجات • وبتعبير آخر ، إن التناقضات الحسية ذات امتداد يطول أو يقصر ، فيه بداءة واستمرار ونهاية •

ولاشك ان هذا لايعني بأن الشيء ، في درجة معينة من درجات تطوره ، يمكن ان يمثل انسجاماً مطلقاً ، أي خالياً من أي تناقض • ليس بالامكان اعتبار الشيء منسجماً تماماً في البداءة ، ثم تنشأ فيه فيما بعد التناقضات • في الواقع ، الاشياء تلازمها دائماً جملة من التناقضات المتنوعة ، سواء أكانت ظاهرة أم خفية • وقد قال لينين بأن الشيء هو « مجموع من المتناقضات » • فاذا لم يكن بعد ، في الشيء ، تناقض حسي معين ، أو لم يظهر بعد ، ففيه توجد تناقضات أخرى • إن الشيء لا يمكن أن يكون انسجاماً ، مطلقاً ، ميتاً • الا أن كل تناقض حسي ، ينشأ ، ويمر في طريق معين من التطور ، وعلينا ان ننظر إليه في حالة الحركة لا السكون •

ليس التعبير عن التناقض مصحوباً دائماً بحدة مباشرة • فهو عادة ،يتمتع، في المراحل الاولى ، بطابع فارق فقط ، وهو الشكل الاولي للتناقض • ثم يتحول الفارق ، في سير التطور ، إلى تضاد ، أي الى تناقض اكثر تطوراً ، وذلك عندما تعمد كل ناحية من نواحي التناقض الى نفي الناحية الاخرى بحدة • مثلاً : إن ماركس في « رسماله » بحث الطابع الازدواجي للسلعة • فالسلعة هي وحدة المتناقضات ، وحدة القيمة الاستعمالية والقيمة • الا أن هذا التناقض لم ينشأ دفعة واحدة في شكل متطور • ففي المجتمع المشاعي الاول لم يكن الناس

منتجين للسلع قصد التبادل ، بل كانوا ينتجون المنتجات للاستعمال الشخصي • وعندما أخذت المشاعات تتبادل فيما بينها ، مصادفة ، فائض منتجاتها ، آنذاك فقط تحولت المنتجات الى سلع ، مع ما يرافق السلع من تناقض بين القيمة والقيمة الاستعمالية • ويشير ماركس الى أن التناقض المذكور ، لم يعبر عنه ، في ذلك الزمان ، بشكل واضح ، أي لم يحدث بعد ، حسب قوله ، « تناقض مستقطب » • ان كلاً من ناحيتي التناقض بدأت فقط طريق انفرادها عن الأخرى ، والوحدة لم تنقسم بعد ، بحدة ، الى متضادين • ولكنه مع تطور التبادل السلعي، أصبح الأمر الذي كان من قبل فارقاًفقط ، أصبح تضاداًحاداً • ان حاجات التبادل تطلبت نشوء شكل مستقل للقيمة • وانتهى « الصراع » بين القيمة والقيمة الاستعمالية ، الى ازدواجية السلعة ، أي الى سلعة ونقد• فالقيمة، تحت شكل النقد ، انفصلت عن القيمة الاستعمالية للسلع ، ونالت وجوداً خاصاً • وحين تكلم ماركس عن التناقض في السلعة بين القيمة والقيمة الاستعمالية ، اشار الى أن هذا الوجود الازدواجي ينبغي ان يتطور الى «فارق»، و « الفارق » الى تضاد ، الى تناقض •

إن مفهومي « الفارق » و « التضاد » يعبران عن واقع واحد ، عن التناقضية الداخلية للظواهر • الا أن كلا منهما يعبر عن تناقضية الظواهر في المراحل المتباينة من التطور ، ونمو الصراع : وهي الفوارق ثم المراحل الاولى البدائية من « المتضادات » ، ثم التطور الاعلى لاشكال الصراع •

ان نمو التناقض على أساس صراع المتضادات يؤدي ، بالنتيجة ، الى الازدواجية المتعاظمة للوحدة (الشيء) ، وهو ، في النهاية ، يبلغ درجة في تطور التناقض ، لا تستطيع معها المتضادات البقاء في الوحدة • عندئذ يحين زمن حل التناقض • ليس من حل للتناقضات الا في الصراع ، وعن طريق الصراع• ان التناقضات لاتتسالم ، لكنها تتصارع • وعملية التطور، عملية تعاظم التناقضات، هي عملية الصراع ، التي تعد بشكل قانوني ، المرحلة الضرورية لحل هذه التناقضات •

إن حل التناقضات الأساسية ، الجذرية انما يعني القضاء على القديم ، ونشوء الجديد • وهكذا فالتغلب على التناقض بين الوراثة القديمة في صفوف الاحياء او النبات وبين الدلائل الجديدة الناشئة في عملية التلاؤم مع الوسط ، يؤدي الى استبدال الوراثة الجديدة بقديمة • وحل تناقضات أسلوب الانتاج الراسمالي الاساسية ، يؤدي بالنتيجة الى القضاء على هذا الاسلوب ، والى نشوء اسلوب جديد ، هو اسلوب الانتاج الاشتراكي •

ثم أن مرحلة حل التناقضات هامة جداً في التطور • فعندما يستنفذ القديم ذاته ، ويصبح لجاماً ، عائقاً في طريق الجديد ، فان التناقض بين القديم والجديد ينبغي أن يحل عن طريق انعدام القديم وظفر الجديد • ولا يجد التناقض ، في العمليات المعقدة ، حال نشوئه ، حله دفعة واحدة • فهل يستطاع مثلاً حل التناقض القائم بين الوراثة والتلاؤم مع المحيط ، دفعة واحدة ؟ كلا بدون شك • هنا لابد من نمو التناقضات ، التي تخلق مقدمات حلها •

هذه الأمثلة المضروبة تبين لنا ان التطور ، ان نمو التناقضات، يتم بالقضاء على القديم ، ونشوء الجديد • من هنا نستنتج أن أية وحدة بين المتضادات ، كما يقول لينين ، هي أمر نسبي ، مؤقت ، عابر • أما صراع المتضادات فشيء مطلق • ان وحدة المتضادات في اي شيء كان ، تظل قائمة مادام يحدث ، في حدود الشيء المعين ، نمو وتعاظم التناقضات ، اللذان يُحضّران عامل حل التناقض والتغلب عليه • وحل التناقض هو التحول النوعي للشيء المعين ، هو انعدام القديم ونشوء الجديد • ان الظاهرة القديمة التي كانت عبارة عن وحدة متضادات معينة ، تخلي مكانها لظاهرة جديدة هي وحدة متضادات جديدة • فالاقطاعية التي كانت عبارة عن وحدة الطبقات المتناحرة ، من اقطاعين واقنان ، أعقبتها الرأسمالية ، التي هي عبارة عن وحدة متضادات أخرى، من برجوازية وبروليتاريا •

لهذا ، فان كل وحدة معينة بين المتضادات ، موقتة ، عابرة ، نسبية ، شأن أية فترة من فترات السكون ، والتوازن • أما الصراع بين المتضادات

فلا يمكن ان يكون عاملاً موقتاً • انه عامل فعال بشكل مستمر ، والا انقطع التطور • انه هذه القوة الخلاقة التي تحمل الى الظواهر « اللاهدوء » ، ولا تسمح لها أن تكون جامدة ، ميتة • انها تعطي الظواهر الدافع نحو التبدل والتطور ، وتشترط الاستبدال الأبدي للأشكال الجديدة بالقديمة •

لو كانت فترة وحدة المتضادات ، متواصلة ، غير متبدلة ، لما كان هنالك تطور ، وتحول نوعي للأشياء • ان نسبية وحدة المتضادات هي التعبير عن أن تواصل الشيء أمر موقت ، وان الشيء له بداءة ونهاية • أما اطلاقية الصراع بين المتضادات فهي التعبير عن أن الحركة لا تنقطع ولو لفترة ، وأنها تقوض تواصل الشيء ، مهيئة تبدله النوعي القانوني • وبهذا تفسر الصيغة الدياليكتيكية الشهيرة القائلة بأن التناقض يدفع الى الأمام •

باستطاعتنا الآن صياغة جوهر قانون وحدة وصراع المتضادات • ان وحدة وصراع المتضادات هي القانون الذي بموجبه تصبح الاتجاهات والنواحي المتناقضة داخلياً ، والكائنة في حالة الصراع، ملازمة لجميع العمليات،والظواهر، والاشياء • ان صراع المتضادات يعطي الدافع الداخلي للتطور ، ويؤدي الى نمو التناقضات ، التي تجد حلها في فترة معينة ، عن طريق القضاء على القديم ، ونشوء الجديد •

وقانون وحدة وصراع المتضادات ، شأنه شأن أي قانون للدياليكتيك ، ليس هو قانون العالم الموضوعي فحسب ، بل وقانون المعرفة أيضاً ، قانون المنطق الدياليكتيكي • وقد انتقد لينين بليخانوف لانه لم يكشف ، في بحوثه عن الدياليكتيك ، وحدة المتضادات كقانون للمعرفة • ان الاهمية الأساسية لهذا القانون الدياليكتيكي للمعرفة قائمة في تطلبه انعكاس التناقضات الموضوعية لتطور الواقع ، واعادة احداثها ، في المفاهيم ، والمقولات وقوانين العلم • آنذاك فقط يستطيع التفكير أن يكون صورة للواقع ، أي يعكسه بشكل صحيح • يقول لينين : « شرط معرفة جميع عمليات العالم ••• في وجودها الحي ، هو معرفتها كوحدة المتضادات » • ان المفاهيم الانسانية ينبغي أن تكون حركية ، سلسة

كالظواهر ذاتها التي تعكسها هذه المفاهيم • يقول لينين على المفاهيم أن تكون « موحدة في المتضادات كي تحيط بالعالم » ، اي كي تتعرف عليه بشكل صحيح •

حتى في أبسط المفاهيم والمحاكمات ، نجد التناقضات الداخلية للظواهر تعبر عن نفسها • فعندما نقول « الوردة هي زهرة » فنحن نعتمد على مفاهيم متقابلة ، فالوحيد (وردة) والعام (زهرة) •

ان الوردة هي وحدة الوحيد والعام ، لأنها ، كزهرة : وحيدة تتمتع بشيء عام ملازم لجميع الزهور • الا أن هذا التطابق ليس جامداً ، بل تطابقاً (وحدة) مع وجود فارق • لأن الوردة تتضمن في ذاتها خصائص تميزها عن سائر الزهور • لذا ، ففي محاكمتنا القائلة بأن « الوردة هي زهرة » تبرز ما يطلبه لينين من المفاهيم الانسانية ، عندما يقول : هذان المفهومان (« الوردة » و « الزهرة » هما موحدان في المتضادات ، والمحاكمة المذكورة تعكس الشيء بشكل صحيح •

وهذا الأمر نفسه يطبق ، على نطاق واسع ، على المفاهيم العلمية المعقدة ، والمحاكمات والنظريات • لنأخذ مثلاً قضية تقسيم الذرة • ان الآراء الحديثة حول السؤال المتعلق بامكان تقسيم الذرة ام عدم هذا الامكان ، تجيب « بالسلب والايجاب » ، أي حسب قواعد التفكير الدياليكتيكي • فالذرة ممكنة التقسيم بمقدار ما تتكون من جزئيات اكثر اولية (أبسط) • وهي غير ممكنة التقسيم بمقدار ما هي أصغر جزئيات العناصر الكيماوية •

والرسمال ، حسب تصور الاقتصاديين البرجوازيين ، هو النقد ، ووسائل الانتاج • ومفهوم « الرسمال » البرجوازي لايعكس أي تناقض في الانتاج الرأسمالي • ولكن ماركس دحض مثل هذا التصور الميتافيزيكي عن الرسمال• فأشار الى أن الرسمال ، أولاً ، ليس شيئاً بل هو تعبير عن علاقات اجتماعية معينة ، وثانياً ، ان الرسمال يجسد في نفسه علاقات اجتماعية متناقضة داخلياً ،

علاقات بين الرأسماليين والعمال • فالمفهوم الماركسي عن الرسمال ، اذن ، ديالكتيكي ، لأنه يعكس التناقضات الحياتية بشكل صحيح •

على مفاهيمنا أن تعكس ، لا فقط التناقضات الموضوعية للاشياء والظواهر، بل وديناميكية تطور هذه التناقضات ، وانتقال الظواهر الى مضاداتها ، وتحول المتضادات بعضها الى بعض • فمثلاً اشار ماركس ، عند بحثه تطور اسلوب الانتاج الراسمالي ، الى ان هذا التطور ذاته يخلق ، نتيجة قوانين المجتمع البرجوازي الخاصة ، مقدمات نفيه ، مقدمات الانتقال الى نقيضه ، الى المجتمع الاشتراكي •

ويعلمنا الديالكتيك أنه لا يوجد أي فاصل لا يمكن اجتيازه ، بين المتضادات (الايجابي والسلبي ، الخير والشر) ، وان هذه المتضادات يمكن أن يتحول بعضها الى بعض • فالصدق هو النوعية الايجابية في الانسان ، ولكن اذا كان الانسان باسم « الصدق » يذيع سراً حربياً لأعداء وطنه ، فان مثل هذا الصدق يتحول الى نقيضه ، الى نوعية سلبية مضرة : وبما أن بين المتضادات ، وحتى بين اكثرها تطرفاً ، لا يوجد حد مطلق ، ويستطيع كل منها التحول الى الآخر ، فعلى افكارنا ومفاهيمنا أن تكون مرنة ، تتجاوب معُ تنقلات وتحولات الواقع الحقيقي • وهذا احد أهم متطلبات المنطق الديالكتيكي الماركسي ، أحد النتائج الاساسية الناشئة عن تطبيق قانون وحدة وصراع المتضادات على التفكير•

غير أن القضية لا تنحصر فقط في تطلب قانون وحدة وصراع المتضادات اعادة احداث الديالكتيك الموضوعي لتناقضات تطور الاشياء ، في التفكير •فعملية المعرفة ذاتها ، ومنطق حركة التفكير من اللامعرفة إلى المعرفة ،من المعرفة القليلة العمق الى معرفة قوانين العالم الموضوعي ، متناقضة كثيراً • وفهم تناقضية عملية انعكاس الواقع في المفاهيم الانسانية ، هو وحده الذي يسمح لنا برؤية طريق المعرفة رؤية صحيحة • ان عملية المعرفة تتشكل من هذه الوسائل التوجيهية وطرق انعكاس الواقع ، المتناقضة امثال : الحسي والعقلاني ، المحدد والمجرد ، الحقيقة النسبية والمطلقة ••• كل ناحية من هذه المتضادات لا معنى لها بدون

الأخرى ، انها مرتبطة بالأخرى ارتباطاً متبادلاً ، وتنتقل الواحدة منها الى الاخرى • في هذا يجد عمل قانون وحدة وصراع المتضادات ، في نطاق المعرفة، تعبيره الواضح •

٢ ـ التناقضات الداخلية والخارجية

ان ما قيل عن التطور عن طريق نشوء التناقضات الداخلية في الاشياء ، والتغلب عليها يعطينا صورة عن طابع الحركة ، او التطور •فالحركة أو التطور، هو حركة ذاتية للمادة ، أو تطورها الذاتي ؛ والكلام لايجري هنا عن ان التطور في الحياة الاجتماعية ، يتم بنفسه ، وبدون تدخل الناس ، وبدون نشاطهم الفعال ، أو ان الطبيعة تستطيع أن تتحول لصالح الناس بدون تأثيرهم عليها • ان مفهوم « الحركة الذاتية » يعني أن الاشياء والظواهر تحوي في نفسها دوافع او مصادر هذا التطور • ومفهوم « التطور الذاتي » موجه ضد المفهوم الميكانيكي للتطور الذي يلصق قوانين احد أشكال الحركة الميكانيكية ، الذي يفترض الدفعة الخارجية سبباً للحركة ، يلصقه بكل حركة وتطور • ان الميتافيزيكيين عندما ينشرون نظرتهم الميكانيكية على المادة ككل ، يصورون المادة كشيء جامد، غير متحرك ، مفترضين ، خطأ ، ان قوة علياً فقط (الاله ، الروح) تبعث فيها الحركة •

أما المفهوم الديالكتيكي للحركة الذاتية ، فهو ، خلافاً لذلك ، يعكس ذلك الواقع الموضوعي القائل بان المادة ، والطبيعة ، والحياة الاجتماعية ، تحتوي في نفسها دوافع او أسباب ، أو مصادر ، التطور • إن الطبيعة نفسها تتطور حسب قوانينها الخاصة من الاشكال الدنيا الى العليا • إن الطبيعة غير الحية خلقت ، عن طريق الحركة الذاتية ، الشيء المغاير لها ، نقيضها ، اي الطبيعة الحية • والامر كذلك في المجتمع ايضاً • ليست القوى الخارجية ، بل القوانين الخاصة بتطور التشكيلات الاجتماعية هي التي تؤدي الى نشوء قوى داخل المجتمع المعين ، تدفعه الى حتفه وتحوله الى نقيضه • اما اسباب او مصادر هذه الحركة الذاتية والتحول ، فهي التناقضات الداخلية ، وتطورها ، وحلها ،

والقضاء عليها ، على اساس صراع المتناقضات • يقول ماركس : « ان تطـور تناقضات شكل تاريخي للانتاج ، هو الطريق التاريخي الوحيد لتفسخه وتكوّن شكل جديد » • وهكذا يتطلب الديالكتيك فهم الحركـة او التطور ، كحركة ذاتية ، وكتطور ذاتي يتم تحت تأثير صراع تطور التناقضات الداخلية • الا ان الديالكتيك لاينفي الدور الهام ، للتناقضات الخارجية ، في سير عملية التطور • كل شيء يرتبط بأشياء اخرى عديـدة ، ويكون على صلة متبادلة مـع هـذه الاشياء •

من هنا تنتج ضرورة اعتبار التناقضات الخارجية ودورها في التطور • هل من الممكن اهمال العلاقات المتبـادلة بين النبـاتات والحيوانات وبين الشـروط الخارجية لوجودها ؟ اننا لا نستطيع فهم تطور العضويات من دون أخذ هـذه العلاقات المتبادلة بعين الاعتبار • توجد في البيولوجيا ما يسمى بنظرية التوالد الذاتي التي تقول بأن تطور النبـات والحيوان يتم عن أسباب داخليـة كلياً ، متجاهلة ، في تشكيلها ، دور الشروط الخارجية للحياة ، ودور تبادل المواد بين الجسم والوسط الخارجي • وتؤدي بنا هـذه النظرية الى استنتاجات مثاليـة لا علمية • ان تعاليم ميتشورين في البيولوجيا حطمت هذه النظريـة ، وبينت أهمية تبادل المواد في تطور العالم العضوي وتبدله • ثم ان المجتمـع الانساني يتطور حسب قوانين داخلية خاصة نتيجة تطور وحل التناقضات الداخلية • ولكن من السخف عدم اعتبار دور التناقضات الخارجية بين المجتمع والطبيعة • خارج الطبيعة ، لايوجد مجتمع ، ولا يمكن له أن يوجد ولا يوماً واحداً •

فعلى الناس ، لتأمين حياتهم أن يعملوا • والعمل هو تأثير الناس على الطبيعة بهدف انتاج وسائل المعيشة الضرورية • ان طابع العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والمجتمع ، ودرجة خضوع قوى الطبيعة العفويـة للانسان يتعلقان بمستوى تطور القوى الانتاجية • إن المجتمع يشن نضالا ضد الطبيعة ، وهذا النضال هو شكل « نضال المتناقضات » • إن عملية حل التناقضات بين المجتمع والطبيعة ، هي ، من حيث الجوهر ، عملية لا نهائية ، وتشكل أحد المصادر الهامة لتطور المجتمع •

ولكن بين التناقضات الداخلية والخارجية يوجد اختلاف موضوعي ، لايمكن عدم اخذه بعين الاعتبار • ان التناقض الداخلي هو تناقض في جوهر الشيء بالذات ، بحيث إن الشيء لايمكن أن يوجد بدون هذين الضدين • التناقض الخارجي هو تناقض بين الاشياء المختلفة ، أو الجواهر المختلفة • فالنبات والشمس التي تعطيه الدفء ، هما جوهران مختلفان ، لكل منهما تناقضاته الداخلية • كما ان المجتمع والطبيعة هما عبارة عن تناقض جواهر مختلفة • ان الأضداد الخارجية ، كالداخلية ، مرتبطة فيما بينها ، ولكن لايوجد بينها مشروطية متبادلة وثيقة كما في التناقضات الداخلية • ان الطبيعة ، أحد طرفي التناقض ، يمكن أن توجد من دون المجتمع ، كذلك الشمس يمكن ان توجد من دون النبات الخ •••

ان التميز بين التناقضات الداخلية والخارجية أمر هام، لأن دور كل منهما في التطور ليس واحداً • ومن الطبيعي ان هذا التميز غير مطلق بل نسبي : فالشيء الذي يبدو في علاقة ما تناقضاً خارجياً ، يمكن ان يكون في علاقة أخرى تناقضاً داخلياً • مثال ذلك : التناقض بين نوعين من النبات يبرز كتناقض خارجي بالنسبة الى كل منهما • وهو في الوقت نفسه احد التناقضات الداخلية لعالم النبات على العموم • ان التاقض الخارجي هو ، على الغالب ، تعبير عن وجود التناقضات الداخلية وشكل هذا الوجود • وهكذا فالتناقض بين السلعة والنقد يسميه ماركس « تناقضاً خارجياً » وتعبر السلعة فيه عن التناقض الكامن فيها (اي الداخلي) بين القيمة الاستعمالية والقيمة » •

بين التناقض الداخلي والخارجي توجد علاقة ، ولدى دراسة اسباب تطور الاشياء يجب اعتبار التناقض الخارجي والداخلي على السواء • التناقضات الداخلية لا توجد ، ولا تعمل ، خارج علاقتها مع التناقضات الخارجية ، أما تأثير التناقضات الخارجية على تطور الشيء فلا يمكن فهمه بدون اعتبار تناقضاته الداخلية •

ان المادية الجدلية عندما لاتتجاهل قط اهمية التناقضات الخارجية ،

تؤكد ان التناقضات الداخلية تلعب دوراً رئيسياً أولياً في التطور • اما التناقضات الخارجية فتلعب دوراً ثانوياً غير رئيسي • ان التناقضات الداخلية والخارجية توجد، في عملية التطور، في وحدة، في علاقة، ولكن من الخطأ الفادح تبديل الاولى، القائدة، بالثانية • لذلك يناضل الديالكتيك ضد النظرية المنتشرة في الفلسفة البرجوازية والاصلاحية، نظرية التوازن • ان جوهر هذه النظرية يكمن في نفي التناقضات الداخلية للتطور وفي الاعتراف بالأهمية الحاسمة للتناقضات الخارجية وفي توازن الأضداد • ونظرية التوازن هذه تبرز الشكل البسيط الميكانيكي للحركة، أي التصادم، والتأثير المتبادل للقوى الخارجية كقانون للتطور العام • وتعتبر هذه النظرية ان الوضع الرئيسي للمادة، ليس الحركة، بل التوازن والسكون • فبين جسمين مثلاً يوجد وضع توازن • فاذا فاقت قوة أحدهما قوة الآخر يبدأ بينهما الصراع الذي يخرق التوازن السابق • وصراع التناقضات الخارجية يؤدي بعد الى توازن جديدة • وقد لخص بوغدانوف هذه النظرية وهو من المدافعين عنها بقوله : « من التوازن وعبر صراع القوتين اللتين تخلان به إلى توازن جديد » • وهكذا نرى ان نظرية التوازن تهمل التناقضات الداخلية للأشياء اهمالاً تاماً • ومن الطبيعي انه من السخف نفي عنصر التوازن • ان التوازن يوجد بهذا الشكل او ذاك، في كل حركة، وفي المجتمع ايضاً • ولكن التوازن هو أحد لحظات الحركة فقط، انه نسبي ومؤقت • في حين أن الحركة مطلقة • يقول انجلز : الحركة الواحدة تميل نحو التوازن، اما مجموع الحركة فيقضي، من جديد، على التوازن المفرد » •

إن انصار نظرية التوازن، عندما يطبقونها على المجتمع، يعتبرون ان المصدر الرئيسي للتطور الاجتماعي لا تناقضات المجتمع الداخلية بل التناقضات بين المجتمع والطبيعة • ان هذا الفهم للقضية غير صحيح نظرياً، ويؤدي سياسياً إلى استنتاجات رجعية • لا شك انه بدون عملية حل التناقضات بين المجتمع والطبيعة يتعذر التطور الاجتماعي • فالمهم في الأمر هو أن مدى تأثير ودور التناقضات الخارجية يتوقف على حالة التناقضات الداخلية • فكلما كان النظام

الاجتماعي تقدمياً ، حلت التناقضات بين المجتمع والطبيعة بنجاح اعظم . مثلا الراسمالية الحديثة تعيق تطور القوى الانتاجية في المجتمع ، وبالتالي ، تعيق اخضاع الطبيعة لمصالح الانسانية .

إن نظرية التوازن عاجزة عن تفسير ذلك لأن القضية هنا ليست في «خرق» التوازن بين الطبيعة والمجتمع ، بل القضية كلها في التناقضات الداخلية للمجتمع البرجوازي . ان حل التناقضات الداخلية وحده هو الذي يفتح امكانيات جديدة لم يسبق لها مثيل امام تطور القوى المنتجة في المجتمع ، الامر الذي تشهد عليه تجربة الدول الاشتراكية . وبتعبير آخر ، إن حل التناقضات الخارجية يتعلق بحل التناقضات الداخلية الرئيسية في المجتمع .

وتستخدم نظرية التوازن أيضاً من أجل الدفاع عن افكار المسالمة بين الطبقات المتعادية . ومن الصعب في عصر النضال الضاري بين طبقات المجتمع الراسمالي ، نفي التناقضات الداخلية . ان الفلاسفة الاصلاحيين والبرجوازيين عندما يستخدمون نظرية التوازن ، يؤكدون ان الطبقات المختلفة توجد لا في وضع الصراع ، بل في وضع توازن ، وان كل طبقة تنفذ مهمتها ، وان الهجوم على نظرية التوازن خطر على حياة المجتمع .

وبمقدار ما تنفي نظرية التوازن الدور الحاسم للتناقضات الطبقية في تطور المجتمع المتناحر فانها تخدم مصالح القوى الرجعية . وهي تجرد شغيلة الدول الراسمالية من النضال الثوري الطبقي ، وتعيق نضالهم من اجل النظام الاشتراكي التقدمي الجديد .

ويجب الا نفهم مفهوم المادية الجدلية عن الدور الرئيسي القيادي للتناقضات الداخلية بشكل جامد . فهناك ظروف ، تتقدم فيها التناقضات الخارجية الى المكانة الأولى ويكتسب حلها اهمية من الدرجة الاولى . مثال ذلك : أنه في الحرب التحررية الوطنية لدولة ما ضد العدو المشترك الخارجي ، يمكن ان تتحد ، كما دلت التجربة التاريخية ، القوى الاجتماعية من مختلف الاشكال والانواع . ان التناقضات بين الطبقات المتناحرة داخل الوطن الذي

يقود حرباً تحررية وطنية ، لا تختفي ، ولكنها توضع على الرف ، الى وقت آخر ، ولا تلعب دوراً رئيسياً • وحل التناقضات الخارجية يحتل ، في هـذا الوقت ، أهمية رئيسية في تطور الوطن التالي • وهكذا فمن غير الصحيح ان نتجاهل ، على اساس الوضع العام للتناقضات الداخلية كتناقضات حاسمة ، أن نتجاهل امكانية تحوّل التناقضات الخارجية ، في هذه الظروف الحسية أو تلك، الى رئيسية •

اذا اخذنا السير التاريخي المعاصر كله ، على العموم ، يكون التناقض بين المنظومة الاشتراكيـة والرأسماليـة ، التناقض التناحري الداخلـي للتطـور التاريخي الاجتماعي العالمي • ان المنظومة العالمية الواحدة انهارت وانقسمت الى متضادين•فقد نشأ نقيض الراسمالية ـ أي الاشتراكية التي اصبحت الآنمنظومة عالمية ، جاءت بدل النظام المهتري • ولكن العلاقات بين الحكومات ، والتناقضات بين الدول الراسمالية والاشتراكية هي تناقضات تناحرية خارجاً ، ولها أهمية كبيرة على سير التاريخ العالمي •

تشهد التجربة التاريخية ، على ان الجديد التقـدمي يتغلب عـلى القديم • وهذا ما تخشاه البرجوازية •

فلكي تطيل القوى العدوانية الاستعمارية بقاءها ، وتبقي على الرأسمالية تعمد إلى القوة والحرب •

إن حل التناقض الخارجي بين المنظومتين العالميتين يتعلق ، قبل كل شيء، بالتطور الداخلي للدول الاشتراكية والراسمالية • وكلما نجح بناء الاشتراكية في كل دولة على حدة ، تسارع سبق الاشتراكية

ان الديالكتيكية الماركسية تتطلب عدم الاقتصار على التعاليم العامة عن التناقضات كقوة محركة المتطور ، بل تطبيقها بشكل حسي بناء ، تتطلب رؤية خصائص مفعول القانون العام في كل ظاهرة ، في الشروط التاريخية المختلفة • ان قضية خصوصية التناقضات ، في العمليات المختلفة ، هي الناحية الجوهرية لوحدة وصراع المتناقضات ، وهي تتطلب دراسة خاصة •

٣ ـ خصائص التناقضات المختلفة

يظهر قانون وحدة وصراع المتناقضات ، ككل قانون ، في العمليات المختلفة ، التي يجري تطورها بشكل خاص متناسب مع طبيعتها ومع شروط وجودها • وعندما طور لينين ديالكتيك مفعول قانون وحدة وصراع المتناقضات تطويراً تناول جميع الوجوه ، أعار أهمية خاصة لتحليل خاصية شكل ظهور هذا القانون في الشروط المختلفة •

ان كتابات لينين هي مثال ساطع على الطريقة التي يجب ، حسبها ، تطبيق النظرية الديالكتية العامة على تناقضية التطور تطبيقاً حسياً • لقد طالب لينين دوماً بعدم التقيد بالمحاكمات المجردة التي تقوم بأن هذه الظاهرة تتصف بالتناقضات وأنها تتطور عبر التناقضات • فما ان تقرر حقيقة عامة حتى يطالب لينين بتوجيه كل قوة التحليل النظري ، وقوة المعالجة العملية ، لحل هذه القضية او تلك ، ولاظهار كيف ان هذه الحقيقة المتعلقة بتناقضات أي تطور ، تنعكس في هذا الشيء الحسي المبين ، وفي هذا الوضع التاريخي المعني ، وفي هذه العلاقة التاريخية المعنية • لقد علمنا ان نرى كيف ان « العام » يتبدل حتماً ويتغير شكله تبعاً لاختلاف ميادين العالم الموضوعي •

ان تطور وصراع الميول التناقضية ، في الطبيعة ، حيث تعمل قوى عمياء ، عفوية ، هو شيء ، وتطور وصراع المتناقضات في المجتمع ، حيث يعمل أناس ، وطبقات ، وأحزاب لهم وعيهم ، ويسعون وراء اهدافهم ، هو شيء آخر •

وبالمقابل ، ففي كل مجالات العالم الموضوعي هذه ، توجد عمليات مختلفة

كثيراً ، يعبر بها ، بشكل متباين ، عن مفعول قوانين الديالكتيك • ففي العمليات الفيزيائية والكيماوية تختلف ، مثلاً ، طبيعة التناقضات ، وبالتالي يختلف فيها شكل جريان « صراع » المتناقضات• كما انه ليس بالامكان ايضاً حشر التناقضات الاجتماعية على صعيد واحد ، مادامت التشكيلات الاجتماعية يختلف بعضها عن بعض ، اختلافا جوهريا • وكذلك فان عملية صراع المتناقضات ، في مجال التفكير ، وتطور العلم والفن ، تجري بشكل خاص •

لقد لاحظ لينين في كراسه « عن قضية الديالكتيك » بعض التناقضات النوعية التي تعالجها علوم مختلفة •

في الرياضيات : + و ـ التفاضل والتكامل •

في الميكانيك ـ الحركة وعكس الحركة •

في الفيزياء ـ الكهرباء السالبة والموجبة •

في الكيمياء ـ اتحاد الذرات وتفريقها •

في العلوم الاجتماعية ـ النضال الطبقي •

ويمكن ان نضيف الى هذه التناقضات النوعية عدداً كبيراً آخر • كالتمثل والتفكك ، الوراثة والتبدل في البيولوجيا ، الاثارة والكبح ، في الفزيولوجيا ، التحليل والتركيب ، الاستنتاج والاستقراء ، الحسي والعقلاني في نظرية المعرفة والمنطق •

وهناك اشكال كثيرة من التناقضات ، الصق بالطبيعة اللاعضوية مثل : وحدة الموجب والسالب ، الحركة وعكس الحركة ، الجاذبية والدفع • هنا لا تستعمل ابداً تقريباً مثل هذه المسميات المميزة للتناقضات كالقديم والجديد ، الميت والمولود ، ومن باب اولى سمات مثل الثوري والمحافظ ، الرجعي والتقدمي •

وللاشكال العليا لحركة المادة ، الطبيعة العضوية ، الحياة الاجتماعية تناقضات تحت شكل صراع بين القديم والجديد ، بين الميت والمولود ، بين المحافظ والثوري•••الخ• ولا شك ان لتناقضات الاشكال الدنيا من الحركة، مكانها

في الاشكال العليا لها : فالحياة العضوية غير ممكنة بدون العمليات الفيزيا ـ كيماوية مع تناقضاتها الخاصة • الا ان هذه التناقضات ليست هي الرئيسية المحددة لتطور الحياة العضوية ، انها هنا ثانوية خاضعة للرئيسية التي تسم الحياة (تبادل الاشياء ، التمثل وعدمه ، الوراثة والتبدل الخ) •

وفهم الحياة الاجتماعية غير ممكن اطلاقاً ، اذا عالجناها حسب هذه التناقضات الخاصة بالطبيعة اللاعضوية امثال الجذب والنبذ مثلاً • ان طابع أو طبيعة التناقضات يشترط طرقاً وأساليب خاصة لحلها ، وقوانين خاصة لتطور الاشياء • لنأخذ على سبيل المثال الجذب والنبذ • فبدون تأثيرهما المتبادل تتعذر الظواهر الفيزيائية • وبما ان الجذب والنبذ عبارة عن عمليتين باتجاهين مختلفين، فبينهما يقوم « صراع » • ان للفظة « صراع » هنا معنى يختلف عن معناها في العمليات الاجتماعية ، ومع هذا فجوهر التأثير المتبادل بين الجذب والنبذ يكمن في تصادم الميلين المتضادين اللذين ينفي أحدهما الآخر ، هذا التصادم الموجه موضوعياً للتغلب على التناقضات القائمة بينهما ولحلها • ففي الجسم القاسي تكون الغلبة لقوى الجذب ، والصلة بين الجزئيات تكون قوية • الا ان الحرارة تقوى الحركة الاهتزازية لجزئيات الجسم القاسي ، وتضعف صلاتها ، ويتحول الجسم القاسي الى سائل • والتسخين التالي يسرع حركة الجزئيات وتزداد قوة النبذ فتحول الجسم السائل الى غاز • في هذا الحادث يتم « صراع » المتناقضات بشكل تتغير فيه النسبة بينهما لصالح النبذ •

ويكمن التأثير المتبادل لهذه المتناقضات في اساس التحولات النووية •فمن اجل تحرير الطاقة الجبارة الكامنة في نواة الذرة ، يجب التأثير عليها بمساعدة « شحنة » نووية مثل الجزئية ألفا • فعند اطلاق الذرة ، اذا كان لدى الجزئية الفا الكمية الكافية من الطاقة للتغلب على ما يسمى بالحاجز الكامن ،أي في مثالنا، قوة النبذ ، فانها تدخل في نواة الذرة ، وتستدعي تحطيم النواة • ولكي تقتلع الجزئية ـ ألفا نفسها من النواة ، عليها ان تتغلب من الداخل على الحاجز ذاته الذي اصبح قوة الجذب التي تؤثر على مسافات صغيرة قرب النواة •

اما التأثير المتبادل للمتناقضات في العالم العضوي فهو ذو طابع يختلف كل

الاختلاف • فالنباتات والحيوانات تتلاءم مع شروط معيشتها المتبدلة، وتنشأ عندها خصائص جديدة تناقض الوراثة القديمة ، ويجري صراع بين التبدل والوراثة ينتهي بتبدل الوراثة القديمة ونشوء الشكل العضوي الجديد •

ان من الاهمية بمكان أخذ الشكل الخاص لصراع التناقضات بعين الاعتبار في تطور المجتمع • هنا تنشأ التناقضات نتيجة تطور اسس المجتمع ـ نتيجة تطور الانتاج المادي• ان تناقضات اسلوب الانتاج في المجتمع الطبقي تنعكس في نضال الطبقات • ولصراع المتناقضات في هذا المجتمع شكل صراع اقتصادي وسياسي وايديولوجي • والصراع الايديولوجي ينعكس في شكل صراع النظريات الفلسفية والاقتصادية والسياسية والحقوقية والدينية والاخلاقة والخ • لايوجد مجال في الطبيعة تبرز فيه التناقضات بمثل هذا التعدد والاختلاف •

ولكن القضية لا تنحصر في تمايز التناقضات الاجتماعية عن التناقضات الطبيعية • فان لكل تشكيلة اجتماعية ايضاً ، الى جانب القوانين والتناقضات العامة ، تناقضاتها الخاصة ، اي قوانين تطورها الخاصة • في التطور الاجتماعي، وخاصة بالنسبة الى التحولات التاريخية العالمية التي تتم في العصر الحديث ، يجب تمييز نوعين من التناقضات : التناحرية واللاتناحرية •

ان قضية التناقضات التناحرية واللاتناحرية قضية اجتماعية خاصة ، رغم انه يصادف مثل هذه التناقضات في الطبيعة العضوية • هناك مثلاً ، تناحر بين بعض أشكال الجراثيم : بعضها يطرد البعض الآخر او يقضي عليه (مضادات الحيويات) • يستخدم هذا التناحر في الطب للخلاص من الامراض • وهناك تناحر بين مختلف اشكال الحيوانات والنباتات ، ينعكس في القضاء او في خنق بعض النباتات او الحيوانات بعضها بعضاً من اجل الوجود• ومع الاعتراف ببعض التشابه بين مثل هذه التناقضات في الطبيعة والمجتمع ، فانه لمن الخطأ النظر إليها كشيء واحد وعدم رؤية الخلاف الجوهري بينها •

ان الطابع التناحري او غير التناحري للتناقضات الاجتماعية يتحدد ببنية المجتمع • التناقضات التناحرية هي عبارة عن تناقضات القوى الاجتماعية المتعادية ، والمصالح والأهداف والميول المتضاربة، التي تنتج عن الشروط الحيوية

المتناقضة للطبقات ، عن تناقض مصالحها الجذرية • وان التغلب عليها يتم ، كقاعدة ، في النضال الطبقي الضاري • أحسن مثال على التناقضات التناحرية هي العلاقات بين الاقطاعيين والفلاحين ، بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين البرجوازية والشغيلة الفلاحين ، بين المستعمرات والدول الام الاستعمارية • وكذلك فان التناقضات بين الدول الاستعمارية نفسها من اجل اعادة تقسيم العالم ، ومناطق النفوذ ، واسواق البيع ، هي تناقضات تناحرية •

من هنا نرى ان التناقضات التناحرية متعددة الاشكال ونتيجة ذلك فدرجة حدتها مختلفة • ان التناحر بين المستثمِرين والمستثمَرين ، وخاصة بين البرجوازية والبروليتاريا ، هو أقوى تناحر وأعمقه •

ان التاريخ يعطي الكثير من الامثلة ، التي تتحد فيها الطبقات المستثمِرة المعادية لبعضها او الدول الاستعمارية ، في الصراع ، ضد طبقات الشغيلة المضطهدة • ففي مثل هذه الظروف ، توضع التناقضات الحادة القائمة بين هذه الطبقات المستثمرة على الرف ، ويبرز التناقض الاساسي ، التناقض بين المستثمِرين والمستثمرين ، بشكل قوي • ويحدث أيضاً وضع آخر تتحد فيه الطبقات المستثمِرة ، التي هي خارج الحكم ، مع الشغيلة في النضال ضد العدو العام ، الرئيسي ، في مرحلة تاريخية معينة ، ذلك العدو المضطهد لهم جميعاً • ففي الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ مثلاً ، برزت البرجوازية مع الطبقات الشغيلة كفئة موحدة ثالثة ضد طبقة الاقطاع من الاستقراطيين ورجال الدين • وفي الحركات التحررية الوطنية الحديثة في المستعمرات ضد الاستعمار تعمل البرجوازية الوطنية او بعض فئاتها ، غالباً مع الشعب أجمع • ويجب دائماً الانتباه الى الوضع التاريخي الحسي ، وحسبان التناقضات الرئيسية في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي •

ان القانونية العامة لتطور التناقضات المتناحرة هي تعاظمها وتفاقمها اللذان يصلان الى حد النزاع الحاد بين النواحي والميول المتضادة • ان التناقضات المتناحرة في سير التطور لاتميل ، عادة ، الى ان تصبح أخف وأقل حدة ، بل تتعمق متخذة أشكالاً أكثر حدة • من هنا تنتج الاشكال الخاصة لحل

التناقضات المتناحرة • ونظراً لوجود طبقات تدافع بجميع الوسائل عن القـديم المهتري ، وتقاوم اقامة نظم اجتماعية جديدة ، فان النضال الطبقي الحاد والثورات الاجتماعية ، هي وسيلة حل هذه التناقضات المتناحرة •

ان التناقضات اللامتناحرة تعبر ، خلافاً للمتناحرة ، عن تناقضات أضداد غير متعادية ، تعبر عن تناقضات تلك القوى الاجتماعية والميول التي يجمع بينها جذرياً ، الى جانب التناقضات ، شيء عام • مثال ذلك التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين ، بين عناصر المجتمع الاشتراكي المتقدمة والمتأخرة •

ولا شك ان القانونيـة العامـة لحل التناقضات اللاتناحريـة ، لاتعني ان هذه التناقضات ، لايمكن ان تتفاقم مؤقتا ، نتيجة بعض الاسباب الحسية لتطبيق سياسة غير صحيحة او لارتكاب اخطاء في التطبيق •

وقد حذر لينين ، كما هو معروف ، من أن سياسة الحزب الماركسي غير الصحيحة بالنسبة الى الفلاحين كان يمكن ان تؤدي الى الانشقاق بين الطبقة العاملة والفلاحين • لذلك أعار الحزب ويعير انتباها خاصاً لسياسة توطيد وحدة الطبقة العاملة والفلاحين ، فوجه الحزب ضربة صاعقة للتروتسكيين •

في التناقضات اللاتناحرية لاتوجد أسباب موضوعية لتعميقها وتأزمها ، مما يسمح بالتغلب عليها بشكل تدريجي بفضل السياسة الصحيحة • لذلك ففي شروط الاشتراكية يكتسب نشاط القوى القيادية للمجتمع الاشتراكي (الحزب الشيوعي) اهمية كبيرة في التناقضات الناشئة في الوقت المناسب ، وفي التغلب عليها •

ان الحزب الشيوعي الذي يسير على طريقة المادية الجدلية ، يكشف التناقضات التي تنشأ في سير تطور المجتمع الاشتراكي ، وينظم الشعب ويوجهه لحل هذه التناقضات • ولا يسمح الحزب بتعاظم هذه التناقضات في سير تطورها ، وبنضوجها أو بانقلابها الى متضادات متعادية • كما أنه ينتقي اللحظة التي تنضج فيها الشروط لحلها • وتنبغي الاشارة هنا الى ان تأثير القوى الواعية على عملية تطور وحل التناقضات يجب الا يفهم بروح ذاتية • ففي الاشتراكية ، قبل ان تنشأ الامكانية الموضوعية لحل التناقضات يتطلب وقت ، ومقدمات ووسائل معينة من اجل التغلب عليها بشكل ناجح • ان اصالة الوضع هنا قائمة في ان العملية ليست عفوية ، ولا تعمل بشكل أعمى ، بل هي عملية ديالكتيكية موجودة بشكل أساسي تحت مراقبة الحزب والشعب •

ومهما اختلفت التناقضات التناحرية واللاتناحرية فانها تحل في النضال ، وعن طريق نضال الجديد ضد القديم ، عن طريق النضال التقدمي ضدالمهتري، المحافظ ، الجامد ، البيروقراطي ، البالي • ومن الخطأ اتخاذ خصائص حل التناقضات اللاتناحرية ، على انها خصائص مسالمة ، وانسجام • فلحل هذه التناقضات لابد من شن نضال مستمر للتغلب عليها ، للتغلب على كل ما هو مهترىء ، بالٍ ، وجامد ، وكل ما يعيق تطور الجديد والتقدمي •

ان الفهم الخاطىء لجوهر التناقضات اللاتناحرية ، ظهر في النظرية المعادية للماركسية « نظرية عدم الصدام » في ميدان الأدب والفن • وقد صورت هذه النظرية القضية بصورة ، كأن التطور في المجتمع الاشتراكي يتم بشكل سهل وفي طريق مستوية معبدة ، بدون نضال ونزاع بين القديم والجديد • ان انصار هذه النظرية اسقطوا من الاعتبار انه لو لم يناضل الجديد ، التقدمي في المجتمع الاشتراكي ضد المهتري ، لما كانت هنا حركة الى الامام ، بل كان هناك جمود او حركة الى الوراء •

ان مختلف التناقضات تحل فقط عن طريق النضال ، وحسب طبيعة التناقضات ، يتغير شكل النضال فقط • ومن أحد اشكال النضال الجديدة ، التي نشأت على تربة التناقضات الخاصة لبناء الاشتراكية ، هو الانتقاد والانتقاد الذاتي • وقد كتب لينين : « ان عمل البناء الحالي هو تطبيق للانتقاد ولمحتواه » أي الطابع الايجابي العملي للانتقاد ، وتوجيهه للتغلب على التناقضات ، وللقضاء على الاخطاء والنواقص •

ان الحزب يولي أهمية كبرى للانتقاد وللانتقاد الذاتي كوسيلة للنضال الجديد ضد القديم ، كوسيلة لاظهار وحل التناقضات التي تنشأ في سير تطور المجتمع الاشتراكي • ان الانتقاد والانتقاد الذاتي هو أحد أشكال مساهمة الجماهير الواعية النشيطة في بناء الشيوعية ، وفي إدارة دولتهم الاشتراكية •

ان تحول المجتمع الاشتراكي الى شيوعي يتم ايضاً على اساس التغلب على التناقضات عن طريق موت القديم وولادة الجديد •

وتطويرها ، وعن طريق موت اشكال الحياة القديمة ونشوء الاشكال الجديدة، عن طريق تداخلها وتأثيرها المتبادل » .

الفيلسوفان الفرنسيان المعاصران (ميرلو بونتي) و (جان هيبوليت) وغيرهما يعلنون ان تناحر القوى والطبقات الاجتماعية المقاومة هو تناحر أبدي ولا يمكن القضاء عليه ، وانه في ذلك يكمن جوهر الديالكتيك . ان تناقضات المرحلة التاريخية المعينة ، إن تناقضات المجتمع التناحري تحول من قبلهم الى شيء مطلق متجاهلين ان طابع تأثير القانون العام للتطور عن طريق صراع المتضادات ، قد تغير في الشروط التاريخية الجديدة . وقد سمى الهيغيليون الجدد هذا الديالكتيك بالمأساة ، لأنه تستنتج منه حتميــة وابدية النزاعات الطبقية والحروب الخ . والواقع أن « الديالكتيك المأساوي » هو وسيلة يحاولون بواسطتها البرهنة على الطابع غـير الموقت للراسماليــة ، وللتناقضات الـتناحرية . ولكن ظفر الشيوعية يعني القضاء تماماً على مثل هذه التناقضات .

ان تجربة البناء الشيوعي في الاتحاد السوفييتي كشفت عن شـكل لحل التناقضات الباقية بالوراثة عن المجتمع القديم التناحري ، والتي توضعت ، طوال العصور ، بعضها فوق الاخرى ، كتحول تدريجي للمتضادات الى « فارق » ، ثم تصفية كل بواقي التناقضات القديمة . وبهذه الصورة يتغلب مثلا على التناقض بين المدينة والقرية ، والتناقض بين العمل الجسدي والذهني .

ان الفارق بين اشكال ونماذج التناقضات لايكمن فقط في كون التناقضات المختلفة لها طبيعة مختلفة ، وبالتالي اساليب وطرق مختلفة لحلها . بل المهم هو ان نميز بين التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، بين الاساسية وغير الاساسية في الشبكة المعقدة للتناقضات . إن أي شيء بسيط ، وبالاحرى العمليات والظواهر المعقدة ، تحوي في ذاتها لا تناقضاً واحداً بل كثيراً من التناقضات ، التي توجد في صلات وعلاقات تناقضية مختلفة جداً ، مع الظواهر والعمليات الاخرى .

لذلك فمن المهم جداً ــ وخاصة في الحياة الاجتماعية، وستراتيجيةوتكتيك

نضال الطبقات والاحزاب الاجتماعية ـ عدم الخلط بين التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، الاساسية وغير الاساسية ، بل رؤية الفارق بينها ، وفرز تلك التناقضات التي تلعب ، في المرحلة التاريخية المعينة ، دوراً حاسماً ، ثم تخطيط النشاط العملي حسب ذلك •

التناقضات الاساسية ، هي التناقضات التي تحدّد التناقضات النوعية وتنشأ هذه عنها • مثال التناقض الرئيسي لاسلوب الانتاج الرأسمالي هو التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج وبين طابع الحيازة الرأسمالية الخاصة • إنه يحدد جميع التناقضات الاخرى التي هي مشتقة من التناقض الاساسي • وهكذا فالتناقض بين تعاظم الانتاج في المجتمع البرجوازي وبين قدرة الجماهير الشرائية المتخلفة هو تناقض مشتق من التناقض الرئيسي ، ويبرز كمظهر وتعبير عن التناقض الرئيسي للرأسمالية •

ان التناقض الاساسي للتطور الاجتماعي العالمي الحديث هو التناقض بين المنظومتين الاجتماعيين الاقتصاديين ـ بين الاشتراكية والرأسمالية • وخارج هذا التناقض الاساسي لا يمكن فهم التناقضات الاخرى للتطور العالمي الحديث ، وكذلك لا يمكن فهم الكثير من القضايا العالمية الحالية •

ان تمييز التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية، هام لاعطاء السمة الصحيحة لمختلف مراحل وفترات عملية التطور•وبالنسبة الى متطلبات التطور الموضوعية المتبدلة ، والى الوضع المتبدل في الدرجة الاولى ، يمكن ان يبرز تارة هذا التناقض ، وتارة أخرى غيره ، بصفة تناقض رئيسي •

ان التناقض الذي يبرز في شروط معينة كتناقض رئيسي يصبح في شروط أخرى غير رئيسي أو العكس • مثال ذلك : في المرحلة الاولى لوجود السلطة السوفييتية في الاتحاد السوفييتي، كان التناقض الرئيسي هو التناقض القائم بين السلطة السياسية الاكثر تقدمية في العالم وبين الاساس التكنيكي ـ الاقتصادي المتأخر ، والتطور الضعيف للصناعة الثقيلة في الدرجة الاولى • وعندما حُلّ هذا التناقض ، احتل مكان التناقض الرئيسي في المرحلة التالية ، التناقض بين

الصناعة الاشتراكية التقدمية وبين الزراعة المتأخرة المبعثرة الى ملايين عديدة من الاستثمارات الصغيرة • وهذا التناقض حل بنجاح أيضاً •

ان حساب التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية يسمح للاحزاب الشيوعية بتعيين مهمات الطبقة العاملة ، ورفع الشعارات الحقيقية للنضال ، وتجنيد الجماهير لحل القضايا الناضجة التي تقرب من الهدف النهائي • لذلك فقط سمى لينين الديالكتيك بروح الماركسية •

يعلم لينين ان الديالكتيكي الحقيقي هو الذي يستطيع في كل مرحلة من مراحل التطور ، الامساك بالحلقة المرحلية الحاسمة ، والتي تمكن السيطرة عليها ، من الامساك بكل سلسلة القضايا الاخرى •

ان تمييز التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، والمقدرة على رؤية سير تعاظم تناقضات جديدة ، وتحول التناقضات الرئيسية الى غير رئيسية والعكس بالعكس ، كل ذلك يمكن من السيطرة على الحلقة الحاسمة في الشروط الحسية المعينة •

٤ : ـ المحتوى والشكل
نشوء وحل التناقضات فيما بينهما

إن احد التعابير العامة ، والاساسية ، للتطور عن طريق صراع المتضادات هو نشوء وتطور التاقضات بين محتوى الشيء وشكله والتغلب عليها • لقد كتب لينين في « الدفاتر الفلسفية » ، معدداً عناصر الديالكتيك، قائلاً : « نضال المحتوى

ضد الشكل ، والعكس • خلع الشكل ، واعادة المحتوى »[1] •

ان لمقولتي المحتوى والشكل أهمية كبيرة من أجل فهم عمليات التطور • لكل شيء محتواه وشكله اللذان لا يمكن فهمهما الا في علاقتهما الوثيقة فيما بينهما • المحتوى هو الأساس ، الناحية الرئيسية في الشيء التي تعبر عن جوهره ، وتظهر في كل عناصره • إن محتوى اسلوب الانتاج مثلاً هو القوى المنتجة التي تحدد العلاقات الانتاجية كشكل اجتماعي لها • ومحتوى الانتاج الادبي الفني هو أفكاره التي تعكس احدى نواحي الواقع ، نواحي حياة الناس ، هذا المحتوى يكون منتشراً في الانتاج المذكور كله : موضوعه ، صوره ، لغته الخ •

إن المحتوى لا يوجد خارج الشكل • الشكل هو طريقة وجود المحتوى ، هو التنظيم الداخلي ، هو بنية المحتوى التي تجعل من وجوده ممكناً • فبدون البنية المورفولوغية[1] لا يمكن للجسم ان يوجد • ان أحسن فكرة لعاجزة بنفسها ، ولوحدها ، عن اعطاء إنتاج فني ، اذا لم يعبر عنها بشكل فني وبصورة فنية ، واذا لم يقدم الانتاج المتعة الجمالية • والقوى المنتجة لا تستطيع أن توجد بدون العلاقات الانتاجية التي هي شكل تطورها •

لا ينبغي خلط الشكل الداخلي للشيء مع شكله الخارجي • فبالنسبة الى القصة أو القصيدة الشكل البوليغرافي (شكل الكتاب وجلدته وعنوانه) هو الشكل الخارجي ، وليس له من أهمية بالنسبة الى محتوى الانتاج الفني • اما الصور الفنية واللغة والموضوع والبنية فهي عبارة عن الشكل الداخلي وتعبر عن الفكرة القائمة في المحتوى ، التي بدونها لا يوجد المحتوى • لذلك كان شكل الشيء هو شكل وجوده •

ان المحتوى والشكل كغيرهما من المقولات الديالكتيكية ، ليسا جامدين ثابتين • يمكن ان يتحول احدهما الى الاخر ؛ فليس بينهما من حد مطلق • إن الأمر الذي يبدو في بعض العلاقات والصلات ، محتوى ، يصبح شكلا ، في علاقات وصلات أخرى • مثال ذلك : ان العلاقات الانتاجية ، هي بالنسبة الى القوى

---

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية ص ١٩٣ •

المنتجة ، شكل ، اما بالنسبة إلى ما ينتج عنها من بناء فوقي سياسي أو حقوقي واشكال ايديولوجية فانها تبرز كمحتوى لها • ان الصور الفنية واللغة، والقافية الشعرية ، هي شكل لشعور المنتج الفني ، ولكنها يمكن ان تكون موضوع البحث العلمي ، أن تكون محتواه •

بين الشكل والمحتوى توجد علاقات متبادلة ديالكتيكية معقدة • وكما رأينا من قبل،فان الصلة بينهما تكمن قبل كل شيء في انهما موجودان في وحدة: احدهما لا يوجد بدون الآخر ، فلكل شيء ، ولكل عملية محتوى وشكل • ولكن في هذه الوحدة ، المحتوى هو الجهة الرئيسية التي تعين الشيء • ان المحتوى يحدد الشكل ، ينشيء شكله ، والشكل يتعلق بالمحتوى • الشكل ليس تعسفيا ، انه شكل المحتوى المعين • ورغم أن المحتوى لا يبقى محتوى اذا لم يتجل في شكل معين ، فهو على كل حال يبقى اساس التأثير المتبادل بينهما • وإن ذلك الدور الهام الذي يقوم به الشكل ، ليتحدد بمتطلبات محتوى الشيء • فمن المتعذر مثلاً التعبير عن الفكرة ذات المحتوى التراجيدي، بشكل كوميدي ، أو العكس ، التعبير عن فكرة كوميدية بشكل تراجيدي • ان نظام الرأسمالية الاقتصادي يتطلب بناء فوقياً معيناً ، يختلف جذرياً عن البناء الفوقي الاشتراكي الذي هو شكل لمحتوى مغاير ، تماماً ، هو النظام الاشتراكي الاقتصادي •

ان الشكل ، المتعلق بمحتواه ، ليس سلبياً غير ذي تأثير ، بل هو يؤثر تأثيرا ناشطا على المحتوى ؛ ودوره عظيم في التطور • ان الشكل يمكن ان يلعب دوراً مزدوجاً : يمكن أن يمكّن الشيء من التطور، أو على العكس ، يمكن أن يلجم هذا التطور • وهناك امر يمكن أن يبدو غريباً : فاذا كان الشكل موجوداً في وحدة مع محتواه ، ومشروطاً بهذا المحتوى ، واسلوباً أو طريقة لوجوده فكيف يمكن له ان يعيق المحتوى ويعرقل تطوره ؟ هذا الاعتراض ليس اساسياً ، لأنه يعتبر ناحية واحدة فقط ، من نواحي الصلات المتبادلة بين المحتوى والشكل ، من نواحي وحدتهما •

في الواقع ان هذه الوحدة ليست وحدة ميتة ، انها وحدة ديالكتيكية ،

وحدة متضادات • ومهما كان عليه المحتوى والشكل من ارتباط وثيق ، فانهما مختلفان بجوهرهما ، وهما ناحيتان مختلفتان من الشيء • ونظراً لهذا الخلاف الكائن بينهما ، فان خواص وميول هاتين الناحيتين من نواحي تطور الشيء ، مختلفة •

ان تبدل الشيء أو تطوره ، يبدأ دائما بتبدل محتواه ، لانه ناحيته الهامة واساسه • ان المحتوى ، اذا ما قيس بالشكل يكون هو الاكثر حركة وتبدلاً • اما الشكل فاكثر استقراراً وأقل حركة • ان الشكل المتعلق بالمحتوى يتبدل على اساس تبدل المحتوى ، الا ان استقراره الكبير يؤدي الى التناقض • وفي حين يتبدل المحتوى بشكل متواصل ، يظل بعض الوقت ، بدون تبدلات جذرية • ولا ينبغي فهم استقرار الشيء كنفي كلي للحركة • وحتى ولو بقي الشكل كله على حاله ، فان بعض خواصه أو عناصره يمكن ان تتبدل • لذلك فالشكل مستقر نسبياً فيما اذا قورن بالمحتوى المتبدل باستمرار • ان أخذ هذا الفارق وميول المحتوى والشكل المتباينة في سير التطور ، بعين الاعتبار ، يسمح بفهم العلاقة المتبادلة الديالكتيكية بين المحتوى والشكل ، والدور المزدوج للشكل •

يمر التأثير المتبادل بين محتوى الشيء وشكله في مراحل مختلفة • فمن الخطأ التفكير بأن استقرار الشكل النسبي هو عامل محافظ دائماً ، وفي الظروف كلها • ففي بدء المرحلة يكون الشكل متلائماً مع محتواه ويسهل تطور المحتوى • ففي فترات تلاؤم الشكل مع المحتوى يكون تحديده واستقراره عبارة عن قوة محركة للتطور • فلو تبدل الشكل في برهة واحدة لما استطاع ان يلعب هذا الدور • مثال ذلك ، ان العلاقات الانتاجية الجديدة كشكل متلائم مع محتواه ، أي القوى المنتجة ، تبقى خلال وقت طويل ، ثابتة ، وتسهل تطور القوى المنتجة • ولكن كلما تبدل المحتوى ينشأ ويتعاظم التناقض بينه وبين الشكل •

وما دامت هذه التبدلات غير كبيرة ، فان الشكل يسهل تطور الشيء ،

ولكن تفاقم التناقض يؤدي الى عدم تلاؤم الشكل مع المحتوى ، فينقلب من عامل للتطور الى عامل يلجم التطور التالي • في مرحلة التطور هذه ، يصبح استقرار الشكل عاملاً محافظاً• وكما كتب ماركس تتحول العلاقات الانتاجية، في مرحلة معينة ، من شكل عامل على تطور القوى المنتجة الى عائق لها • وهذا يمكن توضيحه بأمثلة أخرى • من المعروف ان الحزب الشيوعي يدخل من وقت لآخر بعض التعديلات على نظامه الاساسي الذي يحدد اشكال نشاطه التنظيمية • والسبب ان المحتوى الجديد ، والقضايا الجديدة التي تبرز أمام الحزب تدخل في تناقض مع بعض الاشكال التنظيمية الهرمة ، التي كانت تلعب في الشروط الماضية دوراً ايجابياً • وهكذا فالمؤتمر وافق على نظام اساسي جديد ، يحدد تنظيم نشاط الحزب وأشكال هذا النشاط ، بصورة تتلاءم مع مهمات بناء المجتمع الشيوعي •

ان التناقض بين المحتوى الجديد والشكل القديم يستدعي صراعاً بينهما • هذا الصراع هو من أهم مظاهر مفعول قانون صراع المتضادات في الطبيعة والمجتمع والتفكير • وهذا الصراع لا يتوقف ما لم يستبدل الشكل القديم،بآخر جديد ، يتلاءم والمحتوى المتبدل•ولهذا الصراع في الغالب،طابع ضراوة وامتداد في الزمن • وبما ان الشكل، عندما ينشأ محتوى جديد لايخلع بصورة آلية بل يحوز استقلالاً نسبياً ، يمكن الشكل القديم من الاحتفاظ بوجوده ، بعض الوقت ، رغم تبدل المحتوى ، فان هذا الشكل يملك قوة كبيرة من العطالة ويقاوم التبدل • مثلاً في المجتمع التناحري تدافع الطبقات والاحزاب والفئات عن الاشكال الهرمة التي يهمها المحافظة عليها والدفاع عنها•ومهما استمرت مقاومة الشكل القديم الهرم ، لا بد له ، مع تطور المحتوى ، من التخلي عن مكانه للشكل الجديد • لذلك كان الصراع بين الشكل القديم والمحتوى الجديد ، مصدراً للتطور • وهذا الصراع يسهل استبدال الجديد بالقديم، يسهل الحركة والتجديد الخالدين • وقد عبر تشيرنيشفسكي ، الديموقراطي الثوري الروسي، عن اهمية ديالكتيك تطور الشكل والمحتوى تعبيراً موفقاً اذ قال : « إن من يفهم

التبدل الخالد الذي يصيب الاشكال ، إن من يفهم سقوط الأشكال الذي ينشأ عن محتوى معلوم ، أو عن نزعة ، نتيجة تعاظم قوة هذه النزعة أو تطور هذا المحتوى تطوراً عالياً - ان من يفهم هذا القانون العظيم الخالد الذي يفعل في كل مكان ، ومن يستطيع ان يطبقه على كل ظاهرة ، يمكنه ان يخلق الفرص المؤاتية التي تربك الآخرين ••• انه لا يأسف على أي شيء فات أوانه بل يقول: « فليكن ما يكون ، أما العيد فسيحل في شارعنا في نهاية المطاف » •

لقد وفق تشيرنيشفسكي في استنتاجاته الثورية من ديالكتيك تطور شكل ومحتوى الظواهر وفق في استنتاجاته الذاهبة الى ان الحياة الاجتماعية في حركتها التي لا تقاوم إلى أمام تكنس كل الأشكال التي فات أوانها وأصبحت عائقاً مستبدلة اياها بأشكال جديدة اكثر تقدمية •

ولا ينبغي فهم تلاؤم الشكل مع المحتوى، أن المحتوى يمكن أن يُعبر عنه الزامياً بشكل واحد ما • إن المحتوى الواحد يمكن أن يتلاءم مع عدد من الأشكال • فمن المعروف ان ديكتاتورية البرجوازية يمكن أن تظهر حتى في شكل جمهورية برلمانية ، وفي شكل ملكية دستورية ، وفي شكل ديكتاتورية فاشية إرهابية • ان محتوى واحداً في شروط تاريخية حسية لتطور بلدان مختلفة ، يعبر عنه بأشكال متباينة •

ان عدم فهم ديالكتيك المحتوى والشكل يؤدي من ناحية الى خطر اعتبار الشكل القديم شكلاً مطلقاً ، ويولد الخوف من هجر الاشكال المعتادة رغم أنها تلجم التطور • ان الحزب الشيوعي ، يسير في نشاطه العملي وفق تعاليم لينين القائلة ، بأن كل تبدل مفاجيء في التطور ، يؤدي حتماً الى خرق التلاؤم بين الشكل القديم والمحتوى الجديد» • والحزب يناضل ضد كل نفرة وجمود وخوف من استبدال اشكال الحياة الاقتصادية والروحية والسياسية القديمة ، بأشكال تسرع الحركة الى الامام الى حد اعظمي • ومن ناحية أخرى، يؤدي أيضاً الى خطأ اعتبار كل شيء قديم ، عديم المنفعة ، فقط لأنه قديم • ان المحتوى الجديد لا يتطلب دوماً شكلا جديداً • انه يمكن أن يستخدم

الشكل القديم ، ملائماً إياه مع متطلباته • فضمن الاشكال القديمة ، توجد اشكال تستطيع ، حتى ولو تغيرت الشروط ، خدمة المحتوى الجديد • ان الحزب الشيوعي يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار في نشاطه • فهو عندما قضى على الجهاز الحكومي القديم في روسيا البرجوازية الاقطاعية ، حافظ على العديد من مؤسسات النظام القديم ، ذات الشكل القديم من مصارف ، وبريد مدخلاً عليها المحتوى الاشتراكي الجديد •

كما ان الفهم الخاطىء للعلاقات المتبادلة بين المحتوى والشكل ، يمكن ان يؤدي الى الافراط في تضخيم وتشويه احدى هاتين الناحيتين المشكلتين لكل واحد • وهكذا فجوهر النظرية الشكلية المشوهة ، يكمن في أنها تعتبر الشكل مطلقاً وتهمل جوهره ومحتواه •

ان تضخيم دور الشكل في الفن يؤدي الى الشكلية (فورماليزم) ، والى تشويه أهمية الفن الاجتماعية العظيمة • ان الشكل الفني ليس هدفاً بذاته ؛ ويمكن للشكل أن يكون كاملاً فيما اذا خضع للمحتوى ، وعبر عن الافكار الاجتماعية •

ان تجاهل الشكل الفني في الفن يؤدي الى الحط من قوة تأثير الفن ودوره الاجتماعي • وقد صرح بعض المحرفين في دول الديمقراطية الشعبية ، الواقفين ضد الواقعية الاشتراكية ، ان المحتوى لا الشكل ، هو الذي يقرر فيما اذا كان الانتاج الفني واقعياً • ان مثل هذه المعارضة للمحتوى بالشكل أو للشكل بالمحتوى ، واهمال الشكل الفني الواقعي الذي يعكس الحياة ، لاتمت الى الماركسية بصلة •

ان التجريدية ، والتزيينات المماثلة في الفن البرجوازي المعاصر غريبة عن الانسان الطبيعي الذي يملك ذوقاً فنياً سليماً • لان هذه التزيينات تنفي الشكل الواقعي لعكس الواقع في الفن • فخارج الشكل الفني الواقعي لايمكن ان يكون هناك فن ذو محتوى حقيقي •

ان الحزب الشيوعي السوفييتي يعير ، في نشاطه ، اهمية كبرى لتبدل اشكال التنظيم ، وأشكال وطرق الادارة ، ولتطبيقها بشكل ينسجم ومتطلبات البناء الشيوعي الجديدة ؛ ويشهد على ذلك ما اجراه الحزب من تبـديلات في اشكال وطرق ادارة الصناعة والزراعة ، وتحسين طرق منهجة تطور الاتحاد السوفييتي ، ومن اعطاء الجمهوريات امكانيات اوسع لحل قضاياها الاقتصاديـة والثقافية بشل مستقل • ان تطور اشكال الحياة الاجتماعية ، وتنظيم الانتاج ، يتمتع بأهمية كبرى • فبدونه يتعذر التطور الناجح للمحتوى نفسه أي لحـل قضايا الشيوعية التالية •

وهكذا ، ففي مجالات النشاط العملي المختلفة ، ينبغي اخـذ ديالكتيك المحتوى والشكل بعين الاعتبار ، وايجاد العلاقة الصحيحة بينهما •

ان دارسة قانون وحدة وصراع المتضادات تسمح لنا ان نفهم لماذا قدرلينين تقديراً فائقاً دور هذا القانون في الديالكتيك الماركسي ، معرفاً نظرية التناقضات بـ « نواة » الديالكتيك و« جوهره »•ان التناقضات وحلها،هي تلك القوةالمحركة للتطور ، الكامنة في اساس انتقال التبدلات الكمية الى كيفية،، في اساس القفزات من الوضع القديم الى الجديد ، في اساس حركة الوجود الابدية التي لاتعرف الكلل • ان الصلات والتأثيرات المتبادلة بين المقولات من أمثال السبب والنتيجة ، الامكانية والواقع ، الوحيد والعام ، المحتوى والشكل ، الضرورة والمصادفة ، وغيرها ــ تقوم على ذلك الاساس ذاته لأن كلا منها لا يكون له معنى من دون نقيضه ، ومن دون التحول من الواحدة الى الاخرى • لذلك فتحليل التناقضات واتجاهها في التطور ، وطرق واساليب حلها ، تحليلاً جريئاً هو السمة الملازمة لطريقة معالجة الواقع معالجة ماركسية ، ثورية ، علمية حقاً •

الفصل الثامن

قانون نفي النفي

ان تحليل قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، وقانون وحدة وصراع المتضادات يبين لنا انه نتيجة لعمل هذين القانونين تتم عملية لانهاية لها، عملية استبدال بعض الظواهر والأشياء بأخرى ، وانتقال المتضادات بعضها إلى بعض • فهل من وجود لنزعة موضوعية ما ، لاتجاه ما ، في هـذا الاستبدال الدائم للواحد بالآخر ، في هذا الصراع المتواصل بين الجديد والقـديم ، بين المولود والفاني ؟ واذا كانت توجد هذه النزعات الموضوعية للتطور ، فما هي ؟

حول هذا السؤال دار أيضاً ويدور صراع بين مختلف المذاهب والنظريات • وقد اكتسب هذا الصراع طابعاً حاداً ، بشكل خاص ، في قضيـة اتجاه التطور الاجتماعي • ففي فترة التطور الصـاعـد للرأسماليـة ، كان ممثلو الفلسفـة البرجوازية يدينون بفكرة التقدم الاجتماعي • كان الفلاسفة يؤمنون بالانسان، وبقدرته ، يؤمنون بامكانية خلق عالم يسوده العقل والعدالـة •. لقـد اعتبروا العالم البوجوازي السائر آنذاك في طريق الحلول محل الاضطهاد الاقطـاعي ، والظلم الانساني ، عالماً يسوده العقل • كـانت هـذه اعتقادات تقدميـة لايمكن التقليل من أهميتها • بيد أنه نشأت في هذه الفترة نظريات تشاؤمية تشير الى محدودية التقدم ، والى حتمية تقهقر الانسـان • وفي المراحـل الاخـيرة من تطور الفلسفة البرجوازية ، وخاصـة في فترة الامبريـالية ، اصبحت دوافـع التشاؤم والسأم اكثر قوة • وأخذ ايديولوجيو البرجوازية يفهمون حتمية موت الرأسمالية التي مضى زمانها ، كانهيار للمجتمع الانساني ، والثقافة الانسانية • وبرز الفلاسفة من أمثال نيتشه ، وشبنيغلر بنظريات تتنبأ « بأفول نجم أوروبا »• وأخذت بالانتشار أفكار عن « الدورة الخالدة » ، وسير التاريخ الى الوراء •

وقد أصابت هذه النظرات التشاؤمية الطبيعة أيضاً • فقد عبر الفيزيائي الفلكي الانكليزي الشهير جينس في كتابه « حركة الاكوان » عن نفسية الانهيار بقوله: « الكون يعيش حياته ، ويسير في الطريق من المهد الى اللحد ، تماماً كما نسير نحن ، لان العلم لايعرف تبدلا غير الانتقال الى الشيخوخة ، ولا تقدماً آخر غير السير الى القبر » •

أما الدياليكتيك الماركسي الذي يعمم الحركة الحقيقية في الطبيعة ، والمجتمع ، والتفكير الانساني ، ويعمم سير مهمة المعرفة العلمية كله ، يدحض هذه التصورات اللاعلمية عن الاتجاه الرئيسي للتطور • ان المادية الدياليكتيكية تؤكد أن الخط الرئيسي للتطور الصاعد يشق طريقه ، عبر حركة معقدة ، مضللة أحياناً ، تبدو في الظاهر فوضوية غير نظامية ، متنقلاً من البسيط الى المعقَّد ، من الأدنى إلى الأعلى • هذه الناحية من التطور ، الناشئة الى حد كبير، عن قوانين الدياليكتيك المذكورة اعلاه،تجد تعبيرها الأعمق في قانون نفي النفي• ان مكان واهمية هذا القانون في منظومة قوانين ومقولات الدياليكتيك المادي ، يتحدد في اعطائه اعم واشمل مفهوم عن طابع التطور ، كاشفاً الصلة الداخلية ، والمراحل الأساسية السابقة واللاحقة في التطور ، كاشفاً الصلة التي تشترط سير الحركة الصاعد ، والشكل الحلزوني المعقد للتطور • فما هو قانون نفي النفي ؟

١ : ـ جوهر ودور النفي الدياليكتيكي في عملية التطور

عند تحليل عملية انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، وصراع المتناقضات ، رأينا أن التطور يتضمن في نفسه عاملاً قانونياً ، إلزامياً ، هو النفي • فالتبدلات النوعية تعني نفي النوعية القديمة • وبدون النفي ليس بالامكان انتقال الواحد الى الآخر • ثم ان صراع المتضادات يتم بظفر متضاد على آخر ، مما يعني أيضاً نفي الأول وتوطيد الآخر • فالنفي ، بالتالي ، ليس عاملاً ثانوياً ، مرتبطاً بعملية التطور من الخارج ، بل هو مشروط قانونياً بجوهر التطور ذاته • إن النفي هو نتيجة التطور عن طريق انشطار الوحدة ، ونشوء الجزئيات ، والاتجاهات ، والقوى ، التي ينفي بعضها بعضاً في الظواهر

والأشياء • يقول انجلز إن النفي الدياليكتيكي الحقيقي هو «التقسيم الى متضادات، وصراعها ، وحلها » •

إن تضاد الاشياء والظواهر الداخلي ، يعني ، في الواقع ، أنه يوجد منها مثل هذه النواحي والاتجاهات التي تؤدي الى نفي الأشياء والظواهر • مثلاً البروليتاريا ونضالها ، هما نفي البرجوازية ، والنظام البرجوازي الذي تدافع عنه ، وهو نفي لا يأتي المجتمع الراسمالي من الخارج ، بل هو ملاصق لجوهره • فالنفي هو عامل التطور الضروري داخلياً • وصراع المتضادات يتطور كصراع ناحية (عامل نفي) ضد الناحية التي توطد الموجود وتدافع عنه • فالبروليتاريا ، في المثل المذكور ، تناضل ضد البرجوازية كحاملة لأسلوب الانتاج الرأسمالي • وصراع المتناقضات يتم بموت أحدهما وظفر الآخر ، أي بنفي احدهما ، بنفي الذي وجد قبلا ، لكنه عاش زمانه • لهذا فالنفي اذن مرحلة ضرورية ، قانونية ، في التطور • وقد كان هيغل على حق تماماً عندما سمى «السلبية الداخلية» القوة المحركة للتطور • كذلك أبان ماركس ، عندما حدد سمات الدياليكتيك المادي ، أهمية عامل النفي في التطور • ففي كتابه « الرأسمال » تحدث عن الدياليكتيك المادي بأنه ، في الوقت الذي ينطوي فيه على المفهوم الايجابي للشيء القائم ، يتضمن ايضاً مفهوم نفيه ، مفهوم حتمية موته • كما أن هذا الدياليكتيك ينظر الى كل شكل من الاشكال الموجودة من خلال الحركة ، وبالتالي من خلال ناحيته العابرة ، وهو لا ينحني أمام أي شيء ، أنه ناقد وثوري بجوهره ذاته » •

وللنفي دور هام في جميع عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير • وهو يتبدى بأشكال مختلفة تبعاً لاختلاف العمليات • فتحول الاورانيوم ، إشعاعياً ، الى راديوم هو مظهر « نفي » أحد العوامل الكيماوية ، وتشكل عامل كيماوي آخر منه • كما أن نفي البرعم بالزهرة ، والزهرة بالثمرة هما العاملان الضروريان لنمو النبات • وتاريخ المجتمع لا معنى له من دون نفي الانظمة الاجتماعية الدنفة من قبل الجديدة • وقد احسن بيلنسكي عندما قال بأن المجتمع ، من دون عامل النفي ، يتحول الى مستنقع راكد • ويشير تاريخ العلم الى أن حركة

المعرفة تمت عبر نفي الفرضيات التي لم تثبت ، عبر نفي النظريات والصيغ التي بلغت مرحلة التناقض مع الوقائع الجديدة ، مع النشاط العملي المتطور •

الا أن الاعتراف بعامل النفي ، في التطور ، غير كاف • لابـد من الفهم الصحيح لطبيعة النفي ، لطابعه الدياليكتيكي • وعندئـذ فقط يتضـح الخط القانوني الأساسي ، والاتجاه ، في التطور •

ومن السهل علينا أن نلاحظ ، من خلال الامثلة السابقة ، أنه لاينبغي فهم احد عوامل التطور ، وهو النفي ، كنفي مطلق ، اي كنفي لايحتوي في ذاته أي شيء إيجابي • فلو أن الأمر كذلك لما أمكن التطور • لو أن نفي البرعم ، في دورة نمو النبتة ، كان نفياً فقط ، لما حدث انتقال من البرعم إلى الزهرة • صحيح أن بالامكان قطف البرعم واتلافـه ، فهـذا أيضاً نفي ، ولكنـه نفي تهديمي ، ولا يخلق الشروط لنمو النبتة الطبيعي • مثل هذا النفي لا يشكل شرط التطور • وعندما قضى الهتلريون على الثقافة التي استغرق خلقها أجيالاً ، كان عملهم هذا نفياً أيضاً ، ولكنه نفي دفع الانسانية إلى الوراء ، الى ظلمات العصور الوسطى • أما البروليتاريا ، فعندما تقضي على النظام الراسمالي ، عن طريق الثورة الاجتماعية ، فهذا النفي يوطد نظاماً اجتماعياً جديداً ، أقدر على الحياة بشكل لايقاس ، وعلى خلق إمكانيات تطور لاحد لها •

إن قانون نفي النفي الدياليكتيكي هو قانون التطور • لهذا فعندما يتحدث الدياليكتيك عن النفي ، فهو لا يقصد أي نفي كان ، بـل يقصـد النفي الذي يستخدم كمقدمة ، كشرط للتطور • يقول إنجلز «النفي في الدياليكتيك لا يعني قول « لا » ببساطة ، أو التصريح عن شيء بأنه غير موجود ، أو القضاء عليه بأية وسيلة كانت » • إن النفي المفهوم دياليكتيكياً ، والمعبر عنه تعبيراً صائباً ، هو هذه الـ « لا » التي تحتوي في الوقت ذاته على « نعـم » ، أي وحـدة النفي والاثبات •

ولا يجمع المفهوم الدياليكتيكي للنفي أي جامع مع العدمية والريبية ،

اللتين تخضعان كل شيء للتشكك ، ولا تريان أي شيء ايجابي فيما كان ، وفيما هو قائم • إنهما توشحان كل شيء بالأسود القاتم •

وقد سمى لينين هذا النفي « ريبياً » ، « عارياً » ، « عبثياً » • مثل هذا النفي هو أفكار ذاتية ، وليس انعكاساً للسير الموضوعي للتطور • يقول لينين : ليس هذا النفي هو النفي الأساسي والمميز في الدياليكتيكية ـ التي لاشك انها تحتوي في ذاتها عنصر النفي ، كعنصر حاسم من عناصرها ـ كلا ، إن النفي المقصود هو النفي كعامل صلات ، كعامل تطور ، مع توطيد الايجابي ،أي دون أي تردد ، دون أي اصطفاء » •

لقد عكس الفن العالمي في صور ساطعة نوعين من النفي مختلفين من حيث طبيعتهما : النوع الأول هو النفي الهدام ، الذي يتصف بالريبية والشك المطلق في كل شيء • والثاني هو النفي الذي يعتبر مقدمة للانتقال إلى الأحسن والاكمل ويكون بمثابة مصدر للتقدم • ان شخصية الشيطان في « فاوست » للشاعر الألماني غوته ، تمثل بتفكيرها وبكل فلسفتها النفي « العاري » النفي كهدف بذاته مهما كلف الثمن •

انني انفي كل شيء ـ وفي هذا تكمن حقيقتي :
فكل هذه القذارة الموجودة على الأرض
لاتصلح إلا لأن تنهار تحت قصف الرعود ،
أفليس من الأفضل لهم أذن ألا يولدوا أصلاً •
ان كل ما يسميه الناس شراً :
الرغبة في الهدم ، والأعمال والأفكار الشريرة
ان كل هذا يشكل طبيعتي •

ان الشيطان «ميفيستوفل» يتفوه بالكثير من الأفكار النقدية الصحيحة عن العالم القديم • وروح النفي الملازمة له تتصف ببعض النواحي الايجابية، إذ أنه

يسخر بقوة من كل ما هو آسن وفاسد في الكون • بيد أنه مفعم بعدم الايمان في امكانية الانتقال إلى الأفضل • ان فاوست ينفي أيضاً ، ولكنه ينفي كل مافات أوانه وكل ما يعرقل التقدم ، فهو يؤمن بالانسان وبالعقل الانساني وهو شديد الظمأ إلى كل ما هو كامل ورائع •

وبالاضافة الى أن النفي شرط التطـور ، فهو أيضـاً تعبير عن مواصلة التطور وتواليه ، تعبير عن الصلة بين مراحل التطور المختلفة وعوامله ، بـين ما يُنفى ، وبين ماينَفي • وهذه أهم ناحية في النفي • ان النفي الدياليكتيكي لاينبغي فهمه كانقطاع في التطور ، كنفي للصـلات بين القـديم والجديد • ان الصلات بينهما قائمة بفعل ان الجديد يولـد لا من لا شيء ، بل من القـديم فقط • والصـلة تجد تعبيرها في أن الجـديد يتمسك بكل ما هو ايجـابي في القديم • وعلى هذا فالقديم ، في حركته الوالدة للجديد ، لايُرمى بكل بساطة من قبل الجديد بل يزاح • والمفهـوم الفلسفي لكلمة الازاحـة يعني ، النفي والحفظ ، في وقت واحد ، نفي الوضع السابق ، وحفظ كل ما هو ايجابي ، في الجديد ، كل ما حققه التطور السابق •

مثلاً : لاشك أن الانسان ، والوعي الانساني ، هو نفي للحال التي تخص الحيوان مع ما يتمتع به من ملاءمة بيولوجية مع الطبيعة ، وفعالية نفسية غريزية • لقد كان الانتقال من العالم الحيواني الى العالم الانساني أعظم خطوة في تطور الطبيعة • الا أن تاريخ العالم الحيواني كان مرحلة تاريخية ضرورية ، سابقة لوجود الانسان • ويتضمن الوعي الانساني ، في شـكله المتحول (المتطور) ، نتاج التطور السابق لنفسية الحيوان • والعملية الدياليكتيكية « للازاحة » ، اي النفي والحفظ ، توجد أيضاً في المعرفة • ان المعرفـة ، اذ تنطلق من المتـأمل إحساسياً الى المجرد ، من الوحيد الى العام ، لا تفقد ، في المرحلة الجديدة ، ما حازته من قبل ، بل تحفظه في ذاتها ، وتغنيه ، ترفعه الى مرتبة أعلى • ففي معرفة العام تستقر معرفة الوحيد ، ولكن بشكل « مُزاح » • مثلاً ، في مفهوم المادة تنعكس اشياء العالم الموضوعي المتباينة ، إلا أنها تنعكس بشكل « مُزاح » ومن اكثر جوانبها عمومية وجوهرية ـ بصفتها واقعاً موضوعياً •

ان المثل التالي يثبت حاجة النشاط العملي القصوى الى دراسة النفي الدياليكتيكي في التطور ، كتعبير عن التوالي المتوارث ، والصلات الداخلية بين النافي والمنفي• إن أمام المجتمع الذي بلغ مرحلة التحولات الاشتراكية تنتصب مهمة تكوين ثقافة جديدة اشتراكية • كان من الخطأ الفاحش افتراض تكوين الثقافة الجديدة بالتنكر العام للثقافة السابقة كلها • ومع هذا فقد كان لهذه النظرة الخاطئة من يدافع عنها • لقد أكد الاشتراكي الديموقراطي « شولياتيكوف » في كتابه « تبرير الراسمالية في فلسفة اوروبا الغربية » أن جميع فلاسفة القرنين ١٧ ، ١٨ ، يميلون فقط الى البرهنة على عدل النظام الراسمالي ، وأن نظراتهم لاتحتوي على اي عنصر من الحقيقة الموضوعية • واستنتج من هذا أن البروليتاريا لا شأن لها بهذه الثقافة ، وانه لايوجد ولا يمكن ان توجد اية علاقة ، أو توال ، بين الفلسفة القديمة والماركسية • لقد سخر لينين وغيره من الماركسيين من مثل هذه التصورات ، وغدت « الشولياتكيفنية » مرادفاً للمفهوم الساذج ، الفوضوي ، اللادياليكتيكي عن العلاقات بين القديم والجديد ، بين المنفي والنافي • وفي السنوات الأولى من عمر السلطة السوفييتية كان قادة حركة ما يسمى « بالثقافة البروليتارية » يصرخون أن الثقافة القديمة كلها ، إنما هي ثقافة المستثمرين • ويؤكدون أن على الثقافة البروليتارية أن تتكون بمعزل تام عن ثقافة الماضي العريقة في التطور • هذه النظرات الفوضوية وجدت انعكاسها في الفلسفة ، والأدب ، والموسيقى ، وغير ذلك من ميادين العلم والفن• كان اولئك الأدعياء ينعتون كتّاب الماضي العظام بالايديولوجين المخلصين للنبلاء والتجار ، دون ان يروا في فنهم عناصر المحتوى الانساني العام• هؤلاء الادعياء الذين استبدلوا التحليل الطبقي الماركسي لابداع هؤلاء الكتاب ، بالتحليل الذي يأخذ بعين الاعتبار منشأ الكاتب الاجتماعي ويحلل فنه على هذا الأساس ، قد أضروا بعزلهم الطبقة العاملة عن الارث الثقافي العظيم •

لقد دحض الحزب الشيوعي ، برئاسة لينين ، هذه الافكار عن الثقافة البروليتارية • وكشف لينين ، باستخدامه طريقة الدياليكتيك الماركسي ، عن قانونية تطور الثقافة الاشتراكية ، وأشار الى أن هذه الثقافة تنفي بحزم كل

المحتوى العابر الاستثماري في الثقافة القديمة، ولكنها، في الوقت نفسه، استمرار لتطور الثقافة السابق • ان الثقافة الاشتراكية تعيد النظر في تقدير ودراسة الثقافة القديمة ، بشكل انتقادي ، لتحفظ وتدعم كل ما هو ثمين ، تقدمي •

لقد نشأت الفلسفة الماركسية كنفي للفلسفة السابقة ، ولكنها ، بعد تغلبها على الخاطىء الذي لم يتحمل وطأة تجربة الزمن، احتفظت بكل ماتضمنته هذه الفلسفة السابقة من حقائق •

هذا الفهم لجوهر النفي الديالكتيكي هو هام أيضاً في النشاط اليومي• لا شك أن النقد هو نفي • ولكننا نحن نثلم حدة هذا السلاح ، ونضعفه لو فهمنا النقد كنفي مطلق للماضي • ان النقد هو نفي الدنف ، الخاطىء ، الرتيب ، وفي الوقت نفسه ، توطيد كل ما هو قيم ، ايجابي في الشيء القديم • ان النقد الحقيقي لاينفي اللامفيد فقط ، بل ويساعد على التحرر منه ، ويدل على طريق التقدم • وبتعبير آخر ، ان النقد كنفي ، ينبغي أن يكون موطداً أيضاً • موطداً لا بمعنى الاحتفاظ بالايجابي ، فقط ، بل وبمعنى الدلالة على طرق التغلب على النقائص •

ان الديالكتيك المادي يمنح النفي الاهمية الأولى ، ناظراً فيه شرط التطور ، والعامل المعبّر عن العلاقة القانونية بين مختلف درجات التطور •وهذا ما يسمح بحل قضية الاتجاه الاساسي للتطور ، في الطبيعة، والمجتمع، والتفكير، حلاً صحيحاً • ولننتقل الآن الى بحث هذه القضية •

٢ : ـ الطابع التصاعدي للتطور وأشكاله

ان تحليل الدور الذي يلعبه النفي يؤدي الى استنتاج التطور التقدمي للواقع ، تطوراً تصاعدياً • وفي الحقيقة اذا كانت طبيعة النفي الديالكتيكي هي هذه ، وان النفي لايقضي على القديم ، بل يزيحه ، محافظاً على الشيء الايجابي ، فمن الواضح أن الدرجة الجديدة تأتي بامكانيات كبيرة للتطور ، أكبر من إمكانيات الدرجة السابقة • ان التطور التصاعدي هو نتيجة حتمية

لقضية ان كل نفي جديد يمتص في نفسه كل ما تم التوصل اليه سابقاً ويجعل منه اساساً للحركة المقبلة • لذلك فكل درجة جديدة ، كل سيكل جديد للتطور لايكرر الحلقة القديمة بل يمثل حلقة جديدة ، تعلو القديم، وتستخدم القديم المكتسب من قبل التطور السابق ، كوسيلة للتطور التالي •

وهكذا فان اسلوب الانتاج الراسمالي ، بدأ تطوره باستخدام الاساس التكنيكي الذي ورثه عن الاقطاعية • واستناداً الى هذا الاساس ، خطت الراسمالية خطوات جبارة الى الامام ، فنشأت صناعة آلية ضخمة ذات تكنيك عالي التطور •

كما ان الاشتراكية تحتل بالضرورة ، وبشكل قانوني مكان الراسمالية • فعندما تنفي الاشتراكية الراسمالية ، انما تعتمد على اساس تكنيكي أرفع من الاساس الذي استندت اليه الراسمالية في حينها • فلم يعد الانتاج الحرفي الآن نقطة انطلاق التطور ، بل الصناعة الآلية الضخمة • ان الاشتراكية اذ تحافظ على ما حققه النظام الراسمالي من تقدم تكنيكي ، وتستخدم افضليتها على الراسمالية ، تحوز ٣ الامكانات لدفع الانتاج الى الامام ، دفعاً سريعاً جداً • واذا لجأنا الى المجاز قلنا ان الانسانية تكتسب من الماضي لا رماداً بل ناراً ، تبعث الحياة ، وتسمح بالسمو الى الاعلى • ففي الادوات الاولية التي حضرها الانسان البدائي ، كانت تكمن امكانيات التطور التالي لادوات الانتاج • ومن هذه الادوات الاولية استطاعت الحركة ان تنطلق الى الأمام فقط • ولا يمكن للحركة ان تعود بالانسانية الى العصر الحجري منطقة من الآلات الحديثة •

وهكذا فان الطبيعة الديالكتيكية للنفي ، ودوره الهام في التطور يوضحان لنا سبب الحركة التصاعدية ، السائرة الى الامام ، والتطور من الأدنى الى الاعلى ومن البسيط الى المركب •

من الممكن طرح السؤال التالي : لماذا يسمى هذا القانون الذي ندرسه بقانون نفي النفي ؟ او لايمكن الاكتفاء بمفهوم النفي وحده ؟ أولا نعقد ، بشكل مصطنع ، صورة التطور عندما نعرض مفهوم النفي المزدوج ، نفي النفي ؟ جوابنا هو أن التطور الموضوعي ذاته ، يحتوي على هذا النفي المزدوج ،

ومفهوم « نفي النفي » يعكس فقط العمليات التي تتم بشكل مستقل عن وعينا .

لقد رأينا ان ما يبرز بصفة النفي ، يتبدل بدوره ، مع الزمن ، ويتحول الى نوعية جديدة اي ينفي نفسه . وهذه السلسلة من النفي لانهائية . وانه لمن الخطأ الظن بأن هذا التطور يجري بشكل سلس وبدون تناقضات . الواقع ، ان التطور التصاعدي السائر الى الامام ، عن طريق النفي ، يتم بشكل تناقضي، وان جوهر نفي النفي ، او ضرورة النفي المزدوج في كل سيكل تطوري على حدة ، ينتج عن الطابع التناقضي للتطور بالذات وعن مفعول قانون وحدة وصراع المتناقضات .

ولتوضيح ذلك نتصور نزاعاً بين طرفين حول قضية علمية ما.ان الطرف الاول يقدم فكرة معينة (نظرية) والطرف الثاني يقدم نفي هذه الفكرة (ضد النظرية) . ان كلاً من الطرفين المتعارضين يمكن أن يصيب بعض الحقيقة ، ولكنهما يعارض أحدهما الآخر من جانب واحد ويقف أحدهما من الآخر بصفته نافياً له . وتنشب بين الطرفين معركة فكرية تنتهي بظهور فكرة جديدة تنفي الفكرتين السابقتين المتصارعتين فيما بينهما . ولكنها عندما تنفيهما وتنهي الخلاف الناشب بينهما لا تنبذ تلك العناصر من الحقيقة التي كانت متمثلة في كل منهما من جانب واحد ، بل تضمها إلى بعض وتصبح بهذا « مركباً »يستفيد من الجوانب الايجابية في تطور الجدال الذي كان ناشباً . ولكن لا ينبغي فهم هذا « المركب » على أنه مزج ميكانيكي لما كان في السابقموجوداً بشكلمجزأ، ولا على أنه ربط خارجي بين متضادين . وإنما يجب فهمه على أنه درجة جديدة تماماً في سلم التطور . وعلى هذه الدرجة الجديدة يتم ، بفضل صراع الأضداد ، التغلب على وحدة الجانب التي كانت تسم كلاً من الدرجتين السابقتين ، ويتم الوصول إلى الحقيقة العليا التي تحتفظ بكل الايجابي الذي كان في السابق ، ويختفي في الوقت نفسه عنصر الخطأ المؤقت المعارض للحقيقة . إن هذه الدرجة الجديدة بالذات هي ما نسميه نفي النفي ،وبالتالي فان نفي النفي هو النتيجة القانونية لحل صراع الأضداد .

لقد أوردنا كمثل جدالاً (صراعاً بين رأيين متعارضين) ينتهي بالتوصل إلى الحقيقة • وتاريخ العلم ملىء بأمثلة من هذا النوع ، تبين حركـة المعـارف الانسانية نحو الحقيقة الموضوعية •

ففي القرن السابع عشر سادت نظرية تؤكد أن الضوء يتكون من جزئيات صغيرة جداً تنتشر وفق قوانين حركة الجزئيات • وفي هذه الفترة نفسها ظهرت نظرية تقول بأن للضوء طبيعة تموجية وهو ينتشر وفق قوانين التموج • وقد وجدت هذه النظرية دعماً قوياً لها في أعمال «فرنيل» و «يونغ» في القرن التاسع عشر • وبدا آنذاك أن النظرية الثانية قد انتصرت على الأولى في هذا الصراع • ولكن العلم في القرن العشرين اكتشف الطبيعة الكونتية للضوء وبرهن عليها • وقد ظهر أن انكسار الضوء وحركاته الاهتزازية تشهد على طبيعته التموجية أما تأثيره في التصوير الكهربائي ومفعوله الكيميائي وغير هذا من الصفات فتدل على أن الضوء يتصف في الوقت نفسه بصفات الجزئيات •

وهكذا عمدت النظرية الحديثة للضوء ، بصفتها نفيـاً للنفي ، إلى جمع وتركيب العناصر الايجابية في النظريتين السابقتين وحررتهما من وحدة الجانب • وإلى جانب ذلك فإن هذه النظرية ، باعتبارها درجة عليا وحصيلة قيّمة ، كان يتعذر التوصل إليها لو انعدمت الصلة بينها وبين النظريتين السابقتين ولو لم يجر الاعتماد عليهما واستخدامهما •

ان التطور في كل مكان يحدث على النحو التالي : كل درجة عليا من دورة التطور هذه او تلك ، تبرز كتركيب للحركة السابقة كلها • وهذا يمكن اظهاره بالمثل التالي من تاريخ المجتمع ، فقبل عهد المانيفاكتورة والانتاج الآلي، كان العامل المنفرد يقوم بجميع أو قرابة جميع عمليات المنتوج الذي يعده • فكان المنتج ، بهذا المعنى ، كعامل عمومي ينفذ كامل عملية انتاج منتوج معين • أما في المانيفاكتورة ، وفي الصناعة الآلية خاصة ، فقد جزئت عمليـة الانتـاج الى عدد من العمليات المنفصلة ، وأصبح كل عامل ينفذ فقط قسماً من العملية الكلية • فالعامل العمومي « نُفي » من قبـل الشـغيل الذي ارتبط بعمليـة

جزئية • وفي ظروف الاشتراكية ، وخاصة الشيوعية ، وبفضل أتمتة الانتاج نشأ شغيل من نوع جديد ، شغيل لايقوم بتنفيذ عمليات جزئية (وهي ما يقوم به الميكانيك) ، بل يدير العملية الانتاجية كلها ، أو قسماً هاماً منها • فأصبح العامل من جديد ، بالمعنى المعروف ، عاملاً متطوراً من نواح عديدة ، يستطيع القيام بعدد من المهن المتقاربة، وملماً بعملية الانتاج كلها • ولهذا فهو ملزم أن يكون اختصاصيا ماهراً في ميدان معين • هذه الدرجة الجديدة التي تبدو نفي النفي ، تبرز تحت شكل تركيب للتطور السابق كله ، متغلباً على الاقتصار على تطوير جانب واحد ، وجامع للنواحي الثمينة الكائنة في الدرجتين السابقتين : عمومية العامل القديم ، والمستوى التكنيكي الرفيع في الانتاج الجديد • هذه الأمثلة المضروبة تبين لنا لماذا لا يتم تطور هذه العملية الحسية أو تلك ، في النفي الأول ، بل يتطلب ذلك التطور ، بدوره ، نفي هذا النفي • القديم يُنفى بالجديد ، والجديد يَنفي القديم ، هذا هو جوهر التضاد• ويلازم كلاً من هذين المتضادين تلك العناصر والخصائص التي لايمكن فقدانها في التطور التالي ، وتلك التي تختفي ويقضى عليها • هذا المتضادان يبرزان كما لو أنهما وحيدا الجانب ، يختفيان في التطور التالي • وهو امر يحدث في درجة نفي النفي •

وهكذا فالتطور يمر في درجة تثبت وجود الظاهرة ، ثم في درجة نفيها ، وأخيراً في درجة نفي النفي • وبفضل ما « يتجمع » ، ما يُهضم ، ما يصقل في هذه الدرجة العليا من ثمين احتوته الدرجتان الاوليان ، وبفضل ما يختفي ، ما يقضى عليه من العناصر التي فات زمانها في تلك الدرجتين ، فان التطور بمجموعه يسير في خط صاعد ، من البسيط الى المعقد ، من الأدنى الى الاعلى • لهذا يتمتع قانون نفي النفي بأهمية عظمى في توضيح الاتجاه الأساسي في التطور •

ان الاتجاه الاساسي للحركة الصاعدة يتبدى بسهولة حتى لدى القاء نظرة خاطفة على تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير • لقد تبدى أثر هذا الاتجاه في الطبيعة ، في الانتقال من الطبيعة اللاعضوية الى الطبيعة العضوية • هذا مع

العلم أن لكل من ناحيتي الطبيعة هاتين ، درجات تطورها•وكل درجة هي اكثر تعقيداً وارفع مما سبقتها • وهو امر نراه بسطوع واضح في الطبيعة العضوية • فطريق تطور المادة العضوية هو الانتقال من ابسط اشكال العضوية وأدناها الى أكثرها تعقيداً ، ورفعه ، من وحيدات الخلية الى كثيراتها ، من أدنى أشكال النباتات والحيوانات الى أرفعها واكثرها تعقيداً •

ونرى في المجتمع أن كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية جديدة هي عبارة عن درجة تطور اعلى • وعملية الصعود من الأدنى الى الاعلى لاتشمل البنيان الاجتماعي بمجموعه فقط ، بل وتشمل كل ناحية منفصلة من نواحي المجتمع: مثل : التكنيك ، الانتاج ، العلم ، الفن ، حياة الناس ••• ان طريق تطور المعرفة هو الانتقال من التصورات الاولية البسيطة المحشوة كثيراً بالاوهام ، عن العالم ، الى الذرى المشرقة التي توصلنا إليها بفضل العلم الحديث •

في كل مكان ، وفي أي ميدان طرقناه ، نرى الاتجاه الاساسي ذاته ،نرى التطور وفق خط صاعد • وواضح أن هذا هو نتيجةعمل الديالكتيك الموضوعي للتطور • ان الحركة الصاعدة هي عملية معقدة لايمكن فهمها ببساطة•فالتطور الصاعد في الطبيعة والمجتمع يتحقق ، على أرضنا ، في كتلة من الأشكال والظواهر التي يستبدل بعضها بعضاً ، وكل منها عابر غير ثابت • ولا ينبغي أن نفهم أمر التطور على ان كل شكل من أشكال النبات او الحيوان يتطور دائماً وفق خط صاعد • ان العالم العضوي يتطو ر من حيث المجموع تطوراً صاعداً، بعض الاشكال تنشأ وبعضها يموت ؛ بعضها يتحول الى بعض آخر • ومقدرة بعض الأشكال العضوية على التلاؤم مع شروط الحياة المتبدلة تقترن بعدم المقدرة على التلاؤم عند الأشكال الاخرى ، مما يؤدي الى موتها• وفي الحياة الاجتماعية تستبدل التشكيلات والانظمة الاجتماعية التي فات أوانها ، بتشكيلات وانظمة جديدة • ونتيجة لجوهر النفي الدياليكتيكي يستبدل التطور الصاعد للأشياء المستقلة ، قانونياً ، بتطور هابط ، لأن الأشياء بتطورها الخاص، تحضر شروط نفيها • إن نمو ، وتطور بعضها ترافقه ، تحت شكل نقيضه ، شيخوخة، ودنف الآخر •

إن بعض اجزاء خط التطور ، في اتجاه الحركة التقدمي العام ، يمكن أن تتوجه لا الى الأمام ، بل الى الوراء ؛ يمكن ان تعبر عن فترات الحركة الراجعة ، عن التأخر • ففي المجتمع مثلاً لاتظفر القوى الطليعية الجديدة دفعة واحدة • فكثيراً ما تفشل أمام قوى القديم التيتكون اكثر قوة منالجديد الناشيء • من هنا كانت حتمية التعرجات في التطور ، والتراجع الموقت • كان لينين يحب تكرار كلمة تشيرنيشفسكي « ليس التاريخ رصيف شارع نهر النيفا ، على ما هو عليه من سعة، واستواء واستقامة»• ففي المجتمع يدور صراع بين الطبقات والاحزاب المتناحرة ، وسير هذا الصراع متعلق بنسبة القوى • ففي ثورة ١٩٠٥ في روسيا ، بدت نسبة القوى في غير صالح العمال والفلاحين ففشلوا • إلا أن كل تعرج في السير العام المتطور ، له طابع العرضية،والنسبية، لأن القوى الطليعية تتمرس في الاندحار، وتتوطد، ولابد لها في مراحلجديدة من النضال ، من ان تحوز الغلبة ، وتحقق النصر • لهذا فالخط الأساسي للتطور الصاعد ، الذي يتميز بأهميته المطلقة المستمرة ، لا النسبية الموقتة ، يعبد طريقه عبر تحولات النضال المعقدة ، بين القديم والجديد، عبر جميعالفجوات والانعطافات • ان العمال والفلاحين الذين انخذلوا في عام ١٩٠٥ ، ظفروا في عام ١٩١٧ •

كل خطوة من خطى التقدم في المجتمع التناحري تكلف ضحايا انسانية• فالطبقات المستثمِرة تستخدم التقدم التكنيكي لا لتخفيف اعباء العمل ، بل لاضطهاد الشغيلة • ان المنجزات العلمية العظيمة ، كالطاقة الذرية ، مثلاً لاتستخدمها تلك الطبقات في الاهداف السلمية ، بقدر استخدامها لها في تحضير الحروب •• والفلاسفة وعلماء الاجتماع البرجوازيون ، إذ يرون هذه السمة التناقضية للتطور ،ينفون التقدم •

وكمثال على هذا نسوق القول التالي للاستاذ في جامعة شيكاغو اناتول رابوبورت:«بالرغم من أن التقدم التكنولوجي قد أصبح أمراً مدعوماً بالبراهين (من حيث كمية الكيلووات التي يستهلكها الفرد) وبالرغم من أن البحث الطبي المنظم يتغلب على الكثير من الأمراض،وبالرغم من انتشارالتعليم•••فهل

أحرزنا شيئاً ما ؟ وإذا كان جوابنا : نعم ، فسنسأل : في أي مضمار ؟ من الطبيعي أن نشك في قيمة الأبحاث فيما يفوق سرعة الصوت إذا كانت هذه الأبحاث تؤدي بنا الى اختراع صواريخ ذرية • ولنا الحق في أن نشك بقيمة الكميات الهائلة من المطبوعات ، إذا كان الشباب الأمريكي لا يقرأ سوى المؤلفات الكوميدية ! وباختصار أقول انه إذا لم يكن هناك شك في أن التغييرات التي أحدثها التقدم التكنولوجي هي تغييرات ثابتة ، عندئذ سيبرز سؤال هام وهو : هل هذه التغييرات مرغوب بها أم لا ؟

مثل هذه الآراء عن التقدم تقوم على اساس عدم فهم أن بدون امثال هذه التناقضات لايمكن ان تتم حركة الى الامام في المجتمع المقسم الى طبقات متناحرة• انوجود التناقضات لايمكن ان يكون دحضاً للتقدم ،دحضاً للحركة الصاعدة بل تبغي دراسة كل تعقيد التقدم ، والنضال ضدالقوى الرجعية،نصيرةالتأخر •

ويعرض الفلاسفة البراجوزيون برهاناً آخر ضد النظرية الدياليكتيكية عن الطابع التصاعدي للتطور • فهم يقولون بأن كرتنا الأرضية لن تكون دائماً مكاناً آهلاً للحياة • وأن التقدم لن يكون فيها بشكل أبدي • إلا أن هذا البرهان الغريب لم يصب الهدف • فالكواكب التي نشأت فيها الشروط الملائمة لتمايز المادة ، وظهور الكائنات الحية ، بما فيها الانسان المفكر ، في مدى بلايين السنين ، أو مدى كون لا نهاية له ، هي كأي شكل مستقل من أشكال وجود المادة ، عابرة • الا أنه اذا كانت الكواكب المستقلة ذات نهاية ، وتتحطم مع جميع ما عليها من عظيم الاشكال المادية المتطورة ، فان المادة وقوانين تطورها لن تفنى ، وبالتالي ، لن تفنى مقدرة المادة على التمايز ، مقدرتها في اي مكان آخر، من كوكب آخر ، على تجديد جميع أشكالها المتعددة ، بما فيها الشكل العلوي لظهور الحياة • يقول انجلز « إن المادة تبقى ، في جميع تحولاتها ، خالدة بذاتها • واذا كانت قوضت على الأرض لضرورة قصوى ، وفي وقت ما ، زهرتها الفواحة ، النفس المفكرة ، فسيتوجب عليها ، أن تلد هذه النفس من جديد ، في مكان آخر ، وفي زمن آخر » •

ولنر الآن قضية أشكال التطور الصاعد • فالحركة المتنقلة من الأدنى الى الأعلى ، من البسيط الى المركب ، يمكن تصورها بوضوح لا في شكل خط مستقيم ، او دائرة ، بل في شكل حلزون • ومفهوم « نفي النفي » يعكس هذا الشكل الحلزوني للتطور • ان الوقائع العديدة ، المأخوذة من تاريخ الطبيعة ، والمجتمع والتفكير ، تدل على ان التطور يتضمن ، عادة ، عامل العودة الى نقطة الانطلاق ، ولكن على درجة أعلى ، اي العودة على اساس جديد أعلى من قبل• هذا هو شكل التطور ، المشابه للحلزون : فنهاية كل حلقةمن حلقاتالحلزون تلتصق بالبداءة ، ولكن في حدود لا الحلقة القديمة، بلالحلقة الجديدةالقائمة فوق القديمة • ان الدرجة العليا في التطور التي تبرز تحت شكل نفي النفي ، تتم دورة التطور ، صغرت ام كبرت • ويبدو في كثير من الظروف ، ان نقطة التطور العليا تظهر وكأنها عودة الى بدء نقطة انطلاق التطور ، ولكنها عودة على أساس أعلى •

لنوضح هذا بأمثلة • لقد أبان ماركس في « رسماله » أن شكل الملكية الراسمالي إنما نشأ نتيجة تجريد جماهير المنتجين الصغار الذين كانوا يؤمنون لأنفسهم وسائل معيشتهم ، بمساعدة وسائلالانتاجالموجودةفيحوزتهم،من هذه الوسائل• فالملكيةالراسماليةالضخمةكانت نفياً للملكيةالصغيرة•الا أنالراسمالية بدورها ، تُنتفى من قبل الشكل الاشتراكي ، الشكل الاعلىللملكية• «فيجُرد المستثمرون من ملكيتهم لوسائل الانتاج » • هذا هو نفي النفي • فالتطور يتبدى كما لو أنه يعود الى نقطة الانطلاق ، ولكنه عملياً يعود على أساسأعلى• كما أن المنتجين المباشرين ، اي الشغيلة ، يصبحون من جديد مالكين لوسائل الانتاج ، ولكن لا في شكل فردي للتملك ، بل في شكل ملكيةجماعية •وهكذا فنفي النفي لايعيد نقطة الانطلاق بكل بساطة ، بل يكدس ، « يركب » جميع منجزات الدرجات السابقة للتطور ، مجدداً ، في الدرجة العليا من الدورة ، بعض سمات الدرجة الأولى •

ويتبدى الشكل الحلزوني للتطور الصاعد في تاريخ التفكير ايضاً • فالفلسفة القديمة بدأت بالمادية المتشربة بالديالكتيك العفوي • ثم فيما بعد ،

وخاصة في القرنين ١٧ ، ١٨ سادت طريقة التفكير الميتافيزيكية • كانت المادية الميتافيزيكية نفياً لطريقة الماديين القدامى الدياليكتيكية في معالجة الطبيعة • وفي منتصف القرن التاسع عشر ، نشأت المادية الدياليكتية التي كانت نفياً للنفي • كانت هذه المادية كأنها أنهت سلسلة القرون العديدة من تطور الفلسفة في النقطة ذاتها التي بدأتها هذه الأخيرة ، ولكن على أساس أعلى بشكل لا يقارن •

هذا الشكل ذاته من التطور غالباً ما يشاهد في الطبيعة، ولا سيما في الطبيعة العضوية • فمن البذار ، مثلاً ، تنبت نبتة تعطي بذاراً من جديد • وهذا ، في دورة حياتية جديدة ، ينبت نبة جديدة ليست مجرد تكرار للسابقة، بل تنطوي على تبدلات حصلت عليها في عملية تلاؤمها مع الوسط المتبدل •

ثم إن العديد من الوقائع المستقاة من ميادين مختلفة من الطبيعة والمجتمع والتفكير ، تشير الى أن التطور في درجته العليا يتضمن عامل الرجوع الى نقطة الانطلاق ، ولكن على اساس جديد ارفع • هذه الوقائع تقول بأن مثل هذا الشكل من التطور ليس عفوياً ، بل وثيق الارتباط بجوهر العملية التي نسميها نحن نفي النفي • صحيح أن النفي الثاني عندما « يزيح » ، عندما ينفي الأول تتجدد ، بهذا ذاته ، قانونياً ، بعض السمات ، بعض خصائص الحال الانطلاقية ، هذه الخصائص التي ينفيها النفي الأول • وبتعبير آخر ان النفي المزدوج يثبِّت ، أي يجدد ، على أساس جديد أعلى ، بعض سمات فترة انطلاق التطور • هنا ينبغي أن نشير مرة أخرى الى أن العودة الى القديم ينبغي ان نفهمها لا كتجديد حرفي لما كان حدث بل فقط كاعادة لبعض خصائص ، ونواحي القديم • انها ، حسب تعبير لينين ، « عودة الى ما يزعم انه قديم» ، أي «عودة» تنفذ فيها الحركة لا الى الوراء ، الى الدرجات التي مضت وفات زمانها ، بل الى الامام ، إلى أشكال جديدة أعلى ، تكثف في ذاتها كل ما هو ثمين ، وايجابي في الشيء السابق •

بيد انه قد يكون من الخطأ النظر الى « المراحل الثلاث » ، كمخطط سابق للتجربة ، ترتبط به جميع العمليات • فتطور شيء ما يمكن ان يمر، وغالباً

ما يمر ، لا عبر ثلاث درجات ، بل عبر اكثر او اقل • وفي بعض العمليات تلاحظ بكل وضوح العودة الى شكل الانطلاق على اساس جديد ارفع ، في حين يتم هذا الامر ، في عمليات اخرى ، بوضوح أقل ، جزئياً فقط •

ان قانون نفي النفي ، كأي قانون ديالكتيكي آخر، يشير فقط الى الاتجاه الاعم في التطور • وهو ، كأي قانون ، يتبدل ، ويغير شكله عند التنفيذ، حسب طبيعة الشيء والشروط التي يتم فيها تطور هذا الشيء • وقد نبه انجلز بشكل خاص قائلا بأن طريقة النفي « تتعلق بالطبيعة الخاصة بكل ظرف على حدة »•

لقد سخر انجلز ولينين من اولئك الذين يتهمون الماركسية وكأنها تشير الى حتمية موت الراسمالية وظفر الاشتراكية بالاعتماد على نفي النفي ، و « المراحل الثلاث » [1] • ان ماركس محّص في جبال الوقائع ، واكتشف قوانين تطور الرأسمالية ، ولم يتوصل الى نتيجة القاضية بحتمية موت الراسمالية ، وظفر الاشتراكية ، الا على اساس العمليات الموضوعية • ولم يكن الديالكتيك ، بما فيه قانون نفي النفي ، الا طريقة تمحيص تلك الوقائع •

ان معرفة القوانين الديالكتيكية العامة للتطور ،ومقولات الديالكتيك ، تسلحنا بطريقة علمية ، هي مقدمة الطريقة الصحيحة لمعرفة الواقع ، سواء في دراسته او في النشاط العملي • فعندما نعرف قوانين الديالكتيك ومقولاته ، ونسير حسبها ، فلابد لنا عند حل مختلف المهمات العملية من ان نجد ، ونضع، الأشكال الخاصة التي تعكس عمل القوانين العامة ، في كل ظاهرة ، وعملية ، وحادث ، على حدة ، وفي مختلف الشروط التاريخية •

في هذا تستقر الاهمية العظمى لاسلوب التفكير الديالكتيكي ، الذي يسمح ، حسب اقوال لينين ، باقامة العلاقة مع مهمات العصر العملية المعينة ، التي يمكن ان تتبدل عند كل انعطاف تاريخي جديد •

ان قانون نفي النفي يتمتع بخصائص معينة في ظروف المجتمع

---

(١) « الثلاثية » تعني التطور حسب المخطط التالي : النظرية ، ضد النظرية ، التركيب •

الاشتراكي .

ويمكن القول بأن طابع النفي الدياليكتيكي، الايجابي الخلاق يجد في المجتمع الاشتراكي ، أسطع واتم انعكاس . ففي هذه الظروف الجديدة يحقق المجتمع بشكل واع «النفي» الضروري الناضج تاريخياً

إن المجتمع الاشتراكي يتطور منهجياً ، تسيره معرفة القوانين الاجتماعية. وهو ينفذ هذا النوع من النفي الذي لايسمح للاشكال البالية أن تعيق الحركة . والحزب الشيوعي ، القوة المحركة للمجتمع الاشتراكي ، يجمع بشكل واع ، وحكيم ، لدى كل مرحلة من مراحل التطور ، بين الاشكال الجديدة ، وبين الاشكال الاخرى القيمة التي برزت في المراحل السابقة .

والحزب الشيوعي الذي يعتقد بأن التطور هو عبارة عن عملية يلعب فيها عنصر النفي دوراً هاماً ، يعتني فائق العناية ببراعم الجديد التي ولدت في طيات القديم ، هذه البراعم التي هي ملك المستقبل . اما في المجتمع البرجوازي فالأمر على العكس . فبراعم ، فعناصر النظام الجديد ، تسحق من قبل الطبقة السائدة ، وتوضع العوائق أمام نموها ، ولا يفتح الطريق ، واسعاً امام تطورها الا تصفية ديكتاتورية البرجوازية .

والحزب ، في برنامجه الجديد ، يعالج بدقة قضية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، كعملية نفي ديالكتيكي ، بجملة من الاشكال والمبادىء التي لابد لها ان تشيخ ، وتهرم على اسس التطور الرفيع للقوى المنتجة. مثل هذا النفي، يتعرض له بشكل قانوني، في مرحلة انتصار الشيوعية الكامل، المبدأ الاشتراكي القائل بالتوزيع حسب العمل ، واشكال الادارة الحكومية ... وميزة عملية النفي هذه تتبدى في أن التطور لايتم عن طريق التحطيم ، بل ، على العكس ، عن طريق الاستخدام الاكمل لأشكال الحياة الاشتراكية ، مما يؤدي الى تنفيذ

« نفي » الماضي ، حسب نضوج مقدمات وشروط الانتقال الى الاشكال الشيوعية الجديدة للحياة ، في المراحل والدرجات المتوالية •

ان المجتمع الشيوعي ذاته ، يبرز كمرحلة عليا لتطور الانسانية العالمي السابق ، جامعاً في نفسه كل ما خلقته الشعوب في الماضي من عظيم وثمين • الا أن المجتمع الشيوعي الذي خلقه الشعب السوفييتي هو مجتمع أرفع تطور مادي وفكري ، مجتمع وفرة الخيرات المادية والروحية ، مجتمع التطور المتناسق لجميع الامكانيات والكفاءات الانسانية •

وهكذا ، فقانون نفي النفي ، هو القانون الذي تتحدد بفعله العلاقات والتوالي ، بين المنفي والنافي ، وبنتيجة ذلك ، يبرز النفي الديالكتيكي لا كنفي مجرد ، لا فائدة منه ، ينبذ كل تطور سابق ، بل كشرط تطور يبقي ويحفظ في نفسه كل ما هو ايجابي في المراحل السابقة ، مكرر ، على أساس أرفع ، بعض سمات المراحل الانطلاقية ، ويتمتع من حيث المجموع بطابع تقدمي •

وقانون نفي النفي ، شأنه شأن قوانين الديالكتيك المبحوثة قبلاً ، هو احد اهم قوانين الوجود وعملية المعرفة ذاتها • والامر المهم هنا هو أن عامل النفي الديالكتيكي ، كنفي مرفق بالتمسك بالايجابي ، كشروط التطور التقدمي لتعارف الانسانية ، يتبدى بقوة عظيمة في حركة المعرفة ، ومنطقها • ويورد لينين باستحسان في « الدفاتر الشيوعية » نبذة من « علم المنطق » لهيغل ، بدت فيها بكل وضوح أهمية النفي الديالكتيكي في سير المعرفة • يقول هيغل ان كل خطوة جديدة في المعرفة مرتبطة بالمراحل السابقة • وفي كل درجة من درجات التحديد التالي ، يرفع الشيء العام الجامع محتواه السابق كله الى اعلى ، وهو ، اذ لا يفقد شيئاً بفضل حركته الديالكتيكية التقدمية (حركة المعرفة - المعرب) ولا يخلف شيأ وراءه ، إنما يحمل معه كل ما اكتسبه ، ويغتني ، ويتراص في داخله » •

هذا هو قانون العملية التاريخية لتطور التفكير ، والعملية الفردية للمعرفة •

ان الحقائق العلمية ، تغتني اكثر فأكثر ، و « تتكثف » ، والمعرفة تسير الى السيطرة على الحقيقة بشكل أعمق ، نتيجة هذا القانون بالذات •

ثم إن عملية المعرفة تبين أيضاً ، بوضوح ساطع ، الناحية الأخرى من قانون نفي النفي ، القائلة بأن التطور يتم على شكل حلقة، مع ما يحدث في أعلى نقطة من كل حلقة جديدة ما يدعى انه عود على بدء ، ولكن على اساس اكثر رفعة • فمثلاً ان معرفة الانسان للاشياء تنتقل من الحس المجسد الى المجرد ، ومن هذا يعود من جديد الى المجسد ، ولكن في مفهومه الأعمق الحادث نتيجة عملية التجريد العلمية •

وهاكم مثلاً آخر • إن النشاط العملي يبرز كبدء ، كنقطة انطلاق للنظرية • والنظرية تجيب على اسئلة ومتطلبات النشاط العملي • الا ان النظرية الحادثة على اساس النشاط العملي تتجه مجدداً الى النشاط العملي • وهذا النشاط وحده هو القادر على تبيان حقيقة النظرية • وفي نشاط الناس العملي وحده تتحقق منجزات النظرية • ان تطور المعرفة تنتقل من النشاط العملي الى النظرية ، ومن النظرية الى النشاط العملي مجدداً ، ولكن بعد ان يغتني هذا النشاط بالمعرفة النظرية للواقع • فنهاية دورة واحدة ــ النشاط العملي ــ هي في الوقت ذاته بدء دورة جديدة في تطور المعرفة • والدورة الجديدة تتألف من الحلقات ذاتها الا انها ستكون الحلقة الأعلى من الحلزون •

هذا القضايا ستعالج في الفصل التالي بشكل خاص •

الفصل التاسع

ديالكتيك عمليّة المعرفة

كما سبق وذكرنا في الفصول السابقة ، فان قوانين ومفاهيم الديالكتيك ليست فقط قوانين تطور الواقع وانما هي ايضاً قوانين تطور التفكير والمعرفة . ان عملية المعرفة الموضوعية العلمية هي ايضاً عملية ديالكتيكية كالواقع الموضوعي ذاتــه .

وهذا الفصل مكرس للمسائل الاساسية في ديالكتيك عمليــة المعرفــة . وهو يبحث العلاقات الديالكتيكية المتبادلة ومنطق ونظريــة المعرفــة ، وعلاقة الحسي بالعقلاني في المعرفة ودور التجريد وقضية الحقيقة ومقاييسها . ان كل هذا يتمم ويعمق محتوى النظرية الديالكتيكية للتطور .

١ ـ الديالكتيك كنظرية للمعرفة

المنطق الديالكتيكي والمنطق الشكلي

ان المعرفة انعكاس للواقع . وهي عملية ديالكتيكية معقدة ينفذ فيها العقل الى جوهر الاشياء . وتتم المعرفة من خلال نشوء التناقضات وحلها وتحمل طابعاً فعالاً خلاقاً . فهي اذ تكشف قانونيات العالم الموضوعي تدل على طريق تكوينه وتبديله .

ان الديالكتيك المادي ، بحكم كونه علماً عن التفكير ايضــاً ، يدرس موضوعه تاريخياً فيكشف عن منشأ وتطور المعرفة . كتب لينين يقول: « في نظرية المعرفة ، كما في كل مجالات العلم الاخرى يجب ان نفكر تفكيراً ديالكتيكياً ،

اي يجب الا تفترض ان معرفتنا جاهزة ولا تتبدل بل ان ندرس الطرق التي نشأت بها المعرفة من اللا معرفة ، وبأي شكل تصبح المعرفة غير التامة وغير الدقيقة معرفة اكثر كمالاً واكثر دقة »[1] .

لقد درس الكثيرون من مفكري الماضي المعرفة واشكالها دون ان يربطوا بينها وبين توضيح محتواها الموضوعي. وافترضوا ان قوانين التفكير لاتمت بصلة إلى قوانين الواقع ذاته . وكمثال على ذلك يمكن أن نأخذ نظرية المعرفة عند « كانت » الذي حاول ان يحلل معرفة الانسان واشكالها قبل عملية المعرفة الحقيقية وعلى غير ارتباط بها. وعلل «كانت» ان المهمة الأساسية لنظرية المعرفة هو تفسير الظروف والاشكال القبلانية للمعرفة . وقد فصل بين اشكال التفكير ومحتواها الموضوعي .

ان من غير الممكن فهم القوانين الواقعية للمعرفة الا عندما نحلل المحتوى الموضوعي للمعرفة . وقد اعتبر هيجل اشكال التفكير اشكالاً لمحتوى حي واقعي مرتبط بالعالم الموضوعي . وهذا صحيح . ولكن فلسفة هيجل لاتقول بان قوانين واشكال التفكير تعكس قوانين الطبيعة وانما ، بالعكس، قوانين الطبيعة هي النسخة الشاحبة لقوانين تطور الروح .

وتنطلق الفلسفة الماركسية من ان ما يسمى بالديالكتيك الذاتي (تطور تفكيرنا) هو انعكاس للديالكتيك الموضوعي (تطور ظواهر العالم المادي): يقول انجلز : « ... ان قوانين التفكير وقوانين الطبيعة ينطبق بعضها على بعض اذا كانت معروفة معرفة صحيحة »[2] . ان وحدة قوانين التفكير وقوانين الواقع لاتعني عدم وجود فارق بينها . انها قوانين واحدة من حيث المحتوى فحسب ، ولكنها مختلفة من حيث اشكال وجودها. فقوانين الواقع موجودة وجوداً موضوعياً، اما القوانين الاخرى فموجودة في وعي الانسان كانعكاس للاولى. يقول لينين: «ان قوانين المنطق هي نتاج انعكاس ما هو موضوعي في وعي الانسان الذاتي »[3].

---

(١) ف. اي. لينين المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ٩١ .
(٢) ف. انجلز. ديالكتيك الطبيعة . الصفحة ١٧٨ .
(٣) ف. ي. لينين . الدفاتر الفلسفية ، الصفحة ١٥٨ .

وبما ان قوانين الطبيعة وقوانين التفكير واحدة بمحتواها ، فان الديالكتيك كعلم عميق وشامل عن التطور ، يشمل نظرية المعرفة والمنطق اللذين يدرسان قوانين تطور التفكير والمعرفة .

ان قدرة المعرفة الانسانية تحمل طابعاً تاريخياً وترتبط بتطور الانسان وجهاز تفكيره ـ الدماغ . وفي تكون وتطور القدرة على التفكير كنشاط مميز للانسان لعب المجتمع دوراً حاسماً . ان لعملية المعرفة طابعاً اجتماعياً تاريخياً وتتطور تبعاً لتطور المجتمع . والهدف الاخير للمعرفة هو ارضـاء الاحتياجات الاجتماعية العملية الضرورية .

لقد اعتبرت نظرية المعرفة المادية قبل ماركس ان موضوع نظرية المعرفة هو الانسان كفرد معزول . وحاولت ان تكشف جوهر الاحساس والتفكير عند الناس ، كل على حدة ، كمشاعر طبيعية مجـردة دون ان تفهـم جوهرهـا الاجتماعي . ان المعرفة ، في الواقـع ، لا تتم من قبل افـراد منعزلين (فمثل هؤلاء الناس غير موجود) ، وانما من قبل اناس اعضاء في مجتمع وتتم من أجل ارضاء احتياجاتهم .

يدرس الديالكتيك قوانين تطـور المعرفة على أساس تعميم كـل تاريخ المعرفة . فلكي نكشف هذه القوانين يجب أن نحلل تاريخ الفلسفة، وتاريخ كل من العلوم المستقلة، وتاريخ التطور العقلي للطفل ، والتاريخ السـابق للتفكير الانساني (التطور النفسي عند الحيوانات) ، وتاريخ اللغة ومعطيات علم النفس وفيزيولوجيا النشاط العصبي الراقي . ان كل فرع من فروع المعرفة العلمية هذه يلقي ضوءاً على هذه الناحية أو تلك من عملية المعرفة . فتاريخ الفلسفة وتاريخ كل من العلوم المستقلة تظهر عملية تطور معرفة الانسان ، وحركته من اللامعرفة الى المعرفة ، من المعرفة غير التامة إلى المعرفة الشاملة والعميقة . وان دراسة سلوك الحيوانات الراقية والتطور العقلي عند الطفل وتاريخ اللغة تعطي امكانية فهم نشوء وتطور قدرات الانسان المعرفيـة (التجربـة الحسية والتفكير الحسي). ويعطي علم النفس مادة لفهم كيف تجري عملية الاحساس

والادراك والتصور والتفكير • وفيزيولوجيا الجملة العصبية الراقيـة تدرس وظائف اجهزة الاحساس والتفكير ، أي انها تكشف الاسس المادية للاحساس والتفكير • ونشأ وتطور، في الفترة الاخيرة، فرع للمعرفة العلمية هو الكيبرنيتيكا• ولمعطيات هذا العلم أيضاً أهمية كبيرة في فهم المعرفة كانعكاس للواقع • وهو يدرس التفكير من جانب واحد كعملية لتبديل التشكيلات •

وليس الديالكتيك وحده هو الـذي يدرس قوانين واشـكال التفكير • فيدرسها أيضاً المنطق الصوري • ولذا نشأت مسـألة العلاقـة بين الديالكتيك والمنطق الصوري واختلافهما في دراسة التفكير •

ان المنطق الصوري هو علم عن أشكال التفكير وقواعد واشكال استنتاج محاكمة منطقية من محاكمات أخرى • وهو يدرس اشكال التفكير من حيث بناؤها ويصف ابسط اساليب التفكير التي تستخدم في معرفة الواقع ويصوغ قواعد استنتاج محاكمة منطقية من محاكمات أخرى • ان المنطق الشكلي يحل، على وجه الخصوص ، مسائل مثل : من أية اجزاء يتكون الحكم ، وبأي شكل ترتبط الافكار فيه ، وفي أية حالة نحصل على نتيجة موثوقة ، وفي أيـة حالة لا نحصل على هذه النتيجة ؟ وهكذا دواليك • وتعاليم البرهان جـزء هام من اجزاء المنطق الشكلي ، وهي تبحث في بناء البرهان واشكاله والاخطـاء الممكنة فيه • والشرط الضروري للتفكير المثقف تثقيفاً أوليـاً هو القـدرة على ربط الافكار في المحاكمة •

وهناك خاصة نموذجية للمنطق الشكلي هي كونـه لدى دراسـة بنية اشكال التفكير ينشغل عن منشئها وتطورها • ان المنطق الشكلي يأخذ المحاكمة المصاغة ، والمفهوم ، والحكم ويصفها من ناحية شكلها وبنيتها • وهو ينطلق في ذلك من قوانين محددة: قانون التطابق، وقانون نفي الثالث، وقانون التبرير الكافي، التي تصوغ شروط تحديد وانسجام وبرهان التفكير •

ويتحدث قانون المطابقة عن أن الفكرة في حـدود محاكمة ما يجب أن تكون مطابقة لنفسها • أما قانون التناقض فيمنع وجـود تناقضـات منطقية في

التفكير : فالحكمان اللذان يقضي أحدهما بتوفر صفة ما في الشيء، ويقضي الآخر، في الوقت ذاته، بعدم توفر هذه الصفة في الشيء نفسه وفي الظروف نفسها لا يمكن أن يكونا حكمين صحيحين في آن واحد • ويذهب قانون الثالث المستثنى إلى أن الحكمين المتناقضين اللذين ينفي أحدهما الآخر لا يمكن أن يكون كلاهما غير صحيح في آن واحد • وهناك أخيراً قانون الاثبات الكافي الذي يقضي بأن كل حكم لا يمكن اعتباره صحيحاً الا عندما تتوفر الاثباتات الكافية لصحته •

ان جميع قوانين المنطق الصوري هذه تنبغي مراعاتها عند التفكير بأي شيء • ويؤدي خرقها إلى ارتكاب الأخطاء والى تجريد تفكيرنا من المنطقية والسلامة • أما خرق قانون التناقض، خاصة، فهو يؤدي الى الارتباك والخلط وعدم الوضوح وعدم الاطراد في التفكير • فيمكن مثلاً أن نصادف مثل هذين الحكمين المتناقضين: (١) «المذهب الميكانيكي في الفلسفة ـ ظاهرة تقدمية» و (٢) المذهب الميكانيكي في الفلسفة ـ ظاهرة غير تقدمية بل رجعية» • ان كلاً من هذين الحكمين المتضادين صحيح فيما إذا كنا نتحدث عن دور المذهب الميكانيكي في عصور مختلفة • فالمذهب الميكانيكي في القرنين السابع عشر، والثامن عشر كان يتصف بالتقدمية ويعتبر خطوة الى الامام بالمقارنة مع اللاهوت والمذهب المدرسي • أما في الظروف الراهنة، فهو يعرقل تطور الفلسفة والعلم، ويشدهما الى الوراء • بيد أن هذين الحكمين لا يتفقان منطقياً فيما اذا كنا نتحدث عن المذهب الميكانيكي في عصر واحد أي في ظروف واحدة، ومن ناحية معينة واحدة • فاذا نحن قلنا عن المذهب الميكانيكي المعاصر من ناحية علاقته بالمادية الديالكتيكية إنه رجعي وتقدمي، فان هذا الحكم الصادر عنا يكون لاغياً، متناقضاً من الوجهة المنطقية، ولا تتفق احدى فكرتيه مع الثانية • وقد كتب لينين يقول إن التناقض المنطقي «لا يجب أن يوجد، لدى توفر التفكير المنطقي السليم طبعاً، لا في التحليل الاقتصادي ولا في التحليل السياسي»[(١)] •

ان قانون التناقض المنطقي المفهوم على الوجه الصحيح يتفق تماماً مع

(١) ف•ا• لينين المؤلفات • الجزء ٢٣ الصفحة ٢٩ •

الاعتراف بوجود تناقضات في الاقتصاد الموضوعي وفي تطور تفكيرنا • وهو يعتبر قانوناً للعلاقة بين الافكار المتكونة ويتجرد عن صيرورتها وتطورها • فالفكرة يمكن أن تغير محتواها ، وأن تتعمق وتتطور خلال سير عملية المعرفة • ويمكن أن تقع في تناقض مع نفسها كما سنبين فيما بعد •

ولا يجوز أن نخلط بين التناقضات في المعرفة ، أي التناقضات التي تعكس تناقضات العالم الموضوعي والطابع المتناقض لعملية عكسه ، وبين التناقضات المنطقية ـ الصورية التي تنشأ نتيجة عدم الاطراد في تفكير هذا الشخص أو ذاك • فالتناقضات الأولى هي تناقضات مقنونة وضرورية من أجل معرفة العالم من جميع الجوانب بكل ما فيه من تعقيد وتناقضات • أما الثانية فتضع العراقيل أمامنا في سيرنا نحو الحقيقة ، وهي لاتعكس تناقضات موضوعية • ولهذا ينبغي تجنب التناقضات المنطقية ـ الصورية وازالتها لتأمين الوضوح والاطراد في التفكير •

ان قوانين التفكير التي يحتويها المنطق الصوري لاتعكس سوى أبسط العلاقات بين الأشياء • فقانون التطابق مثلاً يعكس تشابه ظواهر الواقع والثبات النسبي للأشياء وكيانها المحدد نسبياً • فالفكرة في المحاكمة يجب أن تكون واضحة ومحددة لأن الشيء نفسه ثابت نوعياً بغض النظر عن اتصافه بالتغير •

ان قوانين المنطق الصوري تعكس جانباً معيناً في الاشياء ـ تعكس لحظة ثبات الأشياء واستمرارها النسبي • وبما أن هذه القوانين تعكس جانباً ما من ظواهر الواقع فانها يمكن أن تخدم كطريقة، ولو محدودة، للحصول على معارف جديدة • يقول انجلز : « وحتى المنطق الصوري يخدم قبل كل شيء كطريقة للعثور على نتائج جديدة وللانتقال من المعروف إلى المجهول • والأمر نفسه، ولكن على مستوى أعلى بكثير ، نستطيع أن نقوله عن الديالكتيك الذي، الى جانب ذلك، يتجاوز الأفق الضيق للمنطق الصوري ويحتوي على رشيم لوجهة نظر أوسع إلى العالم »[1] •

وعند دراستنا الشيء يترتب علينا التجرد عن جميع جوانبه ما عدا جانب

(١) انجلز : ضد ديورينغ صفحة ١٢٦ ـ ١٢٧ •

واحد يتركز عليه الاهتمام ، كما هو الأمر في جميع مجالات العلم• فالرياضيات مثلاً تتجرد عن الكيان النوعي المحدد للأشياء ، وتنظر إليها من جانب علاقاتها الكمية والمكانية • وهذا التجرد أمر ضروري من أجل فهم العالم فهماً عميقاً ، ولكنه لايجب أن ينسينا أن هناك جوانب أخرى للشيء •

والأمر نفسه ينطبق كذلك على المنطق الصوري • فعند دراسة أشكال التفكير يمكن التجرد عن تطور هذه الأشكال • بيد أن القنونات التي تعكس جانباً من جوانب الواقع - وهو الثبات النسبي الذي تتصف به الأشياءوانعكاساتها في دماغ الانسان لايمكن أن نعتبرها القنونات الوحيدة الموجودة • فتحويل المنطق الصوري إلى العلم الوحيد عن التفكير ، وتحويل قوانينه إلى منهج عام شامل لمعرفة ظواهر الواقع ، يفضيان إلى الميتافيزيكية وإلى انكار وجود التطور والتناقضات في الواقع الموضوعي وفي معرفتنا لهذا الواقع •

ان المنطق الديالكتيكي لاينكر أهمية المنطق الصوري بل يحدد دوره في دراسة قوانين وأشكال التفكير ويقف ضد تحويل هذا المنطق إلى العلم الوحيد الذي يدرس القوانين والأشكال المذكورة • ان التطور الذي يهمله المنطق الصوري عند دراسته للتفكير ، يدرسه الديالكتيك بعمق وشمول • ولذا فان الديالكتيك يتيح لنا امكانية ادراك اهمية الجانب الذي يدرسه المنطق الصوري من التفكير • ولايمكن أن نفهم قوانين الصلة بين الاشكال الجاهزة من التفكير وأن ندرك بنية هذا الأخير إلاّ على أساس معرفة قوانين تطور التفكير والمعرفة•

ان مضمون المنطق الديالكتيكي هو دراسة العلاقات بين المفاهيم والتحولات والتناقضات فيها • وهذه تعكس العلاقات والتحولات المتبادلة والتناقضات في ظواهر العالم الموضوعي • ولا يقتصر الديالكتيك على تعداد مختلف أشكال حركة التفكير (محاكمات ، مفاهيم ، أحكام) بل هو يحدد علاقة الخضوع التي بينها ، ويبين لنا كيف يتحول احد هذه الاشكال إلى الآخر أثناء عملية تطور المعرفة •

ان المسألة الرئيسية التي يهتم بها المنطق الديالكتيكي هي مسألة: الحقيقة• فهو ينظر في أشكال التفكير على أنها أشكال ذات مضمون ويبين لنا كيف نتوصل إلى المعرفة الحقيقية عن العالم في هذه الأشكال •

ان المنطق الديالكتيكي يطالب بالنظر إلى الشيء وإلى انعكاسه في وعي الناس نظرة شاملة : في تطوره وحركته الذاتية وفي صلاته الجوهرية مع الأشياء الأخرى ، وعبر بروز وحل التناقضات وفي تغيراته الكمية والكيفية الخ ...

وهذا المنطق لا يملك قوانينه الخاصة التي تتميز عن الديالكتيك . فكل قوانين هذا الأخير هي قوانين للمنطق الديالكتيكي كذلك . وبينما تعكس قوانين المنطق الصوري أبسط العلاقات بين الأشياء وبعض جوانب العالم المادي — لحظة السكون والثبات ، نجد أن قوانين المنطق الديالكتيكي تعكس أهم قنونات ظواهر الواقع ، التي ينظر إليها في حالة تطورها الذي يتضمن السكون والثبات النسبيين .

وقد صاغ لينين جوهر المنطق الديالكتيكي ومتطلباته الطرائقية الأساسية لدى دراسته لموضوعه بالكلمات التالية : « لكي نعرف الشيء فعلاً يجب الاحاطة بجميع جوانبه وجميع الصلات « والوسائط » ودراستها . واننا لن نحيط بهذا أبداً احاطة تامة . بيد أن متطلب الشمول يحمينا من الأخطاء ومن التجمد وهذا أولاً . ثم ان المنطق الديالكتيكي يتطلب أخذ الشيء في تطوره ، « في حركته الذاتية » (كما يقول هيجل أحياناً) ، في تغيره ، وهذا ثانياً . ان التطبيق العملي الذي مارسته الانسانية يجب أن يدخل بأجمعه في « التحديد » الكامل للشيء كمقياس للحقيقة ، وكمحدد عملي لصلة الشيء بما هو لازم للانسان ، وهذا ثالثاً . ثم ان المنطق الديالكتيكي ينص على أن «ليس هناك حقيقة مجردة ، فالحقيقة دائماً حسية »[1] وهذا رابعاً .

ان تطبيق قوانين الديالكتيك على دراسة التفكير يخلق كل الظروف للنفاذ الى جوهره . فالمنطق الديالكتيكي يكشف عن ديالكتيك المعرفة أي عن قوانين تطورها ، بما في هذا تطور أشكال التفكير . وهذا يعني ان المنطق المذكور هو عبارة عن تعاليم عميقة وشاملة عن تطور المعارف الانسانية بصفتها انعكاساً لتطور العالم المادي .

---

(١) ف.١. لينين . المؤلفات الجزء ٣٢ الصفحة ٧٢ .

٢ ـ الحقيقة الموضوعية

ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية

ان المسألة الرئيسية في الديالكتك ، بصفته نظرية للمعرفة ، هي مسألة : الحقيقة • فما هي الحقيقة ومم تتألف وهل يمكن التوصل إلى المعرفة الحقيقية ؟ وكيف تحدث حركة المعرفة نحو الحقيقة وما هو مقياس صحة معارفنا ؟ هذه هي المسائل الأساسية في نظرية المعرفة •

من الصعب أن نصادف مفكراً ما ينفي وجود الحقيقة على العموم • ولكن المشادة بين الاتجاهات الفلسفية تدور حول ما ينبغي ان نفهمه من كلمة الحقيقة، وهل هناك حقيقة موضوعية أي هل هناك معرفة لايتعلق مضمونها لا بالانسان ولا بالانسانية • فقولنا مثلاً بأن الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي قد انتصرت انصاراً تاماً ونهائياً هو حقيقة موضوعية لأن مضمون هذا القول هو شيء موجود موضوعياً غير متعلق بكون هذا الشيء مرغوباً فيه من قبل انسان ما أم لا ؟ فعندما تعكس المعرفة ما هو موجود في العالم الموضوعي عكساً أميناً ، فإن هذه المعرفة تعتبر حقيقة موضوعية • وقد حددنا في الفصل الرابع في معرض دراستنا لمسألة الوعي بصفته انعكاساً للوجود ، حددنا بدقة ما تفهمه المادية الديالكتيكية من كلمة الحقيقة الموضوعية • ونحن هنا سنوجز باختصار ما بحثناه سابقاً •

ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية يعني ان العالم وقنوناته متاحة للمعرفة كما هي موجودة بنفسها وباستقلال عن الوعي • وقد كتب لينين يقول : « ان تكون مادياً يعني أن تعترف بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا أعضاء حواسنا »(١)•

ان الفهم الماركسي ـ اللينيني للحقيقة يختلف مبدئياً عن فهم المثالية الذاتية والموضوعية لها •

فالمثالية الموضوعية تنظر إلى الحقيقة على أنها خاصة أبدية لازمانية ولامتغيرة وغير مشروطة بالأشياء المثالية (الروح ، الأفكار وما إلى هذا) • ولكن الحقيقة

---

(١) لينين ، المؤلفات ، الجزء ١٤ صفحة ١٢٠ •

موجودة خارج الانسان وخارج حدود المعرفة الانسانية، مما يضفي على الحقيقة في المثالية الموضوعية طابع الغيبية ٠

أما المثالية الذاتية فتعتبر أن الحقيقة ذاتية جداً ، ويتحدد مضمونها بالوعي الانساني ٠ ويقول بعضهم ان الحقيقة هي نتيجة اتفاق الناس، وأن كل ما يتمتع باعتراف عام فهو حقيقي ٠ ويقول بعضهم الآخر : ان الحقيقي هو كل ما ينفع ويريح هذا الانسان أو ذاك ٠ والحقيقة في هذه الحالة تفقد مضمونها الموضوعي وتصبح متعلقة بالانسان وبوعيه فقط ٠

ان الحقيقة الموضوعية شكل من أشكال المعرفة الانسانية وهي ذاتية بهذا المعنى فقط (إذ لا معنى للحديث عن الحقيقة بدون الانسان ووعيه) ، ولكنها موضوعية من حيث المضمون ٠

ان جوهر الحقيقة ، إن المعرفة لا تكون حقيقية موضوعياً إلا إذا عكست بأمانة ما هو موجود باستقلال عن الوعي العاكس ٠ ولذا فان النظرية تظل ، موضوعياً ، حقيقة بغض النظر عن عدد من يأخذ بها من الناس (كثيرون أم قليلون) وعن شخصياتهم ٠ وبما أن الحقيقة الموضوعية تعكس بأمانة ما هو موجود في الواقع فانها ستغزو عاجلاً أم آجلاً عقول الناس وستنتشر على نطاق واسع ٠ فالماركسية في فجر ظهورها لم تكن تتمتع بعدد كبير من الأنصار ولكنها أصبحت فيما بعد النظرية المعترف بها من قبل الملايين الغفيرة من الكادحين ٠ فقد غزت الماركسية عقول وقلوب هذه الجماهير الواسعة لأنها كشفت عن الحقيقة وعن قوانين تطور الطبيعة والمجتمع ٠

ونحن ، من ناحية أخرى ، نعلم أن النظريات الخاطئة والعقائد البالية يمكن أن تسيطر على عقول جماهير واسعة من الكادحين لمدة طويلة ، كالعقائد الدينية وبعض الأفكار التي تروجها الدعاية البرجوازية ٠ ولكن الزيف يبقى زيفاً بغض النظر عن عدد الناس الذين يأخذون به ٠ وهو سيتكشف على حقيقته أمام الناس جميعاً عاجلاً أم آجلا وسيشيح الشعب بوجهه عنه ٠

وهناك جانبان في حل مسألة « الحقيقة » لاينبغي الخلط بينهما ، ويتلخص

الأول في وجود أو عدم وجود الحقيقة الموضوعية ؟ وتجيب المادية الديالكتيكية عن هذا بالايجاب شأنها شأن المادية على العموم • أما الجانب الثاني فهو التالي: كيف نصل إلى الحقيقة : أنحيط بها بتمامها دفعة واحدة أم بالتدريج ؟ ان هذا السؤال يتطلب للاجابة عليه تبيان العلاقةالمتبادلة بين الحقيقةالموضوعية والنسبية•

ان المعرفة الانسانية مطلقة ، مستقلة ، ذلك لأنها قادرة على اعطاء الحقيقة الموضوعية ، وعلى عكس الأشياء عكساً صحيحاً • وليس هناك من حدود لمعرفتنا وليس هنا من أشياء لاتمكن معرفتها ، بل توجد أشياء لم تعرف بعد ولكنها يمكن أن تعرف خلال تطور العلم • ان بنية الذرة والطاقة التي في داخلها ظلتا مدة طويلة « شيئاً في ذاته » غير معروف ، ولكنهما أصبحتا الآن بفضل جهود العلماء والمهندسين « شيئاً من أجلنا » • ومنذ وقت قريب جداً لم يكن أحد يعرف شيئاً عن أشباه النواقل وعن خواصها ، أما الآن فقد أصبحت معرفة هذه الأمور تجد مجالاً واسعاً للتطبيق في التكنيك •

ان المعرفة نسبية ومحدودة (ليست مستقلة) في كل مرحلة من مراحل تطورها لدى جيل معين من الناس • وهذا التناقض القائم بين قدرة الانسان على أن يعرف كل شيء وبين عدم قدرة أناس معينين على أن يحققوا هذا في فترة زمنية محدودة ما ، لا يحل الا خلال الحركة التصاعدية للمجتمع الانساني ، وخلال حياة عدة أجيال متوالية في قافلة الانسانية التي لا نهاية لها عملياً بالنسبة لنا •

ان الحقيقة عبارة عن عملية ، ويقول لينين : « ان تطابق الفكرة مع الموضوع هو عبارة عن عملية ، ان الفكرة (= الانسان) لاينبغي أن تمثل الحقيقة في شكل سكون ميت ، في شكل لوحة بسيطة (للصورة) الشاحبة (الباهتة) ، بدون طموح ، بدون حركة ، وكأنها الروح الحارسه ، وكأنها رقم ، وكأنها فكرة مجردة »[1] •

ان الحقيقة الموضوعية في شكلها التام والكامل تسمى الحقيقة المطلقة •

(١) لينين • الدفاتر الفلسفية • الصفحة ١٦٧ •

ونعني بهذه الأخيرة تلك المعرفة التي لايمكن أن تدحض خلال التطور التالي للعلم والتطبيق • فهل هناك وجود للحقيقة المطلقة ؟ ان الماركسية تجيب عن هذا السؤال بالايجاب دون أي تردد • يقول لينين : « ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية أي بالحقيقة المستقلة عن الانسان وعن الانسانية يعني الاعتـراف بالحقيقة المطلقة على هذا الشكل أو ذاك »[1] •

ان الحقيقة الموضوعية لاتوجد فقط كحد تنزع معرفتنا إلى بلوغه دون أن تتمكن في الواقع من هذا أبداً • ان المعرفة مطلقة عندما هي تتحرك في طريق الحقيقة الموضوعية ، ولا يمكنها أن تكون مطلقة إلا في حركتها هذه • فالحقيقة المطلقة لا وجود لها خارج حركة المعرفة • والحقيقة ليست مطلقة إلا من حيث مصدرها ومن حيث نزعة الحركة • ولذا فان جميع فروع المعرفـة العلميـة تحتوي على نظريات صحيحة بشكل مطلق ، لايمكن أن تدحض خلال التطور التالي للعلم • وفي كل حقيقة موضوعية توجد بعض عناصر وجوانب المطلق • وهكذا نجد أن مجمل ما نعرفه عن البنية الفيزيائية للمادة ليس كاملاً ومطلقاً ولكن توجد فيه عناصر كثيرة من المطلق (كقولنا مثـلاً ان الذرة قابلة للتقسيم وان الالكترونات والبروتونات والنيترونات هي عناصر الذرة • ان مثـل هذا القول صحيح بشكل مطلق) •

ان الاعتراف بوجود الحقيقة المطلقة غير كاف بالنسبة للانسان المادي ـ الديالكتيكي • إذ أن من الضـروري اكتشـاف الطريـق الموصـل إليهـا • والوصول إليها لا يتأتى للانسان دفعة واحدة ، وذلك لان هذه الحقيقة تتألف من حقائق نسبية •

ان الحقيقة النسبية هي المعرفة التي تعكس الواقع بشكل صحيح من حيث الأساس ، ولكن ليس بشكل تام ، بل ضمن حدود معينة ، وفي ظروف وعلاقات معينة • وخلال التطور التالي للعلم تزداد هـذه المعرفة دقـة وكمالاً وعمقـاً وحسية •

ان نظريات العلم تعكس الشيء في ظروف معينة معرضة للتغير • ولذلك

---

(١) لينين • المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة (١٢٠) •

فان أي حكم يعتبر حقيقياً بقدر ما يعكس الشيء بدقة في هذه الظروف • أما في ظروف أخرى فان حكماً آخر هو الذي يصبح حقيقياً • فالحكم الذي يقول مثلاً : ان الماء يغلي في حرارة درجتها ١٠٠ » حسب الميزان المئوي ، هو حكم حقيقي ، ولكن بشرط أن يكون موضوع حكمنا هـذا هو الماء العادي H_2O وتحت ضغط عادي • أما إذا أصدرنا هذا الحكم على ماء ثقيل أو غيرنا الضغط فانه يكف عن كونه حقيقياً • وخلال تطور المعارف العلمية تحدث باستمرار عملية تدقيق الأحكام ، والأخذ بعين الاعتبار للظروف الجديدة التي تكون فيها هذه الأحكام حقيقية • وهكذا يقترب العلم خطوة فخطوة من المعرفة التامة الشاملة المطلقة • يقول لينين: « ان التفكير الانساني قادر من حيث طبيعته على اعطائنا الحقيقة المطلقة التي تتألف من حصيلة حقائق نسبية وهو يفعل هذا• ان كل درجة في سلم تطور العلم تضيف بذوراً جديدة إلى حصيلة الحقيقة المطلقة • بيد أن حدود حقيقة أية نظرية علمية هي حدود نسبية ، فهي إما أن تتوسع وإما أن تتقلص خلال النمو التالي للمعرفة »[1] • ان الحقيقة النسبية تشتمل على العكس التقريبي وغير التام للواقع •

ان الحقيقتين المطلقة والنسبية هما عنصرا الحقيقة الموضوعية • وهما تتباينان لا من حيث المصدر بل من حيث درجة الدقة ومن حيث تطابقهما مع الواقع ودرجة الكمال التي يعكسانه بها • فالحقيقة المطلقة تتألف من حقائق نسبية ، وكل درجة في سلم تطور العلم تضيف عنصراً إلى الحقيقة المطلقة •

فالنظرية الفيزيائية القائلة بان الالكترون موجود في تركيب الذرة كجزيء ذي شحنة سالبة ، هي حقيقة مطلقة • وقد أُثبتت هذه النظرية بشكل اكيد عن طريق التجارب • بيد أن هذا كلف بذل جهود كبيرة من قبل العلماء الذين وضعوا خلال سنوات عديدة فرضيات جريئة عن وجود الالكترون •

ففي نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر وضع ف• فيبر نظرية الظواهر الكهربائية في المعادن • وهي نظرية تقوم على أساس

(١) لينين • المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ١٢٢ •

وجود جزئيات كهربائية موجبة وسالبة • وما ان انقضت فترة وجيزة حتى أعلن ج• ستونيي عن نظرات مماثلة توصل إليها أثناء دراسته لظواهر التحليل الكهربائي • وقد قدم غليمولتس في عام (١٨٨١) فرضية عن تقطع الكهرباء (الكهرباء السالبة والموجبة تنقسم إلى مجموعات أولية تتصرف وكأنها ذرات الكهرباء) • وفي التسعينيات درس العلم الأشعة السلبية، وقدم كروس وآخرون غيره فرضية تقضي بأن هذه الأشعة عبارة عن تيار من الجزئيات المادية ذات الشحنة السالبة تتحرك بسرعة هائلة • وفي عام ١٨٩٧ برهن طومسون بالتجربة على صحة هذه الفرضية • ان كل هذه الفرضيات والتجارب مهدت لاقامة البرهان على وجود الالكترون وأسهمت بقسط في احداث ذلك الانعطاف الذي حدث في الفيزياء عند اكتشاف قابلية الذرة للتقسيم •

ان الميتافيزيكيين يعتبرون المعرفة إما مطلقة فقط أو نسبية فقط • ولكن الاعتراف بالحقيقة المطلقة وحدها إنما هو جمود عقائدي • فالجامد عقائدياً لايعتبر المعرفة النسبية حقيقة • ولكن ليس هناك علم يتألف فقط من « حقائق مطلقة خالدة في شكلها الأخير » فمثل هذا العلم لايمكن أن يوجد• ان الجمود العقائدي في العلم يؤدي إلى الركود والانقطاع عن الحياة وعن الواقع •

إن الافتراض القائل بامكانية بلوغ الحقائق المطلقة المتعلقة بجميع ظواهر الواقع يؤدي أولاً : إلى الاستنتاج القائل بتوقف تطور المعرفة الانسانية • ان مثل هذا الموقف الجامد عقائدياً من المعرفة يؤدي بدوره إلى الركود الفكري• فما الذي يمكن أن يحدث لو أن الفيزياء اكتفت بتلك الحقائق المطلقة التي توصلت إليها في نهاية القرن التاسع عشر واقتصرت عليها ؟ لو حدث هذا لما عرفنا شيئاً ما ثابتاً عن نواة الذرة وعن امكانية استعمال طاقتها ••• الخ •

ان الجامد عقائدياً لايلاحظ الظواهر الجديدة في الطبيعة ولا يدرسها ولا يوسع معارفه النظرية بتعميمات جديدة • وهو يتمسك بنظريات قديمة فات أوانها لاتتناسب مع الوضع الجديد للأشياء فيقع في تناقض مع الحياة ويظل يراوح في مكانه راضياً بالأمور التي قد توصل إليها • ان الحزب الشيوعي في

الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشقيقة الأخرى شنت وتشن باستمرار نضالاً لا هوادة فيه ضد الجمود العقائدي • إن خدمة قضية الثورة الاشتراكية والشيوعية لا تتفق والجمود العقائدي في النظرية والممارسة العملية • إن الوقوف موقفاً جامداً من الماركسية ـ اللينينية يعود بالضرر على الحركة الثورية •

أما الميتافيزيكيون الذي لا يعترفون إلا بالحقيقة النسبية فيدعون بالنسبويين • وهم يفسرون واقع تغير معارفنا ، وحدوث انعطافات في العلم والغاء المفاهيم البالية يفسرون كل هذا على أنه برهان على ذاتية الحقيقة • فبما أن معارفنا نسبية ، إذن فهي ، حسب زعمهم ، لاتحتوي على أي شيء صحيح موضوعياً ومطلق • فالمطلق والنسبي ينفي أحدهما الآخر ، وكل النظريات العلمية نسبية واحداها تستبدل بالأخرى • ولهذا فان نظريات العلم ، حسب زعمهم، لاتتمتع إلا بقيمة الأدوات المساعدة ، فهي تحث على اجراء أبحاث جديدة ولكنها لا يمكن أن تطمح إلى الاتصاف بالحقيقة الموضوعية • إن النسبوية سائدة في الفلسفة البرجوازية المعاصرة •

والاصطلاحية هي أحد أشكال النسبوية المنتشرة • وهي تعتبر أن موضوعات العلم بمثابة اصطلاحات واتفاقات وموضوعات مشروطة باتفاقنا • يقول افري بوانكاري ، وهو أحد مؤسسي الاصطلاحية : « إذا اردنا الآن معالجة المسألة التالية : هل هندسة اقليدس صحيحة ؟ فاننا لن نجد لهذا أي معنى • ان سؤالنا هذا سيكون كسؤالنا : هل النظام المتري صحيح بالمقارنة مع المقاييس القديمة ؟ أو كسؤالنا : هل احداثيات ديكارت أصح من الاحداثيات القطبية ؟
إن أية هندسة لايمكنها أن تكون أصح من غيرها : بل يمكن أن تكون أنسب من غيرها فقط »[1] •

إن التشبيه الذي يورده بوانكاري بين بديهات الهندسة ونظام المقاييس ، لايستند إلى أساس • فنحن فعلاً نستطيع أن نقيس المسافة بالأمتار وبالأذرع • وأخذنا للمتر أو لمقياس آخر كوحدة للقياس هو عملية ذات طابع اصطلاحي

(١) أ• بوانكاري : العلم والفرضية م• ١٩٠٤ صفحة ٦١ •

وهي نتيجة لاتفاق مسبق • بيد أن بديهيات الهندسة ليست اصطلاحية فهي تعكس علاقات موجودة في الطبيعة• ان بديهيات هندسة اقليدس تعكس العلاقات في مكن الانحناء فيه مساوٍ للصفر • أما في الأمكنة التي يكون الانحناء فيها ايجابياً أو سلبياً فهي غير دقيقة • فاذا نحن استعملنا هذه البديهيات في الأمكنة الأخيرة فمعنى هذا أننا نهمل انحناء المكان مما يجعلنا نحصل على نتائج تقريبية• ان الهندسة اللااقلديسية تعكس الواقع بشكل أعمق وأكمل مما تعكسه به الهندسة الاقليدسية التي تعتبر بديهياتها ونظرياتها حالة جزئية من بديهيات ونظريات الهندسة اللااقليدسية • ان الحقائق العلمية ليست ذاتية وليست تعسفية وليست اصطلاحية بل حقائق موضوعية وهي ليست نتجة لاتفاق الناس عليها بل هي عكس للواقع الموضوعي •

ان النسبوي عندما ينفي موضوعية المعرفة يحتج بأن تضاد الحقيقة والخطأ أمر نسبي • فمن المعلوم أن هناك حالات ليست نادرة يظهر فيها أن الموضوعة التي كان العلم يعتبرها صحيحة ليست بصحيحة وبالعكس ، أن الموضوعة التي كانت تعتبر خاطئة تتمتع بجانب صحيح[1] •

بيد أن هذه الوقائع لاتدحض وجود الحقيقة الموضوعية بل تشهد فقط على أن تطور المعرفة العلمية تسير في الطريق الموصلة إلى هذه الحقيقة ولكنها لاتسير دائماً على خط مستقيم بل غالباً ما تنحرف إلى جانب وربما عادت القهقري في بعض الأحيان • ان طريق المعرفة شاقة جداً وهي تحتوي على امكانية الوقوع في الخطأ • بيد أن الخط العام لتطور المعرفة التصاعدي خط وحيد وهو أنه على

---

(١) ان الفلاسفة الوضعيين الجدد البرجوازيين المعاصرين ينفون عموماً امكانية التوصل الى معرفة صحيحة لاتدحض • ويقول الدكتور في الفلسفة وبروفيسور جامعة لندن بوبير : ان النظرية التي لا يمكن أن نجد ، عقلانيا ، دحضاً لها ليست علمية • فعدم القابلية للدحض ليس ميزة بالنسبة للنظرية العلمية (كما يظن غالباً) بل هو عيب فيها » •

واذا طبقنا أفكار بوبير حتى النهاية توصلنا الى نتيجة تقول بان على العلماء أن يضعوا النظريات التي يمكن دحضها بشكل أسرع وأسهل • في مثل هذه الحالة يمكن أن نعتبر أن أي هاو او حتى أي جاهل هو عالم كبير ، وذلك لان بامكانه وضع نظرية تدحض بسرعة • هذا هو الهراء الذي تؤدي اليه النسبوية المعاصرة •

أساس الممارسة العملية نتجه نحو عكس جوهر الظواهر عكساً كاملاً وشاملاً، نحو الحقيقة المطلقة •

في النصف الأول من القرن التاسع عشر وضع بروت فرضية تقضي بأن جميع العناصر تتألف من ذرات الهيدروجين بحيث أن كمية ذرات الهيدروجين تطابق الوزن الجوهري للعناصر • وقد بنى بروت فرضيته هذه على أساس أن الأوزان الجوهرية التي قاسها دانتون يعبرعنها بأرقام صحيحة • ولكن تطور الممارسة العملية اللاحق في مجال الكيمياء أدى إلى نتيجة تقول بأن الاوزان الجوهرية للعديد من العناصر ليست أرقاماً صحيحة • وهكذا أهملت فرضية بروت • بيد أن العلماء اقتنعوا فيما بعد أن نطاق الممارسة العملية التي أجروها كان ضيقاً وغير كاف • فبعد اكتشاف نظائر العناصر الذي كشف عن سبب كون الوزن الجوهري لعناصر عديدة ليس رقماً صحيحاً ، عادت فرضية بروت إلى الانبعاث من جديد بعد أن طرأت عليها تغييرات كبيرة جاءت نتيجة تعميم الممارسة العملية الجديدة • وهكذا يسير العلم في طريق معقدة متعرجة أحياناً للوصول إلى معرفة الطبيعة والمجتمع معرفة صحيحة موضوعياً وعميقة •

ان الديالكتيك المادي يتضمن عاملاً من عوامل النسبية (فهو يعترف بنسبية معارفنا عن العالم الخارجي) ولكنه لايتطابق مع النسبوية • فالنسبوي يعتبر أن المعرفة النسبية نسبية فقط • بيد أنها في الواقع تتضمن الزامياً عامل الاطلاق • وعندما تحل في العلم نظرية محل اخرى فان النظرية الجديدة لاتنبذ القديمة فقط بل تتغلب على محدوديتها متضمنة كل ما هو صحيح موضوعياً في النظريات السابقة•وكما لاحظ ، بحق ، الفيزيائي الروسي البارز « أوفوف»فان، المنظومات العلمية تسقط ، ولكنها بانهيارها لاتختفي دون أثر : إذ تقوم على أنقاضها نظريات اكثر كمالاً وأطول عمراً »[1] • ان الفيزياء القديمة والفيزياء الحديثة هما نسخ عن الواقع ، ولكن احداهما تقريبية ، تخطيطية ، والأخرى اكثر دقة وعمقاً •

ان الاتصال في تطور النظرية يرتدي أشكالاً مختلفة في فروع العلم

(١) ن٠أ٠ أوموف ٠ مجموعة مؤلفات ٠ الجزء ٣ موسكو ١٩١٦ ص ٦١ ٠

المختلفة • ففي الفيزياء والرياضيات يمكن للنظرية القديمة أن تكون حالة جزئية من النظرية الجديدة التي تتصف بدقة وسعة اكبر ، كما هو شأن هندسة اقليدس ، التي تعتبر حالة جزئية من الهندسة اللااقليدسية • والفيزياء الجديدة لم تنبذ كل النتائج الايجابية التي تحتويها النظريات الكلاسيكية بل جردتها من مطلقيتها وأشارت إلى الحدود التي يمكن لهذه النظريات أن تطبق ضمنها •

ان نتائج الفيزياء الكلاسيكية تطبق حتى الآن عند وضع تصميم السفن والطائرات وعند بناء المنشئات الخ ••• بيد أنها غير قابلة للتطبيق عند بناء جهاز تسريع طاقة حركة صغيريات النواة وغيره من الأجهزة المعقدة ، وعند حسابات العمليات الذرية • ان فيزياء نيوتون هي حالة جزئية من النظريات الفيزيائية المعاصرة •

ان الاتصال يجد تعبيره في انه عند وضع نظرية جديدة تؤخذ جميع الأفكار الصحيحة موضوعياً ، والتي أبدعها علماء سابقون ، بعين الاعتبار • كما يتطور كذلك كل ما كان في طور البروز لدى الأسبقين • فالاقتصاد السياسي الماركسي أخذ كل ما هو صحيح موضوعيا لدي المفكرين سميث وريكاردو وغيرهما ، وطور أساس نظريتهما عن قيمة العمل وجعل منها نظرية علمية متكاملة ومنسجمة ، وكشف عن مصدر فضل القيمة •

ان فهم ديالكتيكية المطلق والنسبي في المعرفة ضروري من أجل معالجة معطيات علم الماضي معالجة صحيحة • ان تطور المعرفة هو الحركة التصاعدية التي تقوم بها المعرفة من الحقيقة النسبية نحو الحقيقة المطلقة • ومعطيات علم الماضي قامت باعداد الطريق أمام علم الحاضر كي يصل إلى المستوى الذي هو عليه الآن • فبدون كيمياء لومونوسوف ودالتون مثلاً لم تكن هناك كيمياء مينديليف •

ان الحقيقة كعملية عبارة عن حقيقة محددة تاريخياً • وتنطلق الماركسية من أن الحقيقة المجردة لاوجود لها، لان الحقيقة هي، دائماً، حسية محددة • وهذا يعني أن موضوعات العلم تعكس الشيء أو جانباً من جوانبه أو خاصة من خواصه في ظروف مكانية وزمانية محددة •

وقد كتب لينين يقول : « ان كل روح الماركسية وكل فروعها تطالب بأن ينظر إلى كل موضوعة : آ) تاريخياً • ب) في صلتها مع الموضوعات الأخرى ، ج) في صلتها مع التجربة التاريخية الحسية • ولا يجوز إلا هكذا » [1] •

ان نسيان مبدأ حسية الحقيقة ،ونشر الموضوعة العلمية على أشياء لا تقبل تطبيق هذه الموضوعة العلمية عليها (أي أشياء لا تعكسها الموضوعة العلمية) ، يؤديان إلى أفحش الأخطاء • كما حدث مثلاً عندما حاول بعض الفيزيائيين الغربيين أن يطبقوا نتائج النظرية النسبية الواقعية بالنسبة لجزء ما معين من الكون على الكون بأكمله • ثم أخذوا يتحدثون عن نصف قطر الكون بأجمعه وعن عدد البروتونات وعن توسع الكون وتقلصه • ان مثل هذه النظرات تناقض معطيات العلم القائل بلانهائية الكون وهي في مصلحة رجال اللاهوت الذين يحاولون التمسك بكل ما يصدر عن رجال العلم ويشتمون منه رائحة الابتعاد عن العلم وعن النظرة المادية الديالكتيكية العلمية المنسجمة •

ان العلم يستطيع ،بالطبع ،أن يطبق الموضوعات المتعلقة بأشياء معينة على أشياء أخرى • فالنجاحات التي أحرزتها فيزياء النواة الذرية مثلاً أفسحت المجال أمام علماء الفلك لفهم مصدر الطاقة الشمسية • بيد أن العالم الذي يقوم بنقل المعارف التي حصلنا عليها عند دراسة جسم ما إلى جسم آخر ، يتوجب عليه اثبات صحة هذا النقل • فتطبيق موضوعة علمية ما على أشياء لم تدرس بعد يجب أن يكون في البداءة بشكل فرضية فقط ، كي يجري فيما بعد البحث اللازم للبرهنة على قابلية تطبيق هذه الموضوعة •

إن مبدأ نظرية المعرفة الماركسية الذي يطالب بحسية الحقيقة يتمتع بأهمية خاصة في مجال العلوم الاجتماعية التي يتغير الموضوع المدروس فيها بسرعة كبيرة •

ونتيجة لهذا فان هذه الموضوعة النظرية أو تلك المتناسبة مع ظروف معينة ، والتي تعتبر صحيحة ، تكف عن كونها صحيحة عندما تتغير الظروف والأحوال المحيطة بها •

(١) لينين : المؤلفات ، الجزء (٣٥) الصفحة (٢٠٠) •

٣ ـ العلاقة بين الحسي والعقلاني في المعرفة

الجوهر والظاهرة

لقد أثبت العلم منذ القديم أن العقل والاحساس يشاركان في عملية المعرفة• بيد أن فلاسفة الاتجاهات المختلفة أعطوا إجابات مختلفة عن مسألة مكان وأهمية كل منهما في هذه العملية •

اعتبر بعض الفلاسفة ان المعرفة الحسية كافية لبلوغ الحقيقة • أما دور التفكير فينحصر ، حسب زعمهم ، في تجميع بسيط لمعطيات الحس • وما أن يبتعد التفكير قليلاً عن الاحساسات والادراكات حتى يقع في الخطأ ، وينقطع عن الواقع • ان الاتجاه الفلسفي الذي يعيد المعرفة إلى التجربة يسمى المذهب التجريبي •وقد أخذ بهذا المذهب بعض الماديين (بيكون ولوك) وبعض المثاليين (بيركلي، وهيوم، والماخيون) • وقد كان الماديون على حق عندما اعتبروا أن وراء الاحساسات والادراكات يقف الواقع الموضوعي ، الذي ينعكس فيها • أما المثاليون فقد أنكروا أن يكون العالم الموضوعي هو مصدر الاحساسات •واعتبروا أن الاحساسات هي الأولية أما العالم الموضوعي فهو مشتق منها ناتج عنها •

ان التجريبيين على حق عندما يقولون ان الانسان قبل التجربة وقبل المعطيات الحسية لا يحوز ولا يمكنه أن يحوز على أية معارف عن العالم الخارجي• وقد عمموا ، ولكن من جانب واحد فقط ، معطيات علم الطبيعة التجريبي الذي ظهر وتطور بسرعة • والجانب الضعيف في التجربة هو غمط أتباعها دور التفكير المجرد في المعرفة ونفيهم للأصالة النوعية التي يتمتع بها التفكير بالمقارنة مع الاحساسات والادراكات •

ان موقف التجريبية في أسوأ أشكالها المثالية هو موقف مشترك بالنسبة للعديد من اتجاهات الفلسفة البرجوازية المعاصرة: الذرائعية، والوضعية المنطقية وغيرهما • وتتصف الوضعية المعاصرة بأنها أولاً : تفسر التجربة تفسيراً مثالياً : « وتنظفها » من المحتوى الموضوعي، وثانياً : تعيد المعرفة العلمية كلها إلى تسجيل

ووصف بسيطين لوقائع مفهومة على الطريقة المثالية • وتحت راية النضال «ضد التجريدية » « والعقلانية المحضة » وفي سبيل المعرفة الوضعية (الايجابية) يشن الوضعيون حرباً ضد التجريدات العلمية التي تساعد على فهم جوهر الاشياء • ويعتبر بعض التجريبيين المعاصرين انه ليس هناك أشياء حقيقة تطابق مفاهيم « الانسانية » و « القيمة » و « العمل » وهلمجرا • وهم يفكرون على الشكل التالي : ان مفهوم « العمل على العموم » مثلاً لايمكن تصوره بشكل حسي ولا يمكن تصويره • فمن الممكن أن نرى انساناً يحفر الأرض ليخرج البطاطا ، وأن نرى آخر يعمل على الآلة،وثالثاً يجلس وراء الطاولة ويكتب••الخ ولكن من مناشاهد العمل على العموم ، وكيف يمكننا أن نتصوره حسياً ؟ صحيح أن هذه المفاهيم لا يمكن تمثيلها حسياً ، بيد أن التجريبي يستخلص من هذا نتيجة خاطئة وهي أن هذه المفاهيم لا تعكس أشياء وحيدة • ولكنه بهذا يغفل أن المفهوم يعكس العام الملازم للأشياء الوحيدة •

ان التجريبية التي تزحف على الأرض بعيدة كل البعد عن التفكير النظري • بيد أن الواقع يرينا أن ربط حقيقتين ببعضهما يحتاج بالضرورة إلى تفكير بمساعدة المفاهيم (١) •

لايجوز القول ان الوضعيين المعاصرين ينكرون أهمية كل المفاهيم

---

(١) ان التجريبية الزاحفة التي تنفي دور التفكير النظري في المعرفة ذات قابلية كبرى على الحياة ، ويقوم بالدعاية لها عدد من الفلاسفة _ المثاليين المعاصرين • فالعالم اللغوي المختص بالمعاني ستيوارت تشيز يقول : « على الفيزيائي أن يأخذ بوجهة نظر التجريبية المحضة التي لا تعترف بأية مبادىء أو أية أشياء مطلقة لا تعتمد على التجربة ، بل تحدد أو تعين مواصفات تجربة جديدة : فالتجربة لا تتولد الا بالتجربة »

(Stuart Chase. The Tyranny of Words. N.Y. 1938, p. 126)

ويقصد ستيوارت تشيز بعبارة المبادى والأشياء المطلقة التي لا تعتمد على التجربة يقصد المفاهيم، والمقولات التي يسترشد بها العلماء في أبحاثهم • وهكذا فان تشينز يقترح نبذ كل المفاهيم العلمية باعتبارها مفاهيم كاذبة لا معنى لها ويقترح الاسترشاد بالتجربة « المحضة » فقط • ولكل كل عالم يعرف تمام المعرفة أن أية تجربة في العلم مرتبطة بما سبقها من الاستنتاجات النظرية• فالتجربة لا تجري مصادفة ودون أن يعرف الهدف منها بل هي فحص لبعض الموضوعات النظرية وأساس لموضوعات أخرى • ولا يمكن أن يحصل التقدم في تطور المعارف العلمية الا عن طريق التأثير المتبادل بين التجربة والتفكير النظري •

والتجريدات العلمية ، فهم يعترفون بدور مفاهيم المنطق والرياضيات ، ولكنهم يعتبرونها نتيجة الابداع الحر للذات • وهم يرون أن مفاهيم الرياضيات جيدة لأنها لاتطمح لأن تعكس شيئاً وهي ليست مرتبطة بالتجربة الحسية للانسان • ويعتبر الوضعيون أن المفاهيم العامة كمفهوم « المادة » مثلاً و « السبب » الخ •• هي مجرد تخيلات واختراعات فكرية جوفاء تنبغي ازالتها من ميدان العلم • ان هذه المفاهيم لاتخضع للتدقيق في التجربة الشخصية ولا يمكن أن نجد لها مقابلاً (شيئاً يقابلها) • أما الوضعيون الجدد فيعتبرون ، أن المفاهيم ذات القيمة العلمية هي فقط تلك المفاهيم التي تعبر عن وقائع وحيدة وعن المعطيات المباشرة للتجربة • بيد أن هذه المفاهيم الأخيرة لاتعتبر ، حسب زعمهم ، عكساً للواقع ، بل هي مجرد اختصارات كلامية مناسبة •

ان التجريبي يعتقد أنه موجود في نطاق التجربة والادراك الحسي للوقائع حتى عندما يتعامل مع مختلف التجريدات • وهو يتصور انه يتعامل فقط مع وقائع لا تناقش • ولكن الواقع هو أن التصورات التقليدية والبالية وحتى أحياناً تلك التصورات المتعلقة بالأرواح غالباً ما تظهر تحت شكل وقائع ومعطيات « التجربة المحضة » •

ان الانسان الذي لايتعب نفسه بتعميم معطيات التجربة يميل إلى اعتناق مختلف العقائد البالية • وليس صدفة ان يقع بعض علماء الطبيعة الآخذين بمذهب التجريبية في أسر محضري الأرواح المشعوذين وأن يقفوا موقفاً جدياً من « تجارب » تحضير الأرواح [1] •

ان التجريبية الزاحفة السائرة في طريق المثالية لا تتفق مع اللاهوت فحسب ، بل وتحاول أن تثبت ضرورته • وكمثال على هذا نجد أمامنا الفلسفة الذرائعية ، التي يقول أحد مؤسسيها وهو «ف• جيمس» في معرض حديثه عن تنوع التجريبية ، بضم انفعالات الناس الدينية (احساسات المؤمنين أثناء الصلاة وتقديم القرابين الخ) إلى مجال التجربة • وقد اعتبر جيمس أن « التجربة »

---

(١) انظر كتاب ديالكتيك الطبيعة لانجلز الصفحة ٣٦ •

الدينية صحيحة تماماً كما هي « التجربة العلمية » إذا كانت هذه الأولى تعود بالنفع • ويقول ف• جيمس : ان الفرضية عن وجود الآلهة هي ، وفقاً لمبادىء الذرائعية ، فرضية صحيحة إذا كانت تقوم بدور نافع في أوسع معاني الكلمة»[1] بيد أن الأخذ بما وراء الطبيعة لايخدم الحقيقة بل يخدم المستثمرين بصفته وسيلة من وسائل اضطهاد الشعب •

وقد شهد تاريخ الفلسفة نضالاً ضد التجريبية شنه العقلانيون الذين افترضوا ان التفكير يصل مباشرة إلى جوهر الأشياء متجاوزاً التجربة • ومن ممثلي هذا المذهب ديكارات وليبنتز وسبينوزا وغيرهم • وقد كان الجانب القوي في العقلانية هو الاعتراف بالدور الفعال الخلاق للذات والعقل والتفكير في المعرفة • وقد طور العقلانيون الموضوعة القائلة بقدرة التفكير على النفاذ إلى أسرار الأشياء • بيد أن هذه الفعالية التي تتمتع بها الذات وتفكيرها لاقت تضخماً متطرفاً على يد بعض العقلانيين الذين اعتبروا أن التفكير لايتعلق بالتجربة •

ان العيب الأساسي للعقلانية يقوم في فصل التفكير عن التجربة الحسية وعن الاحساسات والادراكات • ويعتبر العقلانيون ان مصدر المعرفةهو الحدس الذهني ويفهمون هذا الأخير على أنه التوصل إلى الحقيقة بواسطة العقلمباشرة وبتجاوز للاحساسات والادراكات • ويقول العقلانيون : إن كل واحد منا يستطيع بحدسه (بدون تجربة) أن يدرك انه يفكر وانه موجود وأن الكرة ذات سطح واحد وان المثلث محصور بين ثلاثة خطوط الخ •••

بيد أن تفكير العقلانيين هذا غير صحيح لأن الانسان قبل أن يدرك ان المثلث محصور بين ثلاثة خطوط وان الكرة ذات سطح واحد قد لاحظ حسياً عدة مرات أشياء ذات شكل كروي وشكل مثلث • ان العقلانية تفضي بنا، بهذا الشكل أو ذاك، إلى الاعتراف بوجود معرفة فطرية أو سابقة للتجربة •

---

(١) ف• جيمس • الذرائعية • عام ١٩١٠ • الصفحة ١٨٢ •

فقد كان ديكارت يعتبر مثلاً أن أعم أفكار الرياضيات والمنطق وأهمها هي فطرية في الانسان •

ان التجريبية والعقلانية : نظريتان ميتافيزيكيتان وحيدتا الجانب في المعرفة • وقد تبادل ممثلوهما النقد • فوقف لوك ضد نظرية الافكار الفطرية التي كان يأخذ بها ديكارت • كما أن التجريبية الوحيدة الجانب التي نادي بها لوك كانت موضع نقد ليبنتز • ولكن لا التجريبية استطاعت أن تتغلب على نواقص العقلانية ولا العقلانية استطاعت ان تتغلب على نواقص الاولى • فقد كان نقد النظريتين احداهما للأخرى نقداً يجري داخل تيار التفسير الميتافيزيكي للمعرفة ، ومن موقع فصل احدى قدرتي المعرفة عن الأخرى •

ان العديد من الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين يأخذون بمذهب الصوفية في حلهم مسألة تحديد طريق معرفة الواقع • ولا يتاح الوصول إلى الحقيقة ، وفقاً لهذا المذهب ، إلاّ عن طريق غامض غير مفتوح لكل الناس ، وفي ظروف خاصة •

ويأخذ بهذا المذهب الفلاسفة الحدسيون الذين يعتبرون أن أساس معارفنا والشكل الأعلى للمعرفة هو الحدس الذي لا يتاح إلاّ لأشخاص استثنائيين في وقت معين (لحظة « الكشف » أو « الاشراق الروحي ») • ويؤكد هؤلاء ان الانسان العادي ، في ظروف عادية ، لا يمكنه معرفة جوهر الأشياء • ويعتبر الفيلسوف الفرنسي الحدسي برغسون ان الحدس يتطلب جهداً خارقاً خاصاً للتوصل إلى لحظة الكشف • ويعارض هؤلاء الحدس بالعقل والتفكير المنطقي • فالعقل ، في زعمهم ، يبذل جهوداً جبارة كي يتوصل فقط إلى معرفة الكيان الخارجي للشيء • أما الحدس فانه ينفذ في لحظة واحدة إلى الجوهر • وهم يميزون الحدس عن المعرفة الحسية كذلك ويعتبرونه قريباً من الغريزة ، لأنه يقدم لنا معارف لاواعية وغير مصاحبة بالتفكير • بيد أن الغريزة تتصف بطابع نفعي ، في حين ان الحدس ، في زعمهم ، يتصف بالاستقلال التام عن المنفعة العملية (المعرفة النزيهة) •

ان هذه الافكار تعود بالفلسفة البرجوازية إلى صوفية القرون الوسطى • فإذا كانت الايديولوجية البرجوازية قد وقفت في فترة ولادتها وازدهارها ضد التفكير الصوفي الغيبي وضد اللاهوت وحاربتهما تحت راية النضال في سبيل العقل ، فان النضال الحالي الذي يشنه ايديولوجيو البرجوازية ضد العقل هو شاهد على تدهور الفلسفة البرجوازية وانحطاطها •

ان الديالكتيك المادي ، وفقاً لمعطيات العلم ، ينطلق من عدم وجود أي معرفة صوفية ، خارقة للطبيعة ، حدسية ، كتلك المعرفة التي يتحدث عنها الحدسيون • وهو يعتبر ان كل معارفنا مأخوذة من العالم الخارجي بواسطة التجربة الحسية والتفكير الذي يتطور على أساس الاحساسات والادراكات • كما أن الديالكتيك المادي لايعترف بالافكار الفطرية المولودة معالانسان•فالناس يحصلون على المعارف خلال حياتهم في الوسط الاجتماعي • والشيء الذي يتوارث بيولوجياً ليس التصورات والمفاهيم وليس المعرفة الجاهزة لقوانين العالم الخارجي ، بل آلية النشاط العصبي الذي يقوم بدور الأساس الفيزيولوجي لعملية المعرفة • ان نتائج المعرفة ، والأفكار لاتورث بيولوجياً • ويرث الانسان خبرة الأجيال السالفة عن طريق التعلم والتربية ، بعد الاحاطة باللغة وأشكال الفكرة •

إن مصدر جميع معارفنا هو الاحساسات والادراكات التي تعكس العالم الموضوعي • ويزعم المثاليون أن موضوعات الرياضيات ، وخاصة بديهياتها ، ذات طابع سابق للتجربة (مستقل عنها) وأن العقل في الرياضيات يتفاعل مع نتائج ابداعه الذاتي الحر • بيد أن الواقع هو أن مضمون مفاهيم الرياضيات مأخوذ من العالم الواقعي ، وجميع مفاهيم الرياضيات هي في آخر تحليل ذات مصدر تجريبي • والرياضيات نفسها قد نشأت على أساس ممارسة قياس مساحات الأراضي وسعة الأواني ، وحساب الزمن الخ •••

ان من العبث الظن بأن كل فرد منا يحصل على جميع معارفه عن العالم الواقعي من تجربته الذاتية • فالانسان يستفيد من تجربة جنسه (تجربة البشر

على العموم) • أما تجربة الانسان الفرد المباشرة فانها تظل محدودة جداً مهما كان هذا الانسان قوي الملاحظة وثاقب النظر • ان معارفنا المعاصرة هي نتيجة خبرة جميع الناس في الماضي والحاضر ، وعندما يقال ان جميع معارفنا في آخر تحليل متأتية عن التجربة فان الذات صاحبة التجربة في هذه الحالة هي الانسانية •

ان معطيات اعضاء حسّنا لا تشكل سوى الأساس الذي ترتكز عليه معارفنا ولكنها ليست البناء بأكمله • ويكمل التفكير السير قدماً إلى أمام في طريق الحقيقة الموضوعية متوصلاً إلى معرفة قوانين حركة الظواهر ، مما لا يتاح للاحساسات الوصول إليه مباشرة • ان التفكير مرتبط بالاحساسات ولكنه في الوقت نفسه يتميز عنها •

ان الانجاز العظيم الذي حققه الفكر الفلسفي هو ضم الممارسة إلى نظرية المعرفة • فالممارسة هي أساس المعرفة الانسانية ومقياس صحتها • ولا يمكننا أن ندرس الأساس الذي تقوم عليه الصلة بين التفكير والطبيعة إلا إذا أوضحنا الدور الذي تلعبه الممارسة في عملية المعرفة •

لقد حدد لينين طريق معرفة الحقيقة الموضوعية بالكلمات التالية : « من التأمل الحي إلى التفكير المجرد ومنه إلى الممارسة • هذا هو الطريق الديالكتيكي لمعرفة الحقيقة ، معرفة الواقع الموضوعي »[1] •

ان تطور المعرفة يحدث نتيجة للتأثير المتبادل بين العوامل الثلاثة التالية : التأمل الحي ، والتفكير ، والممارسة • وكل واحد من هذه العوامل ضروري ، لأن كلاً منها يعطي ما لا يستطيع الآخران اعطاءه • ان هذا التأثير المتبادل يشمل كل عملية المعرفة من بدايتها حتى النهاية علماً بأن الأساس والعامل الحاسم في هذا التأثير المتبادل هو الممارسة •

ان انتقال معرفتنا من التأمل الحي إلى التفكير المجرد ومنه إلى الممارسة لا يجب أن يحملنا على الظن بأن الأول يلعب دوراً في بداية عملية المعرفة فقط

---

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحتان ١٤٦ ـ ١٤٧ •

والثاني في الوسط والثالثة في النهاية • فالانسان يعود إلى التأمل الحي عندمايقوم بوضع النظرية كذلك • والتفكير يساهم أيضاً في عمليـة المعرفـة التجريبية • أما فيما يخص الممارسة فانها تشارك في عملية المعرفة من البداية حتى النهاية • ان موضوعية النظرية الماركسية عن انتقال المعرفة من الحسي إلى العقلاني ومنه إلى الممارسة تكشف عن الطريق وعن الخط الأساسي الذي تسير حسبه حركة معارفنا انطلاقاً من معرفة الظواهر الى معرفة الجوهر ، من جوهر ذي ترتيب أول إلى جوهر اكثر عمقاً وهكذا •••

الجوهر والظاهرة

الجـوهر ـ هو الجـانب الداخلـي الثـابت نسـبياً من الواقـع الموضوعي ، وهو يحـدد طبيعـة الظاهرة المعطـاة • أما الظاهرة فهي ، خلافاً للجوهر ، الجانب الخارجي من الواقـع الموضـوعي الأكثر تحركاً وتغيراً • الظاهرة هي المظهر الحسي المحدد للجوهر • فجوهر الجمهورية البرلمانية في البلدان الرأسمالية هو ديكتاتورية البرجوازية التـي تحدد طبيعـة السلطـة السياسية في المجتمع البرجوازي • ويظهر هـذا الجوهر ويتجلى في أن جميع أجهزة السلطة السياسية تخضع لاشراف البرجوازية ، وفي ان جميع المؤسسات الحكومية تخدم توطيد سيطرة البرجوازيـة • ان بعض مظـاهر ديكتـاتورية البرجوازية تتغير ، بيد أن جوهر السلطة الحكومية في المجتمع الرأسمالي يبقى دون تغيير ، وهو ديكتاتورية البرجوازية •

ان مفهومي الجوهر والظاهرة قد برزا منذ بداية وجود المعرفة العلمية • إذ أن منطق تطور المعرفة ومتطلبـات النشـاط العملي قـد أفضى بالانسان إلى ضرورة التفريق بين ما يشكل جوهر الشيء وبين المظهر الذي يبدو عليه لنـا هذا الشيء في البداية •

وتتميز الميتافيزيكية بأنها تفصل بين الظـاهرة والجوهر • ويتجلى هـذا الفصل بأشكال مختلفة • فهناك بعض الفلاسفة الذين يعتبرون أن الجوهر هو بداية مثالية خاصة وهو منفصل عن الظواهر التي لاتحتوي على جوهر •ويأخذ بهذه النظرة كثير من ممثلي المثالية الموضوعية•وهناك فلاسفة آخرون يعترفون

بأن الجوهر موجود في الأشياء ذاتها ، ولكنه ليس في متناول الانسان : فالمعرفة الانسانية ـ هي عالم الظواهر التي لاتعبر عن الجوهر الموضوعي للأشياء ، إذ أن بين الجوهر والظاهرة توجد هوة هي من صنع المعرفة الانسانية • وهذه هي وجهة نظر « كانت » وأتباعه •

ان الديالكتيكية المادية تكشف عن الصلة الداخلية الوثيقة بين الجوهر والظاهرة وعن وحدتهما • يقول لينين عن الجوهر والظاهرة « اننا هنا أيضا نرى تحول أحدهما إلى الآخر وانصبابه فيه : فالجوهر يظهر ، والظاهرة جوهرية » (1) •

إن تعبير : « الجوهر يظهر » يعني انه ليس هناك جواهر محضة لاتتجلى في ظواهر ما • فكل جوهر يتجلى في عمليات واحداث وعلاقات ••• الخ حسية محددة • فجوهر الرأسمالية يتجلى في ظواهر معينة مثل الأزمات الاقتصادية والبطالة وإفقار الكادحين الخ •••

وتعبير : « الظاهرة جوهرية » يعني ان في كل ظاهرة يتجلى جوهر• فكل ظاهرة مرتبطة بهذا الشكل أو ذاك مع جوهر وهي الشكل الذي يتجلى فيه هذا الجوهر • فحتى الزبد الذي يطفو على سطح النهر مثلاً هو تعبير عن جوهر ـ تعبير عن المجرى العميق في الأسفل • يقول لينين : « ان الادعاءات الفلسفية المتعلقة بالحدود الخاصة بين هذا وتلك ، المتعلقة بأن الشيء في ذاته موجود « في الجانب الآخر » للظواهر (كانت) أو بأننا يمكن ويجب أن تنفصل بحاجز ما فلسفي عن العالم الذي لم يُعرف بعد هذا الجزء منه أو ذاك ولكنه موجود خارجنا (هيوم) ان كل هذا هراء فارغ ، وهذيان ، واختلاق » (2) •

ان الجوهر والظاهرة ليسا متوحدين فحسب ، بل وهما متضادان كذلك، إذ أنهما لايمكن أن يتطابقا أبداً تطابقاً تاماً • ان تضادهما هو أحد اشكال التعبير

---

(1) لينين : الدفاتر الفلسفية ، الصفحة ٢٣٧ •

(2) لينين : المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ٩٠ ـ ٩١ •

عن التناقضات الداخلية للأشياء التي تقوم بينها علاقات مختلفة فتتجلى خلال هذا جواهرها .

ويعتبر المظهر المرئي أيضاً تجلياً للجوهر ولكنه تجل وحيد الجانب وغير مطابق للجوهر وربما كان مشوهاً أحياناً . فجوهر العلاقات الانتاجية الرأسمالية مثلاً (العلاقات بين رأس المال والعامل) يظهر بشكل علاقات بين الأشياء : فيبدو لنا أن الرأسمالي الذي وظف رأسماله تحت شكل كمية محدودة من المال يجني الربح بواسطة نقوده لا بواسطة العمال الذي يخلقون بعملهم فضل القيمة . لقد كشف الاقتصاد السياسي الماركسي وراء العلاقة بين الأشياء (البضائع ، والنقود كأشياء) كشف عن جوهر الرأسمالية ـ عن العلاقة الاجتماعية بين الناس في المجتمع الرأسمالي وعن استغلال الرأسماليين للعمال .

ان وحدة الظاهرة والجوهر وتباينهما يشكلان الأساس الموضوعي لوحدة الحسي والعقلاني في المعرفة ، الأساس لضرورة حركة المعرفة من الحسي إلى العقلاني أو من التجريبي إلى النظري . ان الاحساسات والادراكات تعكس (في صور حسية) الظواهر والأشياء المنفردة قبل كل شيء ، أما الجوهر فهو غير متاح للادراك الحسي المباشر . ولو أن الجوهر والظاهرة متطابقان لكان العلم من الأمور النافلة التي لا داعي لها . ولهذا فان عملية المعرفة لا يمكنها التوقف عند التأمل الحي بل هي تنتقل إلى التفكير النظري الذي يتوصل إلى جوهر الاشياء على أساس معرفة الظواهر . يقول ماركس : « ان مهمة العلم تقوم في الوصول بالحركة الظاهرة الطافية على سطح الظواهر إلى الحركة الداخلية الواقعية ..»[1]

وبما أن ما يطفو على السطح متاح للأحاسيس ، أما الجوهر فلا يبلغه ألا التفكير ، وبما أن المعرفة الحسية ، بالتالي ، تعتبر، في آخر تحليل،مصدر جميع مفاهيمنا ، فان التأمل الحي يشكل الدرجة الاولى في عملية المعرفة ، أما التفكير النظري فيشكل الدرجة الثانية . وبما أن الممارسة ليست فقط نقطة انطلاق

---

(١) ماركس . رأس المال الجزء ٣ (١٩٥٥) الصفحة ٣٢٤ .

المعرفة وأساسها بل ومقياس صحتها كذلك ، فانها تعتبر ، بالقدر ذاته ، درجة ضرورية في عملية المعرفة وخاتمة لها .

ان العلاقات بين التأمل الحي والتفكير والممارسة هي علاقات معقدة . فالتباين بينها نسبي وحدود تباينها غير ثابتة تبعا لتطور معارفنا . فالرجل العصري لا يمكن ان يكون لديه تجربة حسية غير مرتبطة بعملية التفكير . وهذه الصلة بين المعرفة التجريبية الحسية والتفكير صلة نموذجية جداً في مجال التجربة العلمية . فمن الصعب أحياناً أن تميز التجربة عن النشاط النظري في الفيزياء المعاصرة . ولكن بالرغم من هذه النسبية فان الفروق بين التأمل الحسي الحي والتفكير والممارسة تظل قائمة : انها درجات من نوعية خاصة في حركة المعرفة .

وتتميز التجربة الحسية للانسان عن الاحساسات والادراكات والتصورات لدى الحيوان بأنها ، قبل كل شيء ، تقوم على أساس الممارسة الاجتماعية ـ التاريخية . فالناس يدركون الواقع لا بصفتهم متأملين بل بصفتهم مغيرين مبدعين في غمار العمل والنشاط الخلاق . ان التجربة الحسية لدى الانسان اكثر غنى وتنوعاً وعمقاً منها لدى الحيوان ، لأن الانسان يستطيع بواسطة أدوات الانتاج والملاحظة ، يستطيع النفاذ الى مجالات غير متاحة للحيوان . لقد وجد الانسان الأدوات التي تعتبر بمثابة امتداد لأعضاء حواسه ولدماغه : مثل لاقط الصوت ، ومناظر الرصد والمجهر والآلات الحاسبة الالكترونية الخ ... ويعبر الانسان عن معارفه التجريبية (كما عن تفكيره) بالكلام ، باللغة ، مما يحول هذه المعارف من انعكاس لدى الفرد ، كما هي عند الحيوان ، إلى ظاهرة اجتماعية ، لأن أشكال اللغة مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

ان الانسان يملك خمسة أعضاء للحس ، وكل عضو منها متخصص في ادراك مؤثرات معينة . فالعين ، مثلاً ، تدرك الموجات الضوئية في حدود تتراوح بين ٣٨٠ و ٧٨٠ ميلي ميكرون فقط . وهنا يمكن أن نتساءل : لو أن لانسان كان يتمتع بعدد أكبر من أعضاء الحس ولو أن هذه الأعضاء كانت ذات قدرة اكبر على الادراك أما كان هذا يتيح له التعرف على العالم بشكل أفضل ؟ لقد

طرح المفكرون هـذا السؤال في الماضي وكان بعضهم يعتبر أن زيادة أعضاء الحس من شأنها أن تجعل الحياة الفكرية اكثر غنى وتنوعاً •

لقد سخر فولتير في قصته الفلسفية « ميكروميغاس » وفي معرض الحوار بين ساكن كوكب الشعري اليمانية وساكن كوكب زحل ، سخر من المفكرين الذين يعتبرون ان عدد أعضاء الحس لدى الانسان غير كاف لمعرفة العالممعرفة عميقة ومختلفة الجوانب • فقد جاء في هذه القصة ما يلي : « ••• قل لي في البدء ، كم هو عدد الحواس مثلاً لدىسكان كوكبكم؟ » ـ « فأجابالأكاديمي: اثنتان وسبعون حاسة ولا يكاد يمر يوم بدون أن نشكو من قلة هذا العدد • أن خيالنا يفوق متطلباتنا • ونحن نشـعر ان حواسـنا الاثنتين والسبعين وحلقتنا وأقمارنا الخمسة غير كافية بالنسبة لنا • وبالرغم من حب الاستطلاع والعواطف التي تثيرها فينا حواسنا الاثنتـان والسبعـون فانه يبقى لدينا الكثير من الوقت للسأم » • ـ « فقال ميكروميغاس : هذا ليس بالأمر المستغرب ، فسكان كوكبنا يملكون قرابة ألف حاسة ومع ذلك فنحن نشعر بتوقان ما غامض وبعدم رضى عن أنفسنا لا نعرف سببه يذكرنا دائماً بأننا لا شيء وبأن هناك كائنات اكثر كمالاً منا إلى حد بعيد » •

ان تقدم المعرفة الانسانية لا يرتبط بزيادة عدد اعضاء الحس ولا بكمال هذه الأعضاء ، بقدر ما يرتبط بتطور الممارسة الاجتماعية والتفكير • فالممارسة تتطلب من الناس أن يعرفوا اكثر مما تعطينا إياه أعضاء الحس مباشرة ، وهي تسد ، مع التفكير ، هذه الحجة • فالعمل والتفكير قد وسعا بغير حدود امكانية أعضاء حسنا على المعرفة ، وجعلا حياتنا الفكرية اكثـر تنوعاً وغنىً وأعمق مضموناً •

ان الانسان يملك العدد اللازم له من أعضـاء الحس ، وهذه الأعضـاء تقوم بادراك ما هو لازم له في الحياة • بيد ان الممارسة تخلق الحاجة لمعرفة خواص معينة في الظواهر غير متاحة مباشرة لادراك أعضـاء الحس • غير ان المحدودية الطبيعية لهذه الأعضاء لا تشكل أبداً عقبة مبدئية أمام معرفة مثل هذه

الظواهر . فالانسان مثلاً لا يرى الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمـراء ، ولكنه يعرف خواصها بصورة أفضـل من معرفة بعض الحيوانات التي تـرى هذه الأشعة مباشرة ، لها .

ان التأمل الحي يبرز في مختلف فروع العلم بأشكال مختلفة .ففي مجال العلوم الطبيعية تطبق عادة طريقة الملاحظات المخبرية بما فيها التجربة . بيد أن طبيعة الظواهر التي تدرسها العلوم الاجتماعية تحد من استعمال التجربة ، بل وتستثنيه في بعض الأحيان . ان باحث الطبيعة يستطيع دائماً تقريباً ان يلاحظ الظواهر التي يدرسها ، والتي تتكرر مرات عديدة ولفترة طويلة . أما المؤرخ فمحروم من هذه الامكانية ولذا فهو يستعمـل في تعميماته اكثر ما يستعمـل التجربة المثبتة في مختلف المراجع التاريخية .

ان احدى الخصائص التي تتصف بها التجربة الحسية لدى الانسان تقوم في أن هذه التجربة مرتبطة بالتفكير . فالانسان يلاحظ ظواهر الطبيعة والمجتمع مسترشداً بمفاهيم ونظريات معينة . وهناك وقائع بعينها ، وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية ، تدرك وتصور بأشكال مختلفـة من قبـل أناس مختلفين . ولذا يترتب علينا أن نقف من تجربة الناس موقف الناقد ، لكي نميز بين الواقعـة والظاهرة الملاحظة وبين تفسيرها الذاتي من قبل هذا الانسان المدرك لها أو ذاك .

ان معطيات الملاحظة الحسية المباشرة تعرفنا على تلك الوقائع التي ننطلق منها فيما بعد عند وضع النظرية . ولا يمكننا أن نعتبر النظرية ، أية نظرية ، صحيحة إذا كانت تناقض الوقائع .

ولكن غالباً ما نقبل ، في عملية المعرفة ، واقعة ما على أنها حقيقية مع أنها في الواقع ليست بواقعة . ويمكن أن تقع أخطاء في الملاحظات والتجارب . وقد حدث في تاريخ العلم ان وضع بعض العلماء نظريات كاملة ونقضوا تصورات علمية سابقة معتمدين على وقائع غير أكيدة ودون أن يجري التحقق منها بشكل كاف ، مما كان يعود بالضرر على تطور العلم . وقد سمى الاكاديمي بافلوف الوقائع مجازاً بـ « هواء العالم » . إذ يجب جمعها بدقة ومثابرة ويجب التحقق

من صلاحيتها باستمرار • بيد أن جمع الوقائع الأكيدة التي أمكن التوصل إليها عن طريق خبرة السنين العديدة غير كاف وحده لتشكيل العلم • فالعلم يبدأ حيث ينكشف جوهر الظواهر وقوانين حركتها وتطورها •

ان التجربة الحسية محدودة • فالوحيد والعام والصدفي والضروري والجوهر والظاهرة فيها غير منفصلة احدها عن الآخر • فقد لاحظ الناس البرق مثلاً منذ القديم ولاحظوا أشكاله المختلفة ولكنهم ظلوا وقتاً طويلاً يجهلون جوهر هذه العملية • ولم يثبت ان البرق عبارة عن شحنة كهربائية إلا في أعقاب النجاحات التي أحرزتها الفيزياء وخاصة في مجال الكهرباء ، وإلا على أساس تعميم وقائع عديدة • وكان هذا الاستنتاج حصيلة لنشاط تفكير الانسان •

ان التأمل الحي يعكس ظواهر الواقع عكساً مباشراً • أما التفكير فيعتبر درجة جديدة وأصيلة نوعياً في تطور المعرفة ، وهو يعتمد على الاحساسات والادراكات • ويتجه التفكير إلى معرفة الصلات الداخلية المقنونة للظواهر • ويكمن جوهر التفكير النظري في أن هذا الأخير ينصب على معرفة العام في الظواهر ، الأمر الذي يتعذر تحقيقه على التأمل الحي الذي يتعرف على الظواهر الوحيدة وعلى خواصها المنفردة • ان كل هذا يدل على أن الانتقال من المعرفة الحسية إلى التفكير المجرد يشكل قفزة نوعية في تطور المعرفة •

ان التفكير يعكس الواقع في شكل مفاهيم ، تجريدات (تجريد جوانب منفردة من الشيء) وهو يبتعد عن التصورات المباشرة عن الشيء ليفرز ما هو رئيسي وجوهري فيه • وهكذا نجد في التفكير نقاطاً لا أبعاد لها وخطوطاً لا عرض لها في حين ان الواقع نفسه لا يحوي مثل هذه النقاط والخطوط •

بيد أن ابتعاد الفكرة عن الشيء المحسوس لا يعني الابتعاد عن الحقيقة • يقول لينين : « ان التفكير الذي يرتقي من المحسوس إلى المجرد لا يبتعد ــ فيما إذا كان صحيحاً ــ عن الحقيقة بل يقترب منها • إن المفاهيم المجردة : المادة ، القانون ، الطبيعة ، القيمة الخ ••• وبكلمة واحدة جميع

التجريدات العلمية (الصحيحة) ، الجدّية (لا المختلقة) تعكس الطبيعة بشكل أعمق وأصح وأكمل » [1] •

ان التجريد يبرز جانباً واحداً ما من جوانب الشيء في « شكله المحض » الذي لا يتوفر في الواقع ، أو يكشف ويعبر عن اكثر الجوانب أهمية وجوهرية في الشيء ، في الظاهرة دون أن يتعرض للجوانب الثانوية وغير الجوهرية • ليس هناك « انتاج » على العموم ولا « قانون » على العموم ، بل هناك أشكال محسوسة للانتاج وقوانين محسوسة• بيد اننا لانستطيع فهم أي شكل محسوس من أشكال الانتاج بعمق بدون مفهوم « الانتاج » المجرد • فلكي نفهم جوهر أسلوب الانتاج الرأسمالي يجب أن نعرف ما هو الانتاج على العموم ومن أية عناصر يتألف وما هو المكان الذي يحتله في حياة المجتمع • فبواسطة التجريد يحيط الانسان بأدق العمليات التي تجري في الطبيعة والمجتمع •

ولا يكون التجريد ذا قيمة إلاّ حينما يعكس الجانب الجوهري في الشيء• أما إذا أبرز التجريد الجوانب غير الجوهرية وركز الاهتمام على العوامل الثانوية فانه يصبح تجريداً فارغاً ، سخيفاً وغير معقول • فعند دراسة الانسان مثلاً يمكن أن نعطي التعريف التالي أو التجريد التالي على غرار القدماء : الانسان هو حيوان ذو قائمتين ، مجرد من الوبر والريش • ان هذا التجريد لايتمتع بأية قيمة علمية لأنه يعكس جوانب غير جوهرية ولا يساعد على تحديد مكان الانسان في الطبيعة •

٤ ـ ديالكتيكية المجرد والمحسوس ، المنطقي والتاريخي

لكي ندرك كيف يتوصل التفكير النظري إلى جوهر الظواهر وكيف يصور الشيء في وعي الناس ينبغي علينا دراسة بعض مقولات الديالكتيكية المادية مثل: المجرد والمحسوس ، المنطقي والتاريخي •

ان معرفة الشيء من عدة جوانب هي معرفة محسوسة • أما معرفة جانب

---

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحة ١٤٦ •

واحد ما من جوانب الشيء فهي معرفة مجردة • وتعتبر المعرفة المحسوسة ممكنة لأن الشيء نفسه يعتبر وحدة أمور عدة : جوانب وخواص مختلفة وما شابه ذلك • فالكلمة في اللغة مثلاً تملك جانباً لفظياً (تركيباً صوتياً معيناً) وجانباً معنوياً (فالكلمة تعني شيئاً ما) وجانباً نحوياً (فهي ترتبط مع غيرها من الكلمات في الجملة حسب قواعد معينة) الخ ••• وتنحصر مهمة العلم في الكشف عن الجوانب العديدة للشيء في وحدتها •

وتعتبر المعرفة المجردة ممكنة لأن الجوانب والخواص المنفردة للشيء مستقلة نسبياً ، ونوعية ، ولذا فمن الممكن أن نبرز خلال عملية المعرفة خاصة واحدة وجانباً واحداً ونغض النظر عن الخواص والجوانب الأخرى • فعند دراسة الكلمة يمكن تركيز الانتباه على معناها كما نفعل في فرع علم اللغة الذي ندعوه بـ « السيماسبولوغيا » أي فرع « دراسة معاني الكلمات » •

أما التأمل الحي فيعرفنا على الشيء بشكل محسوس لأنه يحيط بالشيء في تنوع خواصه وجوانبه • بيد أن المعرفة الحسية ـ المحددة لا تكشف عن جوهر الشيء ولذا تنتقل المعرفة منه الى التجريدات المنفردة • ان عملية المعرفة لاتنتهي بتشكيل هذه التجريدات • فلا بد من الحصول على معرفة محسوسة متعددة الجوانب • والعلم يتحرك من جديد منطلقاً من التجريدات المنفردة إلى المحسوس • بيد أن هذا لا يعني العودة إلى الحسي ـ المحدد بل يعني اعادة تصوير المحسوس في التفكير ـ الشكل الأعلى من المعرفة • يقول ماركس : « يعتبر المحسوس محسوساً لأنه في الوقت نفسه مزيج من تحديدات كثيرة ووحدة لأشكال متعددة • ولهذا فانه يبدو في التفكير كعملية تركيب كنتيجة ، لا كنقطة انطلاق ، بالرغم من أنه في الواقع نقطة انطلاق ، وبالتالي فانه نقطة انطلاق التأمل والتصور • ففي الطريق الأول يسمو التصور الكامل حتى درجة التحديد المجرد ؛ أما في الطريق الثاني فان التحديدات المجردة تفضي إلى اعادة خلق المحسوس عن طريق التفكير »[1] •

---

(١) ماركس • حول نقد الاقتصاد السياسي ١٩٥٣ صفحة ٢١٣ •

لقد اعتبر الميتافيزيكيون أن فرز تحديدات مجردة منفردة هو نهاية البحث العلمي • وحصروا جميع عملية التفكير النظري في نطاق تشكيل التجريدات الهزيلة • كان الاقتصاد السياسي قبل ماركس ينطلق في تحليل الظواهر من الكامل الحي ، المحسوس المعطى لنا في احساساتنا وادراكاتنا • وكان يحلل هذا المحسوس ويفرز تجريدات منفردة مثل : العمل ، توزيع العمل ، قيمة التبادل الخ ••• وكانت محدودية أبحاث هذا الاقتصاد تقوم في أن فرز تجريدات منفردة كان يعتبر النقطة النهائية في المعرفة • وكان ما يشغل هذا الاقتصاد بشكل رئيسي هو تحليل وتجزئة التام المحسوس الحي إلى جوانب منفردة ولذا فلم يكن يعطي معلومات عن الشيء في تمامه المحسوس •

وقد استعمل ماركس ما كان يسميه الاقتصاديون السابقون بالنتيجة النهائية للبحث ، استعمله من أجل متابعة أبحاثه • وبعد أن حلل وعمم معطيات واقعية ضخمة فرز أبسط التجريدات التي تعكس أبسط العلاقات الأساسية العادية التي نصادفها مليارات المرات في المجتمع البرجوازي : وهي تبادل السلع • ومن هذا المجرد والبسيط يرتقي ماركس إلى الأكثر تعقيداً وحسية • فالجزء الأول من رأس المال مكرس في الأساس لبحث عملية الانتاج الرأسمالية في شكلها العام • ويبدأ ماركس ببحث أبسط المقولات الاقتصادية : السلعة النقد ـ ثم ينتقل في الجزء الثاني إلى توضيح عملية التداول التي لابد منها في الانتاج الرأسمالي ، ثم ينتهي في الجزء الثالث إلى بحث علاقات الانتاج الرأسمالي بكاملها وبصفتها وحدة الانتاج والتداول • وتبرز الرأسمالية هنا ككل محسوس مع جميع التناقضات التي تقودها إلى الهلاك • والمحسوس في هذه الحالة لايبرز فقط كنتيجة للتأمل الحي لظواهر الرأسمالية ، بل وكمجموعة لتحديدات مجردة عديدة متعلقة بصفات الرأسمالية الأساسية •

ان التفكير النظري يعطي معرفة محسوسة متعددة الجوانب عن الامبريالية بصفتها المرحلة العليا في تطور الرأسمالية • وقد كشف لينين عن السمات الجوهرية الاساسية التالية للامبريالية :

١) تركز الانتاج ورأس المال إلى درجة عالية تؤدي إلى ظهور الاحتكارات التي تلعب دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية • ٢) اندماج رأس المال المصرفي مع رأس المال الصناعي وسيادة رأس المال المالي • ٣) الأهمية العظمى لتصدير رأس المال • ٤) تشكيل اتحادات احتكارية دولية للرأسماليين الذي يقسمون العالم فيما بينهم إلى مناطق نفوذ • ٥) إتمام تقسيم العالم بين الدول الرأسمالية الكبرى • ان كل واحد من هذه التجريدات يعبر بمفرده عن جانب جوهري من جوانب الامبريالية ، وهي بمجموعها تعطينا معلومات متعددة الجوانب عن الامبريالية •

ان المعرفة الحسية عن الشيء لاتظهر نتيجة الربط الميكانيكي بين التجريدات الموضوعة في أوقات مختلفة ومناسبات مختلفة ، بل تظهر عن طريق تطور المجرد واغنائه بمحتوى جديد يعكس الشيء بعمق وشمول متزايدين• وبنتيجة الانتقال من المجرد إلى المحسوس تتشكل تجريدات جديدة بمثابة تتمة منطقية للسابقة • ان التجريدات المنفردة في المعرفة الحسية متحدة بمبدأ عام ، بفكرة موحدة تعكس القنونة الرئيسية في حركة الشيء • وعلى هذا نجد أن السمة الرئيسية للامبريالية هي أنها رأسمالية احتكارية ، أما السمات الأخرى فتنبع من جوهر الامبريالية المذكور • وهذه السمات موحدة ويمكن فهمها فقط في صلتها مع هذا الجوهر •

إن ارتقاء المعرفة من المجرد إلى المحسوس لايحدث في الاقتصاد السياسي فقط • فهو قانون عام لتطور المعرفة الانسانية • وهكذا نجد أن معارفنا عن نشوء الأرض والكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية تتطور أيضاً من المجرد إلى المحسوس في التفكير • فالفرضيات الأولى في علم الكون ، التي طرحها علم العصر الحديث كانت ذات طابع تجريدي إلى الحد الأقصى لأنها كانت تجد جانباً واحداً ما في العملية المعقدة والمتعددة الجوانب لنشوء الكواكب تجعل هذا الجانب مطلقاً• ففرضيات «كانت» و«لابلاس»مثلاً تنطلق من قوانين الميكانيك فقط• أما الفرضيات الكونية المعاصرة فتعطي صورة اكثر تحديداً لعملية نشوء الأرض• وهي تحاول ، معتمدة على معارف علم الفلك والميكانيك والفيزياء والكيمياء

والجولوجيا الخ ••• تحاول عن طريق دمج التجريدات العديـدة أن تلقي الضوء بشكل شامل وتام على العملية المعقـدة لنشـوء الكواكب ، وأن تصور المحسوس بكل تمامه •

ان التجريدات توضع ، بالطبع ، كتعميم للمعرفة التجريبية ، وظهورها مسبوق بالمعرفة الحسية ـ المحددة •

وينظر الديالكتيك المادي إلى المجرد والمحسوس كعاملين في التوصل إلى جوهر الشيء •

ان المجرد ـ هو وسيلة لبلوغ المحسوس • وقد كتب لينين ان العام ميت غير تام « ولكنه ليس اكثر من درجة لمعرفـة المحسوس ، ذلك لأننـا لايمكن أبداً أن نعرف المحسوس تمام المعرفة•ان المجموع اللانهائي للمفاهيم والقوانين الخ ••• يعطينا المحسوس بتمامه »[1] •

ان المحسوس في التفكير هو اكثر المعارف عن الأشياء عمقاً واغناها محتوى• وهذه المعرفة تفوق المعرفة المجردة لأنها لاتعكس جانباً جوهرياً ما واحداً من جوانب الشيء ، بل مختلف جوانبه الجوهرية في صلتها بعضها ببعض ، أي أنها تتناول الشيء من عدة جوانب • وهي كذلك تفوق المعرفة الحسية ـ المحددة لأنها لاتعكس صفات الشيء السطحية الخارجية في صلتها المباشرة المتاحة للتأمل الحسي ، بل تعكس الجوانب الجوهرية في صلاتها الجوهرية كذلك •

لقد جعل المثالي هيجل من عملية الارتقاء من المجرد إلى المحسوس عملية صوفية ، مفترضاً انه بنتيجة هذه العملية، يتولد الشيء المحسوس نفسه• واذا كان الارتقاء من المجرد إلى المحسوس هو ظهور الشيء نفسه لدى هيجل، فانه لدى ماركس « ليس اكثر من وسيلة يستعين بها التفكير لاستيعاب المحسوس ، ويعيد خلقه معنوياً كمحسوس » • ففي انتقال المعرفة من المجرد إلى المحسوس لاينشأ الشيء المحسوس نفسه (إذ أنه كان موجوداً قبل عملية المعرفة وباستقلال عنها)،

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحة ٢٦١ •

بل ينشأ مفهوم محسوس عن الشيء الموجود • إن هذا الارتقاء يعني لدى المادي الانتقال إلى المعرفة الشاملة لجوهر الشيء ممـا يؤدي إلى تغيير الصورة التي عرفنا الشيء بها وإلى اغنائها ، ولكن لايعني الشيء ذاته •

وعلى هذا فان المنطق الديالكتيكي يعتبر ان المحسوس هو نقطـة البـدء والنهاية في عملية المعرفة • ان الحسي ـ المحدد هو نقطة الانطلاق في المعرفة • والمحسوس الذي يعيد التفكير خلقه هو نتيجة المعرفة،أما التجريدات المنفردة ـ فهي الوسيلة لبلوغ هذه النتيجة •

ولكي نفهم قوانين تطور المعرفة وديالكتيكية هذه الأخيرة لابـد لنـا من ايضاح العلاقة المتبادلة بين التاريخي والمنطقي في عملية بلوغ المعارف المحسوسة عن الشيء • واصطلاح « التاريخي » يعني هنا تطور الشيء الحقيقي نفسه ، أما « المنطقي » فهو انعكاس التاريخي • وعلى هـذا فان الأولي هو التـاريخي والثانوي هو المنطقي • فليس التاريخ هو الذي يتبع المنطق ، كما هـو الأمـر لدى هيجل ، بل المنطق هو الذي يعكس المراحل الأساسية للتاريخ • وتطور الشيء يشتمل على المصادفات ، والتعرجات ، والانحراف عن الطريق الرئيسية إلى هذه الناحية أو تلك • ان المنطقي لايكرر التاريخي في كل التفاصيل ، بل يعكس الرئيسي ، يعكس جوهر التاريخي في تجريدات على أساس دراسة كل ما تحويه العملية الحقيقية للتطور • ان المنطقي والتاريخي متوحدان ولكنهمـا ليسا متطابقين • وهما يتفقان في الرئيسي والجوهري • فالمنطقي هو التـاريخي نفسه ولكن بعد تخليصه من مصادفات الشكل التاريخي • فكتاب « رأس المال » لماركس مثلاً يكشف ، في مقولات منطقية ، عملية صيرورة علاقات الانتاج الرأسمالية ، أي نشوءها وتشكلها • ويعمد ماركس خلال هـذا إلى التجرد عن خصائص نشوء وتطور الرأسمالية في بلدان منفردة •

ان مهمة العلم تقوم على عكس الصلة التاريخية الأساسية القـائـدة بين الظواهر خلال تطور الشيء المدروس • يقول لينين : « ان اكثر الأمور ضماناً في مسألة العلم الاجتماعي واكثرها ضرورة لاكتساب خبرة واقعية في تناول هذه

المسألة بشكل صحيح ولتجنب الضياع في خضم التفاصيل الصغيرة أو في خضم التنوع الضخم للآراء المتضاربة ، ان أهم الأمور الواجب توفرها لتناول هـذه المسألة من وجهة النظر العلمية هو عدم نسيان الصلـة التـاريخيـة الأساسية ، والنظر إلى كل مسألة من الوجهة التالية : كيف برزت هذه الظاهرة المعينة في التاريخ ؟ وما هي المراحل الرئيسية التي مرت بها هـذه الظاهرة ؟ والنظر من وجهة نظر تطورها هذا إلى ما آل إليه هذا الشيء المعين الآن » (١) •

ان وحدة المنطقي والتاريخي المفهومة من وجهة نظر المادية هي المبـدأ الرائد لبناء العلم ومنظومة مقولاته • والاطراد المتسلسل في حركة مفاهيم العلم يجب أن يعكس الصلة التاريخية الأساسية بين الظواهر التي يدرسها هذا العلم•

ان المنطقي هو الانعكاس المعمم والمصحح للتـاريخي بمعنى أنـه يعكس الواقع في تطوره المقنون ويوضح ضرورة هذا التطور • ومن أجل هذا الغرض يستطيع المنطقي بل ويجب عليه أحياناً أن يبتعد عن التاريخي الحقيقي لهـذا الشيء المعين أو ذاك ، لأن هذا الشيء يمكن أن يكون غير نموذجي في هـذه الناحية أو تلك• فعند الكشف عن جوهر الثورة الاشتراكية، مثلاً ،وعن مراحلها الأساسية يمكن للنظرية ان تبتعد في بعض النقاط عن تسلسل مراحل الثورة في هذا البلد أو ذاك ، لأن هذه المراحل تعبر عن خصـائص الثـورة في البلد المعني • بيد أن ابتعاد العكس المنطقي هذا عن التتبع الدقيق للتاريخ يحدث وفقاً لقوانين التاريخ وعلى أساس تعميم تطور ظواهر عديدة من جنس واحد ، مما يؤدي إلى كشف جوهرها • ان تجربة الثورات في روسيا والصين وغيرهما من بلدان الديمقراطيات الشعبية يفسح المجال لتباين العـام والرئيسي في الثـورة الاشتراكية على نحو أفضل وأدق ، كما يعطي امكانية فصل العام عن الخـاص النوعي بالنسبة لهذا البلد أو ذاك •

ان التناول التاريخي بدون المنطقي يصبح عشـوائيـاً ، والمنطقي بـدون التاريخي يصبح بدون موضوع • وعلى هذا فعند دراسة تاريخ صيرورة الانسان

---

(١) لينين : المؤلفات الجزء ٢٩ الصفحة ٤٣٦ •

يمكن وصف العملية التاريخية الحقيقية لتغير الأذنين ، والفكين والأسنان والقدمين والمشية الخ لدى أسلافنا . فكل هذه الظواهر مرتبطة بعملية تشكل الانسان . بيد ان الوصف البسيط لهذه التغيرات لايكشف عن التاريخ الفعلي لنشوء الانسان . فبدون أن نفهم ما هو الانسان لايمكن فهم تاريخ نشوئه . وكذلك الأمر بالنسبة للرأسمالية مثلاً . فاذا نحن لم نكشف عن جوهرها لايمكننا أن نصور تاريخ علاقات الانتاج البرجوازي . ولكن بالاضافة إلى ذلك لايمكن الكشف عن جوهر الشيء إذا أهملنا تاريخه الواقعي . فالتناول المنطقي قائم على أساس دراسة العملية الفعلية لتطور الشيء وهو يهدف إلى الكشف عن جوهره . ولكي يتم التوصل إلى هذا ينبغي تناول الظواهر في تلك المرحلة من التطور ، حين « تبلغ العملية ــ حسب تعبير انجلز ــ مرحلة نضجها التام وشكلها الكلاسيكي » . فجوهر الانسان مثلاً يمكن أن نفهمه على أفضل نحو عند تحليل الانسان المعاصر ، لا انسان الغاب . وجوهر الرأسمالية تمكن الاحاطة به عن طريق دراسة العلاقات الرأسمالية الناضجة . إن دراسة ماسبق تعين بالطبع على دراسة ما لحق . ولكن معرفة نتيجة التطور تسمح بنفس القدر بمعرفة المراحل السابقة بصورة أعمق .ان بامكاننا أن نرى في الشكل الناضج على نحو واضح وساطع ماكان في السابق رشيماً لااكثر .فالشكل الأعلى للتطور يشتمل على كل الأشكال الدنيا على هذا النحو أو ذاك . وعندما نحلل جوهر الشكل الأعلى للحركة نكشف بهذا الشكل أو ذاك عن المراحل السابقة أي عن التاريخ . وعلى هذا فان العلاقات الرأسمالية الناضجة تلخص كل تاريخ نشوئها وتطورها .

ان مبدأ وحدة المنطقي والتاريخي لابد من تطبيقه في دراسة عملية المعرفة كذلك . فنظرية الشيء تشتمل على تاريخ هذه النظرية أيضاً . وبدون معرفة جوهر النظرية العلمية الحديثة يبدو تاريخ الفكرة العلمية السابق مجرد تجميع لأخطاء مفكرين عظماء . ولا يمكننا في هذه الحالة أن نفهم الخط الرئيسي في التطور التاريخي . ان التاريخ الواقعي للفيزياء لايمكن كتابته إلا إذا ارتفعنا

لمستوى العلم المعاصر ، كما أنه لايمكننا وضع التاريخ العلمي للفلسفة إلاّ من مواقع الانجازات العليا للفلسفة أي ـ المادية الديالكتيكية والتاريخية •

ولكن قولنا بأن دراسة جوهر الشيء يكشف إلى حد ما عن تاريخ هـذا الشيء لاينتج عنه ان المنطقي يستثني دراسة التاريخ ويجعل منها أمراً نافلاً • إن العكس هو الصحيح إذ أن المنهج المادي يطالب بالضرورة بدراسة التاريخ الحقيقي للشيء مع جميع تفاصيله • فبدون دراسة تاريخ الشيء لايمكن وضع نظرية عنه • والكشف عن تاريخ الشيء أي عن تطوره هو مهمـة أي بحث علمي • ان النظرة الديالكتيكية هي نظرة تاريخية حقيقية • وبدون دراسـة التاريخ لايمكن عكس جوهر العملية منطقياً • يقـول انجلز : « ان التطـور المنطقي ليس ملزماً أبداً بالبقاء في المجال التجريدي المحض فقط ،بل بالعكس، فهو يحتاج إلى استشهادات تاريخية وإلى تماس دائم مع الواقع » [1] •

ان كشف المنطق والتفكير لجوهر هذه العملية أو تلك في شكلها الناضج ليس نهاية البحث العلمي • فالمنطقي ليس إلاّ واسطة لمعرفة التاريخي • وهو يقدم المبدأ للدراسة الشاملة • وعندما نضع معرفـة الجـوهر في أساس سرد تاريخ الشيء نكون بهذا قد وضحنا جميع التفاصيل والمصادفات والانحرافات التاريخية وجعلناها مفهومة ، ووضحنا دورها في التطـور الضروري للشيء ، وبذا تصبح معرفة التاريخ حية وكاملة •ولكن إذا بقيت التفاصيل التاريخيةبدون رابط يربط بينها فانها تستحيل إلى مجموعة مصادفات وكومة منالوقائعالخام• ان المزج بين المنطقي والتاريخي هو وحده الذي يفسح امكانيـة الفهم العميق والشامل لتطور الظواهر في الطبيعة والمجتمع والتفكير ولحركتها المقنونة الغنية بالمحتوى •

٥ ـ أشكال التفكير ودورها في المعرفة

ان اشكالُ التفكير هي عوامل المعرفة ووسائلها ، إذ يعكس الانسان فيهـا القنونة الشاملة للطبيعة المتحركة أبداً • وتتم العملية المنطقية لوضع صورةعلمية

(١) انظر : ماركس • حول نقد الاقتصاد السياسي • صفحة ٢٣٨ •

عن العالم بواسطة المحاكمات والاستنتاجات العقلية والفرضيات والنظريات والمفاهيم والمقولات ••• الخ

ان المسألة الرئيسية في المنطق الديالكتيكي هي دراسة تشكل وتطور أشكال التفكير وتوضيح دور الممارسة في حركة هذه الأشكال • ويدرس الديالكتيك هذه الأشكال من جميع الجوانب ويكشف عن محتواها الموضوعي ويظهر علاقاتها المتبادلة في عملية التوصل إلى المعرفة الصحيحة عن العالم •

وتعتبر المحاكمة أحد اشكال التفكير الذي بواسطته نتعرف على مختلف جوانب وخواص وعلاقات الأشياء • ان المحاكمة هي الفكرة التي تثبت أو تنفي شيئاً ما عن شيء ما • وفيها تنعكس ديالكتيكية الوحيد والعام • ففي قولنا : « الذهب ـ معدن » مثلاً يكون الذهب هو الوحيد والمعدن هو العام • وخلال عملية المعرفة يتم الانتقال من احدى المحاكمات إلى الأخرى ومن أحد مستويات المعرفة إلى مستوى آخر أعلى منه • والأشكال المختلفة للمحاكمة هي حلقات منفردة لهذه العملية ومراحل فيها •

ان المعرفة تسير من الوحيد وعبر الخاص إلى العام • وبهذه الطريق ذاتها يسير تطور المحاكمة: من محاكمة الوحيدات وعبر محاكمة الخصوصيات إلى محاكمة العموميات • ففي محاكمة الوحيدات تتعين الصلة بين ظواهر ما ، ثم يؤدي التطور اللاحق للمعرفة إلى صياغة محاكمة ينعكس فيها قانون الصلة بين أشكال خاصة من الحركة (محاكمة الخصوصيات) ثم ننتهي إلى معرفة القانون العام للتطور في محاكمة العموميات • وهكذا فقد أثبت العلم في البداءة ان ذرات عنصر منفرد ، كالراديوم مثلاً ، يمكن ان تتجزأ إلى أقسام أبسط ؛ وكان هذا محاكمة للوحيدات • ثم تمت صياغة محاكمة الخصوصيات وهي ان مجموعة كاملة من أثقل العناصر المعروفة لدينا تتصف بخاصة الاشعاع الطبيعي • وقد بلغ العلم في الوقت الحاضر مستوى يستطيع معه أن يصيغ محاكمة العموميات وهي ان كل عنصر كيميائي يمكن أن يتحول إلى عنصر آخر في ظروف معينة •

ومما له أهمية كبرى في عملية المعرفة هو الاستنتاج العقلي • وهو شكل

من أشكال التفكير يمكن بواسطته استخلاص معرفة جديدة على أساس معرفة سابقة مثبتة من قبل • فالانسان مثلاً لم يقس المسافة بين الأرض والأجرام السماوية الأخرى قياساً مباشراً • بيد أنه يعرف هذه المسافات على أساس الاستنتاج العقلي • ان الأساس الموضوعي لامكانية الانتقال من المعلوم إلى المجهول هو القنونة السائدة في الطبيعة والمجتمع • فالصلة المقنونة بين الظواهر تتصف بطابع الشمول، ولذا فاننا نستطيع ، على أساس معرفة هذه القنونة ، أن نستخلص النتائج عن الظواهر التي لاتخضع للملاحظة المباشرة ولكنها تخضع لتأثير قوانين معلومة • فالانسان لايدرك الذرات حسيا ولكنه يعرف على أساس الاستنتاجات العقلية من القوانين المعروفة ان جميع الذرات تحوي الكترونات وبروتونات ونيترونات •

ان أشكال الاستنتاج العقلي متعددة : فبعضها يعطي نتائج اكيدة وبعضها يعطي نتائج محتملة إلى هذا الحد وأذاك • وقد جرت في تاريخ الفلسفة محاولات لابراز نموذج وحيد من نماذج الاستنتاج العقلي بصفته الأسلوب الوحيد المضمون والقيم للحصول على نتائج جديدة • وهكذا اعتبر التجريبيان (بيكون ولوك) ان هذا الأسلوب هو الاستقراء حيث يجري الاستنتاج العقلي من الجزئي إلى العام ، ومن الوقائع المنفردة إلى النتيجة العامة • أما العقلانيون (مثل ديكارت وغيره) فقد ضخموا دور الاستنتاج وهو الاستنتاج العقلي من العام إلى الجزئي ، حيث يعمم الحكم العام على الحوادث الجزئية المنفردة • بيد أن نظرتي هؤلاء وأولئك تعتبران وحيدتي الجانب ، فليس هناك فرع من فروع العلم يجري فيه الاستنتاج العقلي بواسطة الاستقراء وحده أو الاستنتاج وحده •

ان المنطق الديالكتيكي يكشف عن الصلة ، عن الوحدة بين مختلف أشكال الاستنتاج العقلي في عملية معرفة الواقع • فالاستنتاج والاستقراء يكمل أحدهما الآخر بالتبادل • ويقول انجلز « بدلاً من أن نرفع أحدهما من جانب واحد إلى السماوات على حساب الآخر ، ينبغي ان نجهد لتطبيق كل منهما في

المكان الملائم • ولا يمكن تحقيق هذا إلاّ إذا لم نغفل الصلة بينهما واكمال أحدهما للآخر بالتبادل »[1] •

أثناء عملية المعرفة يلاحظ الانسان حالات جزئية منفردة ثم يعممها ويصيغ موضوعة ، عامة • وهذا ما يسمى بعملية الاستقراء • ثم ينشر هذا التعميم على ظواهر ووقائع وحالات جديدة • وهذا ما يسمى بالاستنتاج • فعندما درس منديلييف مثلاً عناصر كيميائية منفردة وجد صلة بين الوزن الجوهري للعناصر وبين خواصها الكيميائية ، وقاده هذا إلى صياغة القانون الدوري • ومن هذا القانون استخلص عدداً من النتائج الجزئية (الاستنتاج) بالنسبة لعناصر منفردة: فقد تنبأ بخواص عناصر جديدة غير مكتشفة بعد ، وصحح الأوزان الجوهرية لبعض العناصر التي لم تكن مدروسة بقدر كاف •••الخ•وهكذا يجري تطور المعارف عن طريق الصلة المتبادلة والاكمال المتبادل بين الاستقراء والاستنتاج •

ان الاستنتاج لايمكنه الاستغناء عن الاستقراء : فلكي نستخلص نتيجة من العام لابد لنا من الحصول على هذا العام • إذ أن الانسان لايملك معارف فطرية مولودة معه • وكذلك فان الاستقراء بدوره يفترض الاستنتاج بالضرورة• إذ لايمكننا الحصول على معارف اكيدة على أساس الاستقراء وحده•والملاحظة البسيطة لتكرر خاصة ما لدى عدد من الأشياء لاتكفي بعدُ لاقامة البرهان على ضرورة وقانونية هذه الخاصة بالنسبة لكل أشياء النوع المعني • ولا بد لنا من التحقق من صحة التعميم الذي نحصل عليه نتيجة الاستقراء،ثم ينبغي استخلاص كل ما ينتج عنه والتحقق من هذه النتائج بواسطة الممارسة العملية • وهكذا نرى أن المعرفة الأكيدة لاتتأتى إلا عن الصلة المتبادلة بين الاستقراء والاستنتاج والممارسة •

ان العلم لايتوصل دفعة واحدة إلى المعرفة الاكيدة لجوهر ، وقانون تطور الظواهر • فالطريق إلى هذه المعرفة تمر عبر وضع الفرضيات والتخمينات، والتحقق من الفرضيات بواسطة الممارسة • وعندما يدرس العالم بعض الظواهر

---

(١) انجلز • ديالكتيك الطبيعة صفحة ١٨١ •

يقدم تفسيراً لها (يضع تخمينات عن الصلة المقنونة بين هذه الظواهر) • ثم تقوده الدراسة اللاحقة الى إكتشاف وقائع جديدة،يمكن أن يجد بينها مايتناقض مع الفرضية التي كان قد وضعها • وعندئذ تبرز الحاجة إلى أسلوب جديد في التفسير (أي إلى فرضية جديدة) • وهكذا فان العالم بانتقاله من تفسير إلى آخر اكثر دقة يصل إلى اكتشاف القانون •

في عام ١٨٩٦ اكتشف بيكيريل ظاهرة الاشعاع في الأورانيوم ومركباته• ثم تلى ذلك اكتشاف الاشعاع في املاح عناصر أخرى ، وتم التوصل إلى اكتشاف عنصر جديد هو الراديوم • ان هذه الوقائع التي كانت غامضة في البداية لم يكن بالامكان تفسيرها انطلاقاً من الأسباب المعروفة سابقاً• وقد وضع (ريزيرفورد) و (سودّي) بهذا الصدد فرضية تقول بأن ذرات جميع العناصر المشعة تتفجر وتتفكك إلى أجزاء ؛ وان الأشعة المنتشرة هي الشظايا التي تتشكل عند حدوث هذا الانفجار • وقد خدمت فرضية التفكك الاشعاعي هـذه كبدايـة لأبحاث جديدة • وأدى التحقق منها إلى اكتشاف ظواهر جديدة خرج بعضها عن أطر هذه الفرضة • وظهرت فرضيات جديدة تكمل وتصحح فرضية ريزيرفورد وسودّي إلى أن حان الوقت في لنهاية لوضع نظرية علمية •

ان الفرضية تبرز كشكل لتطور المعارف العلمية في الطريق نحو الحقيقة الموضوعية • وقد ظلت نظريات كوبرنيك وداروين وقانون منيدلييف الدوري في حكم الفرضيات العلمية خلال فترة معينـة • ثم أثبتت الممارسـة صحتهـا الموضوعية وحولتها إلى نظريات علمية اكيدة • والعلم الطبيعي المعاصر محاط بغابات من الفرضيات •

ان النيل من قيمة الدور الخلاق الذي تلعبه الفرضية في المعرفة كان دائماً مصاحباً للطريقة التجريبية المحدودة في دراسة الواقع • ويعتبر الوضعيون الذين ينكرون امكانية نفاذ العلم إلى جوهر الظواهر يعتبرون الفرضيـة سم العـلم وطاعون العقل • وهم يرون انه لا لزوم لوضع الفرضيات حول قانونيات حركة الظواهر ، فالعلم يجب أن يسجل محاضر الوقائع وكفى •

بيد أن الواقع يدلنا على أن الفرضيات تجعل من بحث الشيء أمراً هادفاً وتؤدي إلى اكتشاف قوانين الطبيعة والمجتمع • وقد شبه لومونوسوف الفرضيات بالدفعة التي تفسح الامكانية « لبلوغ المعارف التي لاتتوصل إليها أبداً عقول القاصرين الزاحفين في التراب » • ان الباحث الذي يقوم بتجارب أو ملاحظات حول وقائع جديدة يسترشد بالفرضية • فالملاحظة تقتضي معرفة المكان الذي يجب أن توجه إليه بصرك والشيء الذي تبحث عنه ، والفرضية هي التي تشير إلى الاتجاه • صحيح ان العديد من الفرضيات لم تتأكد بالوقائع بيد أن هذا ليس حجة ضد تطبيق الفرضيات في المعرفة • فالفرضيات المنبوذة لعبت دوراً عظيماً في العلم ومهدت طريق الوصول إلى الحقيقة •

وعلى مثال الفرضية تتوضح الصلة بين التجريبي والنظري في المعرفة : فنحن ننطلق من الوقائع والملاحظات ، ونرتقي إلى التفكير المجرد فنعمم ونضع الفرضية • ولكي نتحقق من فرضيتنا نعود من جديد إلى الوقائع والملاحظات والتجارب • وعندما يتم البرهان على صحة الفرضية تتحول إلى نظرية علمية اكيدة مؤلفة من منظومات من المفاهيم المتصلة فيما بينها والمتوحدة بمبدأ عام •

ان المفهوم كشكل من أشكال التفكير يعكس جوهر الظواهر • فمفهوم « الرقم » مثلاً و « الالكترون » و « النقطة » و « الشكل الهندسي » و « البروليتاريا » تعتبر عكساً للعام والجوهري في مجموعة كبيرة من الظواهر • والعام المنعكس في المفاهيم لا يستنتج من عقلنا ، بل هو موجود موضوعيا في الظواهر والأشياء الوحيدة • وبواسطة المفاهيم نحيط بعدد كبير من مختلف الأشياء المدركة حسياً • ولهذا فان تشكيل المفهوم يتطلب بحث عدد كبير من الظواهر والأشياء الوحيدة • ان تشكيل المفهوم هو نتيجة عملية تعرُّف طويلة ، والتوصل إلى حصيلة ما لتطور هذه العملية •

وعملية تشكيل المفاهيم لاتشتمل فقط على مقارنة ادراكات مختلفة وابراز الصفة العامة المتشابهة في الأشياء • إذ أن ابراز العام فقط لا يؤدي إلى تشكيل المفهوم العلمي • ولنضرب على هذا المثل التالي : ان اجراء المقارنة بين الحرائة

وطرق الحديد وصيد السمك وايجاد صفة عامة بين هـذه العمليات « كبذل الجهد العضلي » مثلاً لا يصلح أساساً لتشكيل مفهوم علمي عن العمل • فهذه الصفة العامة ليست عامة جوهرياً بالنسبة للعمل ، إذ أن الحيوانات تحصل على غذائها بواسطة الجهد الجسدي كذلك • ان العمل ـ هو النشاط الهادف الذي يبذله الانسان الاجتماعي لتغيير أشياء الطبيعة بواسطة الأدوات • ان جوهـر الشيء يتكشف عن طريق التحديد الشـامل لصـلاته ووسائطه وعن طريق توضيح مكانه ودوره في هذه المنظومة أو تلك •

ولتشكيل المفاهيم تستخدم أساليب البحث العلمية على اختلاف انواعها : كالملاحظة والتجربة ومختلف أشكال الاستنتاج العقلي في وحدتها ، ووضـع الفرضيات والتحقق منها ••• الخ ويحتل التحليل والتركيب مكاناً هاماً في هذه العمليـة •

ان التحليل أو التجزئة الذهنية للشيء إلى الأجزاء التي يتكون منها بقصد تبيان أبسط عناصر المعقد ، ضروري في كل بحث علمي • فالتحليل يفسـح امكانية فرز وفهم الجوانب الجوهرية في الظاهرة المدروسة • فاذا كنا نجهل العناصر التي يتألف منها المجتمع فاننا لن نفهم أبداً جوهره ولن نستطيع توضيح العلاقة بين مختلف العناصر الموجودة فيه • بيد أن دراسة الشيء لاتقتصر على التحليل • ان من شأن تضخيم دور التحليل واعتباره اسلوب الدراسة الوحيد ان يفضي بنا إلى النظرة الميتافيزيكية عن العالم وإلى تجزئة الأشياء إلى عناصر منفردة منعزلة وكأنها غير مرتبطة فيما بينها • والمفاهيم التي نحصل عليها نتيجة التحليل وحده تحمل طابع الضحالة ووحدة الجانب • فالتفكير العلمي يفترض وحدة التحليل والتركيب ، هذهالوحدةالتي يتم بواسطتها إعادة خلق المحسوس في التفكير • يقول انجلز : « بقدر ما يتألف التفكير من تقسيم أشياء الوعي إلى عناصر ، بقدر ما يتألف كذلك من توحيد العناصر المرتبطة فيما بينها في وحدة ، فبدون تحليل لا يوجد تركيب »[١] •

---

(١) انجلز • ضد ديورنغ الصفحة ٤٠ •

ان وحدة التحليل والتركيب هي من أهم متطلبات الطريقة الديالكتيكية في التفكير • فالتركيب يعرفنا على الشيء ككل واحد • بيد أن معرفتنا هذه تحصل على أساس التحليل السابق ، وهذا أولاً • ثم ان ما ينبغي ربطه في التفكير هو فقط ذلك الذي يكون مرتبطاً في الواقع وهذا ثانياً • إن العيب الذي يتصف به التركيب في الفلسفة المثالية هو في أن هذه الفلسفة توحّد في التفكير بين عناصر مختلفة دون أن تنظر إلى العلاقة بين هذه الأشياء في الواقع • ومن هنا ينشأ التعسف في التركيب •

ان المفهوم العلمي لا يحتوي في مضمونه على جميع السمات الجزئية للشيء • وقد اعترض لينين في مؤلفه (المسألة الزراعية و « نقد ماركس ») اعترض ضد اولئك الذين يحاولون « أن يُضَمِّنوا المفهوم العام كل السمات الجزئية للظواهر الوحيدة » • والمفهوم إلى جانب ذلك غير منفصل عن غنى الفردي والخاص • فهو يبلغ الوحيد الجزئي عن طريق العكس العميق الشامل لقانونيات تطوره • ولو أن المفهوم كان يطمح لشمل كل السمات الجزئية الوحيدة للشيء لما تجاوز حد الاحساسات والادراكات في معرفة الجوهر •

ان حركة وتطور الواقع يمكن أن ينعكسا فقط في المفاهيم المتطورة باستمرار • يقول لينين : « ان المفاهيم الانسانية ليست ثابتة ، بل هي تتحرك أبداً ويتحول أحدها إلى الآخر وينصب أحدها في الآخر ، وبدون هذا لايمكنها أن تعكس الحياة الحية » [1] •

هناك كثير من الفلاسفة المثاليين المعاصرين الذين يعترفون بتغير ومرونة المفاهيم ولكنهم يؤولون هذا التغير سفسطائياً • فالسفسطائيون يعتبرون أن تغير المفاهيم هو نتيجة لتعسف الذات المفكرة : إذ ينظرون إلى حركة المفاهيم دون النظر إلى حركة الأشياء • ولكن ما الداعي لتغيير المفاهيم إذا كنا لانحصل بهذا على عكس اكثر دقة للمادة المتحركة ؟ ان تغيير المفاهيم ليس غاية بحد ذاته بل وسيلة للنفاذ بشكل أعمق إلى جوهر الأشياء المتطورة •

---

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحة ٢٣٧ •

ان الديالكتيك المادي يدلنا على المصدر الموضوعي لحركة المفاهيم • وهو ينظر إلى مرونة المفاهيم العلمية على أنها انعكاس لتعدد جوانب العالم المادي ولتطوره • فحركة المفاهيم تجري على أساس حل التناقضات بين الوقائع الجديدة المكتشفة وبين المفهوم الموجود • ان المفهوم العلمي الأول عن الذرة قد ظهر في كيمياء القرن الثامن عشر ، التي كانت تعتبر ان ذرات العنصر الكيميائي تتصف بذات الخواص وهي غير قابلة للتجزئة • بيد أن الممارسة العلمية اللاحقة كشفت عن وقائع جديدة (كاكتشاف الالكترون) تخرج عن أطر مفهوم الذرة الذي كان سائداً آنذاك • وقد أدت هذه الوقائع إلى تغيير مفهوم الذرة وعدد من المفاهيم الفيزيائية الأخرى •

ان عملية تطور المفاهيم تجري في اتجاهين اثنين : ١ً ـ تعميق وتدقيق المفاهيم السابقة ورفعها إلى مستوى تجريدي أعلى • ٢ً ـ نشوء مفاهيم جديدة• ان الناس لا ينبذون المفاهيم القديمة المعتادة فوراً • وتحطيم المفاهيم القديمة غالباً ما يفضي بالعلماء إلى التشتت الفكري وربما أفضى بهم إلى الأخذ بنظرات لا علمية •

ان تغير محتوى المفاهيم القديمة ونشوء مفاهيم جديدة يؤديان إلى بروز اختلافات وتناقضات بين المفاهيم المختلفة وفي قلب مفهوم واحد كذلك •

وعند هذا يجب ان نفرق بدقة بين التناقضات التي تنشأ في المفاهيم كانعكاس للتناقضات الموضوعية، وبين التناقضات التي تظهر نتيجة خطأ هذا الانسان أو ذاك، وعدم قدرته على التفكير باطراد وعلى نحو منطقي • ان التناقضات الأولى تفضي إلى تطور المعرفة ، بينما تقف الثانية عائقاً أمام المعرفة الصحيحة •

ان أعم المفاهيم التي تنعكس فيها أهم خواص وقانونيات العالم تسمى « المقولات » • وكل علم لديه مقولاته • فالفيزياء مثلاً تستعمل المقولات ـ أو المفاهيم الأساسية التالية ـ : الكتلة ، الطاقة ، المادة ، الساحة الخ ••• والاقتصاد السياسي لديه مقولاته الخاصة : كالسلعة ، والقيمة ، والعمل المجرد والعمل

الحسي وغيرها ••• والديالكتيك لديه مقولاته الخاصة كذلك : كالنوعية والكمية ، والجوهر والظاهرة ، والتناقص وغير ذلك • ان مقولات الديالكتيك تتميز عن مقولات العلوم الأخرى بأنها تعكس أعم قوانين وخواص ظواهر الطبيعة والمجتمع والتفكير • ولذا فان القدرة على تطبيق مقولات الديالكتيك بشكل صحيح أمر ضروري من أجل بحث أي شيء •

ان المقولة هي مفهوم يتصف بعمومية واسعة إلى حد عظيم • وكل مقولة تشمل دائرة واسعة من الظواهر • فمقولة المادة مثلاً تشمل كل الأشياء والظواهر الموجودة باستقلال عن الوعي•ولكن لا يستنتج أبداً من هذا أن المقولات هي تجريدات هزيلة فقيرة بالمحتوى • فالمقولات العلمية المأخوذة في صلتها المتبادلة تعكس أهم قانونيات تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير الانساني عكساً عميقاً وشاملاً •

والمقولات ،بصفتها حصيلة معينة للمعرفة،وبعكسها أهم خصائص وقانونيات العالم الخارجي ، تعتبر درجات في سلم تطور المعرفة • فمقولات : الحركة والسبب، والنتيجة، والتناقض، والنوعية، والجوهر، والقانون ••الخ مثلاً ،تعتبر بمثابة مراكز أساسية تساعد الباحث على تحديد وجهته في شبكة ظواهر الواقع التي لا نهاية لتعقدها وتنوعها • ان المقولات تحوي تعميماً لكل الخبرة السابقة في المعرفة •

يستخدم الانسان المعرفة المتضمنة في المقولات من أجل وضع محاكمات واستنتاجات عقلية ومفاهيم جديدة • ويشير انجلز الى أن الانسان لا يستطيع ان يربط بين واقعتين بسيطتين بدون المقولات • فالمحاكمة التالية مثلاً وهي « ان هذا البيت أكبر من ذاك » مبنية على أساس خبرتنا السابقة المثبتة في مقولة الكمية• والمقولات التي نربط على أساسها بين معطيات التأمل الحسي قد نشأت نفسها كتعميم للتجربة الحسية• إن من الواجب علينا أن نتعلم استعمال وتطبيق المقولات بشكل صحيح في عملية معرفة العالم علمياً •

٦ ـ الممارسة كأساس للمعرفة ومقياس للحقيقة

تنشأ المعرفة على أساس حاجات الممارسة العملية للانسان ومن أجل سد هذه الحاجات • والمارسة هي النشاط المادي الحسي الذي يبذله الناس لتغيير أشياء وظواهر وعمليات الواقع • والممارسة التي تكمن في أساس المعرفة ـ هي ذلك التأثير المتبادل بين الذات (الانسان) والموضـوع (الشيء المادي) الذي يؤدي إلى نتيجة مباشرة هي تغيير الموضوع • فبواسـطة أدوات العمـل يغير الانسان التربة : فيحرثها ويسمدها الخ •• مما يؤدي إلى ازدياد خصب التربة• والممارسة لا تغير الموضوع فقط بل وتغير الذات أيضاً• ان الانسان يتطور خلال العمـل •

وتتألف الممارسة من جوانب عديدة • فأساسها يتشكل من انتاج الخيرات المادية : الغذاء والملبس وأدوات العمل وما شـابه ذلك • وتدخـل في نطاق الممارسة أشكال أخرى من النشاط الاجتماعي الذي يؤدي إلى تغيير العالم المادي مثل الصراع الطبقي ، وحركة التحرر الوطني والثورة • كما يدخل في نطاق الممارسة الاجتماعية كذلك النشاط المبذول في مجال التنوير الشعبي والوقاية الصحية ••• الخ •

ان عملية المعرفة تدخل في نطاق النشاط النظري للناس • فالنظرية هي التعميم العلمي للممارسة وانعكاس الواقع في وعي الانسان • بيد أن النظرية بحد ذاتها لا تغير الواقع • فنحن باستطاعتنا أن نضع خططاً مثالية لتغيير العالم وأن نحقق الثورات فكرياً ، ولكن العالم لن يتغير من جراء هذا وحده • ان الدور الفعال العظيم للمعرفة ، للتفكير ، للنظرية يقوم في أنها يمكن أن تدل على طريق تغيير العالم • بيدأ ن تجسـيد الافكار في الحياة يتطلب الممارسـة العمليـة •

ان النشاط النظري للناس لا يتصف بالاستقلال وعدم التبعية : فقد نشأ هذا النشاط وتطور على أساس الممارسة • ان الاحاطة عقلياً بالواقع وعكسه في دماغ الانسان ضروريان من أجل نجاح الممارسة العملية • وتعتبر الممارسة

اساس تطور النظرية وقوته المحركة • فمتطلبات الممارسة وبخاصة متطلبات الانتاج تشير إلى وجهة تطور العلم وتدفعه إلى الأمام • يقول انجلز : « إذا ظهرت في المجتمع حاجة تكنيكية فانها تدفع العلم إلى الأمام اكثر مما تدفعه عشر جامعات » (١) •

ولكن ليست الممارسة وحدها ، وبخاصة الممارسة الانتاجية ، هي التي تدفع تطور المعرفة • فهناك عملية معاكسة أيضاً تتلخص في أن نجاحات المعرفة النظرية تدفع إلى احداث تغييرات عملية • وتبعاً لهذا تتغير علاقة العلم بالانتاج « فيصبح العلم ،أكثر فأكثر ، قوةانتاجيةمباشرة ،يصبح الانتاج تطبيقاً تكنولوجياً للعلم الحديث » (٢) • وفي هذه الوحدة والتأثير المتبادل بين المعرفة والممارسة يظل الدور الأول من نصيب الممارسة •

ان العلم ، إن النظرية ، ينشأ من احتياجات الممارسة وكمعمم لها•فالذي أوجد علم الفلك في البداية هو احتياجات التجارة والملاحة في البحار • وقد نشأت مختلف فروع الفيزياء لسد حاجات تكنيك الانتاج المتنامي • وقد أوجد عصر البخار الدراسات المتعلقة بالحرارة • أما الانتقال إلى المحركات الكهربائية فقد تطلب دراسة تفصيلية لنظرية الكهرباء • ان الانسان يقوم قبل كل شيء بتركيز الانتباه على تلك الأشياء وتلك الجوانب التي هي نافعة وضرورية لحياته عملياً • ان الممارسة تشير إلى الجانب الذي يجب فرزه من الشيء بصفته الجانب الرئيسي الجوهري • وقد نشأ مفهوم النوع الذي يتمتع بأهمية عظمى في علم البيولوجيا ، نشأ على أساس الممارسة الفعلية في مجال الزراعة وتربية الحيوان • إذ أن الناس ركزوا انتباههم قبل كل شيء على النباتات والحيوانات النافعة بالنسبة لهم جامعين الأجناس والنماذج المنفردة في مجموعات متجانسة حسب سمات موضوعية معينة • ثم أخذوا فيما بعد يصنفون النباتات والحيوانات لا على أساس تشابهها فقط بل وعلى أساس جنسها ، وهكذا نشأ المفهوم الجينيتيكي (٣) عن النوع •

---

(١) ماركس وانجلز • رسائل مختارة ١٩٥٣ صفحة ٤٦٩ •

(٢) مواد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي • صفحة ١٤٦ •

(٣) نسبة الى علم ظواهر الوراثة وتحولات الكائنات الحية •

وعلى أساس الممارسة تنشأ وتتطور العلوم الطبيعية • فنظرية الاشتراكية العلمية نشأت كتعميم لممارسة الحركة العمالية ، ومن أجل حاجات نضال الطبقة العاملة ضد البرجوازية ، ضد الاضطهاد •

ان فصل العلوم الطبيعية والتكنيكية عن ممارسة الانتاج يؤدي إلى إعاقة التقدم التكنيكي وجمود العلم • فاذا انقطع العلم عن مصدر حيويته وهو الممارسة أصيب بالهزال وأخذ يعالج مسائل ضحلة أو محاكمات عقيمة • وقد ورد في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : « إن ضمان التطور الخصب للعلم هو في الصلة الوثيقة مع العمل الخلاق للشعب ومع ممارسة البناء الشيوعي » • ان اضعاف صلة العلوم الاجتماعية بممارسة الحركة الثورية وبناء الاشتراكية والشيوعية يؤدي إلى الجمود العقائدي وإلى التمسك بالنصوص الجامدة وإلى تشويه العلم والنظرية الماركسية ـ اللينينية • ولذا فقد طرح الحزب الشيوعي أمام العلماء السوفييت مهمة البقاء بالقرب من الحياة ومن متطلبات الانتاج الاشتراكي ومن ممارسة بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي •

ان المعرفة لاتقتصر على تسجيل نتائج الممارسة إذ أن عليها أن تستشف المستقبل لكي تضيء الطريق أمام الممارسة • ان المعرفة التي تستند إلى ممارسة الوقت الراهن تفتح الآفاق أمام تطور الانتاج والثقافة•••الخ• ولو أن النظرية كفت عن القيام بهذا لفقدت معناها • لقد تجلت عبقرية ماركس ولينين كنظريين في أن بصريهما كانا يمتدان إلى أبعد مما يمتد إليه نظر معاصريهما وكانا يريان كيف وإلى أين سيسير تطور المجتمع •

ان العلم يستطيع ان يشكل مفاهيم عن ظواهر لم تنشأ بعد • فالمفهوم العلمي عن التشكيلة الشيوعية قد نشأ قبل ظهور هذه التشكيلة بفترة بعيدة • بيد أن هذا لايعني ابداً ان المفهوم عن الشيوعية كان لايستند إلى أساس ولا يعتمد على الممارسة • إن ممارسة تطور المجتمع كلها ، والنزعات الأساسية في تطور الرأسمالية ، وتجربة الصراع الطبقي للبروليتاريا ضد البرجوازية ـ كل هذا كان بمثابة الأساس الذي نشأت عليه التعاليم عن المجتمع الشيوعي •

ان منكري امكانية المعرفةوالذين يعتقدون باستحالة معرفة العالم يستندون إلى عدم وجود مقياس مضمون للحقيقة • وقد فتش العديد من الفلاسفة عن مقياس حقيقة المعرفة في وضوح وجلاء التصورات والمفاهيم وفي اعتراف الجميع بها وفي التجربة الجماعية • بيد أن المعرفة لايمكن أن تكون مقياساً للحقيقة ذاتها • وقد أوضحت الماركسية ان مقياس حقيقية المعرفة يجب أن يبحث عنه لا في المعرفة بل في الممارسة • يقول ماركس في « موضوعات عن فيرباخ » « ان مسألة : هل يتمتع التفكير الانساني بحقيقية مادية ؟ ليس أبداً من اختصاص النظرية بل من اختصاص الممارسة • ففي الممارسة يجب على الانسان ان يبرهن على حقيقة،أي واقعية،وقوة وشمول تفكيره•ان الجدل حول واقعية،أولا واقعية التفكير المنعزل عن الممارسة هو مسألة سكولاستية [1] محضة » [2] •

ان الانسان يبرهن على الحقيقية الموضوعية لمفاهيمه بواسطة الممارسة • فهل هي صحيحة يا ترى تصوراتنا عن بنية الذرة وعن الطاقة الكامنة فيها ؟ ان ممارسة التجارب العلمية واستخدام الطاقة الذرية في مختلف فروع العلم والتكنيك قد أكدت الحقيقية الموضوعية لتعاليم الفيزياء عن بنية وخصائص الذرة •

ان الفهم الماركسي للممارسة ، بصفتها مقياساً للحقيقة ، تتميز عن فهم الذرائعية لها • فالذرائعية تنفي الحقيقة الموضوعية وتطرح الموضوعة التالية : ان الحقيقي هو النافع والمريح • فكل انسان يمكنه أن يعتبر أي موضوعة حقيقية أو غير حقيقية تبعاً لما إذا كان يستطيع أن ينتفع منها أم لا • ويقول الذرائعي جيمس « ان التزامنا بالبحث عن الحقيقة ينبع من التزامنا العام بأن

---

(١) السكولاستية Cxoracmuka - Scholasticism الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة • وقد أصبحت تعني فيما بعد التمسك الشديد بالتعاليم والأساليب المنقطعة عن الحياة والواقع •

(٢) ماركس وانجلز • المؤلفات • الجزء لثالث ١٩٥٥ الصفحتان ١ ـ ٧ •

نقوم بفعل ما يعوض نفسه » (١) • ان الذرائعي الذي يضع نصب عينيه المنفعة والراحة يعتبر أن فكرة وجود قوى ما وراء الطبيعة هي فكرة حقيقية ، أما الموضوعة الحقيقية موضوعياً عن حتمية انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية فانه يرفضها باعتبارها ، حسب زعمه ، موضوعة غير حقيقية لأنها لاتستجيب لمصالح البرجوازية (٢) •

لاشك ان المعرفة نافعة وهي تمثل قوة كبيرة • وليس من انسان في عصرنا هذا ، عصر التقدم التكنيكي الكبير ، يشك في أهمية المعرفة بالنسبة لحياة الناس• ولكن المعرفة لاتعود بالنفع الحقيقي على المجتمع إلاّ عندما تكون حقيقية • وحقيقية المعرفة لاتنبع من منفعتها بل أن الأهمية العملية العظيمة للمعرفة تنبع من حقيقيتها ، من أنها تعكس الواقع بشكل صحيح •

ان الأوساط الامبريالية الرجعية ومنظمي « الحرب الباردة » يجدون منفعة وفائدة لتحقيق اهدافهم الدنيئة الأنانية في الافتراء على البلدان الاشتراكية واتهامها بروح العدوان • ان هذا التزييف والافتراء يساعدانهم على تضخيم الصناعة الحربية وابتزاز الأرباح الطائلة • بيد أن هذا الافتراء يعود بالضرر الكبير على الشعوب وعلى الانسانية وينفث الدخان في العيون ويؤدي إلى تقوية الاضطهاد الضرائبي ويعرقل التقدم الاجتماعي •

ان الممارسة كمقياس لحقيقية معارفنا تقف فوق التأمل الحسي والتفكير المجرد جامعة في نفسها حسنات هذا وذاك • والمعرفة التجريبية تتمتع بأفضلية الواقع المباشر ، وذلك لأنها تعكس الشيء كما هو في الواقع • ولكنها لاتستطيع بنفسها ان تكشف وتبرهن على ضرورة قانونية الصلات المُلاحظة • فعند ملاحظة حادثة وحيدة ما لتبخر الماء لايمكن أن نستخلص قانوناً وأن نثبت

---

(١) ف• جيمس• الذرائعية • ستانت بطرسبورغ ١٩١٠ الصفحة ١٤١ •

(٢) ان اللعبة المحببة لدى نقاد المادية الديالكتيكية هي خلط الماركسية بالذرائعية • ويزعم بعض الفلاسفة الغربيين ان الذرائعية قد أعلنت لاول مرة من قبل ماركس في السنوات الأربعينيات من القرن التاسع عشر • ولكن هذا الزعم من ضروب الهذيان • فالماركسية والذرائعية يقفان على طرفي نقيض في فهمهما لجوهر الممارسة نفسها ولدورها في المعرفة •

ضرورة هذه العملية • فمعرفة الضرورة هي من مهمات التفكير • يقول لينين: « ان المعرفة النظرية يجب أن تعطينا الموضوع في ضرورته ، في جميع جوانب علاقاته » [1] • والتفكير العلمي النظري يحقق هذه الوظيفة مستنداً إلى معطيات التأمل الحسي • إنه يتعرف على الصلات المقنونة ، ولكنه يتوصل إلى هذا عن طريق اضاعة الصلة المباشرة مع الواقع نتيجة التجرد عنها الى حد ما •

أما الممارسة فتربط بين الواقع المباشر والأمانة له وبين معرفة الضرورة لأنها من ناحية أولى : تعتبر النشاط الحسي المادي للناس ، ومن ناحية ثانية ، يتحقق الانسان بواسطتها من مفاهيمه ونظرياته ويجسدها في الواقع الخ ••• فالتجربة العلمية مثلاً تنشأ دائماً كتجسيد عملي لبناء نظري ما ، عليها أن تتأكد من صحته •

ان نظرية المجتمع العلمية تطرح مهمات محددة تتحقق عن طريق نشاط الجماهير العملي • فنظرية الثورة الاشتراكية البروليتارية التي وضعتها الماركسية ـ اللينينية علمياً قد تحققت عملياً في عام ١٩١٧ في روسيا ، ومن ثم في بلدان اخرى ، وهكذا فقد تم البرهان على حقيقتها الموضوعية •

ان تحقيق الأفكار عملياً يعدل دائماً هذه الأفكار ويصححها ويطورها • والممارسة ، بتأكيدها أو بنفيها لبعض الافكار ، تخدم كأساس لظهور أفكار أخرى • وهكذا تجري باستمرار عملية تطور المعرفة على أساس الصلة المتبادلة بين النظرية والممارسة • ان التبادل القائم بين التجربة وبين مختلف التركيبات النظرية في علم الطبيعة الحديث ـ دليل ساطع على الصلة القائمة بين النظرية والممارسة •

ان الدراسة التجريبية للظواهر تتصف بميزة كبرى بالنسبة للملاحظة البسيطة • وقد لخص بافلوف هذه الميزة بالكلمات التالية : « الملاحظة تجمع ما تقدمه لها الطبيعة أما التجربة فتأخذ من الطبيعة ما تريد » • ان التجربة تفسح الامكانية أمام الباحث ليتدخل تدخلاً فعالاً في سير العمليات المدروسة• واللجوء

---

(١) لينين • الدفاتر الفلسفية • الصفحة ١٨٣ •

إلى التجربة يتم عادة للتحقق من فرضية ما يمكن للتجربة أن تثبتها أو تدحضها، ولكنها في كلتا الحالتين تؤدي إلى تطور المعرفة • فاذا أثبتت التجربة الفرضية فان هذه الأخيرة تتوطد وتغتني أحياناً بمحتوى جديد • أما إذا دحضت التجربة الفرضية فان الأولى تعطي في هذه الحالة مادة لوضع تركيبات نظرية جديدة اكثر عمقاً تجري على أساسها تجارب جديدة • فتجربة مايكيلسون التي دحضت الفرضية عن الأثير مثلاً ساعدت على ظهور النظرية الخاصة عن النسبية •

ان مقياس الممارسة مطلق ونسبي في آن واحد • فهو مطلق لأن كل ماتثبته الممارسة يعتبر حقيقة موضوعية • أما نسبية مقياس الممارسة فتكمن في أنه في كل مرحلة تاريخية معينة من مراحل تطورها لاتستطيع الممارسة أن تثبت أو تدحض تماماً الموضوعات النظرية الموجودة • ان جميع فروع المعرفة العلمية تحتوي على عدد ليس بقليل من الفرضيات التي لم يبرهن عليها ولم تدحض بعد ، والتي تنتظر الحكم النهائي عليها من قبل الممارسة الآتية في المستقبل • ان ما أثبتته ممارسة اليوم جزئياً ستكمله ممارسة الأيام المقبلة • وليس سوى الممارسة في تطورها يمكن أن يصلح مقياساً لحقيقية المعرفة التي تتطور باستمرار• وهكذا فان ممارسة اليوم ليست كافية للبرهنة على الفرضيات الكونية • فنحن لا يمكننا القول بان الكواكب قد تشكلت فعلاً على النحو الذي تصوره أية فرضية من الفرضيات المعترف بها على أوسع نطاق • بيد أن تطور الممارسة وبخاصة الملاحظات الفلكية سيقودنا في النهاية إلى حل هذه المسألة • ان وجود فرضيات في العلم يدل على أن هناك الكثير من الأمور التي لم يبرهن عليها بعد في معرفتنا• ثم ان اثبات الممارسة أو دحضها لبعض الفرضيات يؤدي إلى ظهور فرضيات أخرى غيرها •

ان التطور المستمر للممارسة لا يسمح لمعارفنا بالجمود وبالتحول إلى المطلق• أما اطلاقية الممارسة كمقياس للحقيقة فانها تفسح لنا امكانية تمييز المعرفة السائرة في طريق الحقيقة الموضوعية عن الاختلاقات • ويقول لينين عن الممارسة : « كذلك هذا المقياس «ليس محدداً» بالقدر الذي يسمح لمعارف الانسان بالتحول

إلى « المطلق » وهو في الوقت نفسه محدّد بالقدر الكافي لشن نضال لا هوادة فيه ضد جميع أشكال المثالية ومذهب عدم امكانية المعرفة • وإذا كان ما تثبته ممارستنا هو الحقيقة الموضوعية النهائية الوحيدة فان هذا يقضي بنا إلى الاعتراف بأن الطريق الوحيدة لهذه الحقيقة هي طريق العلم الذي يأخذ بوجهة النظر المادية »[1] •

ان تطور العلوم ، وبخاصة العلوم الطبيعية يؤكد صحة نظرية معرفة المادية الديالكتيكية • وكل اكتشاف عظيم جديد في العلم يقدم لنا اثباتاً جديداً لحقيقية نظرية المعرفة الماركسية ـ اللينينية ، وللتعاليم القائلة بعدم محدودية المعرفة العلمية •

لقد أحرز العلم التقدمي في القرن العشرين انتصاراً عظيماً جديداً باطلاق الاتحاد السوفييتي الأقمار الصناعية الأولى حول الأرض ، واطلاق الصواريخ الكونية وتحليق رواد الفضاء السوفييت الذين فتحوا عهداً كاملاً لاحراز انجازات علمية جديدة ودشنوا عصراً جديداً في تطور المعرفة • ان نفاذ الانسان إلى الفضاء الكوني يتصف بأهمية نظرية كبرى كذلك ، إذ أنزل ضربة قاصمة بالشعوذة الفكرية وبوجهة النظر اللاهوتية والمثالية •

ان المثاليين الذين يروجون لمذهب عدم امكانية المعرفة ، شأنهم شأن اللاهوتيين ، حطوا ويحطون دائماً من شأن قوة العقل البشري وقدراته على المعرفة • فهم يقولون : طأطيء رأسك ايها الانسان الجموح ، لاتطمح لمعرفة ما لا يجب أن تعرفه• ان العقل الالهي،عقل ماوراء الطبيعة،هو وحده الموجود في كل مكان والقادر على كل شيء ، أما عقل الانسان فمحدود وتافه •هذا مايصيح به رجال اللاهوت ، ويكرره وراءهم أصحاب مذهب عدم امكانية المعرفة الذي تفوح رائحة العفن من ريبيته •

أما العلم فانه يدحض هذه الخزعبلات البالية محققاً خلال القرن العشرين

---

(١) لينين • المؤلفات ؛ الجزء الرابع عشر • لصفحة ١٣٠ •

اكتشافاً إثر آخر ، ومزيحاً إلى مسافات أبعد فأبعد الحدود المشروطة تاريخياً للمعرفة ونافذاً أعمق فأعمق إلى أغوار أسرار الطبيعة مكتشفاً قوانين حركة الصغيريات والأجسام الكبيرة في الكون •

ان هذه الاكتشافات العظيمة في العلم تضيق الخناق على المثالية واللاهوت وتجعلهما يلاقيان صعوبات متزايدة في الحفاظ على مواقعهما • ان العلم التقدمي والعقل البشري المتحررين من قيود المثالية والغيبيات يحققان انتصارات عظيمة جديدة وجديدة •

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	٤	وذلك وذلك	وغير ذلك
٢٢	٧	خل	حل
٧٣	١٠	باكتشاافت	باكتشافات
٨٤	٢٠	المدة	المادة
٨٥	١٧	برهنة	برهة
٩٠	١٥	نتسم	تتسم
٩٩	٩	كما لا نبغي	كما لا ينبغي
١٠٢	قبل الاخير	باستمراة	باستمرار
١٠٣	٩	تعبيرة	تعبيره
١٢٨	٦	الكوروفيلي	الكلوروفيلي
١٢٩	٨	المدية	المادية
١٣١	٤	نقطرة	نقطة
١٣٥	١٧	الديالتيكية	الدياليكتيكية
١٣٧	١٤	المثالين	المثاليين
١٣٩	١٣	الطبيعة	الطبيعية
١٤٠	٣	بالنظريات النسية	بالنظريات النفسية
١٤٤	٢١	صحيحا	صحيحة
١٤٨	٢٢	ان الشمدان	ان الشمعدان
١٥٠	٨	من دول	من دون
١٥٤	١٣	بنشيط	بتنشيط
١٥٧	٧	رلدماغ	للدماغ
١٥٧	٢٣	هنف	هذه
١٦٠	٣	لانه بهذ	لانه بهذا
١٦٦	١٩	ايجابين	ايجابيين
١٧٨	قبل الاخير	وراء الطيعةا	وراء الطبيعة
١٨٠	٨	يجير الثورة	بجير الثورة
١٨٦	٦	متبدله	متبادلة
١٨٨	١٦	الملينه	المادية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٩	قبل الاخير	لكامت	لكانت
١٩٥	٢١	في البولوجيا	في البيولوجيا
٢٠١	٢	والفينوماليون (٢)	والفينوماليون
٢٣٥	السطر الاخير	الكميـــاء	الكيميـــاء
٢٣٦	١٢	ما بعد الغد	ما بعد الحـد
٢٤٢	١٣	هـــذذه	هـــذه
٢٤٤	١٧	النقـــابين	النقـــابيين
٢٥٢	٢٢	هذه الفقرة	هذه القفزة
٢٥٥	١٩	والقثافي	والثقـــافي
٢٥٨	١٢	الناقضات	التناقضات
٢٦٣	٢٣	المتناقضات	المتناقضان
٢٦٨	٢١	من اقطاعين	من اقطاعيين
٢٧٣	٤	تطور التناقاضات	تطور التناقضات
٢٧٥	١٢	يؤدي بعد الى توازن جديدة	يؤدي بعد ذلك الى توازن جديد
٢٧٨	١٤	التي تقوم	التي تقول
٢٨٢	١٨	من الاستقراطيين	من الارستقراطيين
٢٩٩	قبل الاخير	والاثبـــاب	والاثبـــات
٣٠٤	١٨	الى الحصر الحجري منطقة	الى العصر الحجري منطلقة
٣٠٧	١٤	هذا المتضادان	هذان المتضادان
٣١٣	١١	الى نتيجة	الى النتيجـة
٣٢٥	١١	انصـــارا	انتصـــارا
٣٢٩	١٦	خيث	حيث
٣٣١	٢٢	الــذذي	الــذي
٣٣٢	٩	نتجـــة	نتيجـــة
٣٣٩	٨	ديكارات	ديكارت
٣٣٩	١٢	تضخمياً	تضخيمـــاً
٣٤٤	١٩	تنفصـــل	ننفصـــل
٣٤٦	٢٣	لانســـان	الانســـان
٣٦٣	٥	جديدة	جديدة
٣٦٥	قبل الاخير	لماتحركة	المتحركة
٣٦٧	٢	والتناقص	والتناقض

الفهرس

الفصل الأول

صفحة

موضوع الفلسفة ١

١ : ـ سؤال الفلسفة الاساسي • المادية والمثالية هما الاتجاهان الأساسيان في الفلسفة ٢

٢ : ـ علاقة الفلسفة بالعلوم الأخرى ١٧
موضوع الفلسفة الماركسية

٣ : ـ المادية الدياليكتيكية والتاريخية هما السلاح الفكري في النضال من أجل الشيوعية ٢٩

الفصل الثاني

نشوء وتطور الفلسفة الماركسية ٣٩

١ : ـ الظروف التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية
ماركس وانجلز المبدعان العظيمان للمادية الدياليكتيكية والتاريخية ٣٦

٢ : ـ جوهر الانقلاب الثوري الذي احدثته الماركسية في الفلسفة ٥٧

٣ : ـ الطابع الابداعي للفلسفة الماركسية وتطوير لينين لها ٦٥

الفصل الثالث

المادة واشكال وجودها ٧٤

١ : ـ المادة ٧٤

٢ : ـ حركة المادة ٩٠

٣ : ـ المكان والزمان ١٠٤

٤ : ـ وحدة العالم ١٢٠

الفصل الرابع

	صفحة
المـادة والوعي	**١٣١**
١ : ـ الوعي خاصة المادة الرفيعة التنظيم	١٣١
٢ : ـ الوعي هو انعكاس العالم المادي	١٤١

الفصل الخامس

العلاقة القانونية لظواهر الواقع	١٧٨
١ : ـ نظرية التطور الدياليكتيكية	١٧٨
٢ : ـ العلاقة المتبادلة بين الظواهر • السبب والنتيجة	١٨٥
٣ : ـ القانون باعتباره صيغة للعلاقـة الجوهريـة بين الظـواهر الوحيد ، والخاص والعام	١٩٧
٤ : ـ الضرورة والمصـادفة	٢١٣
٥ : ـ الامكانيـة والواقـع	٢١٩

الفصل السادس

قانون الانتقال	
من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية	**٢٢٧**
١ : ـ التبدلات الكمية والنوعية وانتقال بعضها الى بعض	٢٢٧
٢ : ـ وحدة شكلي التطور : الشكل الارتقائي والشكل الثوري ـ **القفـزات**	**٢٤١**
٣ : ـ تنوع أشكال الانتقال من النوعية القديمة الى النوعية الجديدة	٢٤٩

الفصل السابع

قانون وحدة وصراع المتناقضات	٢٥٧
١ : ـ الأشياء والظواهر كوحدة المتناقضات **صراع المتضادات هو مصدر التطور**	**٢٥٨**

صفحة

٢ : ـ التناقضات الداخليـة والخارجية ٢٧٢

٣ : ـ **خصائص التناقضات المختلفة** ٢٧٨

٤ : ـ المحتوى والشكل • نشوء وحل التناقضات فيما بينهما ٢٨٨

الفصل الثامن

قانون نفي النفي ٢٩٦

١ : ـ جوهر ودور النفي الدياليكتيكي في عملية التطور ٢٩٧

٢ : ـ الطابع التصاعدي للتطور واشكاله ٣٠٣

الفصل التاسع

دياليكتيك عملية المعرفة ٣١٧

١ : الدياليكتيك كنظرية للمعرفة • المنطق الدياليكتيكي والشـكلي ٣١٧

٢ : ـ الحقيقة الموضوعية • دياليكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية ٣٢٥

٣ : ـ العلاقة بين الحسي والعقلاني في المعرفة • الجوهر والظاهرة ٣٣٦

٤ : ـ دياليكتيك المجرد والمحسوس • المنطقي والتاريخي ٣٥٠

٥ : ـ أشكال التفكير ودورها في المعرفة ٣٥٨

٦ : ـ الممارسة كأساس للمعرفة ومقياس للحقيقة ٣٦٨

الدكتور بدر الدين السباعي

مؤلفـات

– مشكلة الفلاح السوري	بالفرنسية
– الحرب والشعوب	بالعربيـة
– اضـواء عـلى الرسمال الاجنبي في سورية	بالعربية والروسية
– حول موازين عام ٦٣ السلعية	بالعربيـة
– التقشف في الاستهلاك الخاص	بالعربيـة
– منجزات الخطة الخمسية الاولى على ضوء تقارير تتبع التفيذ	بالعربيـة

تراجـم

– أصول الحرية	روجيه غارودي
– الصين في طريق الاشتراكية	بالاشتراك مع الدكتورة نجاح ساعاتي
– مخاطر أزمة ومخاطر حرب	هنري كلود
– الانسان قاهر الطبيعة	بالاشتراك مع نوري الرفاعي
– الارقـام الاساسية لانماء الاقتصـاد الوطني (٥٩ ـ ٦٥)	بالاشتراك مع الدكتورة نجاح ساعاتي
– الدولة والثورة	لينين
– معطيات تكميليـة لمؤلف لينـين عن الامبريالية (جزء أول)	فارغا ومندلسن
– الى أين يسير الاستعمار الاميركي	هنري كلود
– من الازمة الاقتصـادية الى الحـرب العالمية	هنري كلود
– الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية	لينين
– امتان برجوازية وبروليتارية	كوزلوف
– الاقتصاد السياسي (جزء ١)	لنخبة من الاساتذة السوفييت
– الاقتصاد السياسي (جزء ٢ قسم ١)	لنخبة من الاساتذة السوفييت
– الاقتصاد السياسي (جزء ٢ قسم ٢)	لنخبة من الاساتذة السوفييت
– الاقتصـاد السيـاسـي (جـزء ٣ الامبريالية)	لنخبة من الاساتذة السوفييت
	بالاشتراك مع فؤاد مرعي
– المادية الدياليكتيكية	لجماعة من الاساتذة السوفييت
	بالاشتراك مع فـؤاد مرعي وعدنان جاموس

- المرحلة الانتقالية — عن الروسية
- ملكية وسائل الانتاج — عن الروسية

للأستاذ فؤاد مرعي

تراجـم

- علم الجمال (جزء ١) — لمجموعة من المؤلفين السوفييت
- علم الجمال (جزء ٢) — لمجموعة من المؤلفين السوفييت
- أرض الأم — ايتمانف
- حكاية الصياد والسمكة — بوشكين
- الديك الذهبي — بوشكين
- مسيرة الآلام جزء ١ — تولستوي
- مسيرة الآلام جزء ٢ — تولستوي
- مسيرة الآلام جزء ٣ — تولستوي
- عجلات متنافرة — اليشـا
- دب كباقي الدببة — مارشاك
- البدناء الثـلاثة
- الوحوش الصغيرة

للأستاذ عدنان جاموس

- المادية الدياليكتيكية — بالاشتراك مع فؤاد مرعي وبدر الدين السباعي

منشورات الدار

١ : ـ الاقتصاد السياسي (جزء أول)	لنخبة من المؤلفين السوفييت تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
٢ : ـ اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية	تأليف الدكتور بدر الدين السباعي
٣ : ـ المادية التاريخية	تأليف كليللي وكوفا لزون تعريب الاستاذ أحمد داود
٤ : ـ الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني القسم الاول)	لنخبة من المؤلفين السوفييت تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
٥ : ـ الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني القسم الثاني) .	لنخبة من المؤلفين السوفييت تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
٦ : ـ الاقتصاد السياسي (الجزء الثالث) الامبريالية	لنخبة من المؤلفين السوفييت تعريب فؤاد مرعي وبدر الدين السباعي
٧ : ـ المادية الدياليكتيكية	لجماعة من المؤلفين السوفييت تعريب عدنان جاموس ، بدر الدين السباعي ، فؤاد مرعي
٨ : ـ الناظرون الى النجوم	شعر ناظم حكمت تعريب الاستاذ ثابت عزاوي
٩ : ـ في الاقتصاد الاشتراكي	لمؤلفين سوفييت
المرحلة الانتقالية ملكية وسائل الانتاج	تعريب الدكتور بدر الدين السباعي

قريباً

ـ الاقتصاد السياسي (الجزء الأخير ، الاقتصاد الاشتراكي)	لمؤلفين سوفييت
ـ المعجم الاقتصادي	لمؤلفين سوفييت
ـ المادية ومنهب النقد التجريبي	لينين
ـ معطيات تكميلية لمؤلف لينين عن الاستعمار	تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
ـ الحركات الفلاحية الثورية في سورية المنتصف الاول من القرن التاسع عشر	تعريب الاستاذ عدنان جاموس
ـ الانسان والتطور	تعريب الاستاذ عدنان جاموس

دار الجماهير

لتعريف الشعب على خير ما أنتجه الفكر الانساني التقدمي

- تنشر المعرفة في سبيل الحياة والشعب .

- تبعث التراث العربي وتربطه بالفكر المعاصر .

- تعمل على توحيد الفكر العربي لمكافحة الاستعمار وما يخلفه من أمراض .

- تربط الفكر العربي بالتراث الانساني الاكبر .

- تربط الفكر بالعمل .

دمشق ـ شارع التجهيز ـ بناية كردوس ـ تلفون ٢٢٤٥٩٣